الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الثامن عشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فی تفسیر القرآن

کاتب:

محمد حسین طباطبایی

نشرت فی الطباعۀ:

علامه طباطبایی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیۀ باصفهان للتحریات الکمبیوتریۀ

الفهرس

تفسیر المیزان المجلد ۱۸

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

(۴۲) سوره الشوری مکیه و هی ثلاث و خمسون آیه(۵۳)

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

حم (۱) عسق (۲) كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اَللّٰهُ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۳) لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْعَظِيمُ (۴) تَكٰادُ اَلسَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۵) وَ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اَللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶)

بیان

تتکلم السوره حول الوحی الذی هو نوع تکلیم من الله سبحانه لأنبیائه و رسله کما یدل علیه ما فی مفتتحها من قوله:« كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّٰهُ »الآیه و ما فی مختتمها من قوله:« وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً إلخ»الآیات،و رجوع الکلام إلیه مره بعد أخری فی قوله:« وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا »الآیه،و قوله:

ص: ۵

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً »الآيه،و قوله:« اَللّٰهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزٰانَ »الآيه و ما يتكرر فى السوره من حديث الرزق على ما سيجىء.

فالوحى هو الموضوع الذى يجرى عليه الكلام فى السوره و ما فيها من التعرض لآيات التوحيد و صفات المؤمنين و الكفار و ما يستقبل كلا من الفريقين فى معادهم و رجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثانى و كلام جره كلام.

و السوره مكيه و قد استثنى قوله:« وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ »إلى تمام ثلاث آيات، و قوله:« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبىٰ »إلى تمام أربع آيات و سيجىء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:« حم عسق »من الحروف المقطعه الواقعه فى أوائل عده من السور القرآنيه،و ذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد فى غيره من الكتب السماويه.

و قد اختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين فى تفسيرها و قد نقل عنهم الطبرسى فى مجمع البيان أحد عشر قولا فى معناها:

أحدها:أنها من المتشابهات التى استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو.

الثانى:أن كلا منها اسم للسوره التى وقعت فى مفتتحها.

الثالث:أنها أسماء القرآن أى لمجموعه.

الرابع:أن المراد بها الدلاله على أسماء الله تعالى فقوله: « الم »معناه أنا الله أعلم، و قوله:« المر »معناه أنا الله أعلم و أرى،و قوله:« المص »معناه أنا الله أعلم و أفصل، و قوله:« كهيعص »الكاف من الكافى،و الهاء من الهادى،و الياء من الحكيم،و العين من العليم،و الصاد من الصادق،و هو مروى عن ابن عباس،و الحروف المأخوذه من الأسماء مختلفه فى أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافى،و منها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم،و منها ما هو مأخوذ من آخر الكلمه كالميم من أعلم.

الخامس:أنها أسماء لله تعالى مقطعه لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم تقول:

الر و حم و ن يكون الرحمن و كذلك سائرها إلا أنا لا نقدر على تأليفها و هو مروى عن سعيد بن جبير.

السادس:أنها أقسام أقسم الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه

و هی شریفه لکونها مبانی کتبه المنزله،و أسمائه الحسنی و صفاته العلیا،و أصول لغات الأمم علی اختلافها.

السابع:أنها إشارات إلی آلائه تعالی و بلائه و مده الأقوام و أعمارهم و آجالهم.

الثامن:أن المراد بها الإشاره إلی بقاء هذه الأمه علی ما یدل علیه حساب الجمل.

التاسع:أن المراد بها حروف المعجم و قد استغنی بذکر ما ذکر منها عن ذکر الباقی کما یقال:أب و یراد به جمیع الحروف.

العاشر:أنها تسکیت للکفار لأن المشرکین کانوا تواصوا فیما بینهم أن لا یستمعوا للقرآن و أن یلغوا فیه کما حکاه القرآن عنهم بقوله:« لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ » الآیه،فربما صفروا و ربما صفقوا و ربما غلطوا فیه لیغلطوا النبی ص فی تلاوته،فأنزل الله تعالی هذه الحروف فکانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إلیها و تفکروا فیها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن فی مسامعهم.

الحادی عشر:أنها من قبیل تعداد حروف التهجی و المراد بها أن هذا القرآن الذی عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التی تتحاورون بها فی خطبکم و کلامکم فإذا لم تقدروا علیه فاعلموا أنه من عند الله تعالی،و إنما کررت الحروف فی مواضع استظهارا فی الحجه،و هو مروی عن قطرب و اختاره أبو مسلم الأصبهانی و إلیه یمیل جمع من المتأخرین.

فهذه أحد عشر قولا-و فیما نقل عنهم ما یمکن أن یجعل قولا آخر کما نقل عن ابن عباس فی« الم »أن الألف إشاره إلی الله و اللام إلی جبریل و المیم إلی محمد ص،و ما عن بعضهم أن الحروف المقطعه فی أوائل السور المفتتحه بها إشاره إلی الغرض المبین فیها کان یقال:إن«ن»إشاره إلی ما تشتمل علیه السوره من النصر الموعود للنبی ص، و«ق»إشاره إلی القرآن أو القهر الإلهی المذکور فی السوره،و ما عن بعضهم أن هذه الحروف للإیقاظ.

و الحق أن شیئا من هذه الأقوال لا تطمئن إلیه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم فی بحث المحکم و المتشابه فی أوائل الجزء الثالث من الکتاب

أنه أحد الأقوال فی معنی المتشابه و عرفت أن الإحکام و التشابه من صفات الآیات التی لها دلاله لفظیه علی مدالیلها، و أن التأویل لیس من قبیل المدالیل اللفظیه بل التأویلات حقائق واقعیه تنبعث من مضامین البیانات القرآنیه أعم من محکماتها و متشابهاتها،و علی هذا فلا هذه الحروف المقطعه متشابهات و لا معانیها المراد بها تأویلات لها.

و أما الأقوال العشره الآخر فإنما هی تصویرات لا تتعدی حد الاحتمال و لا دلیل یدل علی شیء منها.

نعم فی بعض الروایات المنسوبه إلی النبی ص و أئمه أهل البیت(ع)بعض التأیید للقول الرابع و السابع و الثامن و العاشر و سیأتی نقلها و الکلام فی مفادها فی البحث الروائی الآتی إن شاء الله تعالی.

و الذی لا ینبغی أن یغفل عنه أن هذه الحروف تکررت فی سور شتی و هی تسع و عشرون سوره افتتح بعضها بحرف واحد و هی_ص و ق و ن،و بعضها بحرفین و هی سور طه و طس و یس و حم.و بعضها بثلاثه أحرف کما فی سورتی« الم »و« الر »و« طسم » و بعضها بأربعه أحرف کما فی سورتی« المص »و« المر »و بعضها بخمسه أحرف کما فی سورتی« کهیعص »و« حم عسق ».

و تختلف هذه الحروف أیضا من حیث أن بعضها لم یقع إلا فی موضع واحد مثل« ن » و بعضها واقعه فی مفتتح عده من السور مثل« الم »و« الر »و« طس »و« حم ».

ثم إنک إن تدبرت بعض التدبر فی هذه السور التی تشترک فی الحروف المفتتح بها مثل المیمات و الراءات و الطواسین و الحوامیم،وجدت فی السور المشترکه فی الحروف من تشابه المضامین و تناسب السیاقات ما لیس بینها و بین غیرها من السور.

و یؤکد ذلک ما فی مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ کما فی مفتتح الحوامیم من قوله:

« تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ »أو ما هو فی معناه،و ما فی مفتتح الراءات من قوله:« تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ »أو ما هو فی معناه،و نظیر ذلک واقع فی مفتتح الطواسین،و ما فی مفتتح المیمات من نفی الریب عن الکتاب أو ما هو فی معناه.

و یمکن أن یحدس من ذلک أن بین هذا الحروف المقطعه و بین مضامین السور المفتتحه

بها ارتباطا خاصا،و يؤيد ذلك ما نجد أن سوره الأعراف المصدره بالمص فى مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و_ص،و كذا سوره الرعد المصدره بالمر فى مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و الراءات.

و يستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله ص خفيه عنا لا سبيل لأفهامنا العاديه إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها و بين المضامين المودعه فى السور ارتباطا خاصا.

و لعل المتدبر لو تدبر فى مشتركات هذه الحروف و قايس مضامين السور التى وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك.

و لعل هذا معنى

ما روته أهل السنه عن على(ع)-على ما فى المجمع،: -أن لكل كتاب صفوه-و صفوه هذا الكتاب حروف التهجى..

قوله تعالى:« كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ -إلى قوله- اَلْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »مقتضى كون غرض السوره بيان الوحى بتعريف حقيقته و الإشاره إلى غايته و آثاره أن تكون الإشاره بقوله:« كَذٰلِكَ »إلى شخص الوحى بإلقاء هذه السوره إلى النبى ص فيكون تعريفا لمطلق الوحى بتشبيهه بفرد مشار إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا فى تعريف الإنسان مثلا هو كزيد.

و عليه يكون قوله:« إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ »فى معنى إليكم جميعا، و إنما عبر بما عبر للدلاله على أن الوحى سنه إلهيه جاريه غير مبتدعه،و المعنى أن الوحى الذى نوحيه إليكم معشر الأنبياء-نبيا بعد نبى سنه جاريه-هو كهذا الذى تجده و تشاهده فى تلقى هذه السوره.

و قد أخذ جمهور المفسرين قوله:« كَذٰلِكَ »إشاره إلى الوحى لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون فى الحقيقه إشاره إلى المعارف التى تشتمل عليها السوره و تتضمنها و استنتجوا من ذلك أن مضمون السوره مما أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحى المشترك فيه،و قد عرفت أنه لا يوافق غرض السوره و يأباه سياق آياتها.

و قـوله:« اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »خمسه من أسـمائه الحسـنى،و قوله:« لَهُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ »فى معنى المالك،و هو واقع موقع التعليل لأصل الوحى و لكونه سـنه إلهيه جاريه فالذى يعطيه الوحى شرع إلهى فيه هـدايه الناس إلى سـعاده حياتهم فى الـدنيا و الآخره و ليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد،و لا هو تعالى يهمل أمر هدايه عباده لأنه حكيم متقن فى أفعاله و من إتقان الفعل أن يساق إلى غايته.

و من حقه تعـالى أن يتصرف فيهم و فى أمورهم كيف يشـاء،لأنه مالكهم و له أن يعبـدهم و يسـتعبدهم بالأمر و النهى لأنه على عظيم فلكل من الأسماء الخمسه حظه من التعليل، و ينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهه لا ولى غيره.

قوله تعالى:« تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ »إلخ التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق.

الـذى يهـدى إليه السـياق و الكلام مسـرود لبيـان حقيقه الوحى و غـايته و آثاره أن يكون المراد من تفطر السـماوات من فوقهن تفطرهـا بسـبب الوحى النـازل من عنـد الله العلى العظيم المـار بهن سـماء سـماء حتى ينزل على الأرض فـإن مبـدأ الوحى هو الله سبحانه و السماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى: «وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰائِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ الْخَلْقِ غٰافِلِينَ» :المؤمنون:١٧.

و الـوجه فى تقييـد« يَتَفَطَّرْنَ »بقـوله:« مِنْ فَوْقِهِنَّ »ظـاهر فـإن الوحى ينزل عليهن من فوقهن من عنـد من له العلو المطلق و العظمه المطلقه فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن.

على ما فيه من إعظام أمر الوحى و إعلائه فإنه كلام العلى العظيم فلكونه كلام ذى العظمه المطلقه تكاد السماوات يتفطرن بنزوله و لكونه كلاما نازلا من عند ذى العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

فالآيه فى إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيره قوله:

«حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» :سبأ:٢٣ فى إعظامه من حيث تلقى ملائكه السماوات إياه، و نظيره قوله: «لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ

عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ» :الحشر:۲۱ فی إعظامه علی فرض نزوله علی جبل و نظیره قوله: «إِنّٰا سَنُلْقِی عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً» :المزمل:۵ فی استثقاله و استصعاب حمله.هذا ما يعطيه السياق.

و قد حمل القوم الآيه علی أحد معنيين آخرين:

أحدهما:أن المراد تفطرهن من عظمه الله و جلاله جل جلاله كما يؤيده توصيفه تعالی قبله بالعلی العظيم.

و ثانيهما:أن المراد تفطرهما من شرك المشركين من أهل الأرض و قولهم:« اِتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً »فقد قال تعالی فيه: «تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ» :مريم:۹۰ فأدی ذلك إلی التكلف فی توجيه تقييد التفطر بقوله:« مِنْ فَوْقِهِنَّ »و خاصه علی المعنی الثانی،و كذا فی توجيه اتصال قوله:« وَ الْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِی الْأَرْضِ »إلخ بما قبله كما لا يخفی علی من راجع كتبهم.

و قوله:« وَ الْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِی الْأَرْضِ »أی ينزهونه تعالی عما لا يليق بساحه قدسه و يثنون عليه بجميل فعله،و مما لا يليق بساحه قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحی و هو منه فعل جميل،و يسألونه تعالی أن يغفر لأهل الأرض،و حصول المغفره إنما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديه بالاهتداء بهدايه الله سبحانه فسؤالهم المغفره لهم مرجعه إلی سؤال أن يشرع لهم دينا يغفر لمن تدين به منهم فالمعنی و الملائكه يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن فی الأرض من طريق الوحی دينا يدينون به فيغفر لهم بذلك.

و يشهد علی هذا المعنی وقوع الجمله فی سياق بيان صفه الوحی و كذا تعلق الاستغفار بمن فی الأرض إذ لا معنی لطلب المغفره منهم لمطلق أهل الأرض حتی لمن قال:« اِتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً »و قد حكی الله تعالی عنهم: «وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» XالآيهX:المؤمن:۷ فالمتعين حمل سؤال المغفره علی سؤال سببها و هو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

و قوله:« أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »أی إن الله سبحانه لاتصافه بصفتی المغفره و الرحمه و تسميه باسمی الغفور الرحيم يليق بساحه قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون

به المغفره و الرحمه من عنده و هو أن يشرع لهم دينا يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحی و التكليم.

قيل:و فی قوله:« أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ »إلخ إشاره إلى قبول استغفار الملائكه و أنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفره رحمه.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » لما استفيد من الآيات السابقه أن الله تعالى هو الولی لعباده لا ـ ولی غيره و هو يتولى أمر من فی الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحی إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى و صفاته العليا،و لازم ذلک أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه، أشار فی هذه الآيه إلى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له فی الربوبيه و الألوهيه فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون و أن أعمالهم محفوظه عليهم سيؤاخذون بها،و ليس على النبی ص إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسئولا عن أعمالهم.

فقوله:« اَللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ »أی يحفظ عليهم شركهم و ما يتفرع عليه من الأعمال السيئه.

و قوله:« وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ »أی مفوضا إليک أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدايتهم إلى الحق،و الكلام لا يخلو من نوع من التسليه للنبی ص.

بحث روائی

فی الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و البخاری فی تاريخه و ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال*: مر أبو ياسر بن أخطب فی رجال من يهود برسول الله ص-و هو يتلو فاتحه سوره البقره« الم ذٰلِکَ الْكِتٰابُ »فأتاه أخوه حيی بن أخطب فی رجال من اليهود-فقال:تعلمون؟و الله لقد سمعت محمدا-يتلو فيما أنزل عليه « الم ذٰلِکَ الْكِتٰابُ »فقالوا:أنت سمعته؟قال نعم.

فمشى أولئک النفر إلى رسول الله ص-فقالوا:يا محمد أ لم تذكر أنک تتلو فيما أنزل عليک« الم ذٰلِکَ الْكِتٰابُ »؟قال:بلى.قالوا:قد جاءک بهذا جبريل من عند الله؟ قال:نعم.قالوا:لقد بعث الله قبلک أنبياء-ما نعلمه بين لنبی لهم ما مده ملكه؟ و ما أجل أمته غيرک.

فقال حيي بن أخطب و أقبل على من كان معه:الألف واحده و اللام ثلاثون و الميم أربعون-فهذه إحدى و سبعون سنه-أ فتدخلون فى دين نبى إنما مده ملكه-و أجل أمته إحدى و سبعون سنه.

ثم أقبل على رسول الله ص فقال:يا محمد هل مع هذا غيره؟قال:نعم.قال:

ما ذا؟قال: المص -قال:هذا أثقل و أطول الألف واحده،و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون-فهذه مائه و إحدى و ستون سنه-هل مع هذا يا محمد غيره؟قال:نعم.

قال:ما ذا؟قال: الر .قال:هذه أثقل و أطول الألف واحده-و اللام ثلاثون و الراء مائتان-فهذه إحدى و ثلاثون و مائتا سنه-فهل مع هذا غيره؟قال:نعم-قال:ما ذا؟، قال المر قال:فهذه أثقل و أطول-الألف واحده و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الراء مائتان-فهذه إحدى و سبعون سنه و مائتان.

ثم قال:لقد لبس علينا أمرك يا محمد-حتى ما ندرى أ قليلا أعطيت أم كثيرا؟ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حيى و من معه من الأحبار:ما يدريكم؟لعله قد جمع هذا لمحمد كله-إحدى و سبعون و إحدى و ستون و مائه-و إحدى و ثلاثون و مائتان-فذلك سبعمائه و أربع و ثلاثون-فقالوا:لقد تشابه علينا أمره-فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم:

« هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتٰابَ-مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتٰابِ-وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ ».:

أقول:و روى قريبا منه عن ابن المنذر عن ابن جريح،و روى مثله أيضا القمى فى تفسيره،عن أبيه عن ابن رئاب عن محمد بن قيس عن أبى جعفر(ع)

،و ليس فى الروايه ما يدل على إمضاء النبى ص لدعواهم و لا كانت لهم على ما ادعوه حجه،و قد تقدم أن الآيات المتشابهه غير الحروف المقطعه فى فواتح السور.

و فى المعانى،بإسناده عن جويريه عن سفيان الثورى قال*: قلت لجعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب(ع):يا ابن رسول الله ما معنى قول الله عز و جل:

الم و المص و الر و المر و كهيعص و طه و طس -و طسم و يس و -ص و حم و حم عسق و ق و ن ؟ قال(ع)أما الم فى أول البقره فمعناه أنا الله الملك،و أما الم فى أول آل عمران فمعناه أنا الله المجيد،و المص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق،و الر فمعناه أنا الله الرءوف، و المر فمعناه أنا الله المحيى المميت الرازق،و كهيعص معناه أنا الكافى الهادى-الولى العالم

الصادق الوعد،فأما طه فاسم من أسماء النبی ص-و معناه يا طالب الحق الهادی إليه- ما أنزلنا عليك القرآن لتشقی بل لتسعد به.

و أما طس فمعناه أنا الطالب السميع،و أما طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدئ المعيد،و أما يس فاسم من أسماء النبی ص-و معناه يا أيها السامع للوحی و القرآن الحكيم-إنك لمن المرسلين علی صراط مستقيم.

و أما -ص فعين تنبع من تحت العرش-و هی التی توضأ منها النبی ص لما عرج به- و يدخلها جبرئيل كل يوم دخله فيغتمس فيها-ثم يخرج منها فينفض أجنحته-فليس من قطره تقطر من أجنحته-إلا خلق الله تبارك و تعالی منها ملكا يسبح الله-و يقدسه و يكبره و يحمده إلی يوم القيامه.

و أما حم فمعناه الحميد المجيد،و أما حم عسق فمعناه الحليم المثيب العالم-السميع القادر القوی،و أما ق فهو الجبل المحيط بالأرض-و خضره السماء منه-و به يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها،و أما ن فهو نهر فی الجنه-قال الله عز و جل اجمد فجمد فصار مدادا-ثم قال عز و جل للقلم:اكتب-فسطر القلم فی اللوح المحفوظ ما كان-و ما هو كائن إلی يوم القيامه- فالمداد مداد من نور و القلم قلم من نور-و اللوح لوح من نور.

قال سفيان:فقلت له:يا ابن رسول الله-بين لی أمر اللوح و القلم و المداد فضل بيان-و علمنی مما علمك الله-فقال:يا ابن سعيد لو لا أنك أهل للجواب ما أجبتك-فنون ملك يؤدی إلی القلم و هو ملك،و القلم يؤدی إلی اللوح و هو ملك،و اللوح يؤدی إلی إسرافيل،و إسرافيل يؤدی إلی ميكائيل،و ميكائيل يؤدی إلی جبرئيل،و جبرئيل يؤدی إلی الأنبياء و الرسل (ص).قال:ثم قال لی:قم يا سفيان فلا آمن عليك..

أقول:ظاهر ما فی الروايه من تفسير غالب الحروف المقطعه بأسماء الله الحسنی أنها حروف مأخوذه من الأسماء إما من أولها كالميم من الملك و المجيد و المقتر،و إما من بين حروفها كاللام من الله و الياء من الولی فتكون الحروف المقطعه إشارات علی سبيل الرمز إلی أسماء الله تعالی،و قد روی هذا المعنی من طرق أهل السنه عن ابن عباس و الربيع بن أنس و غيرهما لكن لا يخفی عليك أن الرمز فی الكلام إنما يصار إليه فی الإفصاح عن الأمور التی لا يريد المتكلم أن يطلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه

ص :۱۴

بما لا يتعداه و مخاطبه و لا يقف عليه غيرهما و هذه الأسماء الحسنى قد أوردت و بينت فى مواضع كثيره من كلامه تعالى تصريحا و تلويحا و إجمالا و تفصيلا و لا يبقى مع ذلك فائده فى الإشاره إلى كل منها بحرف مأخوذ منه رمزا إليه.

فالوجه-على تقدير صحه الروايه-أن يحمل على كون هذه الأحرف داله على هذه المعانى دلاله غير وضعيه فتكون رموزا إليها مستوره عنا مجهوله لنا داله على مراتب من هذه المعانى هى أدق و أرقى و أرفع من أفهامنا،و يؤيد ذلك بعض التأييد تفسيره الحرف الواحد كالميم فى المواضع المختلفه بمعان مختلفه،و كذا ما ورد أنها من حروف اسم الله الأعظم.

و قوله:«و أما ق فهو الجبل المحيط بالأرض و خضره السماء منه»إلخ و روى قريبا منه القمى فى تفسيره،و هو مروى بعده من طرق أهل السنه عن ابن عباس و غيره،و لفظ بعضها جبل من زمرد محيط بالدنيا على كنفى (1)السماء،و فى بعضها أنه جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض و السماء الدنيا مترفرفه عليها و أن هناك سبع أرضين و سبعه أبحر و سبعه أجبل و سبع سماوات.

و فى بعض ما عن ابن عباس":خلق الله جبلا يقال له:ق محيط بالعالم-و عروقه إلى الصخره التى عليها الأرض-فإذا أراد الله أن يزلزل قريه-أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذى يلى تلك القريه-فيزلزلها و يحركها فمن ثم تحرك القريه دون القريه.

و الروايات بظاهرها أشبه بالإسرائيليات،و لو لا قوله:«و به يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها»لأمكن حمل قوله:«و أما ق فهو الجبل المحيط بالدنيا و خضره السماء منه» على إراده الهواء المحيط بالأرض بضرب من التأويل.

و أما قوله:إن طه و يس من أسماء النبى ص بالمعنى الذى فسره به فينبغى أن يحمل أيضا على ما قدمناه به و يفسر الروايات الكثيره الوارده من طرق العامه و الخاصه فى أن طه و يس من أسماء النبى ص.

و أما قوله فى ن إنه نهر صيره الله مدادا كتب به القلم بأمره على اللوح ما كان و ما يكون

۱- ۱) الكنف بفتحتين الجانب و كنفا السماء جانباه.

إلی یوم القیامه،و أن المداد و القلم و اللوح من النور ثم قوله:إن المداد ملک و القلم ملک و اللوح ملک فهو نعم الشاهد علی أن ما ورد فی کلامه تعالی من العرش و الکرسی و اللوح و القلم و نظائر ذلک و فسر بما فسر به فی کلام النبی ص و أئمه أهل البیت((ع))من باب التمثیل أرید به تقریب معارف حقیقیه هی أعلی و أرفع من سطح الأفهام العامه بتنزیلها منزله المحسوس.

و فی المعانی،أیضا بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع)قال *« الم »هو حرف من حروف اسم الله الأعظم-المقطع فی القرآن الذی یؤلفه النبی ص و الإمام-فإذا دعا به أجیب. الحدیث.

أقول:کون هذه الحروف المقطعه من حروف اسم الله الأعظم المقطع فی القرآن مروی بعده من طرق أهل السنه عن ابن عباس و غیره،و قد تبین فی البحث عن الأسماء الحسنی فی سوره الأعراف أن الاسم الأعظم الذی له أثره الخاص به لیس من قبیل الألفاظ،و أن ما ورد مما ظاهره أنه اسم مؤلف من حروف ملفوظه مصروف عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له.

و فیه،بإسناده عن محمد بن زیاد و محمد بن سیار عن العسکری(ع)أنه قال*: کذبت قریش و الیهود بالقرآن و قالوا:سحر مبین تقوله-فقال الله:« الم ذٰلِکَ الْکِتٰابُ »أی یا محمد هذا الکتاب الذی أنزلناه علیک-هو الحروف المقطعه التی منها ألف لام میم-و هو بلغتکم و حروف هجائکم-فأتوا بمثله إن کنتم صادقین-و استعینوا علی ذلک بسائر شهدائکم.

الحدیث.

أقول:و الحدیث من تفسیر العسکری و هو ضعیف.

و فی تفسیر القمی،و فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر((ع)) *فی قوله تعالی:« یَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ »أی یتصدعن.

و عن جوامع الجامع،: فی قوله تعالی:« وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِی الْأَرْضِ »:قال الصادق((ع)):

لمن فی الأرض من المؤمنین.:

أقول:و روی ما فی معناه فی المجمع،عنه((ع))و رواه القمی مضمرا.

ص :۱۶

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۷ الی ۱۲]

اشاره

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ اَلْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي اَلْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي اَلسَّعِيرِ
(۷) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ اَلظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۸) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ اَلْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۹) وَ مَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اَللّٰهِ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ
رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۱۰) فٰاطِرُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (۱۱) لَهُ مَقٰالِيدُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۲)

بیان

فصل ثان من الآیات یعرف فیه الوحی من حیث الغایه المترتبه علیه کما عرفه فی الفصل السابق بالإشاره إلیه نفسه.

فبین فی هـذا الفصل أن الغرض من الوحی إنـذار الناس و خاصه الإنـذار المتعلق بیوم الجمع الـذی یتفرق فیه الناس فریقین فریق فی الجنه و فریق فی السعیر إذ لو لا الإنذار بیوم الجمع الذی فیه الحساب و الجزاء لم تنجح دعوه دینیه و لم ینفع تبلیغ.

ثم بین أن تفرقهم فریقین هو الذی شاءه الله سبحانه فعقبه بتشریع الدین و إنذار

الناس يوم الجمع من طريق الوحى لأنه وليهم الذى يحييهم بعد موتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه.

ثم ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبيه و أنه تعالى هو الرب لا رب غيره لاختصاصه بصفات الربوبيه من غير شريک يشاركه فى شىء منها.

قوله تعالى:« وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا » الإشاره إلى الوحى المفهوم من سابق السياق،و أم القرى هى مكه المشرفه و المراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها،و المراد بمن حولها سائر أهل الجزيره ممن هو خارج مكه كما يؤيده توصيف القرآن بالعربيه.

و ذلک أن الدعوه النبويه كانت ذات مراتب فى توسعها فابتدأت الدعوه العلنيه بدعوه العشيره الأقربين كما قال: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» :الشعراء،۲۱۴ ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامه كما قال: «قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» :حم السجده:۳ ثم بجميع الناس كما قال:« وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ».

و من الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجا قوله تعالى: «قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ -Xإلى أن قالX- إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ» :_ص:۸۷ فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السوره لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم-كالنبى ص-بعضا عليه أجرا.

على أن تعلق الدعوه بأهل الكتاب و خاصه باليهود و النصارى من ضروريات القرآن، و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسى و بلال الحبشى و صهيب الرومى من ضروريات التاريخ.

و قيل المراد بقوله:« مَنْ حَوْلَهٰا »سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها و يؤيده التعبير عن مكه بأم القرى.

و الآيه-كما ترى-تعرف الوحى بغايته التى هى إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهى و هو النبوه فالوحى إلقاء إلهى لغرض النبوه و الإنذار.

قوله تعالى:« وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »عطف

على« لِتُنْذِرَ »السابق و هو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل:لتنذر الناس و تخوفهم من الله و خاصه من سخطه يوم الجمع.

و قوله:« يَوْمَ الْجَمْعِ »مفعول ثان لقوله:« لِتُنْذِرَ »و ليس بظرف له و هو ظاهر، و يوم الجمع هو يوم القيامه قال تعالى: «ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ -X إلى أن قال X- فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» :هود:١٠۵.

و قوله:« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »فى مقام التعليل و دفع الدخل كأنه قيل:

لما ذا ينذرهم يوم الجمع؟فقيل:« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »أى إنهم يتفرقون فريقين:سعيد مثاب و شقى معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء و الهبوط فى مهبط الهلكه.

قوله تعالى:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً »إلى آخر الآيه لما كانت الآيه مسوقه لبيان لزوم الإنذار و النبوه من جهه تفرق الناس فريقين يوم القيامه كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم أمه واحده مطلق رفع التفرق و التميز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفه واحده من غير فرق و ميز،و لم تقع عند ذلك حاجه إلى النبوه و الإنذار.

و قوله:« وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ » استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق و لم يشأ جعلهم أمه واحده يدل على ذلك قوله:« يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ »الدال على الاستمرار،و لم يقل:و لكن أدخل و نحوه.

و قد قوبل فى الآيه قوله:« مَنْ يَشٰاءُ »بقوله:« وَ الظّٰالِمُونَ »فالمراد بمن يشاء غير الظالمين و قد فسر الظالمين يوم القيامه بقوله: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كٰافِرُونَ» :الأعراف:۴۵ فهم المعاندون المنكرون للمعاد.

و قوبل أيضا بين الإدخال فى الرحمه و بين نفى الولى و النصير فالمدخلون فى رحمته هم الذين وليهم الله،و الذين ما لهم من ولى و لا نصير هم الذين لا يدخلهم الله فى رحمته،و أيضا الرحمه هى الجنه و انتفاء الولايه و النصره يلازم السعير.

فمحمل معنى الآيه:أن الله سبحانه إنما قدر النبوه و الإنذار المتفرع على الوحى لمكان

ما سيعتريهم يوم القيامه من التفرق فريقين،ليتحرزوا من الدخول فى فريق السعير.

و لو أراد الله لجعلهم أمه واحده فاستوت حالهم و لم يتفرقوا يوم القيامه فريقين فلم يكن عند ذلك ما تقتضى النبوه و الإنذار فلم يكن وحى لكنه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم و هم غير الظالمين فيدخلهم الجنه و فى رحمته،و لا يتولى أمر آخرين و هم الظالمون فيكونوا لا ولى لهم و لا نصير و يصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار.

فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم أمه واحده هو التسويه بينهم بإدخال الجميع فى الجنه و إدخال الجميع فى السعير أى أنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء فى الجنه و الأشقياء فى النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين و جرت سنته على ذلك و وعد بذلك و هو لا يخلف الميعاد و مع ذلك فقدرته المطلقه باقيه على حالها لم تنسلب و لم تتغير فقوله:« وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ »إلى تمام الآيتين فى معنى قوله فى سوره هود:

« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ الْآخِرَةِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ »إلى تمام سبع آيات فراجع و تدبر.

و قيل:المراد بجعلهم أمه واحده جعلهم مؤمنين جميعا داخلين فى الجنه،قال فى الكشاف:و المعنى و لو شاء ربك مشيئه قدره لقسرهم جميعا على الإيمان و لكنه شاء مشيئه حكمه فكلفهم و بنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته و هم المرادون بمن يشاء أ لا ترى إلى وضعهم فى مقابله الظالمين،و يترك الظالمين بغير ولى و لا نصير فى عذابه.

و استدل على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى: «وَ لَوْ شِئْنٰا لَآتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰاهٰا» الم السجده:١٣ و قوله: «وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» :يونس:٩٩ و الدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله:« أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النّٰاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ».

و فيه أن الآيات-كما عرفت مسوقه لتعريف الوحى من حيث غايته و أن تفرق فى الناس يوم الجمع:فريقين سبب يستدعى وجود النبوه و الإنذار من طريق الوحى، و قوله:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً »مسوق لبيان أنه تعالى ليس بمجبر على ذلك

و لاـ ملزم به بـل له أن لاـ يفعل،و هـذا المعنى يتم بمجرد أن لا يجعلهم متفرقين فريقين بل أمه واحـده كيفما كانوا،و أما كونهم فرقه واحده مؤمنه بالخصوص فلا مقتضى له هناك.

و أما ما اسـتدل به من الآيتين فسـياقهما غير سـياق الآيه المبحوث عنها،و المراد بهما غير الإيمان القسـرى الـذى ذكره و قد تقدم البحث عنهما فى الكتاب.

و قيل:إن الأنسب للسياق هو اتحادهم فى الكفر بأن يراد جعلهم أمه واحده كافره كما فى قوله: «كَانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ» :البقره:٢١٣ فالمعنى:و لو شاء الله لجعلهم أمه واحده متفقه على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا ينذرهم فيبقوا على ما هم عليه من الكفر و لكن يـدخل من يشـاء فى رحمته أى شـأنه ذلـك فيرسـل إلى الكـل من ينـذرهم فيتـأثر به من تـأثر فيوفقهم الله للإيمان و الطاعات فى الـدنيا و يـدخلهم فى رحمته فى الآخره،و لا يتأثر به الآخرون و هم الظالمون فيعيشون فى الدنيا كافرين و يصيرون فى الآخره إلى السعير من غير ولى و لا نصير.

و فيه أولاـ:أن المراد من كون الناس أمه واحـده فى الآيه المقيس عليها ليس هو اتفاقهم على الكفر بل عـدم اختلافهم فى الأمور الراجعه إلى المعاش كما تقدم فى تفسـير الآيه،و لو سلم ذلك أدى إلى التنافى البين بين المقيسه و المقيس عليها لدلاله المقيسه على التفرق و عدم الاتحاد دلاله المقيس عليها على ثبوت الاتحاد و عدم التفرق.

و لو أجيب عنه بأن المقيس عليها تدل على كون الناس أمه واحده بحسب الطبع دون الفعليه فلا تنافى بين الآيتين،رد بمنافاته لما دل من الآيـات على كون الإنسـان مؤمنـا بحسب الفطره الأصـليه كقوله تعـالى: «وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا» :الشمس:٨.

و ثانيـا:أن فيه إخراجا لقوله:« وَ لٰكِنْ يُـدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِی رَحْمَتِهِ »عن المقابله مع قوله:« وَ الظّٰالِمُونَ »إلـخ من غير دليل،ثم تكلف تقدير ما يفيد معناه ليحفظ به ما يقيده الكلام من المقابله.

قوله تعالى:« أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِیُّ -إلى قوله- فَحُكْمُهُ إِلَى

اللّهِ

»« أَم »تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشرى.لما أفاد فى الآيه السابقه أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصه فيدخلهم فى رحمته و أن الظالمين هم الكافرون المعانـدون لا ولى لهم تعرض فى هـذه الآيه لاتخاذهم أولياء يـدينون لهم و يعبدونهم من دونه و كان يجب أن يتخـذوا الله وليـا يـدينون له و يعبـدونه فأنكر عليهم ذلك و احتـج على وجوب اتخاذه وليا بالحجه بعـد الحجه و ذلك قوله:« فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ »إلخ.

فقوله:« فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ »تعليل للإنكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجه لوجوب اتخاذه وليا،و الجمله- فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ -تفيـد حصـر الولايه فى الله و قد تبينت الحجه على أصل ولايته و انحصارها فيه من قوله فى الآيات السابقه:« اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »كما أشرنا إليه فى تفسير الآيات.

و المعنى:أنه تعالى ولى ينحصر فيه الولايه فمن الواجب على من يتخذ وليا أن يتخذه وليا و لا يتعداه إلى غيره إذ لا ولى غيره.

و قـوله:« وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتىٰ »حجه ثـانيه على وجوب اتخـاذه تعـالى وحـده وليـا، و محصـله أن عمـده الغرض فى اتخـاذ الولى و التـدين له بعبـوديته التخلص من عـذاب السـعير و الفوز بـالجنه يوم القيـامه و المـثيب و المعـاقب يوم القيـامه هو الله الـذى يحيى الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الـذى يجب أن يتخـذ وليا دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء و لا يشـعرون أيان يبعثون.

و قوله:« وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »حجه ثالثه على وجوب اتخاذه تعالى وليا دون غيره،و محصله أن من الواجب فى باب الولايه أن يكون للولى قـدره على ما يتولاه من شـئون من يتولاه و أموره،و الله سـبحانه على كل شـىء قدير و لا قدره لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه و هو المالك لما ملكه و القادر على ما عليه أقدره فهو الولى لا ولى غيره تعالى و تقدس.

و قوله:« وَ مٰا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّٰهِ »حجه رابعه على كونه تعالى وليا لا ولى غيره،و حكم الحاكم بين المختلفين هو أحكامه و تثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات و النفى،و الاختلاف ربما كان فى عقيده كالاختلاف فى أن

الإله واحد أو كثير،و ربما كان فی عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف فی أمور المعيشه و شئون الحياه فهو أعنی الحكم يساوق القضاء مصداقا و إن اختلفا مفهوما.

ثم الحكم و القضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك و الولايه و إن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتخذاه حكما ليحكم بينهما و يتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يری و أعطياه من نفسهما القبول و التسليم فهو وليهما فی ذلك.

و الله سبحانه هو المالك لكل شیء لا مالك سواه لكون كل شیء بوجوده و آثار وجوده قائما به تعالی فله الحكم و القضاء بالحق قال تعالی: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» :القصص:۸۸و قال: «إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» :المائده:۲ و قال: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» :آل عمران:۶۰.

و حكمه تعالی إما تكوينی و هو تحقيقه و تثبيته المسببات قبال الأسباب المجتمعه عليها المتنازعه فيها بتقديم ما نسميه سببا تاما على غيره قال تعالی حاكيا عن يعقوب ((ع)) :«إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» :يوسف:۶۷ و إما تشريعی كالتكاليف الموضوعه فی الدين الإلهی الراجعه إلى الاعتقاد و العمل قال تعالی: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :يوسف:۴۰.

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه و هو حكمه تعالی يوم القيامه بين عباده فيما اختلفوا فيه و هو إعلانه و إظهاره الحق يوم القيامه لأهل الجمع يشاهدونه مشاهده عيان و إيقان فيسعد به و بآثاره من كان مع الحق و يشقی بالاستكبار عليه و تبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالی: «فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» :البقره:۱۱۳.

ثم إن اختلاف الناس فی عقائدهم و أعمالهم اختلاف تشريعی لا يرفعه إلا الأحكام و القوانين التشريعيه و لو لا الاختلاف لم يجود قانون كما يشير إليه قوله تعالی: «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ» :البقره:۲۱۳،

و قد تبين أن الحكم التشريعى لله سبحانه فهو الولى فى ذلك فيجب أن يتخذ وحده وليا فيعبد و يدان بما أنزله من الدين.

و هـذا معنى قوله:« وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّٰهِ »و محصل الحجه أن الولى الـذى يعبـد و يـدان له يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه مصلحا لما فسد من شئون مجتمعهم سائقا لهم إلى سعاده الحياه الدائمه بما يضعه عليهم من الحكم و هو الدين،و الحكم فى ذلك إلى الله سبحانه،فهو الولى الذى يجب أن يتخذ وليا لا غير.

و للقوم فى تفسير الآيه أعنى قوله:« وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّٰهِ » تفاسير أخر فقيل:هو حكايه قول رسول الله ص للمؤمنين أى ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب و المشركين فاختلفتم أنتم و هم فيه من أمر من أمور الـدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله و هو إثابه المحقين فيه من المؤمنين و معاقبه المبطلين ذكره صاحب الكشاف.

و قيل معناه ما اختلفتم فيه و تنازعتم فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ص و لا تؤثروا على حكومته حكومه غيره كقوله تعالى:« فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ ».

و قيل:المعنى ما اختلفتم فيه من تأويل آيه و اشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى محكم كتاب الله و ظاهر سنه رسول الله ص.

و قيل:المعنى و ما اختلفتم فيه من العلوم مما لا يتصل بتكليفكم و لا طريق لكم إلى علمه فقولوا:الله أعلم كمعرفه الروح قال تعالى:« وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ».و الآيه على جميع هذه الأقوال من كلام النبى ص إما بنحو الحكايه و إما بتقدير«قل»فى أولها.

و أنت بالتدبر فى سياق الآيات ثم الرجوع إلى ما تقدم لا ترتاب فى سقوط هذه الأقوال.

قوله تعالى:« ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ »كلام محكى للنبى ص

و الإشاره بذلکم إلی من أقیمت الحجج فی الآیتین علی وجوب اتخاذه ولیا و هو الله سبحانه،و لازم ولایته ربوبیته.

لما أقیمت الحجج علی أنه تعالی هو الولی لا ولی غیره أمر(ص)بإعلام أنه الله و أنه اتخذه ولیا بالاعتراف له بالربوبیه التی هی ملک التدبیر ثم عقب ذلک بالتصریح بما للاتخاذ المذکور من الآثار و هو قوله:« عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ ».

و ذلک أن ولایه الربوبیه تتعلق بنظام التکوین بتدبیر الأمور و تنظیم الأسباب و المسببات بحیث یتعین بها للمخلوق المدبر کالإنسان مثلا ما قدر له من الوجود و البقاء، و تتعلق بنظام التشریع و هو تدبیر أعمال الإنسان بجعل قوانین و أحکام یراعیها الإنسان بتطبیق أعماله علیها فی مسیر حیاته لتنتهی به إلی کمال سعادته.

و لازم اتخاذه تعالی ربا ولیا من جهه التکوین إرجاع أمر التدبیر إلیه بالانقطاع عن الأسباب الظاهریه و الرکون إلیه من حیث أنه سبب غیر مغلوب ینتهی إلیه کل سبب و هذا هو التوکل،و من جهه التشریع الرجوع إلی حکمه فی کل واقعه یستقبله الإنسان فی مسیر حیاته و هذا هو الإنابه فقوله:« عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ »أی أرجع فی جمیع أموری،تصریح بإرجاع الأمر إلیه تکوینا و تشریعا.

قوله تعالی:« فٰاطِرُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »إلی آخر الآیه لما صرح بأنه تعالی هو ربه لقیام الحجج علی أنه هو الولی وحده عقب ذلک بإقامه الحجه فی هذه الآیه و التی بعدها علی ربوبیته تعالی وحده.

و محصل الحجه:أنه تعالی موجد الأشیاء و فاطرها بالإخراج من کتم العدم إلی الوجود و قد جعلکم أزواجا فکثرکم بذلک و جعل من الأنعام أزواجا فکثرها بذلک لتنتفعوا بها،و هذا خلق و تدبیر،و هو سمیع لما یسأله خلقه من الحوائج فیقضی لکل ما یستحقه من الحاجه،بصیر لما یعمله خلقه من الأعمال فیجازیهم بما عملوا و هو الذی یملک مفاتیح خزائن السماوات و الأرض التی ادخر فیها ما لها من خواص وجودها و آثاره مما یتألف منها بظهورها النظام المشهود و هو الذی یرزق المرزوقین فیوسع فی رزقهم و یضیق عن علم منه بذلک.و هذا کله من التدبیر فهو الرب المدبر للأمور.

ص :۲۵

فقوله:« فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ »أى موجدها من كتم العدم على سبيل الإبداع.

و قوله:« جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً »و ذلك بخلق الذكر و الأنثى للذين يتم بتزاوجهما أمر التوالد و التناسل و تكثر الأفراد« وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً »أى و جعل من الأنعام أزواجا« يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ »أى يكثركم فى هذا الجعل،و الخطاب فى« يَذْرَؤُكُمْ » للإنسان و الأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشرى.

و قوله:« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »أى ليس مثله شىء،فالكاف زائده للتأكيد و له نظائر كثيره فى كلام العرب.

و قوله: «وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »أى السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى: «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» :الرحمن:۲۹،و قال:

«وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» :إبراهيم:۳۴،و قال: «وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» :

الحديد:۴.

قوله تعالى:« لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ »إلى آخر الآيه المقاليد المفاتيح و فى إثبات المقاليد للسماوات و الأرض دلاله على أنها خزائن لما يظهر فى الكون من الحوادث و الآثار الوجوديه.

و قوله:« يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ » بسط الرزق توسعته و قدره تضييقه و الرزق كل ما يمد به البقاء و يرتفع به حاجه من حوائج الوجود فى استمراره.

و تذييل الكلام بقوله:« إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »للإشاره إلى أن الرزق و اختلافه فى موارده بالبسط و القدر ليس على سبيل المجازفه جهلا-بل عن علم منه تعالى بكل شىء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله و الرزق بحسب حاله و ما يحف بهما من الأوضاع و الأحوال الخارجيه،و هذا هو الحكمه فهو يبسط و يقدر بالحكمه.

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۳ الی ۱۶]

اشاره

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ اَلدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ اَلَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ أَنْ أَقِيمُوا اَلدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى اَلْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِينَ أُورِثُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴) فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اِسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنْ كِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ لاٰ حُجَّةَ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ اَللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا وَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۱۵) وَ اَلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا اُسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دٰاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ (۱۶)

بیان

فصل ثالث من الآیات یعرف الوحی الإلهی بأثره الذی هو مفاده و ما احتوی علیه من المضمون و هو الدین الإلهی الواحد الذی یجب علی الناس أن یتخذوه سنه فی الحیاه و طریقه مسلوکه إلی سعادتهم.

ص: ۲۷

و قد بین فیها بحسب مناسبه المقام أن الشریعه المحمدیه أجمع الشرائع المنزله و أن الاختلافات الواقعه فی دین الله علی وحدته لیست من ناحیه الوحی السماوی و إنما هی من بغی الناس بعد علمهم،و فی الآیات فوائد أخر أشیر إلیها فی خلالها.

قوله تعالی:« شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ »یقال: شرع الطریق شرعا أی سواه طریقا واضحا بینا.قال الراغب: الوصیه التقدم إلی الغیر بما یعمل مقترنا بوعظ من قولهم:

أرض واصیه متصله النبات و یقال:أوصاه و وصاه انتهی.و فی معناه إشعار بالأهمیه فما کل أمر یوصی به و إنما یختار لذلک ما یهتم به الموصی و یعتنی بشأنه.

فقوله:« شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً »أی بین و أوضح لکم من الدین و هو سنه الحیاه ما قدم و عهد إلی نوح مهتما به،و اللائح من السیاق أن الخطاب للنبی ص و أمته،و أن المراد مما وصی به نوحا شریعه نوح((ع)).

و قوله:« وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ »ظاهر المقابله بینه و بین نوح((ع))أن المراد بما أوحی إلیه ما اختصت به شریعته من المعارف و الأحکام،و إنما عبر عن ذلک بالإیحاء دون التوصیه لأن التوصیه کما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما یهتم به و یعتنی بشأنه خاصه و هو أهم العقائد و الأعمال،و شریعته(ص)جامعه لکل ما جل و دق محتویه علی الأهم و غیره بخلاف شرائع غیره فقد کانت محدوده بما هو الأهم المناسب لحال أممهم و الموافق لمبلغ استعدادهم.

و الالتفات فی قوله:« وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا »من الغیبه إلی التکلم مع الغیر للدلاله علی العظمه فإن العظماء یتکلمون عنهم و عن خدمهم و أتباعهم.

و قوله:« وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ »عطف علی قوله:« مٰا وَصّٰی بِهِ »و المراد به ما شرع لکل واحد منهم((ع)).

و الترتیب الذی بینهم((ع))فی الذکر علی وفق ترتیب زمنهم فنوح ثم إبراهیم ثم موسی ثم عیسی((ع))،و إنما قدم ذکر النبی ص للتشریف و التفضیل کما فی قوله تعالی: «وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثٰاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسَی

ابْنِ مَرْيَمَ» :الأحزاب:۷ و إنما قدم نوحا و بدأ به للدلاله على قدم هذه الشريعه و طول عهدها.

و يستفاد من الآيه أمور:

أحدها:أن السياق بما أنه يفيد الامتنان و خاصه بالنظر إلى ذيل الآيه و الآيه التاليه يعطى أن الشريعه المحمديه جامعه للشرائع الماضيه و لا ينافيه قوله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً» :المائده:۴۸ لأن كون الشريعه شريعه خاصه لا ينافى جامعيتها.

الثانى:أن الشرائع الإلهيه المنتسبه إلى الوحى إنما هى شريعه نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد(ع)إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعيه المذكوره.

و لازم ذلك أولا:أن لا شريعه قبل نوح(ع)بمعنى القوانين الحاكمه فى المجتمع الإنسانى الرافعه للاختلافات الاجتماعيه و قد تقدم نبذه من الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ» XالآيهX:البقره:۲۱۳.

و ثانيا:أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثه إبراهيم و بعدها على شريعه إبراهيم إلى بعثه موسى و هكذا.

الثالث:أن الأنبياء أصحاب الشرائع و أولى العزم هم هؤلاء الخمسه المذكورون فى الآيه إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء ساده الأنبياء و يدل على تقدمهم أيضا قوله:

«وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» :

الأحزاب:۷.

و قوله:« أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا »أن تفسيريه،و إقامه الدين حفظه بالاتباع و العمل و اللام فى الدين للعهد أى أقيموا هذا الدين المشروع لكم،و عدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه و عدم الاختلاف فيه.

لما كان شرع الدين لهم فى معنى أمرهم جميعا باتباعه و العمل به من غير اختلاف فسره بالأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعا إقامه الدين

جميعا و عدم التفرق و التشتت فيه بإقامه بعض و ترك بعض،و إقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله و العمل بما يجب عليه العمل به.

فجميع الشرائع التى أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته و عدم التفرق فيه فأما الأحكام السماويه المشترك فيها الباقيه ببقاء التكليف فمعنى الإقامه فيها ظاهر و أما الأحكام المشرعه فى بعض هذه الشرائع المنسوخه فى الشريعه اللاحقه فحقيقه الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفه من الناس فى زمن خاص و معنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: «وَ اللّٰهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» :الأحزاب:۴ فالحكم المنسوخ حق دائما غير أنه خاص بطائفه خاصه فى زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به و يعملوا به و يجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل و هذا معنى إقامته و عدم التفرق فيه.

فتبين أن الأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فى قوله:« أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »مطلق شامل لجميع الناس فى جميع الأزمان.

و بذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامه و عدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركه بين الشرائع دون المختصه فهى أحكام متفاوته مختلفه باختلاف الأمم من حيث أحوالها و مصالحها.

و ذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله:« أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »و لو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامه مختصا بأصول الدين الثلاثه:التوحيد و النبوه و المعاد،و أما غيرها من الأحكام الفرعيه فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه فى جميع خصوصياته بين جميع الشرائع و هذا مما يأباه قطعا سياق قوله:« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ »إلخ،و مثل قوله: «وَ إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً» :المؤمنون:۵۳ و قوله: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» :آل عمران:۱۹.

و قوله:« كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »المراد بقوله:« مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »

دين التوحيد الذى كان يدعو إليه النبى ص لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآيه التاليه،و المراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله.

و قوله:« اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » الاجتباء هو الجمع و الاجتلاب،و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير« إِلَيْهِ »الثانى و الثالث راجعا إلى ما يرجع إليه الأول و المعنى الله يجمع و يجتلب إلى دين التوحيد-و هو ما تدعوهم إليه-من يشاء من عباده و يهدى إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله:« كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ »فى معنى قوله: هُوَ اجْتَبٰاكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ» :الحج:٧٨.

و قيل:الضميران لله تعالى،و لا بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب،و على أى حال قوله:« اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ »إلى آخر الآيه موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى: «فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ» :حم السجده:٣٨.

و قيل:المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به و هو الرساله أى إن رسالتك كبرت عليهم،و قوله:« اَللّٰهُ يَجْتَبِي »إلخ فى معنى قوله: «اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ» :الأنعام:١٢۴ و هو خلاف الظاهر.

قوله تعالى:« وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ »إلى آخر الآيه ضمير« تَفَرَّقُوا »للناس المفهوم من السياق،و البغى الظلم أو الحسد،و تقييده بقوله:

« بَيْنَهُمْ »للدلاله على تداوله،و المعنى و ما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعه باختلافهم و تركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذا-أو ناشئا-من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم.

و هذا هو الاختلاف فى الدين المؤدى إلى الانشعابات و التحزبات الذى ينسبه الله سبحانه فى مواضع من كلامه إلى البغى،و أما الاختلاف المؤدى إلى نزول الشريعه و هو الاختلاف فى شئون الحياه و التفرق فى أمور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس فى مقاصدهم و هو الذريعه إلى نزول الوحى و تشريع الشرع لرفعه كما يشير

إليه قوله: «كَانَ النّاسُ أَمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ» :البقره:۲۱۳ كما تقدم فى تفسير الآيه.

و قوله:« وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ »المراد بالكلمه مثل قوله:حين إهباط آدم(ع)إلى الأرض: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ» :البقره:۳۶.

و المعنى:و لو لا ـ أن الله قضى فيهم الاستقرار و التمتع فى الأرض إلى أجل سماه و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم فى دينه و انحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

و قول القائل:إن الله قد قضى و أهلك كما يقصه فى قصص نوح و هود و صالح (ع)و قد قال تعالى: «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» :يونس:۴۷.

مدفوع بأن ما قصه تعالى من القضاء و الإهلاك إنما هو فى أمم الأنبياء فى زمانهم من المكذبين بين الرادين عليهم و ما نحن فيه من قوله:« وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » الآيه فى أممهم بعدهم و هو واضح من السياق.

و قوله:« وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ »ضمير« مِنْ بَعْدِهِمْ »لأولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف،و الذين أورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآيه أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقه كانوا على علم من الحق و إنما أبدعوا ما أبدعوا،بغيا بينهم،و أخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم فى شك مريب-موقع فى الريب- منه.

و ما أوردناه فى معنى الآيه هو الذى يعطيه السياق،و لهم فى تفسيرها أقاويل كثيره لا جدوى فى إسقاطها فليرجع فى الوقوف عليها إلى كتبهم.

قوله تعالى:« فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ »إلى آخر الآيه.تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و أممهم ثم انقسام أممهم إلى أسلاف اختلفوا فى الدين عن علم بغيا،و إلى أخلاف شاكين مرتابين فيما أورثوه من

الکتاب أی فلأجل أنه شرع لکم جمیع ما شرع لمن قبلکم فادع و لأجل ما ذکر من تفرق بعضهم بغیا و ارتیاب آخرین فاستقم کما أمرت و لا تتبع أهواءهم.

و اللام فی قوله:« فَلِذٰلِکَ »للتعلیل،و قیل:اللام بمعنی إلی أی إلی ما شرع لکم من الدین فادع و استقم کما أمرت،و الاستقامه -کما ذکره الراغب-لزوم المنهاج المستقیم،و قوله:« وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ »کالمفسر له.

و قوله:« وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ کِتٰابٍ »تسویه بین الکتب السماویه من حیث تصدیقها و الإیمان بها و هی الکتب المنزله من عند الله المشتمله علی الشرائع.

و قوله:« وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ »قیل:اللام زائده للتأکید نظیر قوله:

«وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعٰالَمِینَ» :الأنعام:۷۱،و المعنی:و أمرت أن أعدل بینکم أی أسوی بینکم فلا أقدم قویا علی ضعیف و لا غنیا علی فقیر و لا کبیرا علی صغیر،و لا أفضل أبیض علی أسود و لا عربیا علی عجمی و لا هاشمیا أو قرشیا علی غیره فالدعوه متوجهه إلی الجمیع،و الناس قبال الشرع الإلهی سواء.

فقوله:« آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ کِتٰابٍ »تسویه بین الکتب المنزله من حیث الإیمان بها،و قوله:« وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ »تسویه بین الناس من حیث الدعوه و توجه ما جاء به من الشرع.

و قیل:اللام فی« لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ »للتعلیل،و المعنی:و أمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بینکم،و کذا قیل:المراد بالعدل العدل فی الحکم،و قیل:العدل فی القضاء بینکم،و قیل غیر ذلک، و هذه معان بعیده لا یساعد علیها السیاق.

و قوله:« اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّکُمْ »إلخ،فی مقام التعلیل لما ذکر من التسویه بین الکتب و الشرائع فی الإیمان بها و بین الناس فی دعوتهم و شمول الأحکام لهم،و لذا جیء فی الکلام بالفصل من غیر عطف.

فقوله:« اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّکُمْ »یشیر إلی أن رب الکل هو الله الواحد تعالی فلیس لهم أرباب کثیرون حتی یلحق کل بربه و یتفاضلوا بالأرباب و یقتصر کل منهم بالإیمان بشریعه ربه بل الله هو رب الجمیع و هم جمیعا عباده المملوکون له المدبرون بأمره و الشرائع المنزله علی الأنبیاء من عنده فلا موجب للإیمان ببعضها دون بعض کما یؤمن

الیهود بشریعه موسی دون من بعده و کذا النصاری بشریعه عیسی دون محمد ص بل الواجب الإیمان بکل کتاب نازل من عنده لأنها جمیعا من عنده.

و قوله:« لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ »یشیر إلی أن الأعمال و إن اختلفت من حیث کونها حسنه أو سیئه و من حیث الجزاء ثوابا أو عقابا إلا أنها لا تتعدی عاملها فلکل امرئ ما عمل فلا ینتفع أحد بعمل آخر و لا یتضرر بعمل غیره فلیس له أن یقدم امرأ للانتفاع بعمله أو یؤخر امرأ للتضرر بعمله نعم فی الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملین لکن ذلک إلی الله فیما یحاسب به عباده لا إلی الناس-النبی فمن دونه-الذین هم جمیعا عباد مملوکون لا یملک منهم نفس من نفس شیئا،و هذا هو الذی ذکره تعالی فی محاوره نوح(ع) قومه: «قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ قالَ وَ ما عِلْمِی بِما کانُوا یَعْمَلُونَ إِنْ حِسابُهُمْ إِلاّ عَلی رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ» :الشعراء:۱۱۳،و کذا قوله یخاطب النبی ص: «ما عَلَیْکَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِکَ عَلَیْهِمْ مِنْ شَیْءٍ» الأنعام:۵۲.

و قوله:« لا حُجَّهَ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمُ »لعل المراد أنه لا حجه تدل علی تقدم بعض علی بعض تکون فیما بیننا یقیمها بعض علی بعض یثبت بها تقدمه علیه.

و یمکن أن یکون نفی الحجه کنایه عن نفی لازمها و هو الخصومه أی لا خصومه بیننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد و نحن فی أننا جمیعا عباده واحد و لکل نفس ما عملت فلا حجه فی البین أی لا خصومه حتی تتخذ لها حجه.

و من هنا یظهر أن لا وجه لقول بعضهم فی تفسیر الجمله:أی لا احتجاج و لا خصومه لأن الحق قد ظهر فلم یبق للاحتجاج حاجه و لا للمخالفه محمل سوی المکابره و العناد انتهی.إذ الکلام مسوق لبیان ما أمر به النبی ص فی نفسه و فی أمته من سنه التسویه لا لإثبات شیء من أصول المعارف حتی تحمل الحجه علی ما حملها علیه.

و قوله:« اَللّهُ یَجْمَعُ بَیْنَنا »المراد بضمیر التکلم فیه مجموع المتکلم و المخاطب فی الجمل السابقه،و المراد بالجمع جمعه تعالی إیاهم یوم القیامه للحساب و الجزاء علی ما قیل.

و غیر بعید أن یراد بالجمع جمعه تعالی بینهم فی الربوبیه فهو رب الجمیع و الجمیع عباده فیکون قوله:« اَللّهُ یَجْمَعُ بَیْنَنا »تأکیدا لقوله السابق:« اَللّهُ رَبُّنا وَ رَبُّکُمْ »

و توطئه و تمهيدا لقوله:« وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ »و يكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدئنا لأنه ربنا جميعا و إليه منتهانا لأنه إليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

و كان مقتضى الظاهر فى التعليل أن يقال:«الله ربى و ربكم لى عملى و لكم أعمالكم لا حجه بينى و بينكم على محاذاه قوله:« آمَنْتُ »« وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ »لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلاله قوله السابق:« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً »إلخ،و قوله:« اَللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ »إن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبى ص و يلبون دعوته و يتبعون شريعته.

فالمراد بالمتكلم مع الغير فى« رَبُّنَا »و« لَنَا أَعْمَالُنَا »و« بَيْنَنَا »هو(ص) و المؤمنون به،و بالمخاطبين فى قوله:« وَ رَبُّكُمْ »و« أَعْمَالُكُمْ »و« بَيْنَكُمْ »سائر الناس من أهل الكتاب و المشركين،و الآيه على وزان قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» :آل عمران:۶۴.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » الحجه هى القول الذى يقصد به إثبات شىء أو إبطاله من الحج بمعنى القصد،و الدحض البطلان و الزوال.

و المعنى:-على ما قيل-و الذين يحاجون فى الله أى يحتجون على نفى ربوبيته أو على إبطال دينه من بعد ما استجاب الناس له و دخلوا فى دينه لظهور الحجه و وضوح المحجه حجتهم باطله زائله عند ربهم و عليهم غضب منه تعالى و لهم عذاب شديد.

و الظاهر أن المراد بالاستجابه له ما هو حق الاستجابه و هو التلقى بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطره الإنسانيه السليمه فإن الدين بما فيه من المعارف فطرى تصدقه و تستجيب له الفطره الحيه قال تعالى: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ» :الأنعام:۳۶،و قال: «وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا» :الشمس:۸،و قال: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» :الروم:۳۰.

و محصل الآيه:على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو فى دينه بعد استجابه

الفطره السلیمه له أو بعد استجابه الناس بفطرتهم السلیمه له حجتهم باطله زائله عند ربهم و علیهم غضب منه و لهم عذاب شدید لا یقادر قدره.

و یؤید هذا الوجه بعض التأیید سیاق الآیات السابقه حیث تذکر أن الله شرع دینا و وصی به أنبیاءه و اجتبی إلیه من شاء من عباده فالمحاجه فی أن لله دینا یستعبد به عباده داحضه و من الممکن حینئذ أن یکون قوله:« اَللّٰهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزٰانَ »فی مقام التعلیل و حجه مدحضه لحجتهم فتدبر فیه.

و قیل:ضمیر« اَللّٰهِ »للرسول(ص)و المستجیب أهل الکتاب،و استجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه و نعوته فی کتبهم و المراد أن محاجتهم فی الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجتهم باطله عند ربهم.

و قیل:الضمیر له(ص)و المستجیب هو الله تعالی حیث استجاب دعاءه علی صنادید قریش فقتلهم یوم بدر،و دعاءه علی أهل مکه فابتلاهم بالقحط و السنه،و دعاءه علی المستضعفین حتی خلصهم الله من ید قریش إلی غیر ذلک من معجزاته،و المعنیان بعیدان من السیاق.

بحث روائی

فی روح المعانی،":فی قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللّٰهِ »الآیه":عن ابن عباس و مجاهد":نزلت فی طائفه من بنی إسرائیل-همت برد الناس عن الإسلام و إضلالهم- فقالوا:کتابنا قبل کتابکم و نبینا قبل نبیکم-فدیننا أفضل من دینکم":و فی روایه":بدل «فدیننا»إلخ فنحن أولی بالله منکم.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن المنذر عن عکرمه قال"*:لما نزلت إِذٰا جٰاءَ نَصْرُ اللّٰهِ وَ الْفَتْحُ -قال المشرکون بمکه لمن بین أظهرهم من المؤمنین: قد دخل الناس فی دین الله أفواجا-فاخرجوا من بین أظهرنا-فعلام تقیمون بین أظهرنا فنزلت:« وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا اسْتُجِیبَ لَهُ »الآیه.

أقول:مضمون الآیه لا ینطبق علی الروایه إذ لا محاجه فی القصه،و کذا الخبر السابق لا یفی بتوجیه قوله:« مِنْ بَعْدِ مٰا اسْتُجِیبَ لَهُ ».

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۷ الی ۲۶]

اشاره

اَللّٰهُ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ اَلْمِیزٰانَ وَ مٰا یُدْرِیکَ لَعَلَّ اَلسّٰاعَةَ قَرِیبٌ (۱۷) یَسْتَعْجِلُ بِهَا اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهٰا وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا
مُشْفِقُونَ مِنْهٰا وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا اَلْحَقُّ أَلاٰ إِنَّ اَلَّذِینَ یُمٰارُونَ فِی اَلسّٰاعَةِ لَفِی ضَلاٰلٍ بَعِیدٍ (۱۸) اَللّٰهُ لَطِیفٌ بِعِبٰادِهِ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ وَ هُوَ
اَلْقَوِیُّ اَلْعَزِیزُ (۱۹) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ حَرْثَ اَلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَ مَنْ کٰانَ یُرِیدُ حَرْثَ اَلدُّنْیٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِی اَلْآخِرَةِ مِنْ
نَصِیبٍ (۲۰) أَمْ لَهُمْ شُرَکٰاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ اَلدِّینِ مٰا لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اَللّٰهُ وَ لَوْ لاٰ کَلِمَةُ اَلْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلظّٰالِمِینَ لَهُمْ عَذٰابٌ
أَلِیمٌ (۲۱) تَرَی اَلظّٰالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمّٰا کَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فِی رَوْضٰاتِ اَلْجَنّٰاتِ لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْکَبِیرُ (۲۲) ذٰلِکَ اَلَّذِی یُبَشِّرُ اَللّٰهُ عِبٰادَهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ
اَلْمَوَدَّةَ فِی اَلْقُرْبیٰ وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیهٰا حُسْناً إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اَللّٰهُ
یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ وَ یَمْحُ اَللّٰهُ اَلْبٰاطِلَ وَ یُحِقُّ اَلْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ اَلَّذِی یَقْبَلُ اَلتَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ یَعْفُوا
عَنِ اَلسَّیِّئٰاتِ وَ یَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ یَسْتَجِیبُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَلْکٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ
(۲۶)

ص: ۳۷

بیان

فصل رابع من الآیات یعرف الوحی الإلهی بأن الدین النازل به کتاب مکتوب علی الناس و میزان یوزن به أعمالهم فیجزون بذلک یوم القیامه،و الجزاء الحسن من الرزق ثم یستطرد الکلام فی ما یستقبلهم یوم القیامه من الثواب و العقاب،و فیها آیه الموده فی القربی و ما یلحق بذلک.

قوله تعالی:« اَللّٰهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزٰانَ »إلخ،کان مفتتح الفصول السابقه فی سیاق الفعل إخبارا عن الوحی و غرضه و آثاره« کَذٰلِکَ یُوحِی إِلَیْکَ » « وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ »« شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ »و قد غیر السیاق فی مفتتح هذا الفصل فجیء بالجمله الاسمیه المتضمنه لتوصیفه تعالی بإنزال الکتاب و المیزان« اَللّٰهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتٰابَ »إلخ،و لازمه تعریف الوحی بنزول الکتاب و المیزان به.

و لعل الوجه فیه ما تقدم فی الآیه السابقه من ذکر المحاجه فی الله« وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللّٰهِ »فاستدعی ذلک تعریفه تعالی للمحاجین فیه بأنه الذی أنزل الکتاب بالحق و المیزان،و لازمه تعریف الوحی بأثره کما عرفت.

و کیف کان فالمراد بالکتاب هو الوحی المشتمل علی الشریعه و الدین الحاکم فی المجتمع البشری،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: «کٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً» XالآیهX البقره:۲۱۳ أن هذا المعنی هو المراد بالکتاب فی الکتاب،و کون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا یخالطه اختلاف شیطانی و لا نفسانی.

و المیزان ما یوزن و یقدر به الأشیاء،و المراد به بقرینه ذیل الآیه و الآیات التالیه هو الدین المشتمل علیه الکتاب حیث یوزن به العقائد و الأعمال فتحاسب علیه و یجزی بحسبه الجزاء یوم القیامه فالمیزان هو الدین بأصوله و فروعه،و یؤیده قوله تعالی:

«لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ» :الحديد:۲۵،علی ما هو ظاهر قوله:« مَعَهُمُ ».

و قیل:المراد به العدل و سمی العدل میزانا لأن المیزان آله الإنصاف و التسویه بین الناس و العدل کذلک و أید بسبق ذکر العدل فی قوله:« وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ».

و فیه أنه لا شاهد یشهد علیه من اللفظ،و قد تقدم أن المراد بالعدل فی« لِأَعْدِلَ »هو التسویه بین الناس فی التبلیغ و فی جریان الحکم دون عدل الحاکم و القاضی.

و قیل:المراد به المیزان المعروف المقدر للأثقال.و هو کما تری.

و قیل:المراد به النبی ص و یمکن إرجاعه إلی ما قدمناه من الوجه لأن النبی مصداق کامل و مثل أعلی للدین بأصوله و فروعه و لکل فرد من أمته من الزنه الدینیه قدر ما یشابهه و یماثله لکن لا یلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفا من آیه سوره الحدید کثیر ملاءمه.

و قوله:« وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّاعَةَ قَرِيبٌ »لما کان المیزان المشعر بالحساب و الجزاء یومئ إلی البعث و القیامه انتقل إلی الکلام فیه و إنذارهم بما سیستقبلهم فیه من الأهوال و التبشیر بما أعد فیه للصالحین.

و الادراء الاعلام،و المراد بالساعه-علی ما قیل-إتیانها و لذا جیء بالخبر مذکرا،و المعنی:ما الذی یعلمک لعل إتیان الساعه قریب و الخطاب للنبی ص بعنوان أنه سامع فیشمل کل من له أن یسمع و یعم الإنذار و التخویف.

قوله تعالی:« يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها »إلخ المراد استعجالهم استعجال سخریه و استهزاء و قد تکرر فی القرآن نقل قولهم:« مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ».

و الإشفاق نوع من الخوف،قال الراغب:الإشفاق عنایه مختلطه بخوف لأن المشفق یحب المشفق علیه و یخاف ما یلحقه،قال تعالی:« وَ هُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقُونَ » فإذا عدی بمن فمعنی الخوف فیه أظهر،و إذا عدی بفی فمعنی العنایه فیه أظهر،قال تعالی:« إِنّا كُنّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ »« مُشْفِقُونَ مِنْها »انتهی.

و قوله:« أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ » المماراه الإصرار علی الجدال،و المراد إلحاحهم علی إنکارها بالجدال،و إنما کانوا فی ضلال بعید لأنهم أخطئوا

طریق الحیاه التی أصابتها أهم ما یتصور للإنسان فتوهموها حیاه مقطوعه فانیه انکبوا فیها علی شهوات الدنیا و إنما هی حیاه خالده باقیه یجب علیهم أن یتزودوا من دنیاهم لأخراهم لکنهم ضلوا عن سبیل الرشد فوقعوا فی سبیل الغی.

قوله تعالی:« اَللّهُ لَطِیفٌ بِعِبادِهِ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ »فی معنی اللطف شیء من الرفق و سهوله الفعل و شیء من الدقه فی ما یقع علیه الفعل فإذا تم الرفق و الدقه و کان الفاعل یفعل برفق و سهوله و یقع فعله علی الأمور الدقیقه کان لطیفا کالهواء النافذ فی منافذ الأجسام برفق و سهوله المماس لدقائق أجزائها الباطنه.و إذا ألقیت الخصوصیات المادیه عن هذا المعنی صح أن یتصف به الله سبحانه فإنه تعالی ینال دقائق الأمور بإحاطته و علمه و یفعل فیها ما یشاء برفق فهو لطیف.

و قد رتب الرزق فی الآیه علی کونه تعالی لطیفا بعباده قویا عزیزا دلاله علی أنه تعالی بلطفه لا یغیب عنه أحد ممن یشاء أن یرزق و لا یعصیه و بقوته علیه لا یعجز عنه و بعزته لا یمنعه مانع عنه.

و المراد بالرزق ما یعم موهبه الدین الذی یتلبس بها من یشاء من عباده علی ما یشهد به الآیه التالیه،و لذا ألحق القول فیه بقوله:« اَللّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزانَ ».

قوله تعالی:« مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ »إلخ، الحرث الزرع و المراد به نتیجه الأعمال التی یؤتاها الإنسان فی الآخره علی سبیل الاستعاره کان الأعمال الصالحه بذور و ما تنتجه فی الآخره حرث.

و المراد بالزیاده له فی حرثه تکثیر ثوابه و مضاعفته،قال تعالی: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» :الأنعام:۱۶۰،و قال: «وَ اللّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ» :البقره:۲۶۱.

و قوله:« وَ مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ الدُّنْیا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَهِ مِنْ نَصِیبٍ » أی و من کان یرید النتائج الدنیویه بأن یعمل للدنیا و یرید نتیجه ما عمله فیها دون الآخره نؤته من الدنیا و ما له فی الآخره نصیب،و فی التعبیر بإراده الحرث إشاره إلی اشتراط العمل لما یریده من الدنیا و الآخره کما قال تعالی: «وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعی» :النجم:۳۹.

و قد أبهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال:« نُؤْتِهِ مِنْها »إشاره إلى أن الأمر إلى المشيه الإلهيه فربما بسطت الرزق و ربما قدرت كما قال تعالى: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَهَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» :إسراء:١٨.

و الالتفات من الغيبه إلى التكلم بالغير فى قوله« نَزِدْ لَهُ »و« نُؤْتِهِ مِنْها »للدلاله على العظمه التى يشعر بها قوله:« وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ».

و المحصل من معنى الآيتين:أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعا ذو قوه مطلقه و عزه مطلقه يرزق عباده على حسب مشيته و قد شاء فى من أراد الآخره و عمل لها أن يرزقه منها و يزيد فيه،و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يؤتيه منها و ما له فى الآخره من نصيب.

و يظهر من ذلك أن الآيه الأولى عامه تشمل الفريقين،و المراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا و الآخره،و كذا الرزق و أن الآيه الثانيه فى مقام تفصيل ما فى قوله:« يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ »من الإجمال.

قوله تعالى:« أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّهُ »إلى آخر الآيه لما بين أن الله سبحانه هو الذى أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذى هو ميزان أعمالهم و أنه بلطفه و قوته و عزته يرزق من أراد الآخره و عمل لها ما أراده منها و يزيد،و إن من أراد الدنيا و نسى الآخره لا نصيب له فيها سجل على من كفر بالآخره عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخره فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع دينا غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله و لا يرزق فى الآخره رزقا حسنا إلا من آمن بها و عمل لها.

فقوله :«أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ »إلخ،فى مقام الإنكار،و قوله:« وَ لَوْ لا كَلِمَهُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ »إشاره إلى الكلمه التى سبقت منه تعالى أنهم يعيشون فى الأرض إلى أجل مسمى،و فيه إكبار لجرمهم و معصيتهم.

و قوله:« وَ إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ »وعيد لهم على ظلمهم،و إشاره إلى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم و لم يعذبهم فى الدنيا فلهم فى الآخره عذاب أليم.

قوله تعالى:« تَرَى الظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ »إلخ،الخطاب للنبى ص بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى،و المراد بالظالمين التاركون لدين الله الذى شرعه لعباده المعرضون عن الساعه،و المعنى:يرى الراءون هؤلاء الظالمين يوم القيامه خائفين مما كسبوا من السيئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

و الآيه من الآيات الظاهره فى تجسم الأعمال،و قيل:فى الكلام مضاف محذوف و التقدير مشفقين من وبال ما كسبوا،و لا حاجه إليه.

و قوله:« وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحٰاتِ فِي رَوْضٰاتِ الْجَنّٰاتِ »فى المجمع،:أن الروضه الأرض الخضره بحسن النبات،و الجنه الأرض التى تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجره المخضره متونها.

و قوله:« لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ »أى إن نظام الأسباب مطوى فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاءون ذلك هو الفضل الكبير.

و قوله:« ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللّٰهُ عِبٰادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحٰاتِ »تبشير للمؤمنين الصالحين،و إضافه العباد تشريفيه.

قوله تعالى:« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ »الذى نفى سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرساله و الدعوه الدينيه،و قد حكى الله ذلك عن عده ممن قبله (ص)من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب فيما حكى مما يخاطب كل منهم أمته:« وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ »الشعراء و غيرها.

و قد حكى عن النبى ص ذلك إذ قال: «وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» :

يوسف:۱۰۴،و قد أمره(ص)أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفه حيث قال: «قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» :_ص ۸۶،و قال: «قُلْ مٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللّٰهِ» :سبأ:۴۷،و قال: «قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرىٰ لِلْعٰالَمِينَ» الأنعام:۹۰،فأشار إلى وجه النفى و هو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر.

و قال: «قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً»:

الفرقان:۵۷،و معناه علی ما مر فی تفسیر الآیه:إلا أن یشاء أحد منکم أن یتخذ إلی ربه سبیلا أی یستجیب دعوتی باختیاره فهو أجری أی لا شیء هناک وراء الدعوه أی لا أجر.

و قال تعالی فی هذه السوره:« قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ » فجعل أجر رسالته الموده فی القربی،و من المتیقن من مضامین سائر الآیات التی فی هذا المعنی أن هذه الموده أمر یرجع إلی استجابه الدعوه إما استجابه کلها و إما استجابه بعضها الذی یهتم به و ظاهر الاستثناء علی أی حال أنه متصل بدعوی کون الموده من الأجر و لا حاجه إلی ما تمحله بعضهم بتقریب الانقطاع فیه.

و أما معنی الموده فی القربی فقد اختلف فیه تفاسیرهم:

فقیل-و نسب إلی الجمهور-أن الخطاب لقریش و الأجر المسئول هو مودتهم للنبی ص لقرابته منهم و ذلک لأنهم کانوا یکذبونه و یبغضونه لتعرضه لآلهتهم علی ما فی بعض الأخبار فأمر(ص)أن یسألهم:إن لم یؤمنوا به فلیودوه لمکان قرابته منهم و لا یبغضوه و لا یؤذوه فالقربی مصدر بمعنی القرابه،و فی للسببیه.

و فیه أن معنی الأجر إنما یتم إذا قوبل به عمل یمتلکه معطی الأجر فیعطی العامل ما یعادل ما امتلکه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قریش و هم کانوا مکذبین له کافرین بدعوته إنما کان یصح علی تقدیر إیمانهم به(ص)لأنهم علی تقدیر تکذیبه و الکفر بدعوته لم یأخذوا منه شیئا حتی یقابلوه بالأجر،و علی تقدیر الإیمان به -و النبوه أحد الأصول الثلاثه فی الدین-لا یتصور بغض حتی تجعل الموده أجرا للرساله و یسأل.

و بالجمله لا تحقق لمعنی الأجر علی تقدیر کفر المسئولین و لا تحقق لمعنی البغض علی تقدیر إیمانهم حتی یسألوا الموده.

و هذا الإشکال وارد حتی علی تقدیر أخذ الاستثناء منقطعا فإن سؤال الأجر منهم علی أی حال إنما یتصور علی تقدیر إیمانهم و الاستدراک علی الانقطاع إنما هو عن الجمله بجمیع قیودها فأجد التأمل فیه.

و قیل:المراد بالموده فی القربی ما تقدم و الخطاب للأنصار فقد قیل:إنهم

أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآيه فرده،و قد كان له منهم قرابه من جهه سلمى بنت زيد النجاريه و من جهه أخوال أمه آمنه على ما قيل.

و فيه أن أمر الأنصار فى حبهم للنبى ص أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب و هم الذين سألوه أن يهاجر إليهم،و بوءوا له الدار،و فدوه بالأنفس و الأموال و البنين و بذلوا كل جهدهم فى نصرته و حتى فى الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به، و قد مدحهم الله تعالى بمثل قوله: «وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ» :الحشر:٩،و هذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبى ص فما هو الظن فى حبهم له؟.

و إذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبى ص أن يتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم هذه القرابه البعيده؟.

على أن العرب ما كانت تعتنى بالقرابه من جهه النساء ذاك الاعتناء و فيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

و القائل:

و إنما أمهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنساب آباء

و إنما هو الإسلام أدخل النساء فى القرابه و ساوى بين أولاد البنين و أولاد البنات و قد تقدم الكلام فى ذلك.

و قيل:الخطاب لقريش و الموده فى القربى هى الموده بسبب القرابه غير أن المراد بها موده النبى ص لا موده قريش كما فى الوجه الأول،و الاستثناء منقطع، و محصل المعنى:أنى لا أسألكم أجرا على ما أدعوكم إليه من الهدى الذى ينتهى بكم إلى روضات الجنات و الخلود فيها و لا أطلب منكم جزاء لكن حبى لكم بسبب قرابتكم منى دفعنى إلى أن أهديكم إليه و أدلكم عليه.

و فيه أنه لا يلائم ما يخده الله سبحانه له(ص)فى طريق الدعوه و الهدايه فإنه تعالى يسجل عليه فى مواضع كثيره من كلامه أن الأمر فى هدايه الناس إلى الله و ليس له من الأمر شىء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردهم دعوته و إنما عليه البلاغ فلم يكن

له أن ینـدفع إلی هـدایه أحـد لحب قرابه أو یعرض عن هدایه آخرین لبغض أو کراهه و مع ذلک کله کیف یتصور أن یأمره الله بقوله:« قُـلْ لاـ أَسْـئَلُکُمْ »الآـیه أن یخبر کفـار قریش أنه إنما انـدفع إلی دعوتهم و هـدایتهم بسـبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر یسألهم إیاه علیه.

و قیل:المراد بالموده فی القربی موده الأقرباء و الخطاب لقریش أو لعامه الناس و المعنی:لا أسألکم علی دعائی أجرا إلا أن تودوا أقرباءکم.

و فیه أن موده الأقرباء علی إطلاقهم لیست مما یندب إلیه فی الإسلام قال تعالی:

«لاـ تَجِدُ قَوْمـاً یُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْـآخِرِ یُوادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کـانُوا آبـاءَهُمْ أَوْ أَبْنـاءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِـیرَتَهُمْ أُولئِـکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمـانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» المجـادله:۲۲،و سـیاق هـذه الآیه لا یلائم کونها مخصـصه أو مقیده لعموم قوله:« إِلَّا الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی »أو إطلاقه حتی تکون الموده للأقرباء المؤمنین هی أجر الرساله علی أن هذه الموده الخاصه لا تلائم خطاب قریش أو عامه الناس.

بل الذی یفیده سـیاق الآیه أن الذی یندب إلیه الإسلام هو الحب فی الله من غیر أن یکون للقرابه خصوصیه فی ذلک،نعم هناک اهتمام شدیـد بأمر القرابه و الرحم لکنه بعنوان صـله الرحم و إیتاء المال،علی حبه ذوی القربی لا بعنوان موده القربی فلا حب إلا لله عز اسمه.

و لا مساغ للقول بأن الموده فی القربی فی الآیه کنایه عن صـلتهم و الإحسان إلیهم بإیتاء المال إذ لیس فی الکلام ما یـدفع کون المراد هو المعنی الحقیقی غیر الملائم لما ندب إلیه الإسلام من الحب فی الله.

و قیـل:معنی القربی هو التقرب إلی الله،و الموده فی القربی هی التودد إلیه تعـالی بالطـاعه و التقرب فالمعنی:لا أسألکم علیه أجرا إلا أن تتوددوا إلیه تعالی بالتقرب إلیه.

و فیه أن فی قوله:« إِلاَّـ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی »علی هـذا المعنی إبهاما لا یصـلح به أن یخاطب به المشـرکون فإن حاق مـدلوله التودد إلیه-أو وده تعالی-بالتقرب إلیه و المشرکون لا ینکرون ذلک بل یرون ما هم علیه من عباده الآلهه توددا إلیه بالتقرب

منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى» الزمر:۳، «هؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ» :يونس:۱۸.

فسؤال التودد إلى الله بالتقرب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده،و جعل ذلك أجرا مطلوبا ممن يرى شركه نوع تودد إلى الله بالتقرب إليه،و خطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام-و المقام مقام تمحيضه(ص)نفسه فى دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئا قط-مما لا يرتضيه الذوق السليم.

على أن المستعمل فى الآيه هو الموده دون التودد فالمراد بالموده حبهم لله فى التقرب إليه و لم يرد فى كلامه تعالى إطلاق الموده على حب العباد لله سبحانه و إن ورد العكس كما فى قوله: «إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ» :هود:۹۰،و قوله: «وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» :البروج:۱۴،و لعل ذلك لما فى لفظ الموده من الإشعار بمراعاه حال المودود و تعاهده و تفقده،حتى قال بعضهم-على ما حكاه الراغب-أن موده الله لعباده مراعاته لهم.

و الإشكال السابق على حاله و لو فسرت الموده فى القربى بمواده الناس بعضهم بعضا و محابتهم فى التقرب إلى الله بأن تكون القربات أسبابا للموده و الحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون.

و قيل:المراد بالموده فى القربى،موده قرابه النبى ص و هم عترته من أهل بيته(ع)و قد وردت به روايات من طرق أهل السنه و تكاثرت الأخبار من طرق الشيعه على تفسير الآيه بمودتهم و موالاتهم،و يؤيده الأخبار المتواتره من طرق الفريقين على وجوب موالاه أهل البيت(ع)و محبتهم.

ثم التأمل الكافى فى الروايات المتواتره الوارده من طرق الفريقين عن النبى ص المتضمنه لإرجاع الناس فى فهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين و فروعها و بيان حقائقه إلى أهل البيت(ع)كحديث الثقلين و حديث السفينه و غيرهما لا يدع ريبا فى أن إيجاب مودتهم و جعلها أجرا للرساله إنما كان ذريعه إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعيه العلميه.

فالموده المفروضه على كونها أجرا للرساله لم تكن أمرا وراء الدعوه الدينيه

من حیث بقائها و دوامها،فالآیه فی مؤداها لا تغایر مؤدی سائر الآیات النافیه لسؤال الأجر.

و یئول معناها إلی أنی لا أسألکم علیه أجرا إلا أن الله لما أوجب علیکم موده عامه المؤمنین و من جملتهم قرابتی فإنی أحتسب مودتکم لقرابتی و أعدها أجرا لرسالتی، قال تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا» :مریم:۹۶ و قال: «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ» :التوبه:۷۱.

و بذلک یظهر فساد ما أورد علی هذا الوجه أنه لا یناسب شأن النبوه لما فیه من التهمه فإن أکثر طلبه الدنیا یفعلون شیئا و یسألون علیه ما یکون فیه نفع لأولادهم و قراباتهم.

و أیضا فیه منافاه لقوله تعالی: «وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ» :یوسف:۱۰۴.

وجه الفساد أن إطلاق الأجر علیها و تسمیتها به إنما هو بحسب الدعوی و أما بحسب الحقیقه فلا یزید مدلول الآیه علی ما یدل علیه الآیات الآخر النافیه لسؤال الأجر کما عرفت و ما فی ذلک من النفع عائد إلیهم فلا مورد للتهمه.

علی أن الآیه علی هذا مدنیه خوطب بها المسلمون و لیس لهم أن یتهموا نبیهم المصون بعصمه إلهیه-بعد الإیمان به و تصدیق عصمته-فیما یأتیهم به من ربهم و لو جاز اتهامهم له فی ذلک و کان ذلک غیر مناسب لشأن النبوه لا یصلح لأن یخاطب به، لاطرد مثل ذلک فی خطابات کثیره قرآنیه کالآیات الداله علی فرض طاعته المطلقه و الداله علی کون الأنفال و الغنائم لله و لرسوله،و الداله علی خمس ذوی القربی،و ما أبیح له فی أمر النساء و غیر ذلک.

علی أنه تعالی تعرض لهذه التهمه و دفعها فی قوله الآتی:« أَمْ یَقُولُونَ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اللّٰهُ یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ »الآیه علی ما سیأتی.

و هب أنا صرفنا الآیه عن هذا المعنی بحملها علی غیره دفعا لما ذکر من التهمه فما هو الدافع لها عن الأخبار التی لا تحصی کثره الوارده من طرق الفریقین فی إیجاب موده أهل البیت عنه(ص)؟.

و أما منافاه هذا الوجه لقوله تعالی:« وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ »فقد اتضح

بطلانه مما ذكرناه،و الآيه بقياس مدلولها إلى الآيات النافيه لسؤال الأجر نظيره قوله تعالى: «قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً» :الفرقان:۵۷.

قال فی الکشاف بعد اختیاره هذا الوجه:فإن قلت:هلا قیل:إلا موده القربی أو إلا الموده للقربی،و ما معنی قوله:إلا الموده فی القربی؟ قلت:جعلوا مکانا للموده و مقرا لها کقولک:لی فی آل فلان موده،و لی فیهم هوی و حب شدید،ترید أحبهم و هم مکان حبی و محله.

قال:و لیست فی بصله للموده کاللام إذا قلت:إلا الموده للقربی.إنما هی متعلقه بمحذوف تعلق الظرف به فی قولک:المال فی الکیس،و تقدیره:إلا الموده ثابته فی القربی و متمکنه فیها.انتهی.

قوله تعالی:« وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهٰا حُسْناً إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » الاقتراف الاکتساب،و الحسنه الفعله التی یرتضیها الله سبحانه و یثیب علیها،و حسن العمل ملاءمته لسعاده الإنسان و الغایه التی یقصدها کما أن مساءته و قبحه خلاف ذلک،و زیاده حسنها إتمام ما نقص من جهاتها و إکماله و من ذلک الزیاده فی ثوابها کما قال تعالی: «وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كٰانُوا يَعْمَلُونَ» :العنکبوت:۷،و قال:

«لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» :النور:۳۸.

و المعنی:و من یکتسب حسنه نزد له فی تلک الحسنه حسنا-برفع نقائصها و زیاده أجرها-إن الله غفور یمحو السیئات شکور یظهر محاسن العمل من عامله.

و قیل:المراد بالحسنه موده قربی النبی ص و یؤیده ما فی روایات أئمه أهل البیت(ع)أن قوله:« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً »إلی تمام أربع آیات نزلت فی موده قربی النبی ص،و لازم ذلک کون الآیات مدنیه و أنها ذات سیاق واحد و أن المراد بالحسنه من حیث انطباقها علی المورد هی الموده،و علی هذا فالإشاره بقوله:« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ »إلخ،إلی بعض ما تفوه به المنافقون تثاقلا عن قبوله و فی المؤمنین سماعون لهم،و بقوله:« وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ »إلی آخر الآیتین إلی توبه الراجعین منهم و قبولها.

و فی قوله:« إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ »التفات من التکلم إلی الغیبه و الوجه فیه الإشاره إلی عله الاتصاف بالمغفره و الشکر فإن المعنی:أن الله غفور شکور لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالی:« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّهِ كَذِباً »إلی آخر الآیه أم منقطعه، و الکلام مسوق للتوبیخ و لازمه إنکار کونه(ص)مفتریا علی الله کذبا.

و قوله:« فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ »معناه علی ما یعطیه السیاق أنک لست مفتریا علی الله کذبا فإنه لیس لک من الأمر شیء حتی تشاء الفریه فتأتی بها و إنما هو وحی من الله سبحانه من غیر أن یکون لک فیه صنع و الأمر إلی مشیته تعالی فإن یشأ یختم علی قلبک و سد باب الوحی إلیک،لکنه شاء أن یوحی إلیک و یبین الحق،و قد جرت سنته أن یمحو الباطل و یحق الحق بکلماته.

فقوله:« فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ »کنایه عن إرجاع الأمر إلی مشیه الله و تنزیه لساحه النبی ص أن یأتی بشیء من عنده.

و هذا المعنی-کما ستری-أنسب للسیاق بناء علی کون المراد بالقربی قرابه النبی ص و التوبیخ متوجها إلی المنافقین و مرضی القلوب.

و قد ذکروا فی معنی الجمله وجوها أخر:

منها:ما ذکره الزمخشری فی الکشاف حیث فسر قوله:« فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ »بقوله:فإن یشإ الله یجعلک من المختوم علی قلوبهم حتی تفتری علیه الکذب فإنه لا یفتری علی الله الکذب إلا من کان فی مثل حالهم.

و هذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله و أنه فی البعد مثل الشرک بالله و الدخول فی جمله المختوم علی قلوبهم،و مثال هذا أن یخون بعض الأمناء فیقول:لعل الله خذلنی لعل الله أعمی قلبی و هو لا یرید إثبات الخذلان و عمی القلب و إنما یرید استبعاد أن یخون مثله و التنبیه علی أنه رکب من تخوینه أمر عظیم.انتهی.

و منها ما قیل:إن المعنی لو حدثت نفسک بأن تفتری علی الله الکذب لطبع

الله على قلبك و لأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفترى على الله،و هذا كقوله:« لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ».

و منها ما قيل:إن معناه فإن يشإ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم:إنه مفتر و ساحر،و هى وجوه لا تخلو من ضعف.

و منها ما قيل:إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم و هو تسليه للنبى ص ليشكر ربه على ما آتاه من النعمه.

و منها ما قيل:إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلوب الكفار و على ألسنتهم و يعاجلهم بالعذاب،و عدل عن الغيبه إلى الخطاب و عن الجمع إلى الإفراد،و المراد:

يختم على قلبك أيها القائل:أنه افترى على الله كذبا.

و قوله:« وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ »الإتيان بالمضارع-يمحو و يحق-للدلاله على الاستمرار،فمحو الباطل و إحقاق الحق بالكلمات سنه جاريه له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحى الإلهى و التكليم الربوبى و يمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث أنها مفصحه عن الضمير الغيبى.

و قوله:« إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ »تعليل لقوله:« وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ إلخ أى أنه يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب و ما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحى و توجيه الدعوه.

قيل:و فى الآيه إشعار بوعد النبى ص بالنصر و لا يخلو من وجه.

قوله تعالى:« وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئٰاتِ وَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ »يقال:قبل منه و قبل عنه قال فى الكشاف:يقال: قبلت منه الشىء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدأ قبولى و منشأه،و معنى قبلته عنه عزلته و أبنته عنه.انتهى.

و فى قوله:« وَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ »تحضيض على التوبه و تحذير عن اقتراف السيئات و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ »فاعل« يَسْتَجِيبُ »ضمير راجع إليه تعالى و« اَلَّذِينَ آمَنُوا »

إلـخ،فی موضع المفعول بنزع الخافض و التقـدیر و یسـتجیب للذین-آمنوا علی ما قیل- و قیل:فاعل« یَسْـتَجِیبُ »هو« اَلَّذِینَ »و هو بعید من السیاق.

و الاسـتجابه إجـابه الـدعاء و لمـا کانت العباده دعوه له تعالی عبر عن قبولها بالاسـتجابه لهم،و الـدلیل علی هـذا المعنی قوله:« وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ »فإن ظاهره زیاده الثواب و کذا مقابله استجابه المؤمنین بقوله:« وَ الْکافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ ».

و قیل:المراد أنه یستجیب لهم إذا دعوه و أعطاهم ما سألوه و زادهم علی ما طلبوه و هو بعید من السـیاق.علی أن اسـتجابه الدعاء لا یختص بالمؤمن.

بحث روائی

فی المجمع،روی زادان عن علی(ع)قـال: فینـا فی آل حم آیه لاـ یحفظ مودتنا إلا کل مؤمن.ثم قرأ« قُلْ لا أَسْـئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی ».

قال الطبرسی:و إلی هذا أشار الکمیت فی قوله:

وجدنا لکم فی آل حم آیه

تأولها منا تقی و معرب

و فیه،و صح عن الحسن بن علی(ع): أنه خطب الناس فقال فی خطبته:

إنا من أهل البیت الذین افترض الله مودتهم-علی کل مسلم-فقال:« قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی ».

و فی الکافی،بإسناده عن عبد الله بن عجلان عن أبی جعفر(ع) *فی قوله تعالی:

« قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً-إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی »قال:هم الأئمه.

أقول:و الأخبار فی هذا المعنی من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت (ع) کثیره جدا مرویه عنهم.

و فی الـدر المنثور،أخرج أحمـد و عبـد بن حمید و البخاری و مسـلم و الترمذی و ابن جریر و ابن مردویه من طریق طاووس عن ابن عباس" *أنه سـئل عن قوله:« إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی »فقال سعید بن جبیر:هم قربی آل محمد-فقال ابن عباس:عجلت-إن النبی ص لم یکن بطن من قریش-إلا کان له فیهم قرابه-فقال:إلا أن تصلوا ما بینی و بینکم من القرابه.":

أقول:و رواه أيضا عن ابن عباس بطرق أخرى غير هـذا الطريق ،و قـد تقـدم فى بيان الآيه أن هـذا المعنى غير مسـتقيم و لا منطبق على سياق الآيه،و من العجيب ما فى بعض هـذه الطرق أن الآيه منسوخه بقوله تعالى:« قُلْ مٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ ».

و فيه،أخرج أبو نعيم و الديلمى من طريق مجاهد عن ابن عباس قال*:قال رسول الله ص:

لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ

-أن تحفظونى فى أهل بيتى و تودوهم لى.

و فيه،أخرج ابن المنذر،و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه بسـند ضـعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال*: لما نزلت هـذه الآـيه« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً-إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ »قالوا:يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الـذين وجبت مودتهم-قال:على و فاطمه و ولداها.:

أقول:و رواه الطبرسى فى المجمع،: و فيها«و ولدها»مكان«و ولداها».

و فيه،أخرج ابن جرير عن أبى الـديلم قـال*: لمـا جىء بعلى بن الحسـين أسـيرا فـأقيم على درج دمشق-قـام رجل من أهل الشام فقال:الحمـد لله الذى قتلكم و استأصـلكم -فقال له على بن الحسـين:أ قرأت القرآن؟قال:نعم.قال:أ قرأت آل حم؟قال:نعم- قال:أ ما قرأت« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً-إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ »؟قال:فإنكم لأنتم هم؟قال:نعم.

و فيه،أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس" *« وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً »قال:الموده لآل محمد":

أقول:و روى ما فى معناه فى الكافى،بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع) .

و فى تفسـير القمى،حدثنى أبى عن ابن أبى نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسـلم قال*:سمعت أبا جعفر(ع)يقول: فى قول الله عز و جل:« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً-إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ »يعنى فى أهل بيته.

قال:جاءت الأنصار إلى رسول الله ص-فقالوا:إنا قد آوينا و نصـرنا فخذ طائفه من أموالنا-فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عز و جل« قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ »أى فى أهل بيته.

ثم قال:أ لا ترى أن الرجل يكون له صديق-و فى نفس ذلك الرجل شىء على أهل بيته-فلا يسلم صدره-فأراد الله عز و جل أن لا يكون فى نفس رسول الله ص شىء على أمته-ففرض الله عليهم الموده فى القربى-فإن أخذوا أخذوا مفروضا،و إن تركوا تركوا مفروضا.

قال:فانصرفوا من عنده و بعضهم يقول:عرضنا عليه أموالنا-فقال:لا.قاتلوا عن أهل بيتى من بعدى،و قال طائفه:ما قال هذا رسول الله و جحدوه-و قالوا كما حكى الله عز و جل:« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً »فقال عز و جل:« فَإِنْ يَشَإِ اللّٰهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ »قال:لو افتريت« وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ »يعنى يبطله« وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ »يعنى بالأئمه و القائم من آل محمد(ع)« إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ ».:

أقول:و روى قصه الأنصار السيوطى فى الدر المنثور،عن الطبرانى و ابن مردويه من طريق ابن جبير و ضعفه.

[سوره الشورى (۴۲): الآيات ۲۷ الى ۵۰]

اشاره

وَ لَوْ بَسَطَ اَللّٰهُ اَلرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِي اَلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ اَلَّذِي يُنَزِّلُ اَلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ اَلْوَلِيُّ اَلْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آيٰاتِهِ خَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ هُوَ عَلىٰ جَمْعِهِمْ إِذٰا يَشٰاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۳۱) وَ مِنْ آيٰاتِهِ اَلْجَوٰارِ فِي اَلْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ (۳۲) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ اَلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ (۳۳) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمٰا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (۳۴) وَ يَعْلَمَ اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۵) فَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۳۶) وَ اَلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (۳۷) وَ اَلَّذِينَ اِسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۸) وَ اَلَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ اَلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ اَلظّٰالِمِينَ (۴۰) وَ لَمَنِ اِنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ مٰا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (۴۱) إِنَّمَا اَلسَّبِيلُ عَلَى اَلَّذِينَ يَظْلِمُونَ اَلنّٰاسَ وَ يَبْغُونَ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۴۳) وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى اَلظّٰالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (۴۴) وَ تَرٰاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا خٰاشِعِينَ مِنَ اَلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قٰالَ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اَلْخٰاسِرِينَ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ أَلاٰ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ فِي عَذٰابٍ مُقِيمٍ (۴۵) وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (۴۶) اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ اَلْإِنْسٰانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ اَلذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰)

بیان

صـدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور فى قوله:« اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ »و قد سـبقه قوله:« لَهُ مَقٰالِيدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ » و قد تقدمت الإشاره إلى أن من الرزق نعمه الدين التى آتاها الله سـبحانه عباده المؤمنين و بهذه العنايه دخل الكلام فيه فى الكلام على الوحى الذى سيقت لبيانه آيات السوره و انعطف عليه انعطافا بعد انعطاف.

ثم يـذكر بعض آيـات التوحيـد المتعلقه بالرزق كخلق السـماوات و الأرض و بث الـدواب فيهما و السـفائن الجوارى فى البحر و إيتاء الأولاد الذكور و الإناث أو إحداهما لمن يشاء و جعل من يشاء عقيما.

ثم يـذكر أن من الرزق مـا آتـاهموه فى الـدنيا و هو متاعهـا الفانى بفنائها و منه ما يخص المؤمنين فى الآخره و هو خير و أبقى،و ينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين

ص: ۵۵

و حسن عاقبتهم و إلى وصف ما يلقاه الظالمون و هم غيرهم فى عقباهم من أهوال القيامه و عذاب الآخره.

و وراء ذلك فى خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام و الإنذار و التخويف و الدعوه إلى الحق و حقائق المعارف شيء كثير.

قوله تعالى:« وَ لَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ » القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق:

« يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ »و القدر بفتح الدال و سكونها كميه الشيء و هندسته و منه قوله:« وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ »أو جعل الشيء على كميه معينه و منه قوله:

«فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ» :المرسلات:۲۳.

و البغى الظلم،و قوله:« بِعِبادِهِ »من وضع الظاهر موضع الضمير،و النكته فيه الإشاره إلى بيان كونه خبيرا بصيرا بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له،و كذا قوله السابق:« لِعِبادِهِ »لا يخلو من إشاره إلى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنهم عباده و رزق العبد على مولاه.

و معنى الآيه:و لو وسع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا فى الأرض-لما أن من طبع سعه المال الأشر و البطر و الاستكبار و الطغيان كما قال تعالى:

«إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» :العلق:۷-و لكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر و كميه معينه أنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد و ما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك.

ففى قوله:« وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ »بيان للسنه الإلهيه فى إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أى إن لصلاح حالهم أثرا فى تقدير أرزاقهم،و لا ينافى ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين و نماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنه أخرى حاكمه على هذه السنه و هى سنه الابتلاء و الامتحان،قال تعالى: «إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ» :التغابن:۱۵،و سنه أخرى هى سنه المكر و الاستدراج،قال تعالى:

«سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» :الأعراف:۱۸۳.

فسنه الإصلاح بتقدير الرزق سنه ابتدائيه يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه

الله كما قال: «وَ لِيَبْتَلِيَ اللّٰهُ مٰا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ» :آل عمران:۱۵۴ أو يغير النعمه و يكفر بها فيغير الله فی حقه سنته فيعطيه ما يطغيه،قال تعالى: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» :الرعد:۱۱.

و كما أن إيتاء المال و البنين و سائر النعم الصوريه من الرزق المقسوم كـذلك المعارف الحقه و الشـرائع السـماويه المنتهيه إلى الوحى من حيث إنزالها و من حيث الابتلاء بها و التلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم.

فلو نزلت المعـارف و الأحكـام عن آخرها دفعه واحـده-على ما لها من الإحاطه و الشـمول لجميع شـئون الحياه الإنسانيه-لشـقت على النـاس و لم يؤمن بهـا إلا الأوحـدى منهم لكن الله سـبحانه أنزلها على رسوله ص تـدريجا و على مكث و هيأ بـذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض،قال تعالى: «وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّٰاسِ عَلىٰ مُكْثٍ» إسراء:۱۰۶.

و كـذا المعـارف العاليه التى هى فى بطون المعارف الساذجه الـدينيه لو لم يضـرب عليها بالحجاب و بينت لعامه الناس على حد الظواهر المبينه لهم لم يتحملوها و دفعته أفهامهم إلا الأوحدى منهم لكن الله سبحانه كلمهم فى ذلك نوع تكليم يستفيد منه كل على قدر فهمه و سعه صدره كما قال فى مثل ضربه فى ذلك: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا» :الرعد:۱۷.

و كـذلك الأحكـام و التكـاليف الشـرعيه لو كلف بجميعها جميع الناس لتحرجوا منها و لم يتحملوها لكنه سـبحانه قسـمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضيه لتوجه التكاليف المتنوعه بينهم.

فالرزق بالمعارف و الشرائع من أى جهه فرض كالرزق الصورى مفروض بين الناس مقدر على حسب صلاح حالهم.

قوله تعـالى:« وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيـدُ » القنوط اليأس،و الغيث المطر،قال فى مجمع البيان:الغيث ما كان نافعا فى وقته،و المطر قـد يكون نافعا و قد يكون ضارا فى وقته و غير وقته.انتهى.و نشـر الرحمه تفريق النعمه بين الناس بإنبات النبات و إخراج الثمار التى يكون سببها المطر.

ص :۵۷

و فى الآـيه انتقال من حـديث الرزق إلى آيات التوحيـد التى لها تعلق ما بالأرزاق، و يتلوها فى هـذا المعنى آيات،و تـذييل الآيه بالاسمين:الولى الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه فى فعله الجميل.

قوله تعالى:« وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّهٍ »إلـخ، البث التفريق،و يقال:بث الريـح التراب إذا أثاره،و الدابه كل ما يدب على الأرض فيعم الحيوانات جميعا،و المعنى ظاهر.

و ظاهر الآـيه أن فى السـماوات خلقـا من الـدواب كالأرض،و قول بعضـهم:إن ما فى السـموات من دابه هى الملائكه يـدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكه غير معهود.

و قوله:« وَ هُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ »إشاره إلى حشر ما بث فيهما من دابه و قد عبر بالجمع لمقابلته البث الذى هو التفريق،و لا دلاله فى قوله:« عَلَىٰ جَمْعِهِمْ » حيث أتى بضمير أولى العقل على كون ما فى السماوات من الدواب أولى عقل كالإنسان لقوله تعـالى: «وَ مَا مِنْ دَابَّهٍ فِى الْأَرْضِ وَ لاـ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَـىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَـرُونَ» :الأنعام:٣٨.

و القدير من أسمائه تعالى الحسنى و هو الذى أركزت فيه القدره و ثبتت،قال الراغب:القدره إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئه له بهـا يتمكن من فعـل شـىء مـا، و إذا وصف الله بهـا فهى نفى العجز عنه،و محـال أن يوصف غير الله بالقـدره المطلقه معنى و إن أطلق عليه لفظا بـل حقه أن يقـال:قـادر على كـذا،و متى قيـل:هو قادر فعلى سبيل معنى التقييـد،و لهـذا لا أحـد غير الله يوصـف بالقدره من وجه إلا و يصح أن يوصف بالعجز من وجه و الله تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل وجه.

و القـدير هو الفاعـل لما يشاء على قـدر ما تقتضـى الحكمه لا زائـدا عليه و لا ناقصا عنه و لـذلك لا يصـح أن يوصف به إلا الله تعالى قال:«إنه على ما يشاء قدير»،و المقتدر يقاربه نحو« عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ »لكن قد يوصف به البشـر،و إذا استعمل فى الله فمعناه معنى القدير و إذا استعمل فى البشر فمعناه المتكلف و المكتسب للقدره،انتهى.

و هو حسن غير أن فى قوله:إن القـدره إذا وصف بهـا الله فهى نفى العجز عنه مسـاهله ظاهره فإن صـفاته تعالى الـذاتيه كالحياه و العلم و القدره لها معان إيجابيه هى عين

الذات لا معان سلبيه حتى تكون الحياه بمعنى انتفاء الموت و العلم بمعنى انتفاء الجهل و القدره بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون و لازمه خلو الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء،و لازم هذا المعنى الإيجابى انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

قوله تعالى:« وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » المصيبه النائبه تصيب الإنسان كأنها تقصده،و المراد بما كسبت أيديكم المعاصى و السيئات،و قوله:« وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »أى عن كثير مما كسبت أيديكم و هى السيئات.

و الخطاب فى الآيه اجتماعى موجه إلى المجتمع غير منحل إلى خطابات جزئيه و لازمه كون المراد بالمصيبه التى تصيبهم المصائب العامه الشامله كالقحط و الغلاء و الوباء و الزلازل و غير ذلک.

فيكون المراد أن المصائب و النوائب التى تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم و الله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِي النّٰاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» :الروم:۴۱،و قوله: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا» :الأعراف:۹۶، و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» :الرعد:۱۱،و غير ذلک من الآيات الداله على أن بين أعمال الإنسان و بين النظام الكونى ارتباطا خاصا فلو جرى المجتمع الإنسانى على ما يقتضيه الفطره من الاعتقاد و العمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات و لو أفسدوا أفسد عليهم.

هذا ما تقتضيه هذه السنه الإلهيه إلا أن ترد عليه سنه الابتلاء أو سنه الاستدراج و الإملاء فينقلب الأمر، قال تعالى: «ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَكٰانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتّٰى عَفَوْا وَ قٰالُوا قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ فَأَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ» :الأعراف:۹۵.

و يمكن أن يكون الخطاب فى الآيه عاما منحلا إلى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلق به مستندا إلى معصيه أتى بها و سيئه عملها و يعفو الله عن كثير منها.

و كيف كان فالخطاب فى الآيه لعامه الناس من المؤمن و الكافر و هو الذى يفيده السياق و تؤيده الآيه التاليه هذا أولا،و المراد بما كسبته الأيدى المعاصى و السيئات دون مطلق الأعمال،و هذا ثانيا،و المصائب التى تصيب إنما هى آثار الأعمال فى الدنيا لما بين الأعمال و بينها من الارتباط و التداعى دون جزاء الأعمال و هذا ثالثا.

و بما ذكر يندفع أولا ما استشكل على عموم الآيه بالمصائب النازله على الأنبياء (ع)و هم معصومون لا معصيه لهم،المصائب النازله على الأطفال و المجانين و هم غير مكلفين بتكليف فلا معصيه لهم فيجب تخصيص الآيه بمصائب الأنبياء و مصائب الأطفال و المجانين.

وجه الاندفاع أن إثبات المعصيه لهم فى قوله:« فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »دليل على أن الخطاب فى الآيه لمن يجوز عليه صدور المعصيه فلا يشمل المعصومين و غير المكلفين من رأس فعدم شمول الآيه لهم من باب التخصص دون التخصيص.

و ثانيا ما قيل:إن مقتضى الآيه مغفره ذنوب المؤمنين جميعا فإنها بين ما يجزون عليها بإصابه المصائب و ما يعفى عنها.

وجه الاندفاع أن الآيه مسوقه لبيان ارتباط المصائب بالمعاصى و كون المعاصى ذوات آثار دنيويه سيئه منها ما يصيب الإنسان و لا يخطئ و منها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفه و حكم مانعه كصله الرحم و الصدقه و دعاء المؤمن و التوبه و غير ذلك مما وردت به الأخبار،و أما جزاء الأعمال فالآيه غير ناظره إليه كما تقدم.

على أن الخطاب فى الآيه يعم المؤمن و الكافر كما تقدمت الإشاره إليه،و لا معنى لتبعضها فى الدلاله فتدل على المغفره فى المؤمن و عدمها فى الكافر.

و بعد هذا كله فالوجه الأول هو الأوجه.

قوله تعالى:« وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاَ نَصِيرٍ »،معنى الآيه ظاهر و هى باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم و ليس لكم من دونه من ولى يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب و لا نصير ينصركم و يعينكم على دفعها.

قوله تعالى:« وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوٰارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ »، الجوارى جمع جاريه و هى

السفينه،و الأعلام جمع علم و هو العلامه و يسمى به الجبل و شبهت السفائن بالجبال لعظمها و ارتفاعها و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ »إلخ،ضمير « يَشَأْ »لله تعالى،و ظل بمعنى صار،و« رواكد »جمع راكده و هى الثابته فى محلها و المعنى:إن يشأ الله يسكن الريح التى تجرى بها الجوارى فيصرن أى الجوارى ثوابت على ظهر البحر.

و قوله:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ »أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمه المنعم بقول أو فعل،و المعنى:أن فيما ذكر من أمر الجوارى من كونها جاريه على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقله للناس و أمتعتهم من ساحل إلى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه و اشتغل بالتفكر فى نعمه و التفكر فى النعمه من الشكر.

و قيل:المراد بكل صبار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون فى الضراء أو فى السراء فإن كان فى الضراء كان من الصابرين و إن كان فى السراء كان من الشاكرين.

قوله تعالى:« أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمٰا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ » الإيباق الإهلاك،و ضمير التأنيث للجوارى و ضمير التذكير للناس،و يوبقهن و يعف معطوفان على« يُسْكِنِ »، و المعنى:إن يشأ يهلك الجوارى بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أى إن بعضها كاف فى اقتضاء الإهلاك و إن عفا عن كثير منها.

و قيل:المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازا أو بتقدير مضاف،و« يُوبِقْهُنَّ » بالعطف على« يُسْكِنِ »فى معنى يرسل الرياح العاصفه فيوبقهم،و المعنى:إن يشأ يسكن الريح إلخ،و إن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق و ينج كثير منهم بالعفو، و المحصل:إن يشأ يسكن الريح أو يرسلها فيهلك ناسا بذنوبهم و ينج ناسا بالعفو عنهم و لا يخفى وجه التكلف فيه.

و قيل:إن« يَعْفُ »عطف على قوله:« يُسْكِنِ الرِّيحَ »إلى قوله:« بِمٰا كَسَبُوا » و لذا عطف بالواو لا بأو،و المعنى:إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف و إن يشأ يعف عن كثير.و هو فى التكلف كسابقه.

ص :٦١

قوله تعالی:« وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ »قيل:هو غايه معطوفه علی أخری محذوفه،و التقدير نحو من قولنا:ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون فی آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص،و هذا كثير الورود فی القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للأم الغايه كقوله: «وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا» آل عمران:۱۴۰.

و قوله: «وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» :الأنعام:۷۵.

و جوز بعضهم أن يكون معطوفا علی جزاء الشرط بتقدير إن نحو إن جئتنی أكرمك و أعطيك كذا و كذا بنصب أعطيك،و المسأله نحويه خلافيه فليرجع إلی ما ذكروه فيه.

قوله تعالی:« فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »إلخ،تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق و تقسيم له إلی ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن و الكافر و ما عند الله من رزق الآخره المختص بالمؤمنين،و فيه تخلص إلی ذكر صفات المؤمنين و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامه.

فقوله:« فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »الخطاب للناس علی ما يفيده السياق دون المشركين خاصه،و المراد بما أوتيتم من شیء جميع ما أعطيه للناس و رزقوه من النعيم،و إضافه المتاع إلی الحياه للإشاره إلی انقطاعه و عدم ثباته و دوامه،و المعنی:

فكل شیء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به فی أيام قلائل.

و قوله:« وَ مَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »المراد بما عند الله ما ادخره الله ثوابا ليثيب به المؤمنين،و اللام فی« لِلَّذِينَ آمَنُوا »للملك و الظرف لغو،و قيل اللام متعلق بقوله:« أَبْقَى »و الأول أظهر،و كون ما عند الله خيرا لكونه خالصا من الألم و الكدر و كونه أبقی لكونه أدوم غير منقطع الآخر.

قوله تعالی:« وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » عطف علی قوله:« لِلَّذِينَ آمَنُوا »و الآيه و آيتان بعدها تعد صفات المؤمنين الحسنه و قول بعضهم إنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

و كبائر الإثم المعاصی الكبيره التی لها آثار سوء عظيمه و قد عد تعالی منها شرب

الخمر و الميسر،قال تعالى: «قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ» :البقره:٢١٩،و الفواحش جمع فاحشه و هى المعصيه الشنيعه النكراء و قد عد تعالى منها الزنا و اللواط قال: «وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً» :إسراء:٣٢،و قال حاكيا عن لوط: «أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» :النمل:۵۴.

و قوله:« يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ »و هو فى سوره مكيه إشاره إلى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصى و الفواحش.

و فى قوله:« وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ »إشاره إلى العفو عند الغضب و هو من أخص صفات المؤمنين و لذا عبر عنه بما عبر و لم يقل:و يغفرون إذا غضبوا ففى الكلام جهات من التأكيد و ليس قصرا للمغفره عند الغضب فيهم.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ »إلخ، الاستجابه هى الإجابه و استجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحه-على ما يفيده السياق-و ذكر إقامه الصلاه بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

على أن الظاهر أن الآيات مكيه و لم يشرع يومئذ أمثال الزكاه و الخمس و الصوم و الجهاد،و فى قوله:« وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ »من الإشاره إلى الإجمال الأعمال الصالحه المشرعه نظير ما تقدم فى قوله:« وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ »إلخ،و نظير الكلام جار فى الآيات التاليه.

و قوله:« وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ »قال الراغب:و التشاور و المشاوره و المشوره استخراج الرأى بمراجعه البعض إلى البعض من قولهم:شرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخرجته منه،قال تعالى:« وَ شٰاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » و الشورى الأمر الذى يتشاور فيه،قال تعالى:« وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ »انتهى.فالمعنى:الأمر الذى يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه،و يظهر من بعضهم أنه مصدر،و المعنى:

و شأنهم المشاوره بينهم.

و كيف كان ففيه إشاره إلى أنهم أهل الرشد و إصابه الواقع يمعنون فى استخراج صواب الرأى بمراجعه العقول فالآيه قريبه المعنى من قول الله تعالى: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» :الزمر:١٨.

ص :۶٣

و قوله:« وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ »إشاره إلى بذل المال لمرضاه الله.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ »قال الراغب: الانتصار و الاستنصار طلب النصره.انتهى.فالمعنى:الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصره من الآخرين و إذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحده فكان الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومه قباله و أعدوا عليه النصره.

و عن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر.

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافى المغفره عند الغضب المذكوره فى جمله صفاتهم فإن المقاومه دون الظلم و سد بابه عن المجتمع لمن استطاعه و الانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطريه،قال تعالى: «وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» :الأنفال:۷۲،و قال: «فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ» :الحجرات:۹.

قوله تعالى:« وَ جَزاءُ سَيِّئَهٍ سَيِّئَهٌ مِثْلُها »إلى آخر الآيه بيان لما جعل للمنتصر فى انتصاره و هو أن يقابل الباغى بما يماثل فعله و ليس بظلم و بغى.

قيل:و سمى الثانيه و هى ما يأتى بها المنتصر سيئه لأنها فى مقابله الأولى كما قال تعالى: «فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ» :البقره:۱۹۴،و قال الزمخشرى:كلتا الفعلتين:الأولى و جزاؤها سيئه لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعايه لحقيقه معنى اللفظ و إشاره إلى أن مجازاه السيئه بمثلها إنما تحمد بشرط المماثله من غير زياده.

و قوله:« فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ »وعد جميل على العفو و الإصلاح، و الظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه و بين ربه،و قيل:المراد إصلاحه ما بينه و بين ظالمه بالعفو و الإغضاء.

و قوله:« إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ »قيل:فيه بيان أنه تعالى لم يرغب المظلوم فى العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبه إياه و لكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، و لحبه تعالى الإحسان و الفضل.

و قيل:المراد أنه لا يحب الظالم فى قصاص و غيره بتعديه عما هو له إلى ما ليس هو له.

و الوجهان و إن كانا حسنين فی نفسهما لكن سياق الآيه لا يساعد عليهما و خاصه مع حيلوله قوله:« فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ »بين التعليل و المعلل.

و يمكن أيضا أن يكون قوله:« إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ »تعليلا لأصل كون جزاء السيئه سيئه من غير نظر إلى المماثله و المساواه.

قوله تعالى:« وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ -إلى قوله- لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »ضمير« ظُلْمِهِ »راجع إلى المظلوم.و الإضافه من إضافه المصدر إلى مفعوله.

الآيات الثلاث تبيين و رفع لبس من قوله فی الآيه السابقه:« فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ »فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن فی ذلك إلغاء لحق انتصاره فبين سبحانه بقوله أولا:« وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »أن لا سبيل على المظلومين و لا مجوز لإبطال حقهم فی الشرع الإلهی،و إرجاع ضمير الإفراد إلى الموصول أولا باعتبار لفظه،و ضمير الجمع ثانيا باعتبار معناه.

و بين بقوله ثانيا:« إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »إن السبيل كله على الظالمين فی الانتقام منهم للمظلومين،و أكد ذلك ذيلا بقوله:

« أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ».

و بين بقوله ثالثا:« وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »إن الدعوه إلى الصبر و العفو ليست إبطالا لحق الانتصار و إنما هی إرشاد إلى فضيله هی من أعظم الفضائل فإن فی المغفره الصبر الذی هو من عزم الأمور،و قد أكد الكلام بلام القسم أولا و باللام فی خبر إن ثانيا لإفاده العنايه بمضمونه.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ »إلخ،لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أن لهم عند الله رزقهم المدخر لهم و فيه سعاده عقباهم التی هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم و هم الظالمون الآيسون من تلك الهدايه الموصله إلى السعاده المحرومون من هذا الرزق الكريم فبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق و لا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولی حتى يتولى أمرهم

ص :۶۵

و يرزقهم ما حرمهم الله من الرزق،فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهده العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين.

فقوله:« وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ »إلخ،من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم و عدم ولى آخر يتولى أمرهم فيهديهم و يرزقهم موضع المسبب و هو الهدايه و الرزق.

و قوله:« وَ تَرَى الظّٰالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ »إشاره إلى تمنيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعاده و مشاهده العذاب.

و« تَرَى »خطاب عام وجه إلى النبى ص بما أنه راء و معناه و ترى و يرى كل من هو راء،و فيه إشاره إلى أنهم يتمنون ذلك على رءوس الأشهاد،و المرد هو الرد.

قوله تعالى:« وَ تَرٰاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا خٰاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »ضمير« عَلَيْهٰا »للنار للدلاله المقام عليها و خفى الطرف ضعيفه و إنما ينظر من طرف خفى.إلى المكاره المهوله من ابتلى بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها و لا يجترئ أن يمتلئ بها بصره كالمبصور ينظر إلى السيف،و الباقى ظاهر.

و قوله:« وَ قٰالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخٰاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ »أى إن الخاسرين كل الخسران و بحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاه و أهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامه.و قيل أهلوهم أزواجهم من الحور و خدمهم فى الجنه لو آمنوا و لا يخلو من وجه نظرا إلى آيات وراثه الجنه.

و هذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامه-و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع-لا فى الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى إلى مقاله المؤمنين فى الدنيا وجه فى مثل المقام،و ليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا و إنما هم الكاملون منهم المأذون لهم فى الكلام الناطقون بالصواب محضا كأصحاب الأعراف و شهداء الأعمال قال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ» :هود:۱۰۵. و قال:

«لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً» :النبأ:۳۸.

فلا يصغى إلى ما قيل:إن القول المذكور إنما نسب إلى المؤمنين للدلاله على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامه و نجوا من الخسران و إلا فالقول قول كل من يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤيه المذكوره قبله رؤيه كل من تتأتى منه الرؤيه.

و قوله:« أَلاَ إِنَّ الظّالِمِينَ فِی عَذابٍ مُقِیمٍ »تسجیل علیهم بالعذاب و أنه دائم غیر منقطع،و جوز أن یکون من تمام کلام المؤمنین.

قوله تعالی:« وَ مٰا کانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِیٰاءَ یَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »إلخ،هذا التعبیر أعنی قوله:« وَ مٰا کانَ لَهُمْ »إلخ،دون أن یقال:و ما لهم من ولی کما قیل أولا للدلاله علی ظهور بطلان دعواهم ولایه أولیائهم فی الدنیا و أن ذلک کان باطلا من أول الأمر.

و قوله:« وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِیلٍ »صالح لتعلیل صدر الآیه و هو کالنتیجه لجمیع ما تقدم من الکلام فی حال الظالمین فی عقباهم،و نوع انعطاف إلی ما سبق من حدیث تشریع الشریعه و السبیل بالوحی.

فهو کنایه عن أنه لا سبیل إلی السعاده إلا سبیل الله الذی شرعه لعباده من طریق الوحی و الرساله فمن أضله عن سبیله لکفره و تکذیبه بسبیله فلا سبیل له یهتدی به إلی سعاده العقبی و التخلص من العذاب و الهلاک.

قوله تعالی:« اِسْتَجِیبُوا لِرَبِّکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَکُمْ مِنْ مَلْجَإٍ یَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ نَکِیرٍ » دعوه و إنذار بیوم القیامه المذکور فی الآیات السابقه علی ما یعطیه السیاق،و قول بعضهم:إن المراد بالیوم یوم الموت غیر وجیه.

و فی قوله:« لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ »« لاٰ »لنفی الجنس و« مَرَدَّ »اسمه و« لَهُ » خبره و« مِنَ اللّٰهِ »حال من« مَرَدَّ »و المعنی،یوم لا رد له من قبل الله أی أنه مقضی محتوم لا یرده الله البته فهو فی معنی ما تکرر فی کلامه تعالی من وصف یوم القیامه بأنه لا ریب فیه.

و قد ذکروا للجمله أعنی قوله:« یَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ »وجوها أخر من الإعراب لا جدوی فی نقلها.

و قوله: «مٰا لَکُمْ مِنْ مَلْجَإٍ یَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ نَکِیرٍ » الملجأ الملاذ الذی یلتجأ إلیه و النکیر -کما قیل-مصدر بمعنی الإنکار،و المعنی:ما لکم من ملاذ تلتجئون إلیه من الله و ما لکم من إنکار لما صدر منکم لظهور الأمر من کل جهه.

قوله تعالی:« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً إِنْ عَلَیْکَ إِلاَّ الْبَلاٰغُ » عدول من خطابهم إلی خطاب النبی ص لإعلام أن ما حمله من الأمر إنما هو التبلیغ

لاـ أزيـد من ذلـك فقـد أرسـل مبلغـا لـدين الله إن عليه إلاـ البلاـغ و لـم يرسل حفيظا عليهم مسئولا عن إيمانهم و طاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض و يتعب نفسه لإقبالهم عليه.

قوله تعـالى:« وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ كَفُورٌ » الفرح بالرحمه كنايه عن الاشـتغال بالنعمه و نسيان المنعم،و المراد بالسيئه المصيبه التى تسوء الإنسان إذا أصابته،و قوله:« فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ كَفُورٌ »من وضع الظاهر موضع الضمير،و النكته فيه تسجيل الذم و اللوم عليه بذكره باسمه.

و فى الآـيه استشـعار بإعراضـهم و توبيخهم بعنوان الإنسـان المشـتغل بالـدنيا فإنه بطبعه حليف الغفله إن ذكر بنعمه يؤتاها صـرفه الفرح بهـا عن ذكر الله،و إن ذكر بسـيئه تصـيبه بمـا قـدمت يـداه شـغله الكفران عن ذكر ربه فهـو فى غفله عن ذكر ربه فى نعمه كانت أو فى نقمه فكاد أن لا تنجح فيه دعوه و لا تنفع فيه موعظه.

قوله تعالى:« لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ »إلى آخر الآيتين، للآيتين نوع اتصال بما تقـدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيهما من قبيل الرزق.

و قيـل:إنهمـا متصـلتان بالآـيه السابقه حيث ذكر فيها إذاقه الرحمه و إصابه السـيئه و إن الإنسان يفرح بالرحمه و يكفر فى السـيئه فـذكر تعـالى فى هـاتين الآـيتين أن ملك السـماوات و الأرض لله سـبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يـذوق رحمته أن يفرح بها و يشتغل به و لا لمن أصابته السيئه أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع إليه.

و يبعده أنه تعالى لم ينسب السـيئه فى الآيه السابقه إلى نفسه بل إلى تقديم أيديهم فلا يناسـبه نسبه القسمين جميعا فى هذه الآيه إلى مشيته و دعوتهم إلى التسليم لها.

و كيف كـان فقوله:« لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ »فيه قصـر الملك و السـلطنه فيه تعالى على جميع العالم و أن الخلق منوط بمشيته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيه أو يضطره على الخلق.

و قوله:« يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ الذُّكُورَ » الإناث جمع أنثى و الـذكور و الـذكران جمعا ذكر،و ظاهر التقابل أن المراد هبه الإناث فقط لمن يشاء و هبه الذكور

فقط لمن یشاء و لذلک کررت المشیه،قیل:وجه تعریف الذکور أنهم المطلوبون لهم المعهودون فی أذهانهم و خاصه العرب.

و قوله:« أَوْ یُزَوِّجُهُمْ ذُکْرٰاناً وَ إِنٰاثاً »أی یجمع بینهم حال کونهم ذکرانا و إناثا معا فالتزویج فی اللغه الجمع،و قوله:« وَ یَجْعَلُ مَنْ یَشٰاءُ عَقِیماً »أی لا یلد و لا یولد له، و لما کان هذا أیضا قسما برأسه قیده بالمشیه کالقسمین الأولین،و أما قسم الجمع بین الذکران و الإناث فإنه بالحقیقه جمع بین القسمین الأولین فاکتفی بما ذکر من المشیه فیهما.

و قوله:« إِنَّهُ عَلِیمٌ قَدِیرٌ »تعلیل لما تقدم أی أنه علیم لا یزید ما یزید لجهل قدیر لا ینقص ما ینقص عن عجز.

بحث روائی

فی الدر المنثور،أخرج الحاکم و صححه و البیهقی عن علی*: قال: إنما أنزلت هذه الآیه فی أصحاب الصفه:« وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ »و ذلک أنهم قالوا:لو أن لنا فتمنوا الدنیا.

أقول:و الآیه علی هذا مدنیه لکن الروایه أشبه بالتطبیق منها بسبب النزول.

و فی تفسیر القمی،: قوله:« وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ »:قال الصادق(ع):لو فعل لفعلوا-و لکن جعلهم محتاجین بعضهم إلی بعض-و استعبدهم بذلک و لو جعلهم أغنیاء لبغوا« وَ لٰکِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا یَشٰاءُ »مما یعلم أنه یصلحهم فی دینهم و دنیاهم« إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِیرٌ بَصِیرٌ ».

و فی المجمع،روی أنس عن النبی ص *عن جبرئیل عن الله جل ذکره:أن من عبادی من لا یصلحه إلا السقم و لو صححته لأفسده،و إن من عبادی من لا یصلحه إلا الصحه و لو أسقمته لأفسده،و إن من عبادی من لا یصلحه إلا الغنی و لو أفقرته لأفسده،و إن من عبادی من لا یصلحه إلا الفقر و لو أغنیته لأفسده،و ذلک أنی أدبر عبادی لعلمی بقلوبهم.

و فی تفسیر القمی،حدثنی أبی عن ابن أبی عمیر عن منصور بن یونس عن أبی حمزه

عن الأصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين(ع)قال*:إنی سمعته یقول: إنی أحدثکم بحدیث ینبغی لکل مسلم أن یعیه.ثم أقبل علینا فقال:ما عاقب الله عبدا مؤمنا-فی هذه الدنیا إلا کان الله أحکم و أجود-و أمجد من أن یعود فی عقابه یوم القیامه.

ثم قال:و قد یبتلی الله عز و جل المؤمن-بالبلیه فی بدنه أو ماله أو ولده أو أهله- ثم تلا هذه الآیه:« وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ-وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ »و حثا بیده ثلاث مرات.

و فی الکافی،بإسناده عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله(ع)قال*: أما أنه لیس من عرق یضرب و لا نکبه و لا صداع و لا مرض إلا بذنب-و ذلک قول الله عز و جل فی کتابه:« وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ »قال:ثم قال:

و ما یعفو الله أکثر مما یؤاخذ به.

أقول:و روی هذا المعنی بطریق آخر عن مسمع عنه(ع)،

و روی مثله فی الدر المنثور،عن الحسن عن النبی ص و لفظه: لما نزلت هذه الآیه« وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ-فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ »قال رسول الله ص:و الذی نفسی بیده-ما من خدش عود و لا اختلاج عرق و لا نکبه حجر-و لا عثره قدم إلا بذنب،و ما یعفو الله عنه أکثر.

و فی الکافی،أیضا بإسناده عن علی بن رئاب قال*: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز و جل:« وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ »أ رأیت ما أصاب علیا و أهل بیته(ع)من بعده-أ هو بما کسبت أیدیهم و هم أهل بیت طهاره معصومون؟ فقال:إن رسول الله ص کان یتوب إلی الله-و یستغفر فی کل یوم و لیله مائه مره من غیر ذنب-إن الله یخص أولیاءه بالمصائب لیأجرهم علیها.

و فی المجمع،روی عن علی(ع)أنه قال*:قال رسول الله ص: خیر آیه فی کتاب الله هذه الآیه.یا علی ما من خدش عود و لا نکبه قدم إلا بذنب،و ما عفا إله عنه فی الدنیا فهو أکرم من أن یعود فیه،و ما عاقب علیه فی الدنیا فهو أعدل من أن یثنی علی عبده.:

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن عده من أرباب الجوامع عن علی(ع)عنه (ص)

،و فحوی الروایه أن قوله تعالی:« وَ مٰا أَصٰابَکُمْ »الآیه خاص بالمؤمنین و الخطاب

لهم و أن مفاده غفران ذنوبهم كافه فلا يعاقبون عليها فى برزخ و لا قيامه لأن الآيه تقصر الذنوب فى مأخوذ به بإصابه المصيبه و معفو عنه و مفاد الروايه نفى المؤاخذه بعد المؤاخذه و نفى المؤاخذه بعد العفو.

فيشكل الأمر أولا:من جهه ما عرفت أن الآيه فى سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن و الكافر.

و ثانيا:من جهه معارضه الروايه لما ورد فى أخبار متكاثره لعلها تبلغ حد التواتر المعنوى من أن من المؤمنين من يعذب فى قبره أو فى الآخره.

و ثالثا:من جهه مخالفه الروايه لظواهر ما دلت من الآيات على أن موطن جزاء الأعمال هى الدار الآخره كقوله تعالى: «وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دَابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ» :النحل:۶۱،و غيره من الآيات الداله على أن كل مظلمه و معصيه مأخوذ بها و أن موطن الأخذ هو ما بعد الموت و فى القيامه إلا ما غفرت بالتوبه أو تذهب بحسنه أو بشفاعه فى الآخره أو نحو ذلك.

على أن الآيه أعنى قوله:« وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »-كما تقدمت الإشاره إليه-غير ظاهره فى كون أصابه المصيبه جزاء للعمل و لا فى كون العفو بمعنى إبطال الجزاء و إنما هو الأثر الدنيوى للسيئه يصيب مره و يمحى أخرى.

فالحرى أن تحمل الروايه-لو قبلت-على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه.

و فى المجمع،:فى قوله تعالى:« وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ »:و

قد روى عن النبى ص أنه قال: ما من رجل يشاور أحدا إلا هدى إلى الرشد.

و فى تفسير القمى،فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع) *فى قوله عز و جل:

« يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً »يعنى ليس معهن ذكور« وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ الذُّكُورَ »يعنى ليس معهم أنثى« أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً »أى يهب لمن يشاء ذكرانا و إناثا جميعا-يجمع له البنين و البنات أى يهبهم جميعا لواحد.

و فى التهذيب،بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن على عن آبائه عن على

(ع)قال*: أتی النبی ص رجل فقال:یا رسول الله-إن أبی عمد إلی مملوک لی فأعتقه کهیئه المضره لی-فقال رسول الله ص:أنت و مالک من هبه الله لأبیک-أنت سهم من کنانته« یَهَبُ لِمَنْ یَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ یَهَبُ لِمَنْ یَشٰاءُ الذُّکُورَ- أَوْ یُزَوِّجُهُمْ ذُکْرٰاناً وَ إِنٰاثاً وَ یَجْعَلُ مَنْ یَشٰاءُ عَقِیماً »جازت عتاقه أبیک یتناول والدک من مالک و بدنک-و لیس لک أن تتناول من ماله-و لا من بدنه شیئا إلا بإذنه.

أقول:و هذا المعنی مروی عن الرضا(ع)فی جواب مسائل محمد بن سنان فی العلل و مروی من طرق أهل السنه عن عائشه عنه(ص) .

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۵۱ الی ۵۳]

اشاره

وَ مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ وَحْیاً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ یُرْسِلَ رَسُولاً فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مٰا یَشٰاءُ إِنَّهُ عَلِیٌّ حَکِیمٌ (۵۱) وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا اَلْکِتٰابُ وَ لاَ اَلْإِیمٰانُ وَ لٰکِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِرٰاطِ اَللّٰهِ اَلَّذِی لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِلَی اَللّٰهِ تَصِیرُ اَلْأُمُورُ (۵۳)

بیان

تتضمن الآیات آخر ما یفیده سبحانه فی تعریف الوحی فی هذه السوره و هو تقسیمه إلی ثلاثه أقسام:وحیا أو من وراء حجاب أو یرسل رسولا فیوحی بإذنه ما یشاء ثم یذکر أنه یوحی إلیه(ص)ما یوحی،علی هذه الوتیره و أن ما أوحی إلیه منه تعالی لم یکن النبی ص یعلم ذلک من نفسه بل هو نور یهدی به الله من یشاء من عباده و یهدی به النبی ص بإذنه.

ص:۷۲

قوله تعالی:« وَ مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْیاً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ یُرْسِلَ رَسُولاً فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مٰا یَشٰاءُ »إلخ،قد تقدم البحث عن معنی کلامه تعالی فی الجزء الثانی من الکتاب،و إطلاق الکلام علی کلامه تعالی و التکلیم علی فعله الخاص سواء کان إطلاقا حقیقیا أو مجازیا واقع فی کلامه تعالی قال: «یٰا مُوسیٰ إِنِّی اصْطَفَیْتُکَ عَلَی النّٰاسِ بِرِسٰالاٰتِی وَ بِکَلاٰمِی» :الأعراف:۱۴۴ و قال: «وَ کَلَّمَ اللّٰهُ مُوسیٰ تَکْلِیماً» النساء:۱۶۴،و من مصادیق کلامه ما یتلقاه الأنبیاء(ع)منه تعالی بالوحی.

و علی هذا لا موجب لعد الاستثناء فی قوله:« إِلاّٰ وَحْیاً »منقطعا بل الوحی و القسمان المذکوران بعده من تکلیمه تعالی للبشر سواء کان إطلاق التکلیم علیها إطلاقا حقیقیا أو مجازیا فکل واحد من الوحی و ما کان من وراء حجاب و ما کان بإرسال رسول نوع من تکلیمه للبشر.

فقوله:« وَحْیاً »-و الوحی الإشاره السریعه علی ما ذکره الراغب-مفعول مطلق نوعی و کذا المعطوفان علیه فی معنی المصدر النوعی،و المعنی:ما کان لبشر أن یکلمه الله نوعا من أنواع التکلیم إلا هذه الأنواع الثلاثه أن یوحی وحیا أو یکون من وراء حجاب أو أن یرسل رسولا فیوحی بإذنه ما یشاء.

ثم إن ظاهر التردید فی الآیه بأو هو التقسیم علی مغایره بین الأقسام و قد قید القسمان الأخیران بقید کالحجاب،و الرسول الذی یوحی إلی النبی و لم یقید القسم الأول بشیء فظاهر المقابله یفید أن المراد به التکلیم الخفی من دون أن یتوسط واسطه بینه تعالی و بین النبی أصلا،و أما القسمان الآخران ففیهما قید زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحی و کل منهما واسطه غیر أن الفارق أن الواسطه الذی هو الرسول یوحی إلی النبی بنفسه و الحجاب واسطه لیس بموح و إنما الوحی من ورائه.

فتحصل أن القسم الثالث« أَوْ یُرْسِلَ رَسُولاً فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مٰا یَشٰاءُ »وحی بتوسط الرسول الذی هو ملک الوحی فیوحی ذلک الملک بإذن الله ما یشاء الله سبحانه قال تعالی: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ» :الشعراء:۱۹۴،و قال: «قُلْ مَنْ کٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلیٰ قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللّٰهِ» :البقره:۹۷،و الموحی مع ذلک هو الله سبحانه کما قال: «بِمٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ هٰذَا الْقُرْآنَ» :یوسف:۳.

ص :۷۳

و أما قول بعضهم:إن المراد بالرسول فى قوله:« أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ »هو النبى يبلغ الناس الوحى فلا يلائمه قوله:« فَيُوحِيَ »إذ لا يطلق الوحى على تبليغ النبى.

و إن القسم الثانى« أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ »وحى مع واسطه هو الحجاب غير أن الواسطه لا يوحى كما فى القسم الثالث و إنما يبتدئ الوحى مما وراءه لمكان من،و ليس وراء بمعنى خلف و إنما هو الخارج عن الشىء المحيط به،قال تعالى: «وَ اللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ مُحِيطٌ» :البروج:٢٠،و هذا كتكليم موسى(ع)فى الطور،قال تعالى: «فَلَمّٰا أَتٰاهٰا نُودِيَ مِنْ شٰاطِئِ الْوٰادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَهِ الْمُبٰارَكَهِ مِنَ الشَّجَرَهِ» :القصص:٣٠،و من هذا الباب ما أوحى إلى الأنبياء فى مناماتهم.

و إن القسم الأول تكليم إلهى للنبى من غير واسطه بينه و بين ربه من رسول أو أى حجاب مفروض.

و لما كان للوحى فى جميع هذه الأقسام نسبه إليه تعالى على اختلافها صح إسناد مطلق الوحى إليه بأى قسم من الأقسام تحقق و بهذه العنايه أسند جميع الوحى إليه فى كلامه كما قال: «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» :النساء:١۶٣.

و قال: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ» :النحل:۴٣.

هذا ما يعطيه التدبر فى الآيه الكريمه،و للمفسرين فيها أبحاث طويله الذيل و مشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصلات.

و قوله:«إنه على حكيم»تعليل لمضمون الآيه فهو تعالى لعلوه عن الخلق و النظام الحاكم فيهم يجل أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضا،و لعلوه و حكمته يكلمهم بما اختار من الوحى و ذلك أن هدايه كل نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال: «الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ» :طه:۵٠،و قال: «وَ عَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» النحل:٩،و سعاده الإنسان الذى يسلك سبيل سعادته بالشعور و العلم فى إعلام سعادته و الدلاله إلى سنه الحياه التى تنتهى إليها و لا يكفى فى ذلك العقل الذى من شأنه الإخطاء و الإصابه فاختار سبحانه لذلك طريق الوحى الذى لا يخطئ البته،و قد فصلنا القول فى هذه الحجه فى موارد من هذا الكتاب.

قوله تعالی:« وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ »إلخ،ظاهر السیاق کون« کَذٰلِکَ »إشاره إلی ما ذکر فی الآیه السابقه من الوحی بأقسامه الثلاث،و یؤیده الروایات الکثیره الداله علی أنه(ص)کما کان یوحی إلیه بتوسط جبریل و هو القسم الثالث کان یوحی إلیه فی المنام و هو من القسم الثانی و یوحی إلیه من دون توسط واسطه و هو القسم الأول.

و قیل:الإشاره إلی مطلق الوحی النازل علی الأنبیاء و هذا متعین علی تقدیر کون المراد بالروح هو جبریل أو الروح الأمری کما سیأتی.

و المراد بإیحاء الروح-علی ما قیل-إیحاء القرآن و أید بقوله:«و لکن جعلناه نورا»إلخ،و من هنا قیل:إن المراد بالروح القرآن.

لکن یبقی علیه أولا:أنه لا ریب أن الکلام مسوق لبیان أن ما عندک من المعارف و الشرائع التی تتلبس بها و تدعو الناس إلیها لیس مما أدرکته بنفسک و أبدیته بعلمک بل أمر من عندنا منزل إلیک بوحینا،و علی هذا فلو کان المراد بالروح الموحی القرآن کان من الواجب الاقتصار علی الکتاب فی قوله:« مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ »لأن المراد بالکتاب القرآن فیکون الإیمان زائدا مستغنی عنه.

و ثانیا:أن القرآن و إن أمکن أن یسمی روحا باعتبار إحیائه القلوب بهداه کما قال تعالی: «إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ» :الأنفال:۲۴،و قال: «أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ» :الأنعام:۱۲۲،لکن لا وجه لتقییده حینئذ بقوله:« مِنْ أَمْرِنٰا »و الظاهر من کلامه تعالی أن الروح من أمره خلق من العالم العلوی یصاحب الملائکه فی نزولهم،قال تعالی: «تَنَزَّلُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ الرُّوحُ فِیهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ» :القدر:۴،و قال: «یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا» :النبأ:۳۸، و قال: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» :إسراء:۸۵،و قال: «وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» :البقره:۸۷،و قد سمی جبریل الروح الأمین و روح القدس حیث قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ» :الشعراء:۱۹۳،و قال: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ» :النحل:۱۰۲.

و یمکن أن یجاب عن الأول بأن مقتضی المقام و إن کان هو الاقتصار علی ذکر

الکتاب فقط لکن لما کان إیمانه(ص)بتفاصیل ما فی الکتاب من المعارف و الشرائع من لوازم نزول الکتاب غیر المنفکه عنه و آثاره الحسنه صح أن یذکر مع الکتاب فالمعنی:و کذلک أوحینا إلیک کتابا ما کنت تدری ما الکتاب و لا ما تجده فی نفسک من أثره الحسن الجمیل و هو إیمانک به.

و عن الثانی أن المعهود من کلامه فی معنی الروح و إن کان ذلک لکن حمل الروح فی الآیه علی ذلک المعنی و إراده الروح الأمری أو جبریل منه یوجب أخذ« أَوْحَیْنا » بمعنی أرسلنا إذ لا یقال:أوحینا الروح الأمری أو الملک فلا مفر من کون الإیحاء بمعنی الإرسال و هو کما تری فأخذ الروح بمعنی القرآن أهون من أخذ الإیحاء بمعنی الإرسال و الجوابان لا یخلوان عن شیء.

و قیل:المراد بالروح جبریل فإن الله سماه فی کتابه روحا قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ» :الشعراء:۱۹۴ و قال:« قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ ».

و قیل:المراد بالروح الروح الأمری الذی ینزل مع ملائکه الوحی علی الأنبیاء کما قال تعالی: «یُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا :

النحل:۲،فالمراد بإیحائه إلیه إنزاله علیه.

و یمکن أن یوجه التعبیر عن الإنزال بالإیحاء بأن أمره تعالی علی ما یعرفه فی قوله: «إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ» :یس:۸۲،هو کلمته،و الروح من أمره کما قال: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» :إسراء:۸۵،فهو کلمته،و هو یصدق ذلک قوله فی عیسی بن مریم(ع): «إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلیٰ مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» :النساء:۱۷۱، و إنزال الکلمه تکلیم فلا ضیر فی التعبیر عن إنزال الروح بإیحائه،و الأنبیاء مؤیدون بالروح فی أعمالهم کما أنهم یوحی إلیهم الشرائع به قال تعالی:« وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »و قد تقدمت الإشاره إلیه فی تفسیر قوله تعالی:

«وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِیتٰاءَ الزَّکٰاهِ» :الأنبیاء:۷۳.

و یمکن رفع إشکال کون الإیحاء بمعنی الإنزال و الإرسال بالقول بکون قوله:

« رُوحاً »منصوبا بنزع الخافض و رجوع ضمیر«جعلناه»إلی القرآن المعلوم من السیاق أو الکتاب و المعنی و کذلک أوحینا إلیک القرآن بروح منا ما کنت تدری ما الکتاب

و ما الإيمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورا إلخ،هذا و ما أذكر أحدا من المفسرين قال به.

و قوله:« مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ »قد تقدم أن الآيه مسوقه لبيان أن ما عنده(ص)الذى يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه و إنما أوتى ما أوتى من ذلك بالوحى بعد النبوه فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديه و الشرائع العمليه فإن ذلك هو الذى أوتى العلم به بعد النبوه و الوحى،و بعدم درايته بالإيمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلى بالعقائد الحقه و الأعمال الصالحه و قد سمى العمل إيمانا فى قوله: «وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِيعَ إِيمٰانَكُمْ البقره:۱۴۳.

فالمعنى:ما كان عندك قبل وحى الروح الكتاب بما فيه من المعارف و الشرائع و لا كنت متلبسا بما أنت متلبس به بعد الوحى من الالتزام الاعتقادى و العملى بمضامينه و هذا لا ينافى كونه(ص)مؤمنا بالله موحدا قبل البعثه صالحا فى عمله فإن الذى تنفيه الآيه هو العلم بتفاصيل ما فى الكتاب و الالتزام بها اعتقادا و عملا و نفى العلم و الالتزام التفصيليين لا يلازم نفى العلم و الالتزام الإجماليين بالإيمان بالله و الخضوع للحق.

و بذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآيه على أنه(ص)كان غير متلبس بالإيمان قبل بعثته.

و يندفع أيضا ما عن بعضهم أنه(ص)لم يزل كاملا فى نفسه علما و عملا و هو ينافى ظاهر الآيه أنه ما كان يدرى ما الكتاب و لا الإيمان.

و وجه الاندفاع أن من الضرورى وجود فرق فى حاله(ص)قبل النبوه و بعدها و الآيه تشير إلى هذا الفرق،و أن ما حصل له بعد النبوه لا صنع له فيه و إنما هو من الله من طريق الوحى.

و قوله:« وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا »ضمير« جَعَلْنٰاهُ » للروح و المراد بقوله:« مَنْ نَشٰاءُ »على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبى ص و من آمن به فإنهم جميعا مهتدون بالقرآن.

و على تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشاء جميع الأنبياء و من آمن بهم

من أممهم فإنه يهدى بالوحى الذى نزل به،الأنبياء و المؤمنين من أممهم و يسدد الأنبياء خاصه و يهديهم إلى الأعمال الصالحه و يشير عليهم بها.

و على هـذا تكون الآيه فى مقام تصديق النبى ص تصدقه فى دعواه أن كتابه من عند الله بوحى منه،و تصدقه فى دعواه أنه مؤمن بما يدعو إليه فيكون فى معنى قوله تعالى: «إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» :يس:۵.

و قوله:« وَ إِنَّکَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ »إشاره إلى أن الذى يهدى إليه صراط مستقيم و أن الذى يهديه من الناس هو الذى يهديه الله سبحانه،فهدايته(ص) هدايه الله.

قوله تعالى:« صِرٰاطِ اللّٰهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ »إلخ،بيان للصراط المستقيم الذى يهدى إليه النبى ص،و توصيفه تعالى بقوله:« اَلَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ »للدلاله على الحجه على استقامه صراطه فإنه تعالى لما ملک کل شیء ملک الغايه التى تسير إليها الأشياء و السعاده التى تتوجه إليها،فكانت الغايه و السعاده هى التى عينها،و كان الطريق إليها و السبيل الذى عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذى شرعه و بينه،و ليس يملک أحد شيئا حتى ينصب له غايه و نهايه أو يشرع له إليها سبيلا،فالسعاده التى يدعو سبحانه إليها حق السعاده و الطريق الذى يدعو إليه حق الطريق و مستقيم الصراط.

و قوله:« أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ »تنبيه على لازم ملكه لما فى السماوات و ما فى الأرض فإن لازمه رجوع أمورهم إليه و لازمه كون السبيل الذى يسلكونه-و هو من جمله أمورهم-راجعا إليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعنى قوله:« تَصِيرُ » للاستمرار.

و فيه إشعار بلم الوحى و التكليم الإلهى،إذ لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال: «وَ عَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» :النحل:۹،و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته و هو فى الإنسان التكليم المسمى بالوحى و الإرسال.

و قیل:المضارع للاستقبال و المراد مصیرها جمیعا إلیه یوم القیامه،و قد سیقت الجمله لوعد المهتدین إلی الصراط المستقیم و وعید الضالین عنه،و أول الوجهین أظهر.

بحث روائی

فی الدر المنثور،أخرج البخاری و مسلم و البیهقی عن عائشه *أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ص کیف یأتیک الوحی؟قال:أحیانا یأتینی الملک فی مثل صلصله الجرس-فیفصم عنی و قد وعیت عنه ما قال و هو أشده علی،و أحیانا یتمثل لی الملک رجلا فیکلمنی فأعی ما یقول:

قالت عائشه:و لقد رأیته ینزل علیه الوحی-فی الیوم الشدید البرد فیفصم-و إن جبینه لیتفصد عرقا.

و فی التوحید،بإسناده عن زراره قال*: قلت لأبی عبد الله(ع):جعلت فداک- الغشیه التی کانت تصیب رسول الله ص إذا نزل علیه الوحی؟قال:فقال:ذلک إذا لم یکن بینه و بین الله أحد-ذاک إذا تجلی الله له.قال:ثم قال:تلک النبوه یا زراره و أقبل یتخشع.

و فی العلل،بإسناده عن ابن أبی عمیر عن عمرو بن جمیع عن أبی عبد الله(ع) قال*: کان جبرئیل إذا أتی النبی ص قعد بین یدیه قعده العبد،و کان لا یدخل حتی یستأذنه.

و فی أمالی الشیخ،بإسناده عن ابن أبی عمیر عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله(ع) قال*:قال بعض أصحابنا: أصلحک الله-کان رسول الله ص یقول:قال جبرئیل، و هذا جبرئیل یأمرنی-ثم یکون فی حال أخری یغمی علیه،فقال أبو عبد الله(ع):

أنه إذا کان الوحی من الله إلیه-لیس بینهما جبرئیل-أصابه ذلک لثقل الوحی من الله، و إذا کان بینهما جبرئیل لم یصبه ذلک-فقال:قال لی جبرئیل و هذا جبرئیل.

و فی البصائر،عن علی بن حسان عن ابن بکیر عن زراره قال*: سألت أبا جعفر(ع) من الرسول؟من النبی؟من المحدث؟فقال:الرسول الذی یأتیه جبرئیل فیکلمه

قبلا-فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذى يكلمه فهذا الرسول،و النبى الذى يؤتى فى النوم نحو رؤيا إبراهيم(ع)،و نحو ما كان يأخذ رسول الله ص من السبات-إذا أتاه جبرئيل فى النوم فهكذا النبى،و منهم من يجمع له الرساله و النبوه-فكان رسول الله ص رسولا-نبيا-يأتيه جبرئيل قبلا فيكمله و يراه،و يأتيه فى النوم،و أما المحدث فهو الذى يسمع كلام الملك-فيحدثه من غير أن يراه-و من غير أن يأتيه فى النوم.

أقول:و فى معناه روايات أخر.

و فى التوحيد،بإسناده عن محمد بن مسلم و محمد بن مروان عن أبى عبد الله(ع) قال*: ما علم رسول الله ص أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق.

و فى تفسير العياشى،عن زراره قال*: قلت لأبى عبد الله(ع):كيف لم يخف رسول الله ص-فيما يأتيه من قبل الله-أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟قال:

فقال:إن الله إذا اتخذ عبدا رسولا-أنزل عليه السكينه و الوقار-فكان يأتيه من قبل الله مثل الذى يراه بعينه.

و فى الكافى،بإسناده عن أبى بصير قال*: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله تبارك و تعالى:« وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا-مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ »قال:خلق من خلق أعظم من جبرئيل و ميكائيل-كان مع رسول الله ص يخبره و يسدده،و هو مع الأئمه من بعده.

أقول:و فى معناها عده روايات و فى بعضها أنه من الملكوت،

قال فى روح المعانى،:و نقل الطبرسى عن أبى جعفر و أبى عبد الله: أن المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل-كان مع رسول الله ص و لم يصعد إلى السماء ،و هذا القول فى غايه الغرابه و لعله لا يصح عن هذين الإمامين.انتهى.

و الذى فى مجمع البيان،، عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع)قالا: و لم يصعد إلى السماء و إنه لفينا. انتهى.

و استغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب.على أنه يسلم تسديد هذا الروح لبعض الأمه غير النبى كما هو ظاهر لمن راجع قسم الإشارات من تفسيره.

و فى النهج،: و لقد قرن الله به(ص)من لدن كان فطيما-أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم-و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره.

و فی الـدر المنثور،أخرج أبو نعیم فی الـدلائل و ابن عسـاکر عن علی قـال*: قیل للنبی ص:هل عبـدت وثنا قط؟قال:لا.قالوا:فهل شربت خمرا قط؟قال:

لا-و مـا زلت أعرف أن الـذی هم علیه کفر-و مـا کنت أدری مـا الکتاب و ما الإیمان، و بـذلک نزل القرآن« مٰا کُنْتَ تَـدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ ».

و فی الکـافی،بإسـناده عن أبی عمرو الزبیری عن أبی عبـد الله(ع)فی حـدیث، * و قال فی نبیه ص:« وَ إِنَّکَ لَتَهْـدِی إِلیٰ صِـرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ »یقول:تدعو.

و فی الکافی،بإسـناده عن جابر عن أبی جعفر(ع)قال*:سـمعته یقول: وقع مصـحف فی البحر فوجـدوه-و قد ذهب ما فیه إلا هذه الآیه:« أَلاٰ إِلَی اللّٰهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ ».

(۴۳) سوره الزخرف مکیه و هی تسع و ثمانون آیه(۸۹)

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ

حم (۱) وَ اَلْکِتابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ اَلْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (۴) أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ اَلذِّکْرَ صَفْحاً أَنْ کُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِینَ (۵) وَ کَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِیٍّ فِی اَلْأَوَّلِینَ (۶) وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ نَبِیٍّ إِلاّ کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَکْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضی مَثَلُ اَلْأَوَّلِینَ (۸) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اَلْعَزِیزُ اَلْعَلِیمُ (۹) اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَکُمْ فِیها سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ اَلَّذِی نَزَّلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذلِکَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلْأَزْواجَ کُلَّها وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلْفُلْکِ وَ اَلْأَنْعامِ ما تَرْکَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلی ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اِسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ اَلَّذِی سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما کُنّا لَهُ مُقْرِنِینَ (۱۳) وَ إِنّا إِلی رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

ص: ۸۲

بیان

السوره موضوعه للإنـذار كما تشـهد به فاتحتها و خاتمتها و المقاصد المتخلله بينهما إلا ما فى قوله:« إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ »إلى تمام ست آيات استطراديه.

تـذكر أن السـنه الإلهيه إنزال الـذكر و إرسال الأنبياء و الرسل و لا يصـده عن ذلك إسـراف الناس فى قولهم و فعلهم بل يرسـل الأنبياء و الرسل و يهلك المستهزءين بهم و المكذبين لهم ثم يسوقهم إلى نار خالده.

و قد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولا ثم سمى منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى(ع)،و ذكرت من إسراف الكفار أشياء و من عمـدتها قولهم بـأن لله سـبحانه ولـدا و أن الملائكه بنـات الله ففيهـا عنـايه خـاصه بنفى الولـد عنه تعالى فكررت ذلك و ردته و أوعدتهم بالعذاب،و فيها حقائق متفرقه أخرى.

و السوره مكيه بشهاده مضامين آياتها إلا قوله:« وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا »الآيه،و لم يثبت كما سيأتى إن شاء الله.

قوله تعالى:« وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »ظاهره أنه قسم و جوابه قوله:« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا »إلى آخر الآيتين،و كون القرآن مبينا هو إبانته و إظهاره طريق الهـدى كما قال تعالى: «وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» :النحل:۸۹،أو كونه ظـاهرا فى نفسه لا يرتاب فيه كما قال: «ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» :البقره:۲.

قوله تعـالى:« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »الضـمير للكتاب، و« قُرْآناً عَرَبِيًّا »أى مقروا باللغه العربيه و« لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »غايه الجعل و غرضه.

و جعـل رجـاء تعقله غـايه للجعـل المـذكور يشـهد بأن له مرحله من الكينونه و الوجود لا ينالها عقول الناس،و من شأن العقل أن ينـال كـل أمر فكرى و إن بلغ من اللطـافه و الـدقه مـا بلغ فمفاد الآيه أن الكتاب بحسب موطنه الـذى له فى نفسه أمر وراء الفكر أجنبى عن العقول البشـريه و إنما جعله الله قرآنا عربيا و ألبسه هـذا اللباس رجاء أن يسـتأنس به عقول الناس فيعقلوه،و الرجاء فى كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مره.

قوله تعالى:« وَ إِنَّهُ فِي أَمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ »تأكيد و تبيين لما تدل عليه الآيه السابقه أن الكتاب فى موطنه الأصلى وراء تعقل العقول.

و الضمير للكتاب،و المراد بأم الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» :البروج:۲۲،و تسميته بأم الكتاب لكونه أصل الكتب السماويه يستنسخ منه غيره،و التقييد بأم الكتاب و« لَدَيْنَا »للتوضيح لا ـ للاحتراز،و المعنى:أنه حال كونه فى أم الكتاب لدينا-حالا ـ لازمه-لعلى حكيم، و سيجىء فى أواخر سوره الجاثيه كلام فى أم الكتاب إن شاء الله.

و المراد بكونه عليا على ما يعطه مفاد الآيه السابقه أنه رفيع القدر و المنزله من أن تناله العقول،و بكونه حكيما أنه هناك محكم غير مفصل و لا مجزى إلى سور و آيات و جمل و كلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآنا عربيا كما استفدناه من قوله تعالى:

«كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» :هود:۱.

و هذان النعتان أعنى كونه عليا حكيما هما الموجبان لكونه وراء العقول البشريه فإن العقل فى فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم و الألفاظ أولا و كان مؤلفا من مقدمات تصديقيه يترتب بعضها على بعض كما فى الآيات و الجمل القرآنيه،و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم و الألفاظ و كان غير متجز إلى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل إلى نيله.

فمحصل معنى الآيتين:أن الكتاب عندنا فى اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع و أحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين و إنما أنزلناه بجعله مقروا عربيا رجاء أن يعقله الناس.

فإن قلت:ظاهر قوله:« لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربى النازل تعقلا تاما فهذا الذى نقرؤه و نعقله إما أن يكون مطابقا لما فى أم الكتاب كل المطابقه أو لا يكون،و الثانى باطل قطعا كيف؟و هو تعالى يقول:« وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ »و «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» :البروج:۲۲،و «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» :الواقعه:۷۸،فتعين الأول و مع مطابقته لأم الكتاب كل المطابقه ما معنى كون القرآن العربى الذى عندنا معقولا لنا و ما فى أم الكتاب عند الله غير معقول لنا.

قلت:يمكن أن تكون النسبه بين ما عندنا و ما فى أم الكتاب نسبه المثل و الممثل فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك.

ص :۸۴

و بما مر يظهر ضعف الوجوه التى أوردوها فى تفسير الوصفين كقول بعضهم:إن المراد بكونه عليا أنه عال فى بلاغته مبين لما يحتاج إليه الناس،و قول بعضهم:معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختص به من الإعجاز و هو ينسخ الكتب غيره و لا ينسخه كتاب، و قول بعضهم يعنى أنه يعظمه الملائكه و المؤمنون.

و كقول بعضهم فى معنى« حَكِيمٌ »إنه مظهر للحكمه البالغه،و قول بعضهم معناه أنه لا ينطق إلا بالحكمه و لا يقول إلا الحق و الصواب،ففى توصيفه بالحكيم تجوز لغرض المبالغه.و ضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر فى مفاد الآيه السابقه و ظهور أن جعله قرآنا عربيا بالنزول عن أم الكتاب.

قوله تعالى:« أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ »الاستفهام للإنكار،و الفاء للتفريع على ما تقدم،و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم.قال فى المجمع:، و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابه فأراد أن يصرفه عن جهه ضربه بعصا أو سوط ليعدل به إلى جهه أخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف و العدل.

انتهى.و الصفح بمعنى الإعراض فصفحا مفعول له،و احتمل أن يكون بمعنى الجانب «و أَنْ كُنْتُمْ »محذوف الجار و التقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله:« أَ فَنَضْرِبُ ».

و المعنى:أ فنصرف عنكم الذكر-و هو الكتاب الذى جعلناه قرآنا لتعقلوه- للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أ فنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أى أنا لا نصرفه عنكم لذلك.

قوله تعالى:« وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ »« كَمْ »للتكثير،و الأولون هم الأمم الدارجه و« ما يَأْتِيهِمْ »إلخ،حال و العامل فيها« أَرْسَلْنا ».

و الآيتان و ما يتلوهما فى مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوما مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنه الهدايه من طريق الوحى فإنا كثيرا ما أرسلنا من نبى فى الأمم الماضين و الحال أنه ما يأتيهم من نبى إلا استهزءوا به و انجر الأمر إلى أن أهلكنا من أولئك من هو أشد بطشا منكم.

فكما كانت عاقبه إسرافهم و استهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبه إسرافكم ففى الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبى ص و وعيد لقومه.

قوله تعالى:« فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ »قال الراغب،:

البطش تناول الشیء بصوله.انتهى و فی الآیه التفات فی قوله:« مِنْهُمْ »من الخطاب إلى الغیبه،و كان الوجه فیه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبی ص لعدم اعتبارهم بهذه القصص و العبر و لیكون تمهیدا لقوله بعد:« وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ »و یؤیده قوله بعد:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ »خطابا للنبی ص. و معنى قوله:« وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ » و مضى فی السور النازله قبل هذه السوره من القرآن وصف الأمم الأولین و أنه كیف حاق بهم ما كانوا به یستهزءون.

قوله تعالى:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »فی الآیه و ما یتلوها إلى تمام ست آیات احتجاج على ربوبیته تعالى و توحده فیها مع إشاره ما إلى المعاد و تبكیت لهم على إسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هی بعینها تدبیر لأمور العباد كجعل الأرض لهم مهدا و جعله فیها سبلا و إنزال الأمطار فینتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لأمورهم فهو الرب لا رب غیره.

و بذلك تبین أن الآیه تقدمه و توطئه لما تتضمنه الآیات التالیه من الحجه و قد تقدم فی هذا الكتاب مرارا أن الوثنیه لا تنكر رجوع الصنع و الإیجاد إلیه تعالى وحده و إنما تدعی رجوع أمر التدبیر إلى غیره.

قوله تعالى:« اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »أی جعل لكم الأرض بحیث تربون فیها كما یربى الأطفال فی المهد،و جعل لكم فی الأرض سبلا و طرقا تسلكونها و تهتدون بها إلى مقاصدكم.

و قیل:معنى« لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »رجاء أن تهتدوا إلى معرفه الله و توحیده فی العباده و الأول أظهر.

و فی الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبی ص و لعل الوجه فیه إظهار العنایه بهذا المعنى فی الخلقه و هو أن التدبیر بعینه من الخلق فاعترافهم بكون الخلق مختصا بالله سبحانه و قولهم برجوع التدبیر إلى غیره من خلقه من التهافت فی القول جهلا فقرعهم بهذا الخطاب من غیر واسطه.

قوله تعالى:« وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ »قید تنزیل الماء بقدر للإشاره إلی أنه عن إراده و تدبیر لا کیف اتفق و الإنشار الإحیاء،و المیت مخفف المیت بالتشدید،و توصیف البلده به باعتبار أنها مکان لأن البلده أیضا إنما تتصف بالموت و الحیاه باعتبار أنها مکان،و الالتفات عن الغیبه إلی التکلم مع الغیر فی« فَأَنْشَرْنٰا »لإظهار العنایه.

و لما استدل بتنزیل الماء بقدر و إحیاء البلده المیته علی خلقه و تدبیره استنتج منه أمر آخر لا یتم التوحید إلا به و هو المعاد الذی هو رجوع الکل إلیه تعالی فقال:

« کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ »أی کما أحیا البلده المیته کذلک تبعثون من قبورکم أحیاء.

قیل:فی التعبیر عن إخراج النبات بالإنشار الذی هو إحیاء الموتی و عن إحیائهم بالإخراج تفخیم لشأن الإنبات و تهوین لأمر البعث لتقویم سنن الاستدلال و توضیح منهاج القیاس.

قوله تعالی:« وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ »قیل:المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذکر و أنثی و أبیض و أسود و غیرها،و قیل:المراد الزوج من کل شیء فکل ما سوی الله کالفوق و تحت و الیمین و الیسار و الذکر و الأنثی زوج.

و قوله:« وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ »أی ترکبونه،و الرکوب إذا نسب إلی الحیوان کالفرس و الإبل تعدی بنفسه فیقال:رکبت الفرس و إذا نسب إلی مثل الفلک و السفینه تعدی بفی فیقال رکب فیه قال تعالی:« فَإِذٰا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ » ففی قوله:« مٰا تَرْکَبُونَ »أی ترکبونه تغلیب لجانب الأنعام.

قوله تعالی:« لِتَسْتَوُوا عَلیٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا -إلی قوله- لَمُنْقَلِبُونَ » الاستواء علی الظهور الاستقرار علیها،و الضمیر فی « ظُهُورِهِ »راجع إلی لفظ الموصول فی« مٰا تَرْکَبُونَ »،و الضمیر فی قوله:« إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ »للموصول أیضا فکما یقال:استویت علی ظهر الدابه یقال:استویت علی الدابه.

و المراد بذکر نعمه الرب سبحانه بعد الاستواء علی ظهر الفلک و الأنعام ذکر النعم التی ینتفع بها الإنسان بتسخیره تعالی له هذه المراکب کالانتقال من مکان إلی

مکان و حمل الأثقال قال تعالی: «وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْفُلْکَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» :إبراهیم:۳۲،و قال: «وَ الْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا -X‌إلی أن قالX- وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَکُمْ إِلیٰ بَلَدٍ لَمْ تَکُونُوا بٰالِغِیهِ إِلاّٰ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ» :النحل:۷،أو المراد ذکر مطلق نعمه تعالی بالانتقال من ذکر هذه النعم إلیه.

و قوله:« وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا کُنّٰا لَهُ مُقْرِنِینَ »أی مطیقین و الإقران الإطاقه.

و ظاهر ذکر النعمه عند استعمالها و الانتفاع بها شکر منعمها و لازم ذلک أن یکون ذکر النعمه غیر قول:« سُبْحٰانَ الَّذِی »إلخ،فإن هذا القول تسبیح و تنزیه له عما لا یلیق بساحه کبریائه و هو الشریک فی الربوبیه و الألوهیه،و ذکر النعمه شکر -کما تقدم-و الشکر غیر التنزیه.

و یؤید هذا ما ورد عن النبی ص و أئمه أهل البیت(ع)فی ما یقال عند الاستواء علی المرکوب فإن الروایات علی اختلافها تتضمن التحمید وراء التسبیح یقول« سُبْحٰانَ الَّذِی »إلخ.

و روی فی الکشاف،عن الحسن بن علی(ع) *أنه رأی رجلا یرکب دابه فقال:

سبحان الذی سخر لنا هذا-فقال:أ بهذا أمرتم؟فقال:و بم أمرنا؟قال:إن تذکروا نعمه ربکم.

و قوله:« وَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ »أی صائرون شهاده بالمعاد.

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱۵ الی ۲۵]

اشاره

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبٰادِهِ جُزْءاً إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَکَفُورٌ مُبِینٌ (۱۵) أَمِ اِتَّخَذَ مِمّٰا یَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاکُمْ بِالْبَنِینَ (۱۶) وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ کَظِیمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ یُنَشَّؤُا فِی اَلْحِلْیَهِ وَ هُوَ فِی اَلْخِصٰامِ غَیْرُ مُبِینٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا اَلْمَلاٰئِکَهَ اَلَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ اَلرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُکْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ یُسْئَلُونَ (۱۹) وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ اَلرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَیْنٰاهُمْ کِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ (۲۱) بَلْ قٰالُوا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلیٰ أُمَّهٍ وَ إِنّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) وَ کَذٰلِکَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلیٰ أُمَّهٍ وَ إِنّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکُمْ بِأَهْدیٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَیْهِ آبٰاءَکُمْ قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُکَذِّبِینَ (۲۵)

ص :۸۸

بیان

حکایه بعض أقوالهم التی دعاهم إلی القول بها الإسراف و الکفر بالنعم و هو قولهم بالولد و أن الملائکه بنات الله سبحانه،و احتجاجهم علی عبادتهم الملائکه و رده علیهم.

قوله تعالی:« وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبٰادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَکَفُورٌ مُبِینٌ »المراد بالجزء الولد فإن الولاده إنما هی الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

و إنما عبر عن الولد بالجزء للإشاره إلی استحاله دعواهم،فإن جزئیه شیء من شیء کیفما تصورت لا تتم إلا بترکب فی ذلک الشیء و الله سبحانه واحد من جمیع الجهات.

و قد بان بما تقدم أن« مِنْ عِبٰادِهِ »بیان لقوله:« جُزْءاً »و لا ضیر فی تقدم هذا النوع من البیان علی المبین و لا فی جمعیه البیان و إفراد المبین.

قوله تعالی:« أَمِ اتَّخَذَ مِمّٰا یَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاکُمْ بِالْبَنِینَ »أی أخلصکم للبنین

ص :٨٩

فلكم بنون و ليس له إلا البنات و أنتم ترون أن البنت أخس من الابن فتثبتون له أخس الصنفين و تخصون أنفسكم بأشرفهما و هذا مع كونه قولا محالا فى نفسه إزراء و إهانه ظاهره و كفران.

و تقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكه-على ربوبيتهم و ألوهيتهم-مخلوقين لله،و الالتفات فى الآيه إلى خطابهم لتأكيد الإلزام و تثبيت التوبيخ،و التنكير و التعريف فى«بنات»و«البنين»للتحقير و التفخيم.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ » المثل هو المثل و الشبه المجانس للشىء و ضرب الشىء مثلا أخذه مجانسا للشىء«و بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً »الأنثى،و الكظيم المملوء كربا و غيظا.

و المعنى:و حالهم أنه إذا بشر أحدهم بالأنثى الذى جعلها شبها مجانسا للرحمان صار وجهه مسودا من الغم و هو مملوء كربا و غيظا لعدم رضاهم بذلك و عده عارا لهم لكنهم يرضونه له.

و الالتفات فى الآيه إلى الغيبه لحكايه شنيع سيرتهم و قبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه.

قوله تعالى:« أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصٰامِ غَيْرُ مُبِينٍ »أى أ و جعلوا لله سبحانه من ينشأ فى الحليه أى يتربى فى الزينه و هو فى المخاصمه و المحاجه غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه.

و إنما ذكر هذين النعتين لأن المرأه بالطبع أقوى عاطفه و شفقه و أضعف تعقلا بالقياس إلى الرجل و هو بالعكس و من أوضح مظاهر قوه عواطفها تعلقها الشديد بالحليه و الزينه و ضعفها فى تقرير الحجه المبنى على قوه التعقل.

قوله تعالى:« وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً »إلخ،هذا معنى قولهم:إن الملائكه بنات الله و قد كان يقول به طوائف من عرب الجاهليه و أما غيرهم من الوثنيه فربما عدوا فى آلهتهم إلهه هى أم إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكه إناثا كما هو ظاهر المحكى فى الآيه الكريمه.

و إنما وصف الملائكه بقوله:« اَلَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ »ردا لقولهم بأنوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد،و لا يلزم منه اتصافهم بالذكوره بالمعنى الذى يتصف به

الحیوان فإن الذکوره و الأنوثه اللتین فی الحیوان من لوازم وجوده المادی المجهز للتناسل و تولید المثل،و الملائکه فی معزل من ذلک.

و قوله:« أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُکْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ یُسْئَلُونَ »رد لدعواهم الأنوثه فی الملائکه بأن الطریق إلی العلم بذلک الحس و هم لم یروهم حتی یعلموا بها فلم یکونوا حاضرین عند خلقهم حتی یشاهدوا منهم ذلک.

فقوله:« أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ إلخ»استفهام إنکاری و وعید علی قولهم بغیر علم أی لم یشهدوا خلقهم و ستکتب فی صحائف أعمالهم هذه الشهاده علیهم و یسألون عنه یوم القیامه.

قوله تعالی:« وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ الرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ »حجه عقلیه داحضه محکیه عنهم یمکن أن تقرر تاره لإثبات صحه عباده الشرکاء بأن یقال:لو شاء الله أن لا نعبد الشرکاء ما عبدناهم ضروره لاستحاله تخلف مراده تعالی عن إرادته لکنا نعبدهم فهو لم یشأ ذلک و عدم مشیته عدم عبادتهم إذن فی عبادتهم فلا منع من قبله تعالی عن عباده الشرکاء و الملائکه منهم،و هذا المعنی هو المنساق إلی الذهن من قوله فی سوره الأنعام: «سَیَقُولُ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَکْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ شَیْءٍ» :الأنعام:۱۴۸،علی ما یعطیه السیاق ما قبله و ما بعده.

و تقرر تاره لإبطال النبوه القائله إن الله یوجب علیکم کذا و کذا و یحرم علیکم کذا کذا بأن یقال لو شاء الله أن لا نعبد الشرکاء و لا نحل و لا نحرم شیئا لم نعبد الشرکاء و لم نضع من عندنا حکما لاستحاله تخلف مراده تعالی عن إرادته لکنا نعبدهم و نحل و نحرم أشیاء فلم یشأ الله سبحانه منا شیئا،فقول إن الله یأمرکم بکذا و ینهاکم عن کذا و بالجمله أنه شاء کذا باطل.

و هذا المعنی هو الظاهر المستفاد من قوله تعالی فی سوره النحل: «وَ قٰالَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ» :النحل:۳۵،بالنظر إلی السیاق.

و قولهم فی محکی الآیه المبحوث عنها:« لَوْ شٰاءَ الرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ »علی ما یفیده سیاق الآیات السابقه و اللاحقه مسوق للاحتجاج علی المعنی الأول و هو تصحیح

عبادتهم للملائکه فیکون فی معنی آیه سوره الأنعام و أخص منها.

و قوله:« مٰا لَهُمْ بِذٰلِکَ مِنْ عِلْمٍ »أی هو منهم قول مبنی علی الجهل فإنه مغالطه خلطوا فیها بین الإراده التکوینیه و الإراده التشریعیه و أخذ الأولی مکان الثانیه، فمقتضی الحجه أن لا إراده تکوینیه منه تعالی متعلقه بعدم عبادتهم الملائکه و انتفاء تعلق هذا النوع من الإراده بعدم عبادتهم لهم لا یستلزم انتفاء تعلق الإراده التشریعیه به.

فهو سبحانه لما لم یشأ أن لا یعبدوا الشرکاء بالإراده التکوینیه کانوا مختارین غیر مضطرین علی فعل أو ترک فأراد منهم بالإراده التشریعیه أن یوحدوه و لا یعبدوا الشرکاء،و الإراده التشریعیه لا یستحیل تخلف المراد عنها لکونها اعتباریه غیر حقیقیه، و إنما تستعمل فی الشرائع و القوانین و التکالیف المولویه،و الحقیقه التی تبتنی علیها هی اشتمال الفعل علی مصلحه أو مفسده.

و بما تقدم یظهر فساد ما قیل:إن حجتهم مبنیه علی مقدمتین:الأولی أن عبادتهم للملائکه بمشیته تعالی،و الثانیه أن ذلک مستلزم لکونها مرضیه عنده تعالی و قد أصابوا فی الأولی و أخطئوا فی الثانیه حیث جهلوا أن المشیه عباره عن ترجیح بعض الممکنات علی بعض کائنا ما کان من غیر اعتبار الرضا و السخط فی شیء من الطرفین.

وجه الفساد:أن مضمون الحجه عدم تعلق المشیه علی ترک العباده و عدم تعلق المشیه بالترک لا یستلزم تعلق المشیه بالفعل بل لازمه الإذن الذی هو عدم المنع من الفعل.ثم إن ظاهر کلامه قصر الإراده فی التکوینیه و إهمال التشریعیه التی علیها المدار فی التکالیف المولویه و هو خطأ منه.

و یظهر أیضا فساد ما نسب إلی بعضهم أن المراد بقولهم:«لو شاء الرحمن ما عبدناهم»الاعتذار عن عباده الملائکه بتعلق مشیه الله بها مع الاعتراف بکونها قبیحه.

و ذلک أنهم لم یکونوا مسلمین لقبح عباده آلهتهم حتی یعتذروا عنها و قد حکی عنهم ذیلا قولهم:« إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلیٰ أُمَّهٍ وَ إِنّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ ».

و قوله:« إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ » الخرص -علی ما یظهر من الراغب-القول علی الظن و التخمین،و فسر أیضا بالکذب.

قوله تعالی:« أَمْ آتَیْنٰاهُمْ کِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ »ضمیر« مِنْ قَبْلِهِ »

للقرآن،و فى الآيه نفى أن يكون لهم حجه من طريق النقل كما أن فى الآيه السابقه نفى حجتهم من طريق العقل،و محصل الآيتين أن لا حجه لهم على عباده الملائكه لا من طريق العقل و لا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها.

قوله تعالى:« بَلْ قالُوا إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّهٍ وَ إِنّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ » الأمه الطريقه التى تؤم و تقصد،و المراد بها الدين،و الإضراب عما تحصل من الآيتين، و المعنى:لا دليل لهم على حقيه عبادتهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين و إنا على آثارهم مهتدون أى إنهم متشبثون بتقليد آبائهم فحسب.

قوله تعالى:« وَ كَذٰلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَهٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّ قالَ مُتْرَفُوها إِنّا وَجَدْنا »إلخ،أى إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الأمم المشركين و ما أرسلنا من قبلك فى قريه من نذير و هو النبى إلا تشبث متنعموها بذيل التقليد و قالوا:إنا وجدنا أسلافنا على دين و إنا على آثارهم مقتدون لن نتركها و لن نخالفهم.

و نسبه القول إلى مترفيهم للإشاره إلى أن الإتراف و التنعم هو الذى يدعوهم إلى التقليد و يصرفهم عن النظر فى الحق.

قوله تعالى:« قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ »إلخ،القائل هو النذير،و الخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعيه،و العطف فى« أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ » على محذوف يدل عليه كلامهم،و التقدير أنكم على آثارهم مقتدون و لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟و المحصل:هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه؟و عد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لا هدى فيه من باب مجاراه الخصم.

و قوله:« قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ »جواب منهم لقول النذير:« أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ »إلخ و هو تحكم من غير دليل.

قوله تعالى:« فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ الْمُكَذِّبِينَ »أى تفرع على ذلك الإرسال و الرد بالتقليد و التحكم أنا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبه أولئك السابقين من أهل القرى و فيه تهديد لقوم النبى ص.

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۶ الى ۴۵]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَرٰاءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلاَّ اَلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ
(۳۰) وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ اَلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى
اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ (۳۲) وَ لَوْ لاٰ أَنْ
يَكُونَ اَلنّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً
عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّٰا مَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۳۵) وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ اَلرَّحْمٰنِ
نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِى وَ
بَيْنَكَ بُعْدَ اَلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ اَلْقَرِينُ (۳۸) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى اَلْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ أَوْ
تَهْدِى اَلْعُمْىَ وَ مَنْ كٰانَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۴۰) فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِيَنَّكَ اَلَّذِى وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (۴۴)
وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنٰا أَ جَعَلْنٰا مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵)

ص: ۹۴

بيان

لما انجر الكلام إلى ردهم رساله الرسول و كفرهم بها تحكما و تشبثهم فی الشرک بذيل تقليد الآباء و الأسلاف من غير دليل عقب ذلک بالإشاره إلى قصه إبراهيم(ع) و رفضه تقليد أبيه و قومه و تبريه عما يعبدونه من دون الله سبحانه و استهدائه هدى ربه الذی فطره.

ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه و كفرانهم بها بالكفر بكتاب الله و طعنهم فيه و فی رسوله بما هو مردود عليهم.ثم يذكر تبعه الإعراض عن ذكر الله و ما تنتهی إليه من الشقاء و الخسران،و يعطف عليه إياس النبی ص من إيمانهم و تهديدهم بالعذاب و يؤكد الأمر للنبی ص أن يستمسک بالقرآن و إنه لذكر له و لقومه و سوف يسألون عنه، و إن الذی فيه من دين التوحيد هو الذی كان عليه الأنبياء السابقون عليه.

قوله تعالى:« وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِی بَراءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ » البراء مصدر من برىء يبرأ فهو برىء فمعنى« إِنَّنِی بَراءٌ »إننی:ذو براء أو برىء على سبيل المبالغه مثل زيد عدل.

و فی الآيه إشاره إلى تبری إبراهيم(ع)مما كان يعبده أبوه و قومه من الأصنام

ص: ۹۵

و الکواکب بعد ما حاجهم فیها فاستندوا فیها إلی سیره آبائهم علی ما ذکر فی سور الأنعام و الأنبیاء و الشعراء و غیرها.

و المعنی:و اذکر لهم إذ تبرأ إبراهیم عن آلهه أبیه و قومه إذ کانوا یعبدونها تقلیدا لآبائهم من غیر حجه و قام بالنظر وحده.

قوله تعالی:« إِلاَّ الَّذِی فَطَرَنِی فَإِنَّهُ سَیَهْدِینِ »أی إلا الذی أوجدنی و هو الله سبحانه،و فی توصیفه تعالی بالفطر إشاره إلی الحجه علی ربوبیته و ألوهیته فإن الفطر و الإیجاد لا ینفک عن تدبیر أمر الموجود المفطور فالذی فطر الکل هو الذی یدبر أمرهم فهو الحقیق أن یعبد.

و قوله:« فَإِنَّهُ سَیَهْدِینِ »أی إلی الحق الذی أطلبه،و قیل:أی إلی طریق الجنه،و فی هذه الجمله إشاره إلی خاصه أخری ربوبیه و هی الهدایه إلی السبیل الحق یجب أن یسلکه الإنسان فإن السوق إلی الکمال من تمام التدبیر فعلی الرب المدبر لأمر مربوبه أن یهدیه إلی کماله و سعادته،قال تعالی: «رَبُّنَا الَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ» :طه:۵۰،و قال: «وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ» :النحل:۹،فالرجوع إلی الله بتوحید العباده یستتبع الهدایه کما قال تعالی: «وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنٰا» العنکبوت:۶۹.

و الاستثناء فی قوله:« إِلاَّ الَّذِی فَطَرَنِی »منقطع لأن الوثنیین لا یعبدون الله کما مر مرارا،فقول بعضهم:إنه متصل،و إنهم کانوا یقولون:الله ربنا مع عبادتهم الأوثان،کما تری.

قوله تعالی:« وَ جَعَلَهٰا کَلِمَهً بٰاقِیَهً فِی عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ »الظاهر أن ضمیر الفاعل المستتر فی« جَعَلَهٰا »لله سبحانه،و الضمیر البارز-علی ما قیل-لکلمه البراءه التی تکلم بها إبراهیم(ع)و معناها معنی کلمه التوحید فإن مفاد لا إله إلا الله نفی الآلهه غیر الله لا نفی الآلهه و إثبات الإله تعالی (۱)و هو ظاهر فلا حاجه إلی ما تکلف به بعضهم أن الضمیر لکلمه التوحید المعلوم مما تکلم به إبراهیم(ع).

و المراد بعقبه ذریته و ولده،و قوله:« لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ »أی یرجعون من عباده

۱- ۱) و ذلک أن«الله»فیها مرفوع علی البدلیه لا منصوب علی الاستثناء.

آلهه غیر الله إلی عبادته تعالی أی یرجع بعضهم-و هم العابدون لغیر الله بدعوه بعضهم و هم العابدون لله-إلی عبادته تعالی،و بهذا یظهر أن المراد ببقاء الکلمه فی عقبه عدم خلوهم عن الموحد ما داموا،و لعل هذا عن استجابه دعائه(ع)إذ یقول: «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ» :إبراهیم:۳۵.

و قیل:الضمیر فی«جعل»لإبراهیم(ع)فهو الجاعل هذه الکلمه باقیه فی عقبه رجاء أن یرجعوا إلیها،و المراد بجعلها باقیه فیهم وصیته لهم بذلک کما قال تعالی:

«وَصّٰی بِهٰا إِبْرٰاهِیمُ بَنِیهِ وَ یَعْقُوبُ یٰا بَنِیَّ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفیٰ لَکُمُ الدِّینَ فَلاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» :البقره:۱۳۲.

و أنت خبیر بأن الوصیه بکلمه التوحید لا تسمی جعلا للکلمه باقیه فی العقب و إن صح أن یقال:أراد بها ذلک لکنه غیر جعلها باقیه فیهم.

و قیل:المراد أن الله جعل الإمامه کلمه باقیه فی عقبه و سیجیء الکلام فیه فی البحث الروائی الآتی إن شاء الله.

و یظهر من الآیه أن ذریه إبراهیم(ع)لا تخلو من هذه الکلمه إلی یوم القیامه.

قوله تعالی:« بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِینٌ » إضراب عما یفهم من الآیه السابقه،و المعنی:أن رجوعهم عن الشرک إلی التوحید کان هو الغایه المرجوه منهم لکنهم لم یرجعوا بل متعت هؤلاء من قومک و آباءهم فتمتعوا بنعمی« حَتّٰی جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِینٌ ».

و لعل الالتفات إلی التکلم وحده فی قوله:« بَلْ مَتَّعْتُ »للإشاره إلی تفخیم جرمهم و أنهم لا یقصدون فی کفرانهم للنعمه و کفرهم بالحق و رمیه بالسحر إلا إیاه تعالی وحده.

و المراد بالحق الذی جاءهم هو القرآن،و بالرسول المبین محمد ص.

قوله تعالی:« وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ کٰافِرُونَ »هذا طعنهم فی الحق الذی جاءهم و هو القرآن و یستلزم الطعن فی الرسول.کما أن قولهم الآتی:« لَوْ لاٰ نُزِّلَ » إلخ،کذلک.

قوله تعالی:« وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلیٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ »المراد بالقریتین مکه و الطائف،و مرادهم بالعظمه-علی ما یفیده السیاق-ما هو من حیث المال و الجاه اللذین هما ملاک الشرافه و علو المنزله عند أبناء الدنیا،و المراد بقوله:« رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ »رجل من إحدی القریتین حذف المضاف إیجازا.

و مرادهم أن الرساله منزله شریفه إلهیه لا ینبغی أن یتلبس به إلا رجل شریف فی نفسه عظیم مطاع فی قومه،و النبی ص فقیر فاقد لهذه الخصله،فلو کان القرآن الذی جاء به وحیا نازلا من الله فلو لا نزل علی رجل عظیم من مکه أو الطائف کثیر المال رفیع المنزله.

و فی المجمع،:و یعنون بالرجل العظیم من إحدی القریتین الولید بن المغیره من مکه و أبا مسعود عروه بن مسعود الثقفی من الطائف.عن قتاده،و قیل:عتبه بن أبی ربیعه من مکه و ابن عبد یالیل من الطائف.عن مجاهد،و قیل:الولید بن المغیره من مکه و حبیب بن عمر الثقفی من الطائف.عن ابن عباس.انتهی.

و الحق أن ذلک من تطبیق المفسرین و إنما قالوا ما قالوا علی الإبهام و أرادوا أحد هؤلاء من عظماء القریتین علی ما هو ظاهر الآیه.

قوله تعالی:« أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا » إلخ،المراد بالرحمه-علی ما یعطیه السیاق-النبوه.

و قال الراغب: العیش الحیاه المختصه بالحیوان،و هو أخص من الحیاه لأن الحیاه تقال فی الحیوان و فی الباری تعالی و فی الملک،و یشتق منه المعیشه لما یتعیش به.

انتهی.و قال: التسخیر سیاقه إلی الغرض المختص قهرا-إلی أن قال:و السخری هو الذی یقهر فیتسخر بإرادته.انتهی.

و الآیه و الآیتان بعدها فی مقام الجواب عن قولهم:« لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلیٰ رَجُلٍ »إلخ،و محصلها أن قولهم هذا تحکم ظاهر ینبغی أن یتعجب منه فإنهم یحکمون فیما لا یملکون.هذه معیشتهم فی الحیاه الدنیا یعیشون بها و یرتزقون و هی رحمه منا لا قدر لها و لا منزله عندنا و لیست إلا متاعا زائلا نحن نقسمها بینهم و هی خارجه عن مقدرتهم و مشیتهم فکیف یقسمون النبوه التی هی الرحمه الکبری و هی مفتاح سعاده البشر الدائمه و الفلاح الخالد فیعطونها لمن شاءوا و یمنعونها ممن شاءوا.

فقوله:« أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ »الاستفهام للإنکار،و الالتفات إلی الغیبه فی قوله:« رَحْمَتَ رَبِّکَ »و لم یقل:رحمتنا،للدلاله علی اختصاص النبی ص بعنایه الربوبیه فی النبوه.

و المعنی:أنهم لا یملکون النبوه التی هی رحمه لله خاصه به حتی یمنعوک منها و یعطوها لمن هووا.

و قوله:« نَحْنُ قَسَمْنٰا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا »بیان لوجه الإنکار فی الجمله السابقه بأنهم عاجزون عن قسمه ما هو دون النبوه بمراحل و لا منزله له و هو معیشتهم فی الحیاه الدنیا فنحن قسمناها بینهم فکیف یقسمون ما هو أرفع منزله منها بما لا یقدر قدره و هو النبوه التی هی رحمه ربک الخاصه به.

و الدلیل علی أن الأرزاق و المعایش لیست بید الإنسان اختلاف أفراده بالغنی و الفقر و العافیه و الصحه و فی الأولاد و سائر ما یعد من الرزق،و کل یرید أن یقتنی منها ما لا مزید علیه،و لا یکاد یتیسر لأحد منهم جمیع ما یتمناه و یرتضیه فلو کان ذلک بید الإنسان لم یوجد معدم فقیر فی شیء منها بل لم یختلف اثنان فیها فاختلافهم فیها أوضح دلیل علی أن الرزق مقسوم بمشیه من الله دون الإنسان.

علی أن الإراده و العمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصه لحصول المطلوب الذی هو الرزق و وراءهما أسباب کونیه لا تحصی خارجه عن مقدره الإنسان لا یحصل المطلوب إلا بحصولها جمیعا و اجتماعها علیه و لیست إلا بید الله الذی إلیه تنتهی الأسباب.

هذا کله فی المال و أما الجاه فهو أیضا مقسوم من عند الله فإنه یتوقف علی صفات خاصه بها ترتفع درجات الإنسان فی المجتمع فیتمکن من تسخیر من هو دونه کالفطنه و الدهاء و الشجاعه و علو الهمه و أحکام العزیمه و کثره المال و العشیره و شیء من ذلک لا یتم إلا بصنع من الله سبحانه،و ذلک قوله:« وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا ».

فیتبین بمجموع القولین أعنی قوله:« نَحْنُ قَسَمْنٰا »إلخ،و قوله:« وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ »إلخ،إن القاسم للمعیشه و الجاه بین الناس هو الله سبحانه لا غیر،و قوله:

« وَ رَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ »أی النبوه خیر من المال فکیف یملکون قسمها و هم لا یملکون قسم المال فیما بینهم.

ص :۹۹

و من الممكن أن يكون قوله:« وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ »عطف تفسير على قوله:« نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ »إلخ،يبين قسم المعيشه بينهم ببيان علل انقسامها فى المجتمع الإنسانى،بيان ذلك أن كثره حوائج الإنسان فى حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها فى عيش انفرادى أحوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام و الاستدرار أولا-و على طريق التعاون و التعاضد ثانيا كما مر فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب.

فآل الأمر إلى المعاوضه العامه المفيده لنوع من الاختصاص بأن يعطى كل مما عنده من حوائج الحياه ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج إليه فيعطى مثلا ما يفضل من حاجته من الماء الذى عنده و قد حصله و اختص به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء،و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعى فيقتنى مما يحتاج إليه ما يختص به،و لازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياه فيتسخر له فيفيده ما يحتاج إليه كالخباز يحتاج إلى ما عند السقاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضه و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته و الخادم يتسخر للمخدوم لماله و هكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده و الآخرون متسخرون له بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط لما أن كلا يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفه باختلاف تعلق الهمم و القصود به.

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشه كل ما يعاش به أعم من المال و الجاه أو خصوص المال و غيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلا:« وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ »فإن المراد به المال و غيره من لوازم الحياه مقصود بالتبع.

قوله تعالى:« وَ لَوْ لاٰ أَنْ يَكُونَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً »-إلى قوله- وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ »الآيه و ما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال و زينه لا قدر لها عند الله سبحانه و لا منزله.

قالوا:المراد بكون الناس أمه واحده كونهم مجتمعين على سنه واحده هى الكفر بالله لو رأوا أن زينه الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله و المؤمن صفر الكف منها مطلقا،و المعارج الدرجات و المصاعد.

و المعنى:و لو لا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين و حرمان

المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضه و درجات عليها يظهرون لغيرهم.

و يمكن أن يكون المراد بكون الناس أمه واحده كونهم جميعا على نسبه واحده تجاه الأسباب العامله فى حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن و الكافر،فمن سعى سعيه للرزق و وافقته الأسباب و العوامل الموصله الأخرى نال منه مؤمنا كان أو كافرا،و من لم يجتمع له حرم ذلک و قتر عليه الرزق مؤمنا أو كافرا.

و المعنى:لو لا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصله إلى زخارف الدنيا و لا يختلفوا فيها بالإيمان و الكفر لجعلنا لمن يكفر،إلخ.

قوله تعالى:« وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ وَ زُخْرُفاً »تنكير« أَبْوٰاباً » و« سُرُراً »للتفخيم،و الزخرف الذهب أو مطلق الزينه، قال فى المجمع،:الزخرف كمال حسن الشىء و منه قيل للذهب،و يقال:زخرفه زخرفه إذا حسنه و زينه،و منه قيل للنقوش و التصاوير:زخرف،

و فى الحديث: أنه(ص)لم يدخل الكعبه-حتى أمر بالزخرف فنحى. انتهى.و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِکَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِينَ » « إِنْ »للنفى و« لَمّٰا »بمعنى إلا أى ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشه إلا متاع الحياه الدنيا الزائله الفانيه التى لا تدوم.

و قوله:« وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِينَ »المراد بالآخره بقرينه المقام الحياه الآخره السعيده كان الحياه الآخره الشقيه لا تعد حياه.

و المعنى:أن الحياه الآخره السعيده بحكم من الله تعالى و قضاء منه مختصه بالمتقين، و هذا التخصيص و القصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمه واحده فى الدنيا بعض التأييد.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » يقال: عشى يعشى عشا من باب علم يعلم إذا كان ببصره آفه لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط،و عشا يعشو عشوا و عشوا من باب نصر ينصر إذا تعامى و تعشى بلا آفه، و التقييض التقدير و الإتيان بشىء إلى شىء،يقال:قيضه له إذا جاء به إليه.

لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين و أن الآخره لهم عند الله قرنه بعاقبه أمر

المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيرا إلى أمرهم من أوله و هو أن تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمه قرناء الشياطين فيلازمونهم مضلين لهم حتى يردوا عذاب الآخره معهم.

فقوله:« وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً »أى من تعامى عن ذكر الرحمن و نظر إليه نظر الأعشى جئنا إليه بشيطان،و قد عبر تعالى عنه فى موضع آخر بالإرسال فقال: «أَ لَمْ تَرَ أَنّٰا أَرْسَلْنَا الشَّيٰاطِينَ عَلَى الْكٰافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» :مريم:٨٣ و إضافه الذكر إلى الرحمن للإشاره إلى أنه رحمه.

و قوله:« فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »أى مصاحب لا يفارقه.

قوله تعالى:« وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ »ضمير «أنهم»للشياطين،و ضمائر الجمع الباقيه للعاشين عن الذكر،و اعتبار الجمع نظرا إلى المعنى فى« وَ مَنْ يَعْشُ »إلخ،و الصد الصرف،و المراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الذى هو دين التوحيد.

و المعنى:و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم -أى العاشين أنفسهم-مهتدون إلى الحق.

و هذا أعنى حسبانهم أنهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحق أماره تقييض القرين و دخولهم تحت ولايه الشيطان فإن الإنسان بطبعه الأولى مفطور على الميل إلى الحق و معرفته إذا عرض عليه ثم إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعا للهوى و دام عليه طبع الله على قلبه و أعمى بصره و قيض له القرين فلم ير الحق الذى تراءى له و طبق الحق الذى يميل إليه بالفطره على الباطل الذى يدعوه إليه الشيطان فيحسب أنه مهتد و هو ضال و يخيل إليه أنه على الحق و هو على الباطل.

و هذا هو الغطاء الذى يذكر تعالى أنه مضروب عليهم فى الدنيا و أنه سينكشف عنهم يوم القيامه،قال تعالى:« اَلَّذِينَ كٰانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطٰاءٍ عَنْ ذِكْرِى -إلى أن قال- قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمٰالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» :الكهف:١٠۴،و قال فيما يخاطبه يوم القيامه و معه قرينه: «لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» -Xإلى أن قالX- «قٰالَ قَرِينُهُ رَبَّنٰا مٰا أَطْغَيْتُهُ وَ لٰكِنْ كٰانَ فِى ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ» :ق:٢٧.

قوله تعالى:« حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ » « حَتّٰى »غايه لاستمرار الفعل الذى يدل عليه قوله فى الآيه السابقه:« لَيَصُدُّونَهُمْ » و قوله:« يَحْسَبُونَ »أى لا يزال القرناء يصدونهم و لا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

و المراد بالمجيء إليه تعالى البعث،و ضمير«جاء»و«قال»راجع إلى الموصول باعتبار لفظه،و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق.

و المعنى:و أنهم يستمرون على صدهم عن السبيل و يستمر العاشون عن الذكر على حسبان أنهم مهتدون فى انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم،قال مخاطبا لقرينه متأذيا من صحابته:يا ليت بينى و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت.

و يستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابه القرناء وراء عذابهم بالنار،و لذا يتمنون التباعد عنهم و يخصونه بالذكر و ينسون سائر العذاب.

قوله تعالى:« وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ »الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم،و المراد باليوم يوم القيامه،و قوله:« أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ »فاعل« لَنْ يَنْفَعَكُمُ »و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم،و« إِذْ ظَلَمْتُمْ »واقع موقع التعليل.

و المراد-و الله أعلم-أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض فى الدنيا فأوقعه فى مصيبه ربما تسليتم بعض التسلى لو ابتلى هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسليا و تشفيا لكن لا ينفعكم يوم القيامه اشتراك قرنائكم معكم فى العذاب فإن اشتراكهم معكم فى العذاب و كونهم معكم فى النار هو بعينه عذاب لكم.

و ذكر بعض المفسرين أن فاعل« لَنْ يَنْفَعَكُمُ »ضمير راجع إلى تمنيهم المذكور فى الآيه السابقه،و قوله:« إِذْ ظَلَمْتُمْ »أى لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا باتباعكم إياهم فى الكفر و المعاصى،و قوله:« أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ »تعليل لنفى النفع و المعنى:و لن ينفعكم تمنى التباعد عنكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم و قرناؤكم فى العذاب.

و فيه أن فيه تدافعا فإنه أخذ قوله:« إِذْ ظَلَمْتُمْ »تعليلا لنفى نفع التمنى أولا

و قوله:« أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ »تعليلا له ثانيا و لازم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانيا القضاء على المتمنين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين و المتبوعين فيه.

و قال بعضهم:معنى الآيه أنه لا يخفف الاشتراك عنكم شيئا من العذاب لأن لكل واحد منكم و من قرنائكم الحظ الأوفر من العذاب.

و فيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع و إن فرض صحيحا فى نفسه لكن لا دلاله عليه من جهه لفظ الآيه و لا سياق الكلام.

و قال بعضهم:المعنى:لا ينفعكم اشتراككم فى العذاب كما ينفع الواقعين فى شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم فى تحمل أعبائها و تقسمهم لعنائها لأن لكل منكم و من قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته.

و فيه ما فى سابقه من الكلام،و رد أيضا بأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه.

قوله تعالى:« أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ »لما ذكر تقييضه القرناء لهم و تقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى و لا يقدرون على معرفه الحق فرع عليه أن نبه(ص)أن هؤلاء صم عمى لا يقدر هو على أسماعهم كلمه الحق و هدايتهم إلى سبيل الرشد فلا يتجشم و لا يتكلف فى دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم، و الاستفهام للإنكار،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ »المراد بالإذهاب به توفيه(ص)قبل الانتقام منهم،و قيل:

المراد إذهابه بإخراجه من بينهم،و قوله:« فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ »أى لا محاله،و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه(ص)أو حال كونه بينهم،و قوله:«فإنا عليهم مقتدرون»أى اقتدارنا يفوق عليهم.

و قوله فى الصدر:« فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ »أصله أن نذهب بك زيدت عليه ما و النون للتأكيد،و محصل الآيه إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محاله.

قوله تعالى:« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحى و النبوه من سننه تعالى

و أن كتابه النازل عليه حق و هو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون و لا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين،و لا مطمع فى إيمانهم و سينتقم الله منهم.

فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجد فى التمسك بالكتاب الذى أوحى إليه لأنه على صراط مستقيم.

قوله تعالى:« وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ »الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله،و بهذا المعنى تكرر مرارا فى السوره،و اللام فى« لَكَ وَ لِقَوْمِكَ » للاختصاص بمعنى توجه ما فيه من التكاليف إليهم،و يؤيده بعض التأييد قوله:« وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ »أى عنه يوم القيامه.

و عن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذى يذكر به،و المعنى:و إنه لشرف عظيم لك و لقومك من العرب تذكرون به بين الأمم.

قوله تعالى:« وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ »قيل:المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دينهم كقوله تعالى:

«فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ» :يونس:۹۴،و فائده هذا المجاز أن المسئول عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم.

و قيل:المراد السؤال من أهل الكتابين:التوراه و الإنجيل فإنهم و إن كفروا لكن الحجه تقوم بتواتر خبرهم،و الخطاب للنبى ص و التكليف لأمته.

و بعد الوجهين غير خفى و يزيد الثانى بعدا التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصص ظاهر.

و قيل:الآيه مما خوطب به النبى ص ليله المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء (ع)و قد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاءوا بدين وراء دين التوحيد.

و قد وردت به غير واحده من الروايات عن أئمه أهل البيت(ص)و سيوافيك فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

ص :۱۰۵

بحث روائی

فی المجمع،: فی قوله تعالی:« وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِي عَقِبِهِ »و قيل:الكلمه الباقيه فی عقبه هی الإمامه إلی يوم الدين: عن أبی عبد الله(ع) .

أقول:و فی هذا المعنی روايات أخر و قد طبقت الآيه فی بعضها علی الإمامه فی عقب الحسين(ع).

و التأمل فی الروايات يعطی أن بناءها علی إرجاع الضمير فی« جَعَلَهٰا »إلی الهدايه المفهومه من قوله:« سَيَهْدِينِ »و قد تقدم فی تفسير قوله تعالی:« إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً »إن الإمام وظيفته هدايه الناس فی ملكوت أعمالهم بمعنی سوقهم إلی الله سبحانه بإرشادهم و إيرادهم درجات القرب من الله سبحانه و إنزال كل ذی عمل منزله الذی يستدعيه عمله،و حقيقه الهدايه من الله سبحانه و تنسب إليه بالتبع أو بالعرض.

و فعليه الهدايه النازله من الله إلی الناس تشمله أولا ـ ثم تفيض عنه إلی غيره فله أتم الهدايه و لغيره ما هی دونها و ما ذكره إبراهيم(ع)فی قوله:« فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » هدايه مطلقه تقبل الانطباق علی أتم مراتب الهدايه التی هی حظ الإمام منها فهی الإمامه و جعلها كلمه باقيه فی عقبه جعل الإمامه كذلك.

و فی الإحتجاج،عن العسكری عن أبيه(ع)قال*: إن رسول الله ص كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبه-إذ قال له عبد الله بن أميه المخزومی:لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا-لبعث أجل من فيما بيننا مالا و أحسنه حالا-فهلا نزل هذا القرآن الذی تزعم أن الله أنزله عليك-و ابتعثك به رسولا،علی رجل من القريتين عظيم:إما الوليد بن المغيره بمكه-و إما عروه بن مسعود الثقفی بالطائف.

ثم ذكر(ع)فی كلام طويل-جواب رسول الله ص عن قوله-بما فی معنی الآيات.

ثم قال:و ذلك قوله تعالی:« وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »قال الله:« أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ »يا محمد« نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا »فأحوجنا بعضنا إلی بعض أحوج هذا إلی مال ذلك-و أحوج ذلك إلی سلعه هذا و إلی خدمته.

فتری أجل الملوك و أغنی الأغنياء محتاجا-إلی أفقر الفقراء فی ضرب من الضروب-

إما سلعه معه ليست معه،و إما خدمه يصلح لها-لا يتهيأ لذلك الملك أن يستغنى إلا به- و أما باب من العلوم و الحكم هو فقير- إلى أن يستفيدها من هذا الفقير-الذى يحتاج إلى مال ذلك الملك الغنى،و ذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته.

ثم ليس للملك أن يقول:هلا اجتمع إلى مالى علم هذا الفقير-و لا للفقير أن يقول:

هلا اجتمع إلى رأيى و معرفتى و علمى-و ما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغنى،ثم قال تعالى:« وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ-لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ».

ثم قال:يا محمد« وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ »أى ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا.

و فى الكافى،بإسناده عن سعيد بن المسيب قال*: سألت على بن الحسين(ع) عن قول الله عز و جل:« وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً »قال:عنى بذلك أمه محمد-أن يكونوا على دين واحد كفارا كلهم« لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ »إلى آخر الآيه.

و فى تفسير القمى،بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبى عبد الله(ع)قال*: « فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ »يا محمد من مكه إلى المدينه-فإما رادوك إليها و منتقمون منهم بعلى بن أبى طالب(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن قتاده" *فى قوله:« فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ »":قال:قال أنس":ذهب رسول الله ص و بقيت النقمه-و لم ير الله نبيه فى أمته شيئا يكرهه حتى قبض-و لم يكن نبى قط إلا و قد رأى العقوبه فى أمته-إلا نبيكم رأى ما يصيب أمته بعده-فما رئى ضاحكا منبسطا حتى قبض.

أقول:و روى فيه هذا المعنى عنه و عن على بن أبى طالب و عن غيرهما بطرق أخرى.

و فيه،أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن جابر بن عبد الله عن النبى ص *فى قوله تعالى:« فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » نزلت فى على بن أبى طالب أنه ينتقم من الناكثين-و القاسطين بعدى.

أقول:ظاهر الروايه و ما قبلها و ما فى معناهما أن الوعيد فى الآيتين للمنحرفين عن الحق من أهل القبله دون كفار قريش.

و فی الإحتجاج،عن أمیر المؤمنین(ع)فی حدیث طویل یقول فیه: و أما قوله تعالی:« وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا »فهذا من براهین نبینا(ص)التی آتاه الله إیاها-و أوجب به الحجه علی سائر خلقه-لأنه لما ختم به الأنبیاء و جعله الله رسولا-إلی جمیع الأمم و سائر الملل-خصه بالارتقاء إلی السماء عند المعراج-و جمع له یومئذ الأنبیاء فعلم منهم ما أرسلوا به-و حملوه من عزائم الله و آیاته و براهینه. الحدیث.

أقول:و روی هذا المعنی القمی فی تفسیره،بإسناده عن أبی الربیع عن أبی جعفر (ع)فی جواب ما سأله نافع بن الأزرق،و رواه فی الدر المنثور،بطرق عن سعید بن جبیر و ابن جریح و ابن زید.

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۶ الی ۵۶]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآیاتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ اَلْعالَمِینَ (۴۶) فَلَمّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ (۴۷) وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَهٍ إِلاّ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا یا أَیُّهَا اَلسّاحِرُ اُدْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمّا کَشَفْنا عَنْهُمُ اَلْعَذابَ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ (۵۰) وَ نادی فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قالَ یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ اَلْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا اَلَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ اَلْمَلائِکَهُ مُقْتَرِنِینَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۵۴) فَلَمّا آسَفُونا اِنْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۵) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِینَ (۵۶)

بيان

لما ذكر طغيانهم بعد تمتيعهم بنعمه و رميهم الحق الذى جاءهم به رسول مبين بأنه سحر و أنهم قالوا:« لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »فرجحوا الرجل على النبى ص بكثره ماله مثل لهم بقصه موسى(ع)و فرعون و قومه حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهره فضحكوا منها و استهزءوا بها،و احتج فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر و أنهار تجرى من تحته فاستخفهم فأطاعوه فآل أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقٰالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِينَ »اللام فى« لَقَدْ »للقسم،و الباء فى قوله:« بِآيٰاتِنٰا » للمصاحبه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِآيٰاتِنٰا إِذٰا هُمْ مِنْهٰا يَضْحَكُونَ »المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلاله على الرساله،و المراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافا بالآيات.

قوله تعالى:« وَ مٰا نُرِيهِمْ مِنْ آيَهٍ إِلاّٰ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهٰا »إلخ، الأخت المثل، و قوله:« هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهٰا »كنايه عن كون كل واحده منها بالغه فى الدلاله على حقيه الرساله،و جمله« وَ مٰا نُرِيهِمْ مِنْ آيَهٍ »إلخ،حال من ضمير« مِنْهٰا »،و المعنى:

فلما أتاهم بالمعجزات إذا هم منها يضحكون و الحال أن كلا منها تامه كامله فى إعجازها و دلالتها من غير نقص و لا قصور.

و قوله:« وَ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »أى رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته،و المراد بالعذاب الذى أخذوا به آيات الرجز التى نزلت عليهم من السنين و نقص من الثمرات و الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات كما فى سوره الأعراف.

قوله تعالی:« وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا السّٰاحِرُ ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنٰا لَمُهْتَدُونَ » ما فی« بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ »مصدریه أی بعهده عندک و المراد به عهده أن یکشف عنهم العذاب لو آمنوا کما قیل أو أن یستجیب دعاءه إذا دعا کما احتمله بعضهم.

و قولهم: يٰا أَيُّهَا السّٰاحِرُ خطاب استهزاء استکبارا منهم کما قالوا:ادع ربک و لم یقولوا:ادع ربنا أو ادع الله استکبارا،و المراد أنهم طلبوا منه الدعاء لکشف العذاب عنهم و وعدوه الاهتداء.

و قیل:معنی الساحر فی عرفهم العالم و کان الساحر عندهم عظیما یعظمونه و لم یکن صفه ذم.و لیس بذاک بل کانوا ساخرین علی استکبارهم کما یشهد به قولهم:

اُدْعُ لَنٰا رَبَّكَ

.

قوله تعالی:« فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ » النکث نقض العهد و خلف الوعد،و وعدهم هو قولهم:« إِنَّنٰا لَمُهْتَدُونَ ».

قوله تعالی:« وَ نٰادىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ »أی ناداهم و هو بینهم،و فصل« قٰالَ »لکونه فی موضع جواب السؤال کأنه قیل:فما ذا قال؟فقیل:قال کذا.

و قوله:« وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي »أی من تحت قصری أو من بستانی الذی فیه قصری المرتفع العالی البناء،و الجمله أعنی قوله:« وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ »إلخ،حالیه أو« وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ »معطوف علی« مُلْكُ مِصْرَ »،و قوله:« تَجْرِي مِنْ تَحْتِي »حال من الأنهار،و الأنهار أنهار النیل.

و قوله:« أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ »فی معنی تکریر الاستفهام السابق فی قوله:« أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ »إلخ.

قوله تعالی:« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لاٰ يَكٰادُ يُبِينُ » المهین الحقیر الضعیف من المهانه بمعنی الحقاره،و یرید بالمهین موسی(ع)لما به من الفقر و رثاثه الحال.

و قوله:« وَ لاٰ يَكٰادُ يُبِينُ »أی یفصح عن مراده و لعله کان یصف موسی(ع) به باعتبار ما کان علیه قبل الرساله لکن الله رفع عنه ذلک لقوله: «قٰالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰا مُوسىٰ» :طه:۳۶ بعد قوله(ع): «وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» :طه:۲۸.

و قوله فی صدر الآیه:« أَمْ أَنَا خَیْرٌ »إلخ،أم فیه إما منقطعه لتقریر کلامه السابق و المعنی:بل أنا خیر من موسی لأنه کذا و کذا،و إما متصله،و أحد طرفی التردید محذوف مع همزه الاستفهام،و التقدیر:أ هذا خیر أم أنا خیر إلخ،و فی المجمع،قال سیبویه و الخلیل:عطف أنا بأم علی« أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ »لأن معنی« أَنَا خَیْرٌ »معنی أم تبصرون فکأنه قال:أ فلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له:أنت خیر منه فقد صاروا بصراء عنده انتهی.أی إن وضع« أَمْ أَنَا خَیْرٌ »موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعکس.

و کیف کان فالإشاره إلی موسی بهذا من دون أن یذکر باسمه للتحقیر و توصیفه بقوله:« اَلَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لاٰ یَکٰادُ یُبِینُ »للتحقیر و للدلاله علی عدم خیریته.

قوله تعالی:« فَلَوْ لاٰ أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِکَهُ مُقْتَرِنِینَ » الأسوره جمع سوار بالکسر،و قال الراغب:هو معرب دستواره قالوا:کان من دأبهم أنهم إذا سودوا رجلا سوروه بسوار من ذهب و طوقوه بطوق من ذهب فالمعنی لو کان رسولا و ساد الناس بذلک لألقی إلیه أسوره من ذهب.

و قوله:« أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِکَهُ مُقْتَرِنِینَ »الظاهر أن الاقتران بمعنی التقارن کالاستباق و الاستواء بمعنی التسابق و التساوی،و المراد إتیان الملائکه معه متقارنین لتصدیق رسالته،و هذه الکلمه مما تکررت علی لسان مکذبی الرسل کقولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً» :الفرقان:۷.

قوله تعالی:« فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطٰاعُوهُ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِینَ »أی استخف عقول قومه و أحلامهم،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« فَلَمّٰا آسَفُونٰا انْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ أَجْمَعِینَ » الإیساف الإغضاب أی فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعین،و الغضب منه تعالی إراده العقوبه.

قوله تعالی:« فَجَعَلْنٰاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِینَ » السلف المتقدم و الظاهر أن المراد بکونهم سلفا للآخرین تقدمهم علیهم فی دخول النار،و المثل الکلام السائر الذی یتمثل به و یعتبر به،و الظاهر أن کونهم مثلا لهم کونهم مما یعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتعظوا.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« وَ لاٰ یَکٰادُ یُبِینُ »قال:لم یبین الکلام.

و فی التوحید،بإسناده إلی أحمد بن أبی عبد الله رفعه إلی أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل« فَلَمّٰا آسَفُونٰا انْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ »قال:إن الله لا یأسف کأسفنا-و لکنه خلق أولیاء لنفسه یأسفون و یرضون-و هم مخلوقون مدبرون-فجعل رضاهم لنفسه رضی و سخطهم لنفسه سخطا-و ذلک لأنه جعلهم الدعاه إلیه و الأدلاء علیه-فلذلک صاروا کذلک.

و لیس أن ذلک یصل إلی الله کما یصل إلی خلقه-و لکن هذا معنی ما قال من ذلک،و قد قال أیضا من أهان لی ولیا-فقد بارزنی بالمحاربه و دعانی إلیها،و قال أیضا:

« مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ »،و قال أیضا:« إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ »و کل هذا و شبهه علی ما ذکرت لک،و هکذا الرضا و الغضب و غیرهما من الأشیاء مما یشاکل ذلک.

و لو کان یصل إلی المکون الأسف و الضجر-و هو الذی أحدثهما و أنشأهما-لجاز لقائل أن یقول:إن المکون یبید یوما-لأنه إذا دخله الضجر و الغضب دخله التغییر- فإذا دخله التغییر لم یؤمن علیه الإباده،و لو کان ذلک کذلک لم یعرف المکون من المکون-و إلا القادر من المقدور و لا الخالق من المخلوقین-تعالی الله عن هذا القول علوا کبیرا.

هو الخالق للأشیاء لا لحاجه-فإذا کان لا لحاجه استحال الحد و الکیف فیه-فافهم ذلک إن شاء الله.:

أقول:و روی مثله فی الکافی،بإسناده عن محمد بن إسماعیل بن بزیع عن عمه حمزه بن بزیع عنه(ع) .

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۵۷ الی ۶۵]

اشاره

وَ لَمّٰا ضُرِبَ اِبْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً إِذٰا قَوْمُکَ مِنْهُ یَصِدُّونَ (۵۷) وَ قٰالُوا أَ آلِهَتُنٰا خَیْرٌ أَمْ هُوَ مٰا ضَرَبُوهُ لَکَ إِلاّٰ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَیْهِ وَ جَعَلْنٰاهُ مَثَلاً لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰا مِنْکُمْ مَلاٰئِکَهً فِی اَلْأَرْضِ یَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَهِ فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا وَ اِتَّبِعُونِ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ (۶۱) وَ لاٰ یَصُدَّنَّکُمُ اَلشَّیْطٰانُ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ (۶۲) وَ لَمّٰا جٰاءَ عِیسیٰ بِالْبَیِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَهِ وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ اَلَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (۶۳) إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ اَلْأَحْزٰابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ یَوْمٍ أَلِیمٍ (۶۵)

بیان

إشاره إلی قصه عیسی بعد الفراغ عن قصه موسی(ع)و قدم علیها مجادلتهم النبی ص فی عیسی(ع)و أجیب عنها.

قوله تعالی:« وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُکَ مِنْهُ یَصِدُّونَ -إلی قوله- خَصِمُونَ »الآیه إلی تمام أربع آیات أو ست آیات حول جدال القوم فیما ضرب من مثل ابن مریم،و الذی یتحصل بالتدبر فیها نظرا إلی کون السوره مکیه و مع قطع النظر عن الروایات هو أن المراد بقوله:« وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً »هو ما أنزله الله من وصفه فی أول سوره مریم فإنها السوره المکیه الوحیده التی وردت فیها قصه عیسی بن مریم (ع)تفصیلا،و السوره تقص قصص عده من النبیین بما أن الله أنعم علیهم کما تختتم قصصهم بقوله: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ» :مریم:۵۸،و قد وقع فی

هذه الآيات قوله:« إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ »و هو من الشواهد على كون قوله:

« وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً »إشاره إلى ما فى سوره مريم.

و المراد بقوله:« إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ »بكسر الصاد أى يضجون و يضحكون ذم لقريش فى مقابلتهم المثل الحق بالتهكم و السخريه،و قرئ« يَصِدُّونَ »بضم الصاد أى يعرضون و هو أنسب للجمله التاليه.

و قوله:« وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ »الاستفهام للإنكار أى آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمه و الكرامه أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بما له من الصفه عند النصارى أنه إله ابن إله فردوا على النبى ص بأن آلهتنا خير منه و هذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك إلى أن الذى فى القرآن من وصفه لا يعتنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

و قوله:« ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّ جَدَلاً »أى ما وجهوا هذا الكلام:« أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ »إليك إلا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقا« بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »أى ثابتون على خصومتهم مصرون عليها.

و قوله:« إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ »رد لما يستفاد من قولهم:« أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ »أنه إله النصارى كما سيجىء.

و قال الزمخشرى فى الكشاف،و كثير من المفسرين و نسب إلى ابن عباس و غيره فى تفسير الآيه: أن النبى ص لما قرأ قوله تعالى:« إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »على قريش امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا-فقال ابن الزبعرى:يا محمد،أ خاصه لنا و لآلهتنا-أم لجميع الأمم؟فقال(ع):هو لكم و لآلهتكم و لجميع الأمم.

فقال:خصمتك و رب الكعبه -أ لست تزعم أن عيسى بن مريم نبى و تثنى عليه خيرا و على أمه؟و قد علمت أن النصارى يعبدونهما،و عزير يعبد و الملائكه يعبدون فإن كان هؤلاء فى النار-فقد رضينا أن نكون نحن و آلهتنا معهم-ففرحوا و ضحكوا و سكت النبى ص-فأنزل الله:« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى -أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ » و نزلت هذه الآيه.

و المعنى:و لما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا و جادل رسول الله ص بعباده النصارى إياه إذا قومك يعنى قريشا من هذا المثل يضجون فرحا و ضحكا بما

سمعوا منه من إسکات رسول(ص)،و قالوا:ء آلهتنا خیر أم هو أی إن عیسی عندک خیر من آلهتنا و إذا کان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا هین.ما ضربوا هذا المثل لک إلا جدلا و غلبه فی القول لا لمیز الحق من الباطل.

و فیه أنه تقدم فی تفسیر (۱)قوله: «إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ الأنبیاء:۹۸،أن هذه الروایه بما فیها من وجوه الوهن و الخلل ضعیفه لا یعبأ بها حتی نقل عن الحافظ ابن حجر أن الحدیث لا أصل له و لم یوجد فی شیء من کتب الحدیث لا مسندا و لا غیر مسند.و قصه ابن الزبعری هذه و إن رویت من طرق الشیعه علی وجه سلیم عن المناقشه لکن لم یذکر فیها نزول قوله:« وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ » الآیه هناک.

علی أن ظاهر قوله:« ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً »و قوله:« أَ آلِهَتُنٰا خَیْرٌ أَمْ هُوَ » لا یلائم ما فسرته تلک الملاءمه.

و قیل:إنهم لما سمعوا قوله تعالی: «إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ» :آل عمران:۵۹،قالوا:نحن أهدی من النصاری لأنهم یعبدون آدمیا و نحن نعبد الملائکه-یریدون أرباب الأصنام-فآلهتنا خیر من إلههم فالذی ضرب المثل بابن مریم هو الله سبحانه،و قولهم:« أَ آلِهَتُنٰا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »لتفضیل آلهتهم علی عیسی لا بالعکس کما فی الوجه السابق.

و فیه أن قوله تعالی:« إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ »مدنیه.و هذه الآیات أعنی قوله:« وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ »إلخ،آیات مکیه من سوره مکیه.

علی أن الأساس فی قولهم-علی هذا الوجه-تفضیلهم أنفسهم علی النصاری فلا یرتبط علی هذا قوله:« إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَیْهِ »إلخ،بما تقدمه.

و قیل:إنهم لما سمعوا قوله:« إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ »ضجوا و قالوا:ما یرید محمد بهذا إلا أن نعبده کما یعبد النصاری المسیح،و آلهتنا خیر منه أی من محمد.

و فیه ما فی سابقه.

۱- ۱) فی البحث الروائی المعقود بعد الآیه.

و قیل:مرادهم بقولهم:« أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »التنصل و التخلص عما أنكر علیهم من قولهم:الملائكه بنات الله،و من عبادتهم لهم كأنهم قالوا:ما كان ذلك منا بدعا فإن النصاری یعبدون المسیح و ینسبونه إلی الله و هو بشر و نحن نعبد الملائكه و ننسبهم إلی الله و هم أفضل من البشر.

و فیه أنه لا یفی بتوجیه قوله:« وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ یَصِدُّونَ »علی أن قوله:« إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَیْهِ »علی هذا الوجه لا یرتبط بما قبله كما فی الوجهین السابقین.

و قیل:معنی قولهم:« أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »أن مثلنا فی عباده الآلهه مثل النصاری فی عباده المسیح فأیهما خیر؟عباده آلهتنا أم عباده المسیح؟فإن قال:عباده المسیح خیر فقد اعترف بعباده غیر الله،و إن قال:عباده الآلهه فكذلك،و إن قال:

لیس فی عباده المسیح خیر فقد قصر به عن منزلته و جوابه أن اختصاص المسیح بضرب من التشریف و الإنعام من الله تعالی لا یوجب جواز عبادته.

و فیه أنه فی نفسه لا بأس به لكن الشأن فی دلاله قوله تعالی:« أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »علی هذا التفصیل.

و قال فی المجمع،فی الوجوه التی أوردها فی معنی الآیه:و رابعها

ما رواه ساده أهل البیت عن علی(ع)أنه قال: جئت إلی رسول الله ص یوما-فوجدته فی ملإ من قریش فنظر إلی ثم قال:یا علی،إنما مثلك فی هذه الأمه مثل عیسی بن مریم-أحبه قوم فأفرطوا فی حبه فهلكوا،و أبغضه قوم فأفرطوا فی بغضه فهلكوا، و اقتصد فیه قوم فنجوا.فعظم ذلك علیهم فضحكوا و قالوا:یشبهه بالأنبیاء و الرسل، فنزلت الآیه.

أقول:و الروایه غیر متعرضه لتوجیه قولهم:« أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »و لئن كانت القصه سببا للنزول فمعنی الجمله:لئن نتبع آلهتنا و نطیع كبراءنا خیر من أن نتولی علیا فیتحكم علینا أو خیر من أن نتبع محمدا فیحكم علینا ابن عمه.

و یمكن أن یكون قوله:« وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »إلخ،استئنافا و النازل فی القصه هو قوله:« وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً »الآیه.

قوله تعالی:« إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَیْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِی إِسْرائِیلَ »الذی

یستدعیه السیاق أن یکون الضمیر لابن مریم،و المراد بکونه مثلا-علی ما قیل- کونه آیه عجیبه إلهیه یسیر ذکره کالأمثال السائره.

و المعنی:لیس ابن مریم إلا عبدا متظاهرا بالعبودیه أنعمنا علیه بالنبوه و تأییده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهره علی یدیه و غیر ذلک و جعلناه آیه عجیبه خارقه نصف به الحق لبنی إسرائیل.

و هذا المعنی کما تری رد لقولهم:« أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ »الظاهر فی تفضیلهم آلهتهم فی ألوهیتها علی المسیح(ع)فی ألوهیته و محصله أن المسیح لم یکن إلها حتی ینظر فی منزلته فی ألوهیته و إنما کان عبدا أنعم الله علیه بما أنعم،و أما آلهتهم فنظر القرآن فیهم ظاهر.

قوله تعالی:« وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْکُمْ مَلائِکَهً فِی الْأَرْضِ یَخْلُفُونَ »الظاهر أن الآیه متصله بما قبلها مسروده لرفع استبعاد أن یتلبس البشر من الکمال ما یقصه القرآن عن عیسی(ع)فیخلق الطیر و یحیی الموتی و یکلم الناس فی المهد إلی غیر ذلک، فیکون کالملائکه المتوسطین فی الإحیاء و الإماته و الرزق و سائر أنواع التدبیر و یکون مع ذلک عبدا غیر معبود و مألوها غیر إله فإن هذا النوع من الکمال عند الوثنیه مختص بالملائکه و هو ملاک ألوهیتهم و معبودیتهم و بالجمله هم یحیلون تلبس البشر بهذا النوع من الکمال الذی یخصونه بالملائکه.

فأجیب بأن لله أن یزکی الإنسان و یطهره من أدناس المعاصی بحیث یصیر باطنه باطن الملائکه فظاهره ظاهر البشر و باطنه باطن الملک یعیش فی الأرض یخلف مثله و یخلفه مثله و یظهر منه ما یظهر من الملائکه (۱).

و علی هذا فمن فی قوله« مِنْکُمْ »للتبعیض،و قوله:« یَخْلُفُونَ »أی یخلف بعضهم بعضا.

و فی المجمع،أن«من»فی قوله:« مِنْکُمْ »تفید معنی البدلیه کما فی قوله:

ص: ۱۱۷

۱- ۱) و لیس هذا من الانقلاب المحال فی شیء بل نوع من التکامل الوجودی بالخروج من حد منه أدنی إلی حد منه أعلی کما بین فی محله.

فليت لنا من ماء زمزم شربه

مبرده باتت على الطهيان (۱)

و قوله:«يخلفون»أى يخلفون بنى آدم و يكونون خلفاء لهم،و المعنى:و لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلكم ملائكه يسكنون الأرض و يعمرونها و يعبدون الله.

و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمه.

قوله تعالى:« وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَهِ فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا وَ اتَّبِعُونِ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ » ضمير« إِنَّهُ »لعيسى(ع)و المراد بالعلم ما يعلم به،و المعنى:و إن عيسى يعلم به الساعه فى خلقه من غير أب و إحيائه الموتى فيعلم به أن الساعه ممكنه فلا تشكوا فى الساعه و لا ترتابوا فيها البته.

و قيل:المراد بكونه علما للساعه كونه من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعه.

و قيل:الضمير للقرآن و كونه علما للساعه كونه آخر الكتب المنزله من السماء.

و فى الوجهين جميعا خفاء التفريع الذى فى قوله:« فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا ».

و قوله:« وَ اتَّبِعُونِ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ »قيل:هو من كلامه تعالى،و المعنى:

اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى،و قيل:من كلام الرسول بأمر منه تعالى.

قوله تعالى:« وَ لاٰ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » الصد الصرف، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ لَمّٰا جٰاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ »إلخ،المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات،و بالحكمه المعارف الإلهيه من العقائد الحقه و الأخلاق الفاضله.

و قوله:« وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ »أى فى حكمه من الحوادث و الأفعال،و الذى يختلفون فيه و إن كان أعم من الاعتقادات التى يختلف فى كونها حقه أو باطله و الحوادث و الأفعال التى يختلف فى مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله:

« قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ »أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث و الأفعال و الله أعلم.

۱- ۱) الطهيان قله الجبل و معنى البيت:ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربه من الماء مبرده بقيت ليله على قله الجبل.

و قيل:المراد بقوله:« بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ »کل الذی تختلفون فیه.

و هو کما تری.

و قیل:المراد لأبین لکم أمور دینکم دون أمور دنیاکم و لا دلیل علیه من لفظ الآیه و لا من المقام.

و قوله:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ »نسب التقوی إلی الله و الطاعه إلی نفسه لیسجل أنه لا یدعی إلا الرساله.

قوله تعالی:« إِنَّ اللّٰهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ »دعوه منه إلی عباده الله وحده و أنه هو ربه و ربهم جمیعا و إتمام للحجه علی من یقول بألوهیته.

قوله تعالی:« فَاخْتَلَفَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ یَوْمٍ أَلِیمٍ »ضمیر« مِنْ بَیْنِهِمْ »لمن بعث إلیهم عیسی(ع)و المعنی:فاختلف الأحزاب المتشعبه من بین أمته فی أمر عیسی من کافر به قال فیه،و من مؤمن به غال فیه،و من مقتصد لزم الاعتدال.

و قوله:« فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ یَوْمٍ أَلِیمٍ »تهدید و وعید للقالی منهم و الغالی.

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۶۶ الی ۷۸]

اشاره

هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّٰاعَهَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۶۶) اَلْأَخِلاّٰءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ اَلْمُتَّقِینَ (۶۷) یٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْکُمُ اَلْیَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) اَلَّذِینَ آمَنُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا مُسْلِمِینَ (۶۹) اُدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) یُطٰافُ عَلَیْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَکْوٰابٍ وَ فِیهٰا مٰا تَشْتَهِیهِ اَلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ اَلْأَعْیُنُ وَ أَنْتُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْکَ اَلْجَنَّهُ اَلَّتِی أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَکُمْ فِیهٰا فٰاکِهَهٌ کَثِیرَهٌ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ (۷۳) إِنَّ اَلْمُجْرِمِینَ فِی عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (۷۴) لاٰ یُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِیهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰکِنْ کٰانُوا هُمُ اَلظّٰالِمِینَ (۷۶) وَ نٰادَوْا یٰا مٰالِکُ لِیَقْضِ عَلَیْنٰا رَبُّکَ قٰالَ إِنَّکُمْ مٰاکِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْنٰاکُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَکُمْ لِلْحَقِّ کٰارِهُونَ (۷۸)

بیان

رجوع إلی إنذار القوم و فیه تخویفهم بالساعه و الإشاره إلی ما یئول إلیه حال المتقین و المجرمین فیها من الثواب و العقاب.

قوله تعالی:« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ » النظر الانتظار،و البغته الفجأه،و المراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بأمور الدنیا کما قال تعالی: «مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ» :یس:۴۹،فلا یتکرر المعنی فی قوله:« بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ».

و المعنی:ما ینتظر هؤلاء الکفار بکفرهم و تکذیبهم لآیات الله إلا أن تأتیهم الساعه مباغته لهم و هم غافلون عنها مشتغلون بأمور دنیاهم أی إن حالهم حال من هدده الهلاک فلم یتوسل بشیء من أسباب النجاه و قعد ینتظر الهلاک ففی الکلام کنایه عن عدم اعتنائهم بالإیمان بالحق لیتخلصوا به عن ألیم العذاب.

قوله تعالی:« اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ » الأخلاء جمع خلیل و هو الصدیق حیث یرفع خله صدیقه و حاجته،و الظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخاله و التحاب فی الله کما فی مخاله المتقین أهل الآخره و المخاله فی غیره کما فی مخاله أهل الدنیا فاستثناء المتقین متصل.

و الوجه فی عداوه الأخلاء غیر المتقین أن من لوازم المخاله إعانه أحد الخلیلین الآخر فی مهام أموره فإذا کانت لغیر وجه الله کان فیها الإعانه علی الشقوه الدائمه و العذاب الخالد کما قال تعالی حاکیا عن الظالمین یوم القیامه: «يٰا وَيْلَتىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِيلاً

لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ الذِّکْرِ بَعْدَ إِذْ جٰاءَنِی» :الفرقان:۲۹،و أما الأخلاء من المتقین فإن مخالتهم تتأکد و تنفعهم یومئذ.

و فی الخبر النبوی: إذا کان یوم القیامه انقطعت الأرحام و قلت الأنساب- و ذهبت الأخوه إلا الأخوه فی الله-و ذلک قوله:« اَلْأَخِلاّٰءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِینَ

(۱)

.

قوله تعالی:« یٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ »من خطابه تعالی لهم یوم القیامه کما یشهد به قوله بعد:« اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ »إلخ،و فی الخطاب تأمین لهم من کل مکروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المکروه المحتمل و مورد الحزن المکروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

قوله تعالی:« اَلَّذِینَ آمَنُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا مُسْلِمِینَ »الموصول بدل من المنادی المضاف فی« یٰا عِبٰادِ »أو صفه له،و الآیات کل ما یدل علیه تعالی من نبی و کتاب و أی آیه أخری داله،و المراد بالإسلام التسلیم لإراده الله و أمره.

قوله تعالی:« اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ تُحْبَرُونَ »ظاهر الأمر بدخول الجنه أن المراد بالأزواج هی النساء المؤمنات فی الدنیا دون الحور العین لأنهن فی الجنه غیر خارجات منها.

و الحبور -علی ما قیل-السرور الذی یظهر أثره و حباره فی الوجه و الحبره الزینه و حسن الهیئه،و المعنی:ادخلوا الجنه أنتم و أزواجکم المؤمنات و الحال أنکم تسرون سرورا یظهر أثره فی وجوهکم أو تزینون بأحسن زینه.

قوله تعالی:« یُطٰافُ عَلَیْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَکْوٰابٍ »إلخ الصحاف جمع صحفه و هی القصعه أو أصغر منها،و الأکواب جمع کوب و هو کوز لا عروه له،و فی ذکر الصحاف و الأکواب إشاره إلی تنعمهم بالطعام و الشراب.

و فی الالتفات إلی الغیبه فی قوله:« یُطٰافُ عَلَیْهِمْ »بین الخطابین« اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ » و« أَنْتُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ »تفخیم لإکرامهم و إنعامهم أن ذلک بحیث ینبغی أن یذکر

۱- ۱) رواه فی الدر المنثور فی الآیه عن سعد بن معاذ.

لغيرهم ليزيد به اغتباطهم و يظهر به صدق ما وعدوا به.

و قوله:« وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ »الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوه الطبيعيه من مذوق و مشموم و مسموع و ملموس مما يتشارك فيه الإنسان و عامه الحيوان،و المراد بما تلذه الأعين الجمال و الزنيه و ذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما فى المناظر البهجه و الوجه الحسن و اللباس الفاخر،و لذا غير التعبير فعبر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهاء و فيما يتعلق بالأعين باللذه و فى هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانيه عندنا.

و يمكن أن تندرج اللذائذ الروحيه العقليه فيما تلذه الأعين فإن الالتذاذ الروحى يعد من رؤيه القلب.

قال فى المجمع،:و قد جمع الله سبحانه فى قوله:« مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ » ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما فى الجنه من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان.انتهى.

و قوله:« وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ »إخبار و وعد و تبشير بالخلود و لهم فى العلم به من اللذه الروحيه ما لا يقاس بغيره و لا يقدر بقدر.

قوله تعالى:« وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »قيل:المعنى أعطيتموها بأعمالكم،و قيل أورثتموها من الكفار و كانوا داخليها لو آمنوا و عملوا صالحا،و قد تقدم الكلام فى المعنيين فى تفسير قوله تعالى: «أُولٰئِكَ هُمُ الْوٰارِثُونَ» المؤمنون:١٠.

قوله تعالى:« لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ »أضاف الفاكهه إلى ما مرت الإشاره إليه من الطعام و الشراب لإحصاء النعمه،و من فى« مِنْهٰا تَأْكُلُونَ »للتبعيض و لا يخلو من إشاره إلى أنها لا تنفد بالأكل.

قوله تعالى:« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ لاٰ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار و يؤيده إيراده فى مقابله المتقين و هو أخص من المؤمنين.

و التفتير التخفيف و التقليل،و الإبلاس اليأس و يأسهم من الرحمه أو من الخروج من النار.

ص :١٢٢

قوله تعالی:« وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ الظّٰالِمِینَ »و ذلک أنه تعالی جازاهم بأعمالهم لکنهم ظلموا أنفسهم حیث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوه و الهلکه.

قوله تعالی:« وَ نٰادَوْا یٰا مٰالِكُ لِیَقْضِ عَلَیْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ »مالک هو الملک الخازن للنار علی ما وردت به الأخبار من طرق العامه و الخاصه.

و خطابهم مالکا بما یسألونه من الله سبحانه لکونهم محجوبین عنه کما قال تعالی:

«كَلاّٰ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» :المطففین:۱۵،و قال: «قٰالَ اخْسَؤُا فِیهٰا وَ لاٰ تُكَلِّمُونِ» :المؤمنون:۱۰۸.

فالمعنی:أنهم یسألون مالکا أن یسأل الله أن یقضی علیهم.

و المراد بالقضاء علیهم إماتتهم،و یریدون بالموت الانعدام و البطلان لینجوا بذلک عما هم فیه من الشقوه و ألیم العذاب،و هذا من ظهور ملکاتهم الدنیویه فإنهم کانوا یرون فی الدنیا أن الموت انعدام و فوت لا انتقال من دار إلی دار فیسألون الموت بالمعنی الذی ارتکز فی نفوسهم و إلا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما هی حقیقته.

و قوله:« قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ »أی فیما أنتم فیه من الحیاه الشقیه و العذاب الألیم، و القائل هو مالک جوابا عن مسألتهم.

قوله تعالی:« لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ »ظاهره أنه من تمام کلام مالک یقوله عن لسان الملائکه و هو منهم،و قیل:من کلامه تعالی و یبعده أنهم محجوبون یومئذ عن ربهم لا یکلمهم الله تعالی.

و الخطاب لأهل النار بما أنهم بشر،فالمعنی:لقد جئناکم معشر البشر بالحق و لکن أکثرکم و هم المجرمون کارهون للحق.

و قیل:المراد بالحق مطلق الحق أی حق کان فهم یکرهونه و ینفرون منه و أما الحق المعهود الذی هو التوحید أو القرآن فکلهم کارهون له مشمئزون منه.

و المراد بکراهتهم للحق الکراهه بحسب الطبع الثانی المکتسب بالمعاصی و الذنوب لا بحسب الطبع الأول الذی هو الفطره التی فطر الناس علیها إذ لو کرهوه بحسبها لم یکلفوا بقبوله،قال تعالی: «لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ» :الروم:۳۰،و قال: «وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا» :الشمس:۸.

و یظهر من الآیه أن الملاک فی السعاده و الشقاء قبول الحق و رده.

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۷۹ الى ۸۹]

اشاره

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ
وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ اَلْعابِدِينَ (۸۱) سُبْحانَ رَبِّ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا
يَوْمَهُمُ اَلَّذِى يُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ اَلَّذِى فِى اَلسَّماءِ إِلهٌ وَ فِى اَلْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ اَلْحَكِيمُ اَلْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبارَكَ اَلَّذِى لَهُ مُلْكُ
اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّاعَهِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵) وَ لا يَمْلِكُ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ اَلشَّفاعَهَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ
بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اَللّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸)
فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

بيان

رجوع إلى سابق الكلام و فيه توبيخهم على ما يريدون من الكيد برسول الله ص و تهديدهم بأن الله يكيدهم،و نفى الولد الذى يقولون به،و إبطال القول بمطلق الشريك و إثبات الربوبيه المطلقه لله وحده،و تختتم السوره بالتهديد و الوعيد.

قوله تعالى:« أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّا مُبْرِمُونَ » الإبرام خلاف النقض و هو الإحكام،و أم منقطعه.

ص :۱۲۴

و المعنی:علی ما یفیده سیاق الآیه و الآیه التالیه:بل أحکموا أمرا من الکید بک یا محمد فإنا محکمون الکید بهم فالآیه فی معنی قوله تعالی: «أَمْ یُرِیدُونَ کَیْداً فَالَّذِینَ کَفَرُوا هُمُ الْمَکِیدُونَ» :الطور:۴۲.

قوله تعالی:« أَمْ یَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ » السر ما یستسرونه فی قلوبهم و النجوی ما یناجیه بعضهم بعضا بحیث لا یسمعه غیرهما،و لما کان السر حدیث النفس عبر عن العلم بالسر و النجوی جمیعا بالسمع.

و قوله:« بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ »أی بلی نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموکلون علی حفظ أعمالهم علیهم یکتبون ذلک.

قوله تعالی:« قُلْ إِنْ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِینَ »إبطال لألوهیه الولد بإبطال أصل وجوده من جهه علمه بأنه لیس،و التعبیر بأن الشرطیه دون لو الداله علی الامتناع-و کان مقتضی المقام أن یقال:لو کان للرحمن ولد،لاستنزالهم عن رتبه المکابره إلی مرحله الانتصاف.

و المعنی:قل لهم إن کان للرحمن ولد کما یقولون،فأنا أول من یعبده أداء لحق بنوته و مسانخته لوالده،لکنی أعلم أنه لیس و لذلک لا أعبده لا لبغض و نحوه.

و قد أوردوا للآیه معانی أخری:

منها:أن المعنی لو کان لله ولد کما تزعمون فأنا أعبد الله وحده و لا أعبد الولد الذی تزعمون.

و منها:أن« إِنْ »نافیه و المعنی:قل ما کان لله ولد فأنا أول العابدین الموحدین له من بینکم.

و منها:أن« اَلْعٰابِدِینَ »من عبد بمعنی أنف و المعنی:قل لو کان للرحمن ولد فأنا أول من أنف و استنکف عن عبادته لأن الذی یلد لا یکون إلا جسما و الجسمیه تنافی الألوهیه.

و منها:أن المعنی:کما أنی لست أول من عبد الله کذلک لیس لله ولد أی لو جاز لکم أن تدعوا ذاک المحال جاز لی أن أدعی هذا المحال.إلی غیر ذلک مما قیل لکن الظاهر من الآیه ما قدمناه.

قوله تعالی:« سُبْحٰانَ رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّٰا یَصِفُونَ »تسبیح

له سبحانه عما ينسبون إليه،و الظاهر أن« رَبِّ الْعَرْشِ »عطف بيان لرب السماوات و الأرض لأن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و هو عرش ملكه تعالى الذى استوى عليه و حكم فيه و دبر أمره.

و لا يخلو من إشاره إلى حجه على الوحدانيه إذ لما كان الخلق مختصا به تعالى حتى باعتراف الخصم و هو من شئون عرش ملكه،و التدبير من الخلق و الإيجاد فإنه إيجاد النظام الجارى بين المخلوقات فالتدبير أيضا من شئون عرشه فربوبيته للعرش ربوبيه لجميع السماوات و الأرض.

قوله تعالى:« فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » وعيد إجمالى لهم بأمر النبى ص بالإعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذرهم منه من عذاب يوم القيامه.

و المعنى:فاتركهم يخوضوا فى أباطيلهم و يلعبوا فى دنياهم و يشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدونه و هو يوم القيامه كما ذكر فى الآيات السابقه:« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّٰاعَةَ »إلخ.

قوله تعالى:« وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » أى هو الذى هو فى السماء إله مستحق للمعبوديه و هو فى الأرض إله أى هو المستحق لمعبوديه أهل السماوات و الأرض وحده،و يفيد تكرار« إِلٰهٌ »كما قيل التأكيد و الدلاله على أن كونه تعالى إلها فى السماء و الأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو فى أحدهما.

و فى الآيه مقابله لما يثبته الوثنيه لكل من السماء و الأرض إلها أو آلهه،و فى تذييل الآيه بقوله:« وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ »الدال على الحصر إشاره إلى وحدانيته فى الربوبيه التى لازمها الحكمه و العلم.

قوله تعالى:« وَ تَبٰارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »ثناء عليه تعالى بالتبارك و هو مصدريته للخير الكثير.

و كل من الصفات الثلاث المذكوره حجه على توحده فى الربوبيه أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبيه لمن يدبر الأمر و التدبير للملك،و أما اختصاص علم الساعه به فلأن

الساعه هی المنزل الأقصی إلیه یسیر الکل و کیف یصح أن یرب الأشیاء من لا علم له بمنتهی مسیرها فهو تعالی رب الأشیاء لا من یدعونه،و أما رجوع الناس إلیه فإن الرجوع للحساب و الجزاء و هو آخر التدبیر فمن إلیه الرجوع فإلیه التدبیر و من إلیه التدبیر له الربوبیه.

قوله تعالی:« وَ لاٰ یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَهَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ »السیاق سیاق العموم فالمراد بالذین یدعون،أی یعبدونهم من دونه،کل معبود غیره تعالی من الملائکه و الجن و البشر و غیرهم.

و المراد« بِالْحَقِّ »الحق الذی هو التوحید،و الشهاده به الاعتراف به،و المراد بقوله:« وَ هُمْ یَعْلَمُونَ »حیث أطلق العلم علمهم بحقیقه حال من شفعوا له و حقیقه عمله کما قال: «لاٰ یَتَکَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً» :النبأ:۳۸،و إذا کان هذا حال الشفعاء لا یملکونها إلا بعد الشهاده بالحق فما هم بشافعین إلا لأهل التوحید کما قال:« وَ لاٰ یَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضیٰ ».

و الآیه مصرحه بوجود الشفاعه.

قوله تعالی:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰی یُؤْفَکُونَ »أی إلی متی یصرفون عن الحق الذی هو التوحید إلی الباطل الذی هو الشرک،و ذلک أنهم معترفون أن لا خالق إلا الله و التدبیر الذی هو ملاک الربوبیه غیر منفک عن الخلق کما اتضح مرارا فالرب المعبود هو الذی بیده الخلق و هو الله سبحانه.

قوله تعالی:« وَ قِیلِهِ یٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ یُؤْمِنُونَ »ضمیر« قِیلِهِ »للنبی ص بلا إشکال،و القیل مصدر کالقول و القال،و« قِیلِهِ »معطوف-علی ما قیل-علی الساعه فی قوله:« وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ »،و المعنی:و عنده علم قوله:« یٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ یُؤْمِنُونَ ».

قوله تعالی:« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ »أمر بالإعراض عنهم و إقناط من إیمانهم،و قوله:« قُلْ سَلاٰمٌ »أی وادعهم موادعه ترک من غیر هم لک فیهم،و فی قوله:« فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ »تهدید و وعید.

بحث روائی

فی الإحتجاج،عن علی(ع)فی حدیث طویل یقول فیه: قوله: إِنْ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ-فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِینَ)أی الجاحدین،و التأویل فی هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

أقول:الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ینصرف إلیه لفظ عابد عند الإطلاق.

و فی الکافی،بإسناده عن هشام بن الحکم قال*: قال أبو شاکر الدیصانی:إن فی القرآن آیه هی قولنا.قلت:و ما هی؟قال: هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ - فلم أدر بما أجیبه فحججت فخبرت أبا عبد الله(ع)فقال:هذا کلام زندیق خبیث إذا رجعت إلیه فقل:ما اسمک بالکوفه؟فإنه یقول:فلان،فقل:ما اسمک بالبصره؟ فإنه یقول:فلان،فقل:کذلک الله ربنا فی السماء إله،و فی الأرض إله،و فی البحار إله،و فی القفار إله،و فی کل مکان إله.

قال:فقدمت فأتیت أبا شاکر فأخبرته-فقال:هذه نقلت من الحجاز.

و فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:(وَ لاٰ یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَهَ) قال:هم الذین عبدوا فی الدنیا-لا یملکون الشفاعه لمن عبدهم.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی هاشم الجعفری قال*: سألت أبا جعفر الثانی(ع):

ما معنی الواحد؟فقال:إجماع الألسن علیه بالوحدانیه لقوله:(وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ .

ص :۱۲۸

(۴۴) سوره الدخان مکیه و هی تسع و خمسون آیه(۵۹)

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

حم (۱) وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ (۳) فِیهٰا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ (۴) أَمْراً مِنْ عِنْدِنٰا إِنّٰا کُنّٰا مُرْسِلِینَ (۵) رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶) رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ (۷) لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ یُحْیِی وَ یُمِیتُ رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبٰائِکُمُ اَلْأَوَّلِینَ (۸)

بیان

یتلخص غرض السوره فی إنذار المرتابین فی الکتاب بعذاب الدنیا و عذاب الآخره و قد سیق بیان ذلک بأنه کتاب مبین نازل من عند الله علی من أرسله إلی الناس لإنذارهم و قد نزل رحمه منه تعالی لعباده خیر نزول فی لیله القدر التی فیها یفرق کل أمر حکیم.

غیر أن الناس و هم الکفار ارتابوا فیه لاعبین فی هوساتهم و سیغشاهم ألیم عذاب الدنیا ثم یرجعون إلی ربهم فینتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم یذکر لهم تنظیرا لأول الوعیدین قصه إرسال موسی(ع)إلی قوم فرعون لإنجاء بنی إسرائیل و تکذیبهم له و إغراقهم نکالا منه.

ص: ۱۲۹

ثم یـذکر إنکـارهم لثـانی الوعیـدین و هو الرجوع إلی الله فی یوم الفصـل فیقیم الحجه علی أنه آت لاـ محاله ثم یـذکر طرفا من أخباره و ما سیجری فیه علی المجرمین و یصیبهم من ألوان عذابه،و ما سیثاب به المتقون من حیاه طیبه و مقام کریم.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی:« حم وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ »الواو للقسم و المراد بالکتاب المبین القرآن.

قوله تعـالی:« إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ »المراد باللیله المبارکه التی نزل فیها القرآن لیله القـدر علی ما یـدل علیه قوله تعالی: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ» :القدر:۱،و کونها مبارکه ظرفیتها للخیر الکثیر الذی ینبسط علی الخلق من الرحمه الواسعه،و قد قال تعالی: «وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ الْقَدْرِ لَیْلَهُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» :القدر:۳.

و ظاهر اللفظ أنها إحـدی اللیالی التی تـدور علی الأرض و ظاهر قوله:« فِیهٰا یُفْرَقُ »الـدال علی الاسـتمرار أنها تتکرر و ظاهر قوله تعالی: «شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ» :البقره:۱۸۵،أنها تتکرر بتکرر شـهر رمضان فهی تتکرر بتکرر السـنین القمریه و تقع فی کـل سـنه قمریه مره واحـده فی شـهر رمضـان،و أمـا إنهـا أی لیله هی؟فلاـ إشـعار فی کلاـمه تعـالی بـذلک،و أمـا الروایـات فستوافیک فی البحث الروائی التالی.

و المراد بنزول الکتـاب فی لیله مبـارکه علی مـا هـو ظـاهر قوله:« إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ »و قوله: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَـدْرِ» :القدر:۱،و قوله: «شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدیً لِلنّٰاسِ وَ بَیِّنٰاتٍ مِنَ الْهُدیٰ وَ الْفُرْقٰانِ» :البقره:۱۸۵،أن النازل هو القرآن کله.

و لاـ یـدفع ذلک قوله: «وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً» :إسـراء:۱۰۶،و قوله: «وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً وٰاحِدَهً کَذٰلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَکَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِیلاً» :الفرقـان:۳۲،الظاهرین فی نزوله تـدریجا،و یؤیـد ذلک آیات أخر کقوله: «فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ مُحْکَمَهٌ» :سوره محمد:۲۰،و قوله:

«وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلیٰ بَعْضٍ» :التوبه:۱۲۷ و غیر ذلـک و یؤیـد ذلک أیضا ما لا یحصـی من الأخبار المتضـمنه لأسباب النزول.

و ذلک أنه یمکن أن یحمل علی نزول القرآن مرتین مره مجموعا و جمله فی لیله

واحده من لیالی شهر رمضان،و مره تدریجا و نجوما فی مده ثلاث و عشرین سنه و هی مده دعوته(ص).

لکن الـذی لاـ ینبغی الارتیاب فیه أن هـذا القرآن المؤلف من السور و الآیات بما فیه من السیاقات المختلفه المنطبقه علی موارد النزول المختلفه الشخصـیه لاـ یقبـل النزول دفعه فـإن الآیـات النازله فی وقائع شخصـیه و حوادث جزئیه مرتبطه بأزمنه و أمکنه و أشـخاص و أحوال خـاصه لاـ تصـدق إلا مع تحقق مواردها المتفرقه زمانا و مکانا و غیر ذلک بحیث لو اجتمعت زمانا و مکانا و غیر ذلک انقلبت عن تلک الموارد و صارت غیرها فلا یمکن احتمال نزول القرآن و هو علی هیئته و حاله بعینها مره جمله،و مره نجوما.

فلو قیـل بنزوله مرتین کـان من الواجب أن یفرق بین المرتین بالإجمال و التفصـیل فیکون نازلا مره إجمالا و مره تفصـیلا و نعنی بهذا الإجمال و التفصیل ما یشیر إلیه قوله تعالی: «کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آیٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ» :هود:۱،و قوله:

«إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ» الزخرف:۴،و قـد مر الکلاـم فی معنی الإحکام و التفصیل فی تفسیر سورتی هود و الزخرف.

و قیل:المراد بنزول الکتاب فی لیله مبارکه افتتاح نزوله التدریجی فی لیله القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آیات القرآن-و هو سوره العلق أو سوره الحمد- نزل فی لیله القدر.

و هذا القول مبنی علی استشعار منافاه نزول الکتاب کله فی لیله و نزوله التدریجی الذی تدل علیه الآیات السابقه و قد عرفت أن لا منافاه بین الآیات.

علی أنک خبیر بأنه خلاف ظاهر الآیات.

و قیل:إنه نزل أولا جمله علی السماء الدنیا فی لیله القدر ثم نزل من السـماء الدنیا علی الأرض تدریجا فی ثلاث و عشـرین سـنه مده الدعوه النبویه.

و هـذا القول مـأخوذ من الأخبـار الوارده فی تفسـیر الآیات الظاهره فی نزوله جمله و سـتمر بک فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

و قوله:« إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ »واقع موقع التعلیل،و هو یـدل علی اسـتمرار الإنذار منه تعالی قبل هذا الإنذار،فیدل علی أن نزول القرآن من عنده تعالی لیس ببدع،

فإنما هو إنـذار و الإنـذار سـنه جـاريه له تعـالى لم تزل تجرى فى السابقين من طريق الوحى إلى الأنبياء و الرسل و بعثهم لإنـذار الناس.

قوله تعالى:« فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »ضـمير« فِيهٰا »لليله و الفرق فصل الشـىء من الشىء بحيث يتمايزان و يقابله الإحكام فالأمر الحكيم مـا لا يتميز بعض أجزائه من بعض و لا يتعين خصوصـياته و أحواله كما يشـير إلى ذلك قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر:٢١.

فللأمور بحسب القضـاء الإلـهى مرحلتـان:مرحله الإجمال و الإبهام و مرحله التفصـيل،و ليله القـدر-على ما يـدل عليه قوله:« فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ -ليله يخرج فيها الأمور من مرحله الإحكام إلى مرحله الفرق و التفصـيل،و قـد نزل فيها القرآن و هو أمر من الأمور المحكمه فرق فى ليله القدر.

و لعـل الله سـبحانه أطلع نبيه على جزئيـات الحوادث التى سـتقع فى زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كل آيه أو آيات أو سوره من كتابه فيستدعى نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعه و جمله قبل نزوله تدريجا و مفرقا.

و مآل هذا الوجه اطلاع النبى ص على القرآن فى مرحله نزوله إلى القضاء التفصيلى قبل نزوله على الأرض و استقراره فى مرحله العين،و على هذا الوجه لا حاجه إلى تفريق المرتين بالإجمال و التفصيل كما تقدم فى الوجه الأول.

و ظـاهر كلاـم بعضـهم أن المراد بقوله:« فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »تفصـيل الأمور المبينه فى القرآن من معارف و أحكام و غير ذلك.و يدفعه أن ظاهر قوله:

« فِيهٰا يُفْرَقُ »الاسـتمرار و الـذى يسـتمر فى هـذه الليله بتكررهـا تفصـيل الأـمور الكونيه بعـد إحكامها و أما المعارف و الأحكام الإلهيه فلا استمرار فى تفصيلها فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال:«فيها فرق».

و قيـل:المراد بكون الأمر حكيما إحكامه بعـد الفرق لا الإحكام الـذى قبل التفصـيل،و المعنى:يقضـى فى الليله كل أمر محكم لا يتغير بزياده أو نقصان أو غير ذلك هذا،و الأظهر ما قدمناه من المعنى.

قوله تعالى:« أَمْراً مِنْ عِنْدِنٰا إِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ »المراد بالأمر الشأن و هو حال من الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمرا من عندنا و مبتدأ من

ص:١٣٢

لدنا،و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهى و المعنى:يفرق فيها كل أمر بأمر منا، و هو على أى حال متعلق بقوله:« يُفْرَقُ ».

و يمكن أن يكون متعلقا بقوله:« أَنْزَلْنٰاهُ »أى حال كون الكتاب أمرا أو بأمر من عندنا،و قوله:« إِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ »لا يخلو من تأييد لذلك،و يكون تعليلا له و المعنى:إنا أنزلناه أمرا من عندنا لأن سنتنا الجاريه إرسال الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى:« رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »أى إنزاله رحمه من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضه الرحمه على الناس أو لاقتضاء رحمه ربك إنزاله فقوله:« رَحْمَةً » حال على المعنى الأول و مفعول له على الثانى و الثالث.

و فى قوله:« مِنْ رَبِّكَ »التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبه و وجهه إظهار العنايه بالنبى ص لأنه هو الذى أنزل عليه القرآن و هو المنذر المرسل إلى الناس.

و قوله:« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »أى السميع للمسائل و العليم بالحوائج فيسمع مسألتهم و يعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربك فينزل الكتاب و يرسل الرسول رحمه منه لهم.

قوله تعالى:« رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »لما كانت الوثنيه يرون أن لكل صنف من الخلق إلها أو أكثر و ربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله:« مِنْ رَبِّكَ »بقوله:« رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ »إلخ،لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبى ص ليست بالاختصاص كالتى بينهم بل هو تعالى ربه و رب السماوات و الأرض و ما بينهما،و لذلك عقبه أيضا فى الآيه التاليه بقوله:« لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ».

و قوله:« إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشرى من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه أن بلغك حديثه و حدثت بقصته فالمعنى هو الذى يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شىء.

قوله تعالى:« لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ »لما كان مدلول الآيه السابقه انحصار الربوبيه و هى الملك و التدبير فيه تعالى و الألوهيه و هى

المعبوديه بالحق من لوازم الربوبيه عقبه بكلمه التوحيد النافيه لكل إله دونه تعالى.

و قوله:« يُحْيِي وَ يُمِيتُ »من أخص الصفات به تعالى و هما من شئون التدبير، و في ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد.

و قوله:« رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ »فيه كمال التصريح بأنه ربهم و رب آبائهم فليعبدوه و لا يتعللوا باتباع آبائهم في عباده الأصنام،و لتكميل التصريح سيقت الجمله بالخطاب فقيل:« رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ ».

و هما أعني قوله:« يُحْيِي وَ يُمِيتُ »و قوله:« رَبُّكُمْ »خبران لمبتدإ محذوف و التقدير هو يحيي و يميت إلخ.

بحث روائي

في المجمع،: في قوله تعالى :«إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبٰارَكَةٍ »و الليله المباركه هي ليله القدر: و،هو المروي عن أبي جعفر و أبي عبد الله(ع) .

و في الكافي،بإسناده عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينه عن الفضيل و زراره و محمد بن مسلم عن حمران *أنه سأل أبا جعفر(ع)عن قول الله تعالى:« إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبٰارَكَةٍ »قال:نعم ليله القدر و هي في كل سنه في شهر رمضان-في العشر الأواخر-فلم ينزل القرآن إلا في ليله القدر-قال الله تعالى:« فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »قال:يقدر في ليله القدر كل شيء-يكون في تلك السنه إلى مثلها من قابل:خير و شر و طاعه و معصيه و مولود و أجل و رزق-فما قدر في تلك السنه و قضي فهو المحتوم-و لله تعالى فيه المشيه.

أقول:قوله:فهو المحتوم و لله فيه المشيه أي أنه محتوم من جهه الأسباب و الشرائط فلا شيء يمنع عن تحققه إلا أن يشاء الله ذلك.

و في البصائر،عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن سنان قال*:

سألته عن النصف من شعبان فقال:ما عندي فيه شيء-و لكن إذا كانت ليله تسع عشره من شهر رمضان-قسم فيها الأرزاق و كتب فيها الآجال-و خرج فيها صكاك الحاج و اطلع الله إلى عباده-فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر.

فإذا كانت لیله ثلاث و عشرین فیها یفرق کل أمر حکیم-ثم ینهی ذلک و یمضی ذلک.

قلت:إلی من؟قال:إلی صاحبکم و لو لا ذلک لم یعلم.

و فی الدر المنثور،أخرج محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس"*فی قوله تعالی:« فِیهٰا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ »قال:یکتب من أم الکتاب فی لیله القدر ما یکون فی السنه-من رزق أو موت أو حیاه أو مطر-حتی یکتب الحاج:یحج فلان و یحج فلان.

أقول:و الأخبار فی لیله القدر و ما یقضی فیها و فی تعیینها کثیره جدا و سیأتی عمدتها فی تفسیر سوره القدر إن شاء الله تعالی.

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۹ الی ۳۳]

اشاره

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی اَلسَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِینٍ (۱۰) یَغْشَی اَلنّٰاسَ هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۱) رَبَّنَا اِکْشِفْ عَنَّا اَلْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنّٰی لَهُمُ اَلذِّکْریٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنّٰا کٰاشِفُوا اَلْعَذٰابِ قَلِیلاً إِنَّکُمْ عٰائِدُونَ (۱۵) یَوْمَ نَبْطِشُ اَلْبَطْشَهَ اَلْکُبْریٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ (۱۶) وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبٰادَ اَللّٰهِ إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۸) وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَی اَللّٰهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ (۱۹) وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِی فَاعْتَزِلُونِ (۲۱) فَدَعٰا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبٰادِی لَیْلاً إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اُتْرُکِ اَلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ کَرِیمٍ (۲۶) وَ نَعْمَهٍ کٰانُوا فِیهٰا فٰاکِهِینَ (۲۷) کَذٰلِکَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْماً آخَرِینَ (۲۸) فَمٰا بَکَتْ عَلَیْهِمُ اَلسَّمٰاءُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مٰا کٰانُوا مُنْظَرِینَ (۲۹) وَ لَقَدْ نَجَّیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ مِنَ اَلْعَذٰابِ اَلْمُهِینِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ کٰانَ عٰالِیاً مِنَ اَلْمُسْرِفِینَ (۳۱) وَ لَقَدِ اِخْتَرْنٰاهُمْ عَلیٰ عِلْمٍ عَلَی اَلْعٰالَمِینَ (۳۲) وَ آتَیْنٰاهُمْ مِنَ اَلْآیٰاتِ مٰا فِیهِ بَلٰؤُا مُبِینٌ (۳۳)

بيان

تـذكر الآيات ارتيابهم فی كتاب الله بعـد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل فی خير ليله علی رسوله لغرض الإنـذار رحمه من الله،ثم تهددهم بعذاب الدنيا و بطش يوم القيامه و تتمثل لهم بقصه إرسال موسی إلی قوم فرعون و تكذيبهم له و إغراقهم.

و لا تخلو القصه من إيماء إلی أنه تعالی سينجی النبی ص و المؤمنين به من عتاه قريش بإخراجهم من مكه ثم إهلاك صناديد قريش فی تعقيبهم النبی و المؤمنين به.

قوله تعالی:« بَلْ هُمْ فِی شَكٍّ يَلْعَبُونَ »ضمير الجمع لقوم النبی ص،و الإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أی إنهم لا يوقنون و لا يؤمنون بما ذكر من رساله الرسول و صفه الكتاب الذی أنزل عليه بل هم فی شك و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم،و ذكر الزمخشری أن الإضراب عن قوله:« إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ».

قوله تعالی:« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِی السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِينٍ يَغْشَی النّٰاسَ » الارتقاب الانتظار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشی الناس.

ص :۱۳۶

و اختلف فی المراد بهذا العذاب المذکور فی الآیه.

فقیل:المراد به المجاعه التی ابتلی بها أهل مکه فإنهم لما أصروا علی کفرهم و أذاهم للنبی ص و المؤمنین به دعا علیهم النبی ص فقال:اللهم سنین کسنی یوسف فأجدبت الأرض و أصابت قریشا مجاعه شدیده،و کان الرجل لما به من الجوع یری بینه و بین السماء کالدخان و أکلوا المیته و العظام ثم جاءوا إلی النبی ص و قالوا:

یا محمد جئت تأمر بصله الرحم و قومک قد هلکوا،و وعدوه إن کشف الله عنهم الجدب أن یؤمنوا،فدعا و سأل الله لهم بالخصب و السعه فکشف عنهم ثم عادوا إلی کفرهم و نقضوا عهدهم.

و قیل:إن الدخان المذکور فی الآیه من أشراط الساعه و هو لم یأت بعد و هو یأتی قبل قیام الساعه فیدخل أسماع الناس حتی أن رءوسهم تکون کالرأس الحنیذ.

و یصیب المؤمن منه مثل الزکمه و تکون الأرض کلها کبیت أوقد فیه لیس فیه خصاص (۱)و یمکث ذلک أربعین یوما.

و ربما قیل:إن المراد بیوم الدخان یوم فتح مکه حین دخل جیش المسلمین مکه فارتفع الغبار کالدخان المظلم،و ربما قیل:المراد به یوم القیامه،و القولان کما تری.

و قوله:« یَغْشَی النّاسَ »أی یشملهم و یحیط بهم،و المراد بالناس أهل مکه علی القول الأول،و عامه الناس علی القول الثانی.

قوله تعالی:« هٰذا عَذابٌ أَلِیمٌ رَبَّنَا اکْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنّا مُؤْمِنُونَ »حکایه قول الناس عند نزول عذاب الدخان أی یقول الناس یوم تأتی السماء بدخان مبین:

هذا عذاب ألیم و یسألون الله کشفه بالاعتراف بربوبیته و إظهار الإیمان بالدعوه الحقه فیقولون: رَبَّنَا اکْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنّا مُؤْمِنُونَ .

قوله تعالی:« أَنّی لَهُمُ الذِّکْری وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ »أی من أین لهم أن یتذکروا و یذعنوا بالحق و الحال أنه قد جاءهم رسول مبین ظاهر فی رسالته لا یقبل الارتیاب و هو محمد ص،و فی الآیه رد صدقهم فی وعدهم.

قوله تعالی:« ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ » التولی الإعراض،و ضمیر

۱- ۱) الخصاص:الثقبه و الفرجه.

« عَنْهُ »للرسول و« مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ »خبران لمبتدإ محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول و المعنى:ثم أعرضوا عن الرسول و قالوا هو معلم مجنون فرموه أولا بأنه معلم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه،قال تعالى: «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» :النحل:۱۰۳،و ثانيا بأنه مجنون مختل العقل.

قوله تعالى:« إِنّٰا كٰاشِفُوا الْعَذٰابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عٰائِدُونَ »أى إنا كاشفون للعذاب زمانا أنكم عائدون إلى ما كنتم فيه من الكفر و التكذيب هذا بناء على القول الأول و الآيه تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان.

و أما على القول الثانى فالأقرب أن المعنى:أنكم عائدون إلى العذاب يوم القيامه.

قوله تعالى:« يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرىٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ » البطش -على ما ذكره الراغب-تناول الشىء بصوله،و هذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر و بناء على القول الثانى يوم القيامه،و ربما أيد توصيف البطشه بالكبرى هذا القول الثانى فإن بطش يوم القيامه و عذابه أكبر البطش و العذاب،قال تعالى: «فَيُعَذِّبُهُ اللّٰهُ الْعَذٰابَ الْأَكْبَرَ» :الغاشيه:۲۴،كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى: «وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» :النحل:۴۱.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » الفتنه الامتحان و الابتلاء للحصول على حقيقه الشىء،و قوله:« وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ »إلخ،تفسير للامتحان،و الرسول الكريم موسى(ع)،و الكريم هو المتصف بالخصال الحميده قال الراغب:الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله:« فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ »و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التى تظهر منه،و لا يقال:هو كريم حتى يظهر ذلك منه،قال:و كل شىء شرف فى بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى:« أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »« وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ »« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ »« وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلاً كَرِيماً »انتهى.

قوله تعالى:« أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبٰادَ اللّٰهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ »تفسير لمجىء الرسول فإن معنى مجىء الرسول تبليغ الرساله و كان من رساله موسى(ع)إلى فرعون و قومه أن يرسلوا معهم بنى إسرائيل و لا يعذبوهم،و المراد بعباد الله بنو إسرائيل و عبر عنهم

بذلک استرحاما و تلویحا إلی أنهم فی استکبارهم و تعدیهم علیهم إنما یستکبرون علی الله لأنهم عباد الله.

و فی قوله:« إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ »حیث وصف نفسه بالأمانه دفع لاحتمال أن یخونهم فی دعوی الرساله و إنجاء بنی إسرائیل من سیطرتهم فیخرج معهم علیهم فیخرجهم من أرضهم کما حکی تعالی عن فرعون إذ قال للملإ حوله: «إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ بِسِحْرِهِ» :الشعراء:۲۵.

و قیل:« عِبٰادَ اللّٰهِ »نداء لفرعون و قومه و التقدیر أن أدوا إلی ما آمرکم به یا عباد الله،و لا یخلو من التقدیر المخالف للظاهر.

قوله تعالی:« وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَی اللّٰهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ »أی لا تتجبروا علی الله بتکذیب رسالتی و الإعراض عما أمرکم الله فإن تکذیب الرسول فی رسالته استعلاء و تجبر علی من أرسله و الدلیل علی أن المراد ذلک تعلیل النهی بقوله:« إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ »أی حجه بارزه من الآیات المعجزه أو حجه المعجزه و حجه البرهان.

قیل:و من حسن التعبیر الجمع بین التأدیه و الأمین و کذا بین العلو و السلطان.

قوله تعالی:« وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ »أی التجأت إلیه تعالی من رجمکم إیای فلا تقدرون علی ذلک،و الظاهر أنه إشاره إلی ما آمنه ربه قبل المجیء إلی القوم کما فی قوله تعالی: «قٰالاٰ رَبَّنٰا إِنَّنٰا نَخٰافُ أَنْ یَفْرُطَ عَلَیْنٰا أَوْ أَنْ یَطْغیٰ قٰالَ لاٰ تَخٰافٰا إِنَّنِی مَعَکُمٰا أَسْمَعُ وَ أَریٰ» :طه:۴۶.

و بما مر یظهر فساد ما قیل:إن هذا کان قبل أن یخبره الله بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه:« فَلاٰ یَصِلُونَ إِلَیْکُمٰا ».

قوله تعالی:« وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِی فَاعْتَزِلُونِ »أی إن لم تؤمنوا لی فکونوا بمعزل منی لا لی و لا علی و لا تتعرضوا لی بخیر أو شر،و قیل:المراد تنحوا عنی و انقطعوا، و هو بعید.

قوله تعالی:« فَدَعٰا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ »أی دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون و قد ذکر من دعائه السبب الداعی له إلی الدعاء و هو إجرامهم إلی حد یستحقون معه الهلاک و یعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالی إذ قال:« فَأَسْرِ بِعِبٰادِی »

إلخ،و هو الإهلاک.

قوله تعالی:« فَأَسْرِ بِعِبادِی لَیْلاً إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ » الإسراء :السیر باللیل فیکون قوله:« لَیْلاً »تأکیدا له و تصریحا به،و المراد بعبادی بنو إسرائیل،و قوله:« إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ »أی یتبعکم فرعون و جنوده،و هو استئناف یخبر عما سیقع عقیب الإسراء.

و فی الکلام إیجاز بالحذف و التقدیر فقال له:أسر بعبادی لیلا إنکم متبعون یتبعکم فرعون و جنوده.

قوله تعالی:« وَ اتْرُکِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ »قال فی المفردات:و اترک البحر رهوا أی ساکنا،و قیل:سعه من الطریق و هو الصحیح.انتهی.و قوله:

« إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ »تعلیل لقوله:« وَ اتْرُکِ الْبَحْرَ رَهْواً ».

و فی الکلام إیجاز بالحذف اختصارا و التقدیر:أسر بعبادی لیلا یتبعکم فرعون و جنوده حتی إذا بلغتم البحر فاضربه بعصاک لینفتح طریق لجوازکم فجاوزوه و اترکه ساکنا أو مفتوحا علی حاله فیدخلونه طمعا فی إدراککم فهم جند مغرقون.

قوله تعالی:« کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ کَرِیمٍ وَ نَعْمَهٍ کانُوا فِیها فاکِهِینَ کَذلِکَ »« کَمْ »للتکثیر أی کثیرا ما ترکوا،و قوله:« مِنْ جَنّاتٍ »إلخ...

بیان لما ترکوا،و المقام الکریم المساکن الحسنه الزاهیه،و النعمه فتح النون التنعم و بناؤها بناء المره کالضربه و بکسر النون قسم من التنعم و بناؤها بناء النوع کالجلسه و فسروا النعمه هاهنا بما یتنعم به و هو أنسب للترک،و فاکهین من الفکاهه بمعنی حدیث الأنس و لعل المراد به هاهنا التمتع کما یتمتع بالفواکه و هی أنواع الثمار.

و قوله:« کَذلِکَ »قیل:معناه الأمر کذلک،و قیل:المعنی نفعل فعلا کذلک لمن نرید إهلاکه،و قیل:الإشاره إلی الإخراج المفهوم من الکلام السابق،و المعنی:

مثل ذلک الإخراج أخرجناهم منها.

و یمکن أن یکون حالا من مفعول«ترکوا»المحذوف و المعنی:کثیرا ما ترکوا أشیاء کذلک أی علی حالها و الله أعلم.

قوله تعالی:« وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِینَ »الضمیر لمفعول« تَرَکُوا »المحذوف المبین بقوله:« مِنْ جَنّاتٍ »إلخ،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی:« فَمٰا بَکَتْ عَلَیْهِمُ السَّمٰاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مٰا کٰانُوا مُنْظَرِینَ »بکاء السماء و الأرض علی شیء فائت کنایه تخییلیه عن تأثرهما عن فوته و فقده فعدم بکائهما علیهم بعد إهلاکهم کنایه عن هوان أمرهم علی الله و عدم تأثیر هلاکهم فی شیء من أجزاء الکون.

و قوله:« وَ مٰا کٰانُوا مُنْظَرِینَ »کنایه عن سرعه جریان القضاء الإلهی و القهر الربوبی فی حقهم و عدم مصادفته لمانع یمنعه أو یحتاج إلی علاج فی رفعه حتی یتأخر به.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ نَجَّیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ مِنَ الْعَذٰابِ الْمُهِینِ »و هو ما یصیبهم و هم فی إساره فرعون من ذبح الأبناء و استحیاء النساء و غیر ذلک.

قوله تعالی:« مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ کٰانَ عٰالِیاً مِنَ الْمُسْرِفِینَ »« مِنْ فِرْعَوْنَ »بدل من قوله:« مِنَ الْعَذٰابِ »إما بحذف مضاف و التقدیر من عذاب فرعون،أو من غیر حذف بجعل فرعون عین العذاب دعوی للمبالغه،و قوله:« إِنَّهُ کٰانَ عٰالِیاً مِنَ الْمُسْرِفِینَ » أی متکبرا من أهل الإسراف و التعدی عن الحد.

قوله تعالی:« وَ لَقَدِ اخْتَرْنٰاهُمْ عَلیٰ عِلْمٍ عَلَی الْعٰالَمِینَ »أی اخترناهم علی علم منا باستحقاقهم الاختیار علی ما یفیده السیاق.

و المراد بالعالمین جمیع العالمین من الأمم إن کان المراد بالاختیار الاختیار من بعض الوجوه ککثره الأنبیاء فإنهم یمتازون من سائر الأمم بکثره الأنبیاء المبعوثین منهم و یمتازون بأن مر علیهم دهر طویل فی التیه و هم یتظللون بالغمام و یأکلون المن و السلوی إلی غیر ذلک.

و عالمو أهل زمانهم إن کان المراد بالاختیار مطلقه فإنهم لم یختاروا علی الأمه الإسلامیه التی خاطبهم الله تعالی بمثل قوله: «کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ» :آل عمران:۱۱۰،و قوله: «هُوَ اجْتَبٰاکُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ» :الحج:۷۸.

قوله تعالی:« وَ آتَیْنٰاهُمْ مِنَ الْآیٰاتِ مٰا فِیهِ بَلٰؤُا مُبِینٌ » البلاء الاختبار و الامتحان أی و أعطینا بنی إسرائیل من الآیات المعجزات ما فیه امتحان ظاهر و لقد أوتوا من الآیات المعجزات ما لم یعهد فی غیرهم من الأمم و ابتلوا بذلک ابتلاء مبینا.

قیل:و فی قوله:« فِیهِ »إشاره إلی أن هناک أمورا أخری ککونه معجزه.

و فی تذییل القصه بهذه الآیات الأربع أعنی قوله:« وَ لَقَدْ نَجَّیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ »

-إلی قوله- بَلٰٓؤٌا مُبِینٌ »نوع تطییب لنفس النبی ص و إیماء إلی أن الله تعالی سینجیه و المؤمنین به من فراعنه مکه و یختارهم و یمکنهم فی الأرض فینظر کیف یعملون.

بحث روائی

عن جوامع الجامع،: فی قوله تعالی:« فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِینٍ » و اختلف فی الدخان فقیل:إنه دخان یأتی من السماء قبل قیام الساعه-یدخل فی أسماع الکفره-حتی یکون رأس الواحد کالرأس الحنیذ (۱)و یعتری المؤمن منه کهیئه الزکام- و یکون الأرض کلها کبیت أوقد فیه-لیس فیه خصاص یمد ذلک أربعین یوما، و روی ذلک عن علی و ابن عباس و الحسن:

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عنهم و أیضا عن حذیفه بن الیمان و أبی سعید الخدری عن النبی ص

،و رواه أیضا عن ابن عمر موقوفا.

و فی تفسیر القمی،:فی الآیه قال:ذلک إذا خرجوا فی الرجعه من القبر-یغشی الناس کلهم الظلمه-فیقولون:هذا عذاب ألیم-ربنا اکشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

و فی المجمع،و روی زراره بن أعین عن أبی عبد الله(ع) أنه قال*: بکت السماء علی یحیی بن زکریا-و الحسین بن علی(ع)أربعین صباحا.قلت:فما بکاؤها؟ قال:کانت تطلع حمراء و تغیب حمراء.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن عبید المکتب عن إبراهیم قال"*: ما بکت السماء منذ کانت الدنیا إلا علی اثنین.قیل لعبید:أ لیس السماء و الأرض تبکی علی المؤمن؟ قال:ذاک مقامه و حیث یصعد عمله.قال:و تدری ما بکاء السماء؟قال:لا.قال:

تحمر و تصیر ورده کالدهان.إن یحیی بن زکریا لما قتل احمرت السماء و قطرت دما، و إن الحسین بن علی یوم قتل احمرت السماء.

و فی الفقیه،عن الصادق(ع)قال: إذا مات المؤمن بکت علیه بقاع الأرض- التی کان یعبد الله عز و جل فیها-و الباب الذی کان یصعد منه عمله و موضع سجوده.

۱- ۱) الحنیذ:المشوی.

أقول:و فی هذا المعنی و معنی الروایتین السابقتین روایات أخر من طرق الشیعه و أهل السنه.

و لو بنی فی معنی بکاء السماء و الأرض علی ما یظهر من هذه الروایات لم یحتج إلی حمل بکائهما علی الکنایه التخییلیه.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ »قال:قالوا ذلک لما نزل الوحی علی رسول الله ص-فأخذه الغشی فقالوا:هو مجنون.

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۳۴ الی ۵۹]

اشاره

إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَیَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِیَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا اَلْأُولیٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِینَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۳۶) أَ هُمْ خَیْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَکْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ کٰانُوا مُجْرِمِینَ (۳۷) وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا لاٰعِبِینَ (۳۸) مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۳۹) إِنَّ یَوْمَ اَلْفَصْلِ مِیقٰاتُهُمْ أَجْمَعِینَ (۴۰) یَوْمَ لاٰ یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اَللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۴۲) إِنَّ شَجَرَةَ اَلزَّقُّومِ (۴۳) طَعٰامُ اَلْأَثِیمِ (۴۴) کَالْمُهْلِ یَغْلِی فِی اَلْبُطُونِ (۴۵) کَغَلْیِ اَلْحَمِیمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلیٰ سَوٰاءِ اَلْجَحِیمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ اَلْحَمِیمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ اَلْعَزِیزُ اَلْکَرِیمُ (۴۹) إِنَّ هٰذٰا مٰا کُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی مَقٰامٍ أَمِینٍ (۵۱) فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۵۲) یَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِینَ (۵۳) کَذٰلِکَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (۵۴) یَدْعُونَ فِیهٰا بِکُلِّ فٰاکِهَةٍ آمِنِینَ (۵۵) لاٰ یَذُوقُونَ فِیهَا اَلْمَوْتَ إِلاَّ اَلْمَوْتَةَ اَلْأُولیٰ وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ اَلْجَحِیمِ (۵۶) فَضْلاً مِنْ رَبِّکَ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۵۷) فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

بیان

لما أنـذر القوم بالعـذاب الـدنیوی ثـم بالعـذاب الأخروی و تمثل للعـذاب الـدنیوی بمـا جری علی قـوم فرعـون إذ جـاءهم موسی(ع)بالرساله من ربه فکذبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم.

رجع إلی الکلام فی العـذاب الأخروی فـذکر إنکـار القوم للمعـاد و قولهم أن لیس بعـد الموته الأولی حیاه فاحتـج علی إثبات المعـاد بالبرهـان ثم أنبأ عن بعض ما سـیلقاه المجرمون من العـذاب فی الآخره و بعض ما سـیلقاه المتقون من النعیم المقیم و عند ذلک تختتم السوره بما بدأت به و هو نزول الکتاب للتذکر و أمره(ص)بالارتقاب.

قوله تعـالی:« إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَیَقُولُونَ إِنْ هِیَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولیٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِینَ » رجوع إلی أول الکلام من قوله:« بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ »و الإشـاره بهؤلاء إلی قریش و من یلحـق بهم من العرب الوثنیین المنکرین للمعـاد،و قولهم:« إِنْ هِیَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولیٰ »یریـدون به نفی الحیاه بعـد الموت الملازم لنفی المعاد بـدلیل قولهم بعـده:« وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِینَ »أی بمبعوثین،قال فی الکشاف یقال:أنشر الله الموتی و نشرهم إذا بعثهم.انتهی.

ص: ۱۴۴

فقولهم:« إِنْ هِیَ إِلاّ مَوْتَتُنَا الْأُولی »الضمیر فیه للعاقبه و النهایه أی لیست عاقبه أمرنا و نهایه وجودنا و حیاتنا إلا موتتنا الأولی فنعدم بها و لا حیاه بعدها أبدا.

و وجه تقیید الموته فی الآیه بالأولی، بأنه لیس بقید احترازی إذ لا ملازمه بین الأول و الآخر أو بین الأول و الثانی فمن الجائز أن یکون هناک شیء أول و لا ثانی له و لا فی قباله آخر،کذا قیل.

و هناک وجه آخر ذکره الزمخشری فی الکشاف فقال:فإن قلت:کان الکلام واقعا فی الحیاه الثانیه لا فی الموت فهلا قیل:إلا حیاتنا الأولی و ما نحن بمنشرین کما قیل:إن هی إلا حیاتنا الدنیا و ما نحن بمبعوثین،و ما معنی قوله:« إِلاّ مَوْتَتُنَا الْأُولی »؟و ما معنی ذکر الأولی؟کأنهم وعدوا موته أخری حتی نفوها و جحدوها و أثبتوا الأولی.

قلت:معناه-و الله الموفق للصواب-أنهم قیل لهم:إنکم تموتون موته تتعقبها حیاه کما تقدمتکم موته قد تعقبتها حیاه و ذلک قوله عز و جل:« وَ کُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْیاکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یُحْیِیکُمْ »فقالوا:إن هی إلا موتتنا الأولی یریدون ما الموته التی من شأنها أن تتعقبها حیاه إلا الموته الأولی دون الموته الثانیه،و ما هذه الصفه التی تصفون بها الموته من تعقب الحیاه لها إلا للموته الأولی خاصه فلا فرق إذا بین هذا و بین قوله:

« إِنْ هِیَ إِلاّ حَیاتُنَا الدُّنْیا »فی المعنی انتهی.

و یمکن أن یوجه بوجه ثالث و هو أن یقولوا:« إِنْ هِیَ إِلاّ مَوْتَتُنَا الْأُولی »بعد ما سمعوا قوله تعالی:« قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَیْنِ وَ أَحْیَیْتَنَا اثْنَتَیْنِ »الآیه،و قد تقدم فی تفسیر الآیه أن الإماته الأولی هی الموته بعد الحیاه الدنیا،و الإماته الثانیه هی التی بعد الحیاه البرزخیه فهم فی قولهم:« إِنْ هِیَ إِلاّ مَوْتَتُنَا الْأُولی »ینفون الموته الثانیه الملازمه للحیاه البرزخیه التی هی حیاه بعد الموت فإنهم یرون موت الإنسان انعداما له و بطلانا لذاته.

و یمکن أن یوجه بوجه رابع و هو أن یرجع التقید بالأولی إلی الحکایه دون المحکی و ذلک بأن یکون الذی قالوا إنما هو« إِنْ هِیَ إِلاّ مَوْتَتُنَا »و یکون معنی الکلام

أن هؤلاء ينفون الحياه بعد الموت و يقولون:إن هی إلا موتتنا يريدون الموته الأولى من الموتتين اللتين ذكرنا فى قولنا:« قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ »الآيه.

و الوجوه الأربع مختلفه فى القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثم الرابع ثم الأول.

قوله تعالى:« فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »تتمه كلام القوم و خطاب منهم للنبى ص و المؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث و الإحياء فاحتجوا لرد الإحياء بعد الموت بقولهم:« فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »أى فليحى آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأى وسيله اتخذتموها حتى نعلم صدقكم فى دعواكم أن الأموات سيحيون و أن الموت ليس بانعدام.

قوله تعالى:« أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ »تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبع و الذين من قبلهم من الأمم.

و تبع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن و اسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب و قيل:سعد أبو كرب و سيأتى فى البحث الروائى نبذه من قصته و فى الكلام نوع تلويح إلى سلامه تبع نفسه من الإهلاك.

قوله تعالى:« وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلاّ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ »ضمير التثنيه فى قوله:« وَ ما بَيْنَهُما »لجنسى السماوات و الأرض و لذا لم يجمع،و الباء فى قوله« بِالْحَقِّ »للملابسه أى ما خلقناهما إلا متلبستين بالحق،و جوز بعضهم كونها للسببيه أى ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان و الطاعه و البعث و الجزاء،و لا يخفى بعده.

و مضمون الآيتين حجه برهانيه على ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء أخر ثم يعدمها و يحيى هذا ثم يميته و يحيى آخر و هكذا كان لاعبا فى فعله عابثا به و اللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمى ينتقل إليه الأشياء و ما فى هذا العالم الدنيوى الفانى البائد مقدمه للانتقال إلى ذلك العالم و هو الحياه الآخره.

و قد فصلنا القول فى هذا البرهان فى تفسير الآيه ۱۶ من سوره الأنبياء،و الآيه ۲۷ من سوره_ص فليراجع.

و قوله:« وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ »تقريع لهم بالجهل.

قوله تعالى:« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقٰاتُهُمْ أَجْمَعِينَ »بيان لصفه اليوم الذى يثبته البرهان السابق و هو يوم القيامه الذى فيه يقوم الناس لرب العالمين.

و سماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق و الباطل و بين المحق و المبطل و المتقين و المجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى.

و قوله:« مِيقٰاتُهُمْ أَجْمَعِينَ »أى موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدمهم و قريش و غيرهم.

قوله تعالى:« يَوْمَ لاٰ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ »بيان ليوم الفصل،و المولى هو الصاحب الذى له أن يتصرف فى أمور صاحبه و يطلق على من يتولى الأمر و على من يتولى أمره و المولى الأول فى الآيه هو الأول و الثانى هو الثانى.

و الآيه تنفى أولا إغناء مولى عن مولاه يومئذ،و تخبر ثانيا أنهم لا ينصرون و الفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغنى فى عمله و لا يكون لمن يغنى عنه صنع فى ذلك،و النصره إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصه و يتم له ذلك بنصره الناصر.

و الوجه فى انتفاء الإغناء و النصر يومئذ أن الأسباب المؤثره فى نشأه الحياه الدنيا تسقط يوم القيامه،قال تعالى: «وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ» :البقره:۱۶۶،و قال:

«فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ» :يونس:۲۸.

قوله تعالى:« إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »استثناء من ضمير« لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ »و الآيه من أدله الشفاعه يومئذ و قد تقدم تفصيل القول فى الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب.

هذا على تقدير رجوع ضمير« لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ »إلى الناس جميعا على ما هو الظاهر.

و أما لو رجع إلى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع و المعنى:لكن من رحمه الله و هم المتقون فإنهم فى غنى عن مولى يغنى عنهم و ناصر ينصرهم.

و أما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلا من« مَوْلًى »فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شىء من أسباب النجاه و من كان

على هذه الصفه لم يغن عنه مغن و لا استثناء و الشفاعه نصره تحتاج إلى بعض أسباب النجاه و هو الدين المرضى و قد تقدم فى بحث الشفاعه،نعم يمكن أن يوجه بما سيجىء فى روايه الشحام.

و قوله:« إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »أى الغالب الذى لا يغلبه شىء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه،و مفيض الخير على من يريد أن يرحمه و يفيض الخير عليه و مناسبه الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهره.

قوله تعالى:« إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ »تقدم الكلام فى شجره الزقوم فى تفسير سوره الصافات،و الأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمداومه على معصيه أو بالإكثار من المعاصى و الآيه إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

قوله تعالى:« كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ » المهل هو المذاب من النحاس و الرصاص و غيرهما،و الغلى و الغليان معروف،و الحميم الماء الحار الشديد الحراره، و قوله:« كَالْمُهْلِ »خبر ثان لقوله:« إِنَّ »كما أن قوله:« طَعَامُ الْأَثِيمِ »خبر أول، و قوله:« يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ »خبر ثالث،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ » الاعتلاء الزعزعه و الدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه،و الخطاب للملائكه الموكلين على النار أى نقول للملائكه خذوا الأثيم و ادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى: «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» :التوبه:۴۹.

قوله تعالى:« ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ »كان المراد بالعذاب ما يعذب به،و إضافته إلى الحميم بيانيه و المعنى:ثم صبوا فوق رأسه من الحميم الذى يعذب به.

قوله تعالى:« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »خطاب يخاطب به الأثيم و هو يقاسى العذاب بعد العذاب،و توصيفه بالعزه و الكرامه على ما هو عليه من الذله و اللآمه استهزاء به تشديدا لعذابه و قد كان يرى فى الدنيا لنفسه عزه و كرامه لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: «وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ» :حم السجده:۵۰.

قوله تعالى:« إِنَّ هٰذٰا مٰا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ » الامتراء الشک و الارتياب،و الآيه تتمه قولهم له:« ذُقْ »إلخ،و فيها تأكيد و إعلام لهم بخطاهم و زلتهم فی الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهده عيان،و لذا عبر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبر عن إدراک ألم المولمات و لذه الملذات إدراکا تاما بالذوق.

و يمکن أن تکون الآيه استئنافا من کلام الله سبحانه يخاطب به الکفار بعد ذکر حالهم فی يوم القيامه،و ربما أيده قوله:« كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ »بخطاب الجمع و الخطاب فی الآيات السابقه بالإفراد.

قوله تعالى:« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقٰامٍ أَمِينٍ » المقام محل القيام بمعنى الثبوت و الرکوز و لذا فسر أيضا بموضع الإقامه،و الأمين صفه من الأمن بمعنى عدم إصابه المکروه، و المعنى:أن المتقين-يوم القيامه-ثابتون فی محل ذی أمن من إصابه المکروه مطلقا.

و بذلک يظهر أن نسبه الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز فی النسبه.

قوله تعالى:« فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ »بيان لقوله:« فِي مَقٰامٍ أَمِينٍ »و جعل العيون ظرفا لهم باعتبار المجاوره و وجودها فی الجنات التی هی ظرف،و جمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لکل منهم وحده جنه أو أکثر.

قوله تعالى:« يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِينَ » السندس الرقيق من الحرير و الإستبرق الغليظ منه و هما معربان من الفارسيه.

و قوله:« مُتَقٰابِلِينَ »أی يقابل بعضهم بعضا للاستيناس إذ لا شر و لا مکروه عندهم لکونهم فی مقام أمين.

قوله تعالى:« كَذٰلِكَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ »أی الأمر کذلک أی کما وصفناه و المراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهن من الزوج بمعنى القرين و هو أصل التزويج فی اللغه،و الحور جمع حوراء بمعنى شديده سواد العين و بياضها أو ذات المقله السوداء کالظباء،و العين جمع عيناء بمعنى عظيمه العينين،و ظاهر کلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخله فی الجنه.

قوله تعالى:« يَدْعُونَ فِيهٰا بِكُلِّ فٰاكِهَةٍ آمِنِينَ »أی آمنين من ضررها.

قوله تعالی:« لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولىٰ وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ » أی إنهم فی جنه الخلد أحیاء بحیاه أبدیه لا یعتریها موت.

و قد استشکل فی الآیه بأن استثناء الموته الأولی من قوله:« لاٰ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ »یفید أنهم یذوقون الموته الأولی فیها،و المراد خلافه قطعا،و بتقریر آخر الموته الأولی هی موته الدنیا و قد مضت بالنسبه إلی أهل الجنه،و التلبس فی المستقبل بأمر ماض محال قطعا فما معنی استثناء الموته الأولی من عدم الذوق فی المستقبل؟.

و هنا إشکال آخر لم یتعرضوا له و هو أنه قد تقدم فی قوله تعالی: «رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» :المؤمن:۱۱،إن بین الحیاه الدنیا و الساعه موتتین:موته بالانتقال من الدنیا إلی البرزخ و موته بالانتقال من البرزخ إلی الآخره،و الظاهر أن المراد بالموته الأولی فی الآیه هی موته الدنیا الناقله للإنسان إلی البرزخ فهب أنا أصلحنا استثناء الموته الأولی بوجه فما بال الموته الثانیه لم تستثن؟و ما الفرق بینهما و هما موتتان ذاقوهما قبل الدخول فی جنه الخلد؟.

و أجیب عن الإشکال الأول بأن الاستثناء منقطع،و المعنی:لکنهم قد ذاقوا الموته الأولی فی الدنیا و قد مضت فعموم قوله:« لاٰ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ »علی حاله.

و علی تقدیر عدم کون الاستثناء منقطعا«إلا»بمعنی سوی و« إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولىٰ » بدل من« اَلْمَوْتَ »و لیس من الاستثناء فی شیء،و المعنی:لا یذوقون فیها سوی الموته الأولی من الموت أما الموته الأولی فقد ذاقوها و محال أن تعود و تذاق و هی أولی.

و أجیب ببعض وجوه أخر لا یعبأ به،و أنت خبیر بأن شیئا من الوجهین لا یوجه اتصاف الموته بالأولی و قد تقدم فی تفسیر قوله:« إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولىٰ » الآیه،وجوه فی ذلک.

و أما الإشکال الثانی فیمکن أن یجاب عنه بالجواب الثانی المتقدم لما أن هناک موتتین الموته الأولی و هی الناقله للإنسان من الدنیا إلی البرزخ و الموته الثانیه و هی الناقله له من البرزخ إلی الآخره فإذا کان« إِلاَّ »فی قوله:« إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولىٰ »بمعنی سوی و المجموع بدلا من الموت کانت الآیه مسوقه لنفی غیر الموته الأولی و هی الموته الثانیه التی هی موته البرزخ فلا موت فی جنه الآخره لا موته الدنیا لأنها تحققت لهم قبلا و لا غیر موته الدنیا التی هی موته البرزخ،و یتبین بهذا وجه تقیید الموته بالأولی.

و قوله:« وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ الْجَحِيمِ » الوقايه حفظ الشيء مما يؤذيه و يضره، فالمعنى:و حفظهم من عذاب الجحيم،و ذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفى الموت عنهم تتميم لقسمه المكاره أى إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار و من نشأه الجنه إلى نشأه غيرها و هو الموت و مصونون من الانتقال من حال سعيده إلى حال شقيه و هى عذاب الجحيم.

قوله تعالى:« فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »حال مما تقدم ذكره من الكرامه و النعمه،و يمكن أن يكون مفعولا مطلقا أو مفعولا له،و على أى حال هو تفضل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقا يوجب عليه تعالى و يلزمه على الإثابه فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شيء،و إنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده،و قد تقدم تفصيل القول فى هذا المعنى فى الأبحاث السابقه.

و قوله:« ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزا عظيما لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى:« فَإِنَّمٰا يَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »تفريع على جميع ما تقدم من أول السوره إلى هنا و فذلكه للجميع،و التيسير التسهيل،و الضمير للكتاب و المراد بلسان النبى ص العربيه.

و المعنى:فإنما سهلنا القرآن-أى فهم مقاصده-بالعربيه لعلهم-أى لعل قومك-يتذكرون فتكون الآيه قريبه المعنى من قوله: «إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» :الزخرف:۳.

و قيل:المراد من تيسير الكتاب بلسان النبى ص إجراؤه على لسانه و هو أمى لا يقرأ و لا يكتب ليكون آيه لصدق نبوته،و هو بعيد من سياق الفذلكه.

قوله تعالى:« فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ »كأنه متفرع على ما يتفرع على الآيه السابقه،و محصل المعنى أنا يسرناه بالعربيه رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم فى شك يلعبون و ينتظرون العذاب الذى لا مرد له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له.

فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم،و من سخيف القول قول من يقول إن فى الآيه أمرا بالمتاركه و هى منسوخه بآيه السيف.

بحث روائی

فی المجمع،:فی قوله تعالی:« أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ »:

روی سهل بن ساعد عن النبی ص أنه قال: لا تسبوا تبعا فإنه کان قد أسلم.

أقول:و روی هذا المعنی فی الدر المنثور،عن ابن عباس أیضا،و أیضا عن ابن عساکر عن عطاء بن أبی رباح عن النبی ص.

و فیه،و روی الولید بن صبیح عن أبی عبد الله(ع)قال*: إن تبعا قال للأوس و الخزرج:کونوا هاهنا حتی یخرج هذا النبی،أما أنا فلو أدرکته لخدمته و خرجت معه.

و فی الدر المنثور،أخرج أبو نعیم فی الدلائل عن عبد الله بن سلام قال"*: لم یمت تبع حتی صدق بالنبی ص-لما کان یهود یثرب یخبرونه.

أقول:و الأخبار فی أمر تبع کثیره،و فی بعضها أنه أول من کسا الکعبه.

و فی الکافی،بإسناده عن زید الشحام قال*:قال لی أبو عبد الله(ع) و نحن فی الطریق فی لیله الجمعه:اقرأ فإنها لیله الجمعه قرآنا،فقرأت« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ- يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً-وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلاّ مَنْ رَحِمَ اللّهُ »فقال أبو عبد الله(ع):نحن و الله الذی استثنی الله-فکنا نغنی عنهم.

أقول:یشیر(ع)إلی الشفاعه و قد أخذ الاستثناء عن«مولی»الأول.

و فی تفسیر القمی،ثم قال:« إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ »نزلت فی أبی جهل بن هشام،و قوله:« كَالْمُهْلِ »قال:المهل الصفر المذاب« يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ » و هو الذی قد حمی و بلغ المنتهی.

أقول:و من طرق أهل السنه أیضا روایات تؤید نزول الآیه فی أبی جهل.

(۴۵) سوره الجاثیه مکیه و هی سبع و ثلاثون آیه(۳۷)

[سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۱ الی ۱۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

حم (۱) تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَکِیمِ (۲) إِنَّ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَآیٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ (۳) وَ فِی خَلْقِکُمْ وَ مٰا یَبُثُّ مِنْ دٰابَّهٍ
آیٰاتٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۴) وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ تَصْرِیفِ اَلرِّیٰاحِ
آیٰاتٌ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۵) تِلْکَ آیٰاتُ اَللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَیْکَ بِالْحَقِّ فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَ اَللّٰهِ وَ آیٰاتِهِ یُؤْمِنُونَ (۶) وَیْلٌ لِکُلِّ أَفّٰاکٍ أَثِیمٍ (۷)
یَسْمَعُ آیٰاتِ اَللّٰهِ تُتْلیٰ عَلَیْهِ ثُمَّ یُصِرُّ مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْهٰا فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۸) وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آیٰاتِنٰا شَیْئاً اِتَّخَذَهٰا هُزُواً أُولٰئِکَ
لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۹) مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ یُغْنِی عَنْهُمْ مٰا کَسَبُوا شَیْئاً وَ لاٰ مَا اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَوْلِیٰاءَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۱۰)
هٰذٰا هُدیً وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۱۱) اَللّٰهُ اَلَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ اَلْبَحْرَ لِتَجْرِیَ اَلْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲) وَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ
(۱۳)

بیان

غرض السوره دعوه عامه علی الإنذار تفتتح بآیات الوحدانیه ثم تذکر تشریع الشریعه للنبی ص و تشیر إلی لزوم اتباعها له و لغیره بما أن أمامهم یوما یحاسبون فیه علی أعمالهم الصالحه من الإیمان و اتباع الشریعه و اجتراحهم السیئات بالإعراض عن الدین،ثم تذکر ما سیجری علی الفریقین فی ذلک الیوم و هو یوم القیامه.

و فی خلال مقاصدها إنذار و وعید شدید للمستکبرین المعرضین عن آیات الله و الذین اتخذوا إلههم هواهم و أضلهم الله علی علم.

و من طرائف مطالبها بیان معنی کتابه الأعمال و استنساخها.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها و استثنی بعضهم قوله تعالی:« قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا »الآیه،و لا شاهد له.

قوله تعالی:« حم تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ »الظاهر أن« تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ »من إضافه الصفه إلی الموصوف و المصدر بمعنی المفعول،و« مِنَ اللّٰهِ »متعلق بتنزیل،و المجموع خبر لمبتدإ محذوف.

و المعنی:هذا کتاب منزل من الله العزیز الحکیم،و قد تقدم الکلام فی مفردات الآیه فیما تقدم.

قوله تعالی:« إِنَّ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَآیٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ »آیه الشیء علامته التی تدل علیه و تشیر إلیه،و المراد بکون السماوات و الأرض فیها آیات کونها بنفسها آیات له فلیس وراء السماوات و الأرض و سائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آیه داله علیه تعالی.

و من الدلیل علی ما ذکرنا اختلاف التعبیر فیها فی کلامه تعالی فتاره یذکر أن فی الشیء آیه له و أخری یعده بنفسه آیه کقوله تعالی: «إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ

وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ لَآيٰاتٍ» :آل عمران:۱۹۰، و قوله: «وَ مِنْ آيٰاتِهِ خَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» :الروم:۲۲،و نظائرهما كثيره،و يستفاد من اختلاف التعبير الذى فيها أن معنى كون الشىء فيه آيه هو كونه بنفسه آيه كما يستفاد من اختلاف التعبير فى مثل قوله:« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ لَآيٰاتٍ »،و قوله:« إِنَّ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيٰاتٍ »الآيه،أن المراد من خلق السماوات و الأرض نفسها لا غير.

و العنايه فى أخذ الشىء ظرفا للآيه مع كونه بنفسه آيه اعتبار جهات وجوده و إن لوجوده جهه أو جهات كل واحده منها آيه من الآيات و لو أخذت نفس الشىء لم يستقم إلا أخذها آيه واحده كما فى قوله تعالى: «وَ فِي الْأَرْضِ آيٰاتٌ لِلْمُوقِنِينَ» :الذاريات:

۲۰،و لو أخذت الآيه نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال:و الأرض آيه للموقنين و ضاع المراد و هو أن فى وجود الأرض جهات كل واحده منها آيه وحدها.

فمعنى قوله:« إِنَّ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »إلخ،إن لوجود السماوات و الأرض جهات داله على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتيه إلى من يوجدها و عظمه خلقتها و بداعه تركيبها و اتصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائله و اندراج أنظمتها الجزئيه الخاصه بكل واحد تحت نظام عام يجمعها و يحكم فيها تدل على أن لها خالقا هو وحده ربها المدبر أمرها فلو لا أن هناك من يوجدها لم توجد من رأس،و لو لا أن مدبرها واحد لتناقضت النظامات و تدافعت و اختلف التدبير.

و مما تقدم يظهر أن قول بعضهم:إن قوله:« فِي السَّمٰاوٰاتِ » بتقدير مضاف محذوف و التقدير فى خلق السماوات،تكلف من غير ضروره تدعو إليه.

قوله تعالى:« وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » البث التفريق و الإثاره و بثه تعالى للدواب خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال فى خلق الإنسان:

«ثُمَّ إِذٰا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» :الروم:۲۰.

و معنى الآيه:و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرقه الله من دابه من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين.

و خلق الإنسان على كونه موجودا أرضيا له ارتباط بالماده نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات و الأرض لأنه مركب من بدن أرضى مؤلف من مواد كونيه

عنصریه تفسد بالموت بالتفرق و التلاشی و أمر آخر وراء ذلک علوی غیر مادی لا یفسد بالموت بل یتوفی و یحفظ عند الله،و هو الذی یسمیه القرآن بالروح قال تعالی: «وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی» :الحجر:۲۹،و قال بعد ذکر خلق الإنسان من نطفه ثم من علقه ثم مضغه ثم تتمیم خلق بدنه: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ» :المؤمنون:۱۴ و قال: «قُلْ یَتَوَفّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ» :الم السجده:۱۱.

فالناظر فی خلق الإنسان ناظر فی آیه ملکوتیه وراء الآیات المادیه و کذا الناظر فی خلق الدواب و لها نفوس ذوات حیاه و شعور و إن کانت دون الإنسان فی حیاتها و شعورها کما أنها دونه فی تجهیزاتها البدنیه ففی الجمیع آیات لأهل الیقین یعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شریک له فی ربوبیته و ألوهیته.

قوله تعالی:« وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ »إلی آخر الآیه هذا القبیل من الآیات آیات ما بین السماء و الأرض.

و قوله:« وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ »یرید به اختلافهما فی الطول و القصر اختلافا منظما باختلاف الفصول الأربعه بحسب بقاع الأرض المختلفه و یتکرر بتکرر السنین یدبر سبحانه بذلک أقوات أهل الأرض و یربیهم بذلک تربیه صالحه قال تعالی: «وَ قَدَّرَ فِیها أَقْواتَها فِی أَرْبَعَهِ أَیّامٍ سَواءً لِلسّائِلِینَ» :حم السجده:۱۰.

و قوله:« وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها »المراد بالرزق الذی ینزله الله من السماء هو المطر تسمیه للسبب باسم المسبب مجازا أو لأن المطر أیضا من الرزق فإن میاه الأرض من المطر،و المراد بالسماء جهه العلو أو السحاب مجازا،و إحیاء الأرض به بعد موتها هو إحیاء ما فیها من النبات بالأخذ فی الرشد و النمو،و لا یخلو التعرض للإحیاء بعد الموت من تلویح إلی المعاد.

و قوله:« وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ »أی تحویلها و إرسالها من جانب إلی جانب، لتصریفها فوائد عامه کثیره من أعمها سوق السحب إلی أقطار الأرض و تلقیح النباتات و دفع العفونات و الروائح المنتنه.

و قوله:« آیاتٌ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ »أی یمیزون بین الحق و الباطل و الحسن و القبیح بالعقل الذی أودعه الله سبحانه فیهم.

و قد خص کل قبیل من الآیات بقوم خاص فخصت آیه السماوات و الأرض

بالمؤمنین و آیه الإنسان و سائر الحیوان بقوم یوقنون،و آیه اختلاف اللیل و النهار و الأمطار و تصریف الریاح بقوم یعقلون.

و لعل الوجه فی ذلک أن آیه السماوات و الأرض تدل بدلاله بسیطه ساذجه علی أنها لم توجد نفسها بنفسها و لا عن اتفاق و صدفه بل لها موجد أوجدها مع ما لها من الآثار و الأفعال التی یتحصل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجمیع و رب الکل، و الإنسان یدرک ذلک بفهمه البسیط الساذج و المؤمنون بجمیع طبقاتهم یفهمون ذلک و ینتفعون به.

و أما أنه خلق الإنسان و سائر الدواب التی لها حیاه و شعور فإنها من حیث أرواحها و نفوسها الحیه الشاعره من عالم وراء عالم الماده و هو المسمی بالملکوت و قد خص القرآن کمال إدراکه و مشاهدته بأهل الیقین کما قال: «وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ» :الأنعام:۷۵.

و أما آیه اختلاف اللیل و النهار و الأمطار المحییه للأرض و تصریف الریاح فإنها لتنوع أقسامها و تعدد جهاتها و ارتباطها بالأرض و الأرضیات و کثره فوائدها و سعه منافعها تحتاج إلی تعقل فکری تفصیلی عمیق و لا تنال بالفهم البسیط الساذج و لذلک خصت بقوم یعقلون و الآیات آیات لجمیع الناس لکن لما کان المنتفع بها بعضهم خصت بهم.

و قد عبر عن أهل الیقین و العقل بقوم یوقنون و بقوم یعقلون و عن أهل الإیمان بالمؤمنین لأن بساطه آیه أهل الإیمان تفید أن المراد بالإیمان أصله و هو ثابت فیهم فناسب التعبیر عنهم بالوصف بخلاف آیتی أهل الیقین و العقل فإنهما لدقتهما و علو منالهما تدرکان شیئا فشیئا فناسبتا التعبیر بالفعل المضارع الدال علی الاستمرار التجددی.

و قیل فی وجه ما فی الآیات الثلاث من الترتیب بین أهلها حیث ذکر أولا أهل الإیمان ثم الإیقان ثم العقل أنه علی ترتیب الترقی فإن الإیقان مرتبه خاصه فی الإیمان فهو بعد الإیمان و العقل مدار الإیمان و الإیقان و نعنی العقل المؤید بنور البصیره فبسببه یخلص الیقین من اعتراء الشکوک من کل وجه و فی استحکامه کل خیر.و روعی فی ترتیب الآیات ما روعی فی ترتیب المراتب الثلاث. (۱)

ص: ۱۵۷

۱- ۱) هذا الوجه مستفاد من الکشاف،و ما یتلوه لصاحب الکشف،و الوجه الأخیر للرازی فی التفسیر الکبیر.

و فيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثانى بل قبل أول المراتب على أن ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصوره.

و قيل فى وجه الترتيب:أن تمام النظر فى الثانى يضطر إلى النظر فى الأول لأن السماوات و الأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله،و كذلك النظر فى الثالث يضطر إلى النظر فى الأولين أما الأول فظاهر،و أما الثانى فلأنه العله الغائيه فلا بد أن يكون جامعا أى إن الثالث و هو المعلول يتوقف فى معرفته على ذكر علته الغائيه قبله.

و فيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعنى الإيمان و الإيقان و العقل.على أن الثالث أيضا كالأول من أسباب تكون الحيوان فيجب أن يتقدم على الثانى،و بوجه آخر الثانى عله غائيه للأول فيجب أن يتقدم على الأول كما تقدم على الثالث.

و قيل:إن السبب فى ترتيب هذه الفواصل أنه قيل:إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل،و إن كنتم لستم بمؤمنين و كنتم من طلاب الجزم و اليقين فافهموا هذه الدلائل،و إن كنتم لستم بمؤمنين و لا موقنين فاجتهدوا فى معرفه هذه الدلائل.

و فيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثه على أن لازمه أن لا يختص شىء من الآيات الثلاث بواحده من الصفات الثلاث بل يكون الجميع للجميع و السياق لا يساعد عليه على أن ظاهر كلامه أنه فسر اليقين بالجزم و هو العلم فلا يبقى للعقل إلا الحكم الظنى و لا يعبأ به فى المعارف الاعتقاديه.

قوله تعالى:« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملا فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا و إن كان هناك علم،قال تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ» :النمل:۱۴،و قال: «وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلىٰ عِلْمٍ» :الجاثيه:۲۳.

و الآيات هى العلامات الداله فآيات الله الكونيه هى الأمور الكونيه الداله بوجودها الخارجى على كونه تعالى واحدا فى الخلق متصفا بصفات الكمال منزها عن كل نقص و حاجه،و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالتها عليه تعالى و لازمه الإيمان به

تعالی کما تدل هی علیه.

و الآیات القرآنیه آیات له تعالی بما تدل علی الآیات الکونیه الداله علیه سبحانه أو علی معارف اعتقادیه أو أحکام عملیه أو أخلاق یرتضیها الله سبحانه و یأمر بها فإن مضامینها داله علیه و من عنده،و الإیمان بهذه الآیات أیضا إیمان بدلالتها و یلزمه الإیمان بمدلولها.

و الآیات المعجزه أیضا إما آیات کونیه و دلالتها دلاله الآیات الکونیه و إما غیر کونیه کالقرآن فی إعجازه و مرجع دلالتها إلی دلاله الآیات الکونیه.

و قوله:« تِلْکَ آیٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَیْکَ »الإشاره إلی الآیات القرآنیه المتلوه علیه (ص)،و یمکن أن تکون إشاره إلی الآیات الکونیه المذکوره فی الآیات الثلاث السابقه بعنایه الاتحاد بین الدال و المدلول.

و قوله:« فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَ اللّٰهِ وَ آیٰاتِهِ یُؤْمِنُونَ »قیل:هو من قبیل قولک:

أعجبنی زید و کرمه،و إنما أعجبک کرمه و المعنی بحسب النظر الدقیق أعجبنی کرم زید و زید من حیث کرمه،فمعنی الآیه فبأی حدیث بعد آیات الله یعنی الآیات القرآنیه یؤمنون؟یعنی إذا لم یؤمنوا بهذا الحدیث فبأی حدیث بعده یؤمنون؟.

و قیل:الکلام بتقدیر حدیث أی إذا لم یؤمنوا فبأی حدیث بعد حدیث الله و آیاته یؤمنون،و الأنسب علی هذا المعنی أن یکون المراد بالآیات الآیات الکونیه و لذا قال الطبرسی بعد ذکر هذا المعنی:و الفرق بین الحدیث الذی هو القرآن و بین الآیات أن الحدیث قصص یستخرج منه عبر تبیین الحق من الباطل،و الآیات هی الأدله الفاصله بین الصحیح و الفاسد.انتهی و أول الوجهین ألطف.

قوله تعالی:« وَیْلٌ لِکُلِّ أَفّٰاکٍ أَثِیمٍ »الویل و الهلاک،و الأفاک مبالغه من الإفک و هو الکذب،و الأثیم من الإثم بمعنی المعصیه و المعنی:لیکن الهلاک علی کل کذاب ذی معصیه.

قوله تعالی:« یَسْمَعُ آیٰاتِ اللّٰهِ تُتْلیٰ عَلَیْهِ ثُمَّ یُصِرُّ مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْهٰا »إلخ صفه لکل أفاک أثیم،و« ثُمَّ »للتراخی الرتبی و تفید معنی الاستبعاد،و الإصرار علی الفعل ملازمته و عدم الانفکاک عنه.

و المعنى:يسمع آيات الله-و هى آيات القرآن-تقرأ عليه ثم يلازم الكفر و الحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

قوله تعالى:« وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً »إلخ،ظاهر السياق أن ضمير«اتخذها»للآيات،و جعل الهزء متعلقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله،و المعنى:و إذا علم ذلك الأفاك الأثيم المصر المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعا.

و قوله:« أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ »أى مذل مخز،و توصيف العذاب بالإهانه مقابله لاستكبارهم و استهزائهم، و الإشاره بأولئك إلى كل أفاك،و قيل فى الآيه بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها.

قوله تعالى:« مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ »إلخ،لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم و هم سائرون نحوها متوجهون إليها.

و قيل:وراءهم بمعنى قدامهم قال فى المجمع،:وراء اسم يقع على القدام و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك.انتهى و فى قوله:«من ورائهم جهنم»قضاء حتم.

و قوله:« وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً »المراد بما كسبوا ما حصلوه فى الدنيا من مال و نحوه،و تنكير« شَيْئاً »للتحقير أى و لا يغنى عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار فى الدنيا شيئا يسيرا حقيرا.

و قوله:« وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ »« ما »مصدريه و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أربابا آلهه و زعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

و قوله:« وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ »تأكيد لوعيدهم و قد أوعدهم الله سبحانه أولا بقوله:« وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ »إلخ،و ثانيا بقوله:« فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ »و ثالثا بقوله:

« أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ »و رابعا بقوله:« مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ »إلخ،و خامسا بقوله:

« وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ »،و وصف عذابهم فى خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

قوله تعالى:« هذا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ »

ص :۱۶۰

الإشاره بقوله:« هٰذٰا هُدیً »إلی القرآن و وصفه بالهدی للمبالغه نحو زید عدل و الرجز -کما قیل-أشد العذاب و أصله الاضطراب.

و الآیه فی مقام الرد لما رموا به القرآن و عدوه مهانا بالهزء و السخریه و خلاصه وعید من کفر بآیاته.

قوله تعالی:« اَللّٰهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ »إلخ،لما ذکر سبحانه حال الأفاکین من الاستکبار عن الإیمان بالآیات إذا تلیت علیهم و الاستهزاء بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإیعاد بأشد العذاب رجع إلیهم بخطاب الجمیع ممن یؤمن و یکفر،و ذکر بعض آیات ربوبیته التی فیها من عظیم علیهم و لیس فی وسعهم إنکارها فذکر أولاً تسخیر البحر لهم ثم ما فی السماوات و الأرض جمیعا ففیها آیات لا یکفر بها إلا من انسلخ عن الفطره الإنسانیه و نسی التفکر الذی هو من أجلی خواص الإنسان.

فقوله:« اَللّٰهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ »اللام فی« لَکُمُ »للغایه أی سخر لأجلکم البحر بأن خلقه علی نحو یحمل الفلک و یقبل أن تجری فیه فینتفع به الإنسان،و یمکن أن تکون للتعدیه فیکون الإنسان یسخر البحر بإذن الله.

و قوله:« لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ »غایه لتسخیر البحر،و جریان الفلک فیه بأمره،هو إیجاد الجریان بکلمه کن فآثار الأشیاء کنفس الأشیاء منسوبه إلیه تعالی و قوله:« وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »أی و لتطلبوا برکوبه عطیته تعالی و هو رزقه.

و قوله:« وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ »أی رجاء أن تشکروه تعالی قبال هذه النعمه التی هی تسخیر البحر.

قوله تعالی:« وَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ »إلخ،هذا من الترقی بعطف العام علی الخاص، و الکلام فی« لَکُمْ »کالکلام فی مثله فی الآیه السابقه،و قوله:« جَمِیعاً »تأکید لما فی السماوات و الأرض أو حال منه.

و قوله:« سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً »معنی تسخیرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجری علی نظام واحد یحکم فیها و یربط بعضها ببعض و یربط

الجمیع بالإنسان فینتفع فی حیاته من علویها و سفلیها و لا یزال المجتمع البشری یتوسع فی الانتفاع بها و الاستفاده من توسیطها و التوسل بشتاتها فی الحصول علی مزایا الحیاه فالکل مسخر له.

و قوله:« مِنْهُ »من للابتداء،و الضمیر لله تعالی و هو حال مما فی السماوات و الأرض،و المعنی:سخر لکم ما فی السماوات و الأرض جمیعا حال کونه مبتدأ منه حاصلا من عنده فذوات الأشیاء تبتدئ منه بإیجاده لها من غیر مثال سابق و کذلک خواصها و آثارها بخلقه و من خواصها و آثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجاری فیها المرتبط بالإنسان قال تعالی: «اللّٰهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ» :الروم:۱۱،و قال:

«إِنَّهُ هُوَ یُبْدِئُ وَ یُعِیدُ» :البروج:۱۳.

و قد ذکروا لقوله:« مِنْهُ »معانی أخر لا یخلو شیء منها عن التکلف ترکنا التعرض لها.

و قوله:« إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ »وجه تعلقها بالتفکر ظاهر.

[سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۱۴ الی ۱۹]

اشاره

قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا لِلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ أَیّٰامَ اَللّٰهِ لِیَجْزِیَ قَوْماً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۱۴) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَیْهٰا ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵) وَ لَقَدْ آتَیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحُکْمَ وَ اَلنُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَی اَلْعٰالَمِینَ (۱۶) وَ آتَیْنٰاهُمْ بَیِّنٰاتٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ فِیمٰا کٰانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلیٰ شَرِیعَهٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ اَلَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ یُغْنُوا عَنْکَ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً وَ إِنَّ اَلظّٰالِمِینَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ وَ اَللّٰهُ وَلِیُّ اَلْمُتَّقِینَ (۱۹)

بیان

لما ذكر آيات الوحدانيه و أشار فيها بعض الإشاره إلى المعاد و كذا إلى النبوه فى ضمن ذكر تنزيل الكتاب و إيعاد المستكبرين المستهزءين به ذكر فى هذه الآيات تشريع الشريعه للنبى ص،و توسل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من الكلام إحداهما دعوه المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا يرجون أيام الله فإن الله مجازيهم لأن الأعمال مسئول عنها صالحه أو طالحه،و هذا هو السبب لتشريع الشريعه، و الثانيه:أن إنزال الكتاب و الحكم و النبوه ليس ببدع فقد آتى الله بنى إسرائيل الكتاب و الحكم و النبوه و آتاهم البينات التى لا يبقى معها فى دين الله ريب لمرتاب إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغيا منهم و سيقضى الله بينهم.

ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعه له و أمره باتباعها و نهاه عن اتباع أهواء الجاهلين.

قوله تعالى:« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اللّٰهِ »إلخ،أمر منه تعالى لنبيه(ص)أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآيه:قل لهم:

اغفروا يغفروا فهى كقوله تعالى: «قُلْ لِعِبٰادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاٰةَ» إبراهيم:۳۱.

و الآيه مكيه واقعه فى سياق الآيات السابقه الواصفه لحال المستكبرين المستهزءين بآيات الله المهدده لهم بأشد العذاب و كان المؤمنين بالنبى ص كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزءين يبالغون فى طعنهم و إهانتهم للنبى و استهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله و من أرسله به و يدعوهم إلى رفض ما هم فيه و الإيمان مع كونهم ممن حقت عليهم كلمه العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقه،فأمر الله سبحانه نبيه ص أن يأمرهم بالعفو و الصفح عنهم و عدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم

سيلحق بهم و جزاء ما كسبوه سينالهم.

و على هـذا فالمراد بالمغفره فى قوله:« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا »الصـفح و الإعراض عنهم بترك مخاصـمتهم و مجادلتهم،و المراد بالـذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا فى الآيات السابقه فإنهم لا يتوقعون لله أياما لا حكم فيها و لا ملك إلا له تعالى كيوم الموت و البرزخ و يوم القيامه و يوم عذاب الاستئصال.

و قوله:« لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »تعليـل للأمر بالمغفره أو للأمر بالأمر بالمغفره و محصله ليصـفحوا عنهم و لا يتعرضوا لهم،فلا حاجه إلى ذلك لأن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآيه نظيره قوله: «وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَ جَحِيماً» :المزمل:۱۲،و قوله: «ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» الأنعام:۹۱ و قوله: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» :المعارج:۴۲،و قوله: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» :الزخرف:۸۹.

و معنى الآيه:مر الـذين آمنـوا أن يعفوا و يصـفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزءين بآيـات الله الـذين لا يتوقعون أيـام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون و يوم الجزاء يوم من أيامه أى ليصـفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم فى يوم من أيامه.

و فى قوله:« لِيَجْزِيَ قَوْماً »وضع الظاهر موضع الضـمير،و كان مقتضـى الظاهر أن يقال:ليجزيهم،و النكته فيه مع كون« قَوْماً »نكره غير موصوفه تحقير أمرهم و عدم العنايه بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم و لا يهتم بشىء من أمرهم.

و بما تقدم من تقرير معنى الآيه تتصل الآيه و ما بعدها بما قبلها و تندفع الإشكالات التى أوردوها عليها و اهتموا بالجواب عنها،و يظهر فساد المعانى المختلفه التى ذكروها لها و من أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

قوله تعـالى:« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » فى موضع التعليل لقوله:« لِيَجْزِيَ قَوْماً »إلـخ،و لـذا لم يعطف و ليس من الاستئناف فى شىء.

و محصل المعنى:ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى و بلا أثر

بل من عمل صالحا انتفع به و من أساء العمل تضرر به ثم إلى ربكم ترجعون فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ »إلخ،لما بين أن للأعمال آثارا حسنه أو سيئه تلحق صاحبيها أراد التنبيه على تشريع شريعه للنبى ص إذ كان على الله سبحانه أن يهدى عباده إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى: «وَ عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ» :النحل:٩.

فنبه على ذلك بقوله الآتى:« ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ »إلخ،و قدم على ذلك الإشاره إلى ما آتى بنى إسرائيل من الكتاب و الحكم و النبوه و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم و إيتائهم البينات ليؤذن به أن الإفاضه الإلهيه بالشريعه و النبوه و الكتاب ليست ببدع لم يسبق إليه بل لها نظير فى بنى إسرائيل و هم بمرآهم و مسمعهم.

فقوله:« وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ »المراد بالكتاب التوراه المشتمله على شريعه موسى(ع)و أما الإنجيل فلا يتضمن الشريعه و شريعته شريعه التوراه،و أما زبور داود فهى أدعيه و أذكار،و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراه و الإنجيل و الزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق فى القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعه.

و المراد بالحكم بقرينه ذكره مع الكتاب ما يحكم و يقضى به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: «وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» :البقره:٢١٣، و قال فى التوراه: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللّهِ» :المائده:۴۴،فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوه من لوازمه.

و المراد بالنبوه معلوم و قد بعث الله من بنى إسرائيل جما غفيرا من الأنبياء كما فى الأخبار و قص فى كتابه جماعه من رسلهم.

و قوله:« وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ »أى طيبات الرزق و من ذلك المن و السلوى.

و قوله:« وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ »إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثره الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيره الظاهره من أنبيائهم،و إن كان المراد عالمى زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى:« وَ آتَيْنٰاهُمْ بَيِّنٰاتٍ مِنَ الْأَمْرِ »إلى آخر الآيه المراد بالبينات الآيات البينات التى تزيل كل شك و ريب و تمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفريع قوله:« فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ ».

و المراد بالأمر قيل:هو أمر الدين،و« مِنَ »بمعنى فى و المعنى:و أعطيناهم دلائل بينه فى أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى(ع).

و قيل:المراد به أمر النبى ص و المعنى:آتيناهم آيات من أمر النبى و علامات مبينه لصدقه كظهوره فى مكه و مهاجرته منها إلى يثرب و نصره أهله و غير ذلك مما كان مذكورا فى كتبهم.

و قوله:« فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ »يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف فى الدين و اختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهه أو جهل و إنما أوجدها علماؤهم بغيا و كان البغى دائرا بينهم.

و قوله:« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »إشاره إلى أن اختلافهم الذى لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضى الله بينهم يوم القيامه فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم.

قوله تعالى:« ثُمَّ جَعَلْنٰاكَ عَلىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ »الخطاب للنبى ص و يشاركه فيه أمته،و الشريعه طريق ورود الماء و الأمر أمر الدين،و المعنى:بعد ما آتينا بنى إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقه خاصه من أمر الدين الإلهى و هى الشريعه الإسلاميه التى خص الله بها النبى ص و أمته.

و قوله:« فَاتَّبِعْهٰا »إلخ،أمر للنبى ص باتباع ما يوحى إليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفه للدين الإلهى.

و يظهر من الآيه أولا:أن النبى ص مكلف بالدين كسائر الأمه.

و ثانيا:أن كل حكم عملى لم يستند إلى الوحى الإلهى و لم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم.

قوله تعالى:« إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً »إلخ،تعليل للنهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون،و الإغناء من شىء رفع الحاجه إليه،و المحصل: أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضروريه لا يرفعها إلا هو و الذريعه إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا

يغنى عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئا من الأشياء إليها الحاجه أو لا يغنى شيئا من الإغناء.

و قوله:« وَ إِنَّ الظّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ »الذى يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهى عن اتباع أهواء الجاهلين،و أن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعه و بالمتقين المتبعون لدين الله.

و المعنى:أن الله ولى الذين يتبعون دينه لأنهم متقون و الله وليهم،و الذين يتبعون أهواء الجهله ليس هو تعالى وليا لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون و الظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك وليا و لا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئا.

و تسميه المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: «أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ كافِرُونَ» الأعراف:۴۵.

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۲۰ الى ۳۷]

اشاره

هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰) أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ اِجْتَرَحُوا اَلسَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اَللّهُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اَللّهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَهً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اَللّهِ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۲۳) وَ قالُوا ما هِيَ إِلاّٰ حَياتُنَا اَلدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلاَّ اَلدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قالُوا اِئْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۵) قُلِ اَللّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيامَهِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّاعَهُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ اَلْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرىٰ كُلَّ أُمَّهٍ جاثِيَهً كُلُّ أُمَّهٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتابِهَا اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْمُبِينُ (۳۰) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (۳۱) وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ وَ اَلسّاعَهُ لاٰ رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا اَلسّاعَهُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِيلَ اَلْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا وَ مَأْواكُمُ اَلنّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۴) ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اِتَّخَذْتُمْ آياتِ اَللّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ اَلْحَياهُ اَلدُّنْيا فَالْيَوْمَ لاٰ يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلّهِ اَلْحَمْدُ رَبِّ اَلسَّماواتِ وَ رَبِّ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعالَمِينَ (۳۶) وَ لَهُ اَلْكِبْرِياءُ فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۳۷)

بیان

لما أشار إلى جعل النبى ص على شريعه من الأمر و هو تشريع الشريعه الإسلاميه أشار فى هذه الآيات إلى أنها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن يسلكوه من سبيل الحياه الطيبه فى الدنيا و تتلوها سعاده الحياه الآخره،و هدى و رحمه لقوم يوقنون بآيات الله.

و أشار إلى أن الذى يدعو مجترحى السيئات أن يستنكفوا عن التشرع بالشريعه إنكارهم المعاد فيحسبون أنهم و المتشرعون بالدين سواء فى الحياه و الممات و أن لا أثر للتشرع بالشريعه فلا ثمره للعمل الصالح الذى تهدى إليه الشريعه إلا إتعاب النفس بالتقيد من غير موجب.فبرهن تعالى على بطلان حسبانهم بإثبات المعاد ثم أردفه بوصف المعاد و ما يثيب به الصالحين يومئذ و ما يعاقب به الطالحين أهل الجحود و الاجرام،و عند ذلك تختتم السوره بالتحميد و التسبيح.

قوله تعالى:« هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »الإشاره بهذا إلى الأمر المذكور الذى هو الشريعه أو إلى القرآن بما يشتمل على الشريعه،و البصائر جمع بصيره و هى الإدراك المصيب للواقع،و المراد بها ما يبصر به،و إنما كانت الشريعه بصائر لأنها تتضمن أحكاما و قوانين كل منها يهدى إلى واجب العمل فى سبيل السعاده.

و المعنى:هذه الشريعه المشرعه أو القرآن المشتمل عليها وظائف عمليه يتبصر بكل منها الناس و يهتدون إلى السبيل الحق و هو سبيل الله و سبيل السعاده،فقوله بعد ذكر تشريع الشريعه:« هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ »كقوله بعد ذكر آيات الوحدانيه فى أول السوره:« هٰذا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا »إلخ.

و قوله:« وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »أى دلاله واضحه و إفاضه خير لهم، و المراد بقوم يوقنون:الذين يوقنون بآيات الله الداله على أصول المعارف فإن المعهود فى

القرآن تعلق الإيقان بالأصول الاعتقاديه.

و تخصيص الهدى و الرحمه بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر،و بالرحمه الرحمه الخاصه بمن اتقى و آمن برسوله بعد الإيمان بالله،قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ» الحديد:٢٨،و قال: «ذٰلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ -Xإلى أن قالX- وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» :البقره:٤،و للرحمه درجات كثيره تختلف سعه و ضيقا ثم للرحمه الخاصه بأهل الإيمان أيضا مراتب مختلفه باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبه من مراتبه ما يناسبها منها.

و أما الرحمه بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن بما يشتمل على الشريعه رحمه للناس كافه كما أن الرسول المبعوث به رحمه لهم جميعا،قال تعالى: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» :الأنبياء:١٠٧،و قد أوردنا بعض الكلام فى هذا المعنى فى بعض المباحث السابقه.

قوله تعالى:« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ »إلخ،قال فى الجمع،: الاجتراح الاكتساب،يقال:

جرح و اجترح و كسب و اكتسب و أصله من الجراح لأن لذلك تأثيرا كتأثير الجراح.

قال:و السيئه الفعله القبيحه التى يسوء صاحبها باستحقاق الذم عليها.انتهى.

و الجعل بمعنى التصيير،و قوله:« كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ »فى محل المفعول الثانى للجعل،و التقدير كائنين كالذين آمنوا،إلخ.

و جزم الزمخشرى فى الكشاف على كون الكاف فى« كَالَّذِينَ »اسما بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله:« نَجْعَلَهُمْ »،و قوله:« سَواءً »بدلا منه.

و قوله:« سَواءً »بالنصب على القراءه الدائره و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى مستويا أو متساويا،و قوله:« مَحْياهُمْ »مصدر ميمى و فاعل« سَواءً »و ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين،و« مَماتُهُمْ »معطوف على« مَحْياهُمْ »و حاله كحاله.

و الآيه مسوقه سوق الإنكار و« أَمْ »منقطعه،و المعنى:بل أ حسب و ظن الذين يكتسبون السيئات أن نصيرهم مثل الذين آمنوا و عملوا الصالحات مستويا محياهم

و مماتهم أی تكون حیاه هؤلاء كحیاه أولئك و موتهم كموتهم فیكون الإیمان و التشرع بالدین لغوا لا أثر له فی حیاه و لا موت و یستوی وجوده و عدمه.

و قوله:« سٰاءَ مٰا یَحْكُمُونَ »رد لحسبانهم المذكور و حكمهم بالمماثله بین مجترحی السیئات و الذین آمنوا و عملوا الصالحات و مساءه الحكم كنایه عن بطلانه.

فالفریقان لا یتساویان فی الحیاه و لا فی الممات.

أما أنهما لا یتساویان فی الحیاه فلأن الذین آمنوا و عملوا الصالحات فی سلوكهم مسلك الحیاه علی بصیره من أمرهم و هدی و رحمه من ربهم كما ذكره سبحانه فی الآیه السابقه و المسیء صفر الكف،من ذلک و قال تعالی فی موضع آخر: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰایَ فَلاٰ یَضِلُّ وَ لاٰ یَشْقیٰ وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْكاً» :طه:۱۲۴،و قال فی موضع آخر: «أَ وَ مَنْ كٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» :الأنعام:۱۲۲.

و أما أنهما لا یتساویان فی الممات فلأن الموت كما ینطق به البراهین الساطعه لیس انعداما للشیء و بطلانا للنفس الإنسانیه كما یحسبه المبطلون بل هو رجوع إلی الله سبحانه و انتقال من نشأه الدنیا إلی نشأه الآخره التی هی دار البقاء و عالم الخلود یعیش فیها المؤمن الصالح فی سعاده و نعمه و غیره فی شقاء و عذاب.

و قد أشار سبحانه إلیه فیما تقدم من كلامه بقوله:« كَذٰلِكَ یُحْیِ اللّٰهُ الْمَوْتیٰ » و قوله:« ثُمَّ إِلیٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »و غیر ذلک،و سیتعرض له بقوله:« وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ »إلخ.

و الآیه من حیث تركیب ألفاظها و المعنی المتحصل منها من معارک الآراء بین المفسرین و قد ذكروا لها محامل كثیره و الذی یعطیه السیاق و یساعد علیه هو ما قدمناه و لا كثیر فائده فی التعرض لوجوه أخر ذكروها فمن أراد الاطلاع علیها فلیراجع المطولات.

قوله تعالی:« وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزیٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ »الظاهر أن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و الباء فی« بِالْحَقِّ »للملابسه فكون خلق العالم بالحق كونه حقا لا باطلا و لعبا و هو أن یكون لهذا العالم الكائن الفاسد غایه ثابته باقیه وراءه.

و قوله:« وَ لِتُجْزیٰ »إلخ،عطف علی« بِالْحَقِّ »و الباء فی قوله:« بِمٰا كَسَبَتْ »

للتعديه أو للمقابله أى لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعه فالثواب و إن كان معصيه فالعقاب،و قوله:« وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ »حال من كل نفس أى و لتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل.

فيئول معنى الآيه إلى مثل قولنا و خلق الله السماوات و الأرض بالحق و بالعدل فكون الخلق بالحق يقتضى أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات و كون الخلق بالعدل يقتضى أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا و المسىء يجزى جزاء سيئا و إذ ليس ذلك فى هذه النشأه ففى نشأه أخرى.

و بهذا البيان يظهر أن الآيه تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أشير إليه بقوله:

« وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ »و يسلك من طريق الحق،و الثانيه ما أشير إليه بقوله:« وَ لِتُجْزىٰ »إلخ،و يسلك من طريق العدل.

فتئول الحجتان إلى ما يشتمل عليه قوله: «وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّٰارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ» :_ص:٢٨.

و الآيه بما فيها من الحجه تبطل حسبانهم أن المسىء كالمحسن فى الممات فإن حديث المجازاه بالثواب و العقاب على الطاعه و المعصيه يوم القيامه ينفى تساوى المطيع و العاصى فى الممات،و لازم ذلك إبطال حسبانهم أن المسىء كالمحسن فى الحياه فإن ثبوت المجازاه يومئذ يقتضى وجوب الطاعه فى الدنيا و المحسن على بصيره من الأمر فى حياته يأتى بواجب العمل و يتزود من يومه لغده بخلاف المسىء العائش فى عمى و ضلال فليسا بمتساويين.

قوله تعالى:« أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ »إلى آخر الآيه ظاهر السياق أن قوله:« أَ فَرَأَيْتَ »مسوق للتعجيب أى أ لا تعجب ممن حاله هذا الحال؟ و المراد بقوله:« اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ »حيث قدم« إِلٰهَهُ »على« هَوٰاهُ »إنه يعلم أن له إلها يجب أن يعبده-و هو الله سبحانه-لكنه يبدله من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه،و لذلك عقبه بقوله:« وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ » أى أنه ضال عن السبيل و هو يعلم.

و معنى اتخاذ الإله العباده و المراد بها الإطاعه فإن الله سبحانه عد الطاعه عباده كما فى قوله: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ

اعْبُدُونِي» :يس:۶۱،و قوله: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ» التوبه:۳۱،و قوله: «وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ» :آل عمران:۶۴.

و الاعتبار يوافقه إذ ليست العباده إلا إظهار الخضوع و تمثيل أن العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلا ما أراده و رضيه معبوده فمن أطاع شيئا فقد اتخذه إلها و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه و لا طاعه إلا لله أو من أمر بطاعته.

فقوله:« أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ »أى أ لا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته و اتباعه و هو يعلم أن له إلها غيره يجب أن يعبده و يطيعه لكنه يجعل معبوده و مطاعه هو هواه.

و قوله:« وَ أَضَلَّهُ اللّهُ عَلىٰ عِلْمٍ »أى هو ضال بإضلال منه تعالى يضله به مجازاه لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقرا على علم هذا الضال،و لا ضير فى اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما فى قوله تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ» :النمل:

۱۴ و ذلک أن العلم لا يلازم الهدى و لا الضلال يلازم الجهل بل الذى يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء و أما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال و إن كان معه علم.

و أما قول بعضهم:إن المراد بالعلم هو علمه تعالى و المعنى:و أضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق.

و قوله:« وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً »كالعطف التفسيرى لقوله:« وَ أَضَلَّهُ اللّهُ عَلىٰ عِلْمٍ »و الختم على السمع و القلب هو أن لا يسمع الحق و لا يعقله، و جعل الغشاوه على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله و محصل الجميع:أن لا يترتب على السمع و القلب و البصر أثرها و هو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه و اتباع للهوى،و قد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافى العلم به إذا لم يكن هناک التزام بمقتضاه.

و قوله:« فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّهِ »الضمير لمن اتخذ إلهه هواه و التفريع على ما تحصل من حاله أى إذا كان حاله هذا الحال و قد أضله الله على علم إلخ،فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادى دونه قال تعالى: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدىٰ» :البقره:۱۲۰ و قال: «وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ» :المؤمن:۳۳.

و قوله:« أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ »أی أ فلا تتفكرون فی حاله فتتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا.

قوله تعالى:« وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ » إلى آخر الآيه،قال الراغب: الدهر فی الأصل اسم لمده العالم من مبدإ وجوده إلى انقضائه،و على ذلك قوله تعالى:« هَلْ أَتىٰ عَلَى الْإِنْسٰانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »ثم يعبر به عن كل مده كثيره،و هو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المده القليله و الكثيره.انتهى.

و الآيه على ما يعطيه السياق-سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد-حكايه قول المشركين فی إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسبين للحوادث وجودا و عدما إلى الدهر المنكرين للمبدإ و المعاد جميعا إذا لم يسبق لهم ذكر فی الآيات السابقه.

فقولهم:« مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا »الضمير للحياه أی لا حياه لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياه وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهی من البعث و الحياه الآخره،و هذا هو القرينه المؤيده لأن يكون المراد بقوله:« نَمُوتُ وَ نَحْيٰا »يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنسانی بموت الأسلاف و حياه الأخلاف و يؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده:« وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ »المشعر بالاستمرار.

فالمعنى:و قال المشركون:ليست الحياه إلا حياتنا الدنيا التی نعيش بها فی الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان-الذی بمروره يبلی كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حی-فليس الموت انتقالا من دار إلى دار منتهيا إلى البعث و الرجوع إلى الله.

و لعل هذا كلام بعض الجهله من وثنيه العرب و إلا فالعقيده الدائره بين الوثنيه هی التناسخ و هو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان أخرى جديده فإن كانت النفس المفارقه اكتسبت السعاده فی بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تتنعم فيه و تسعد،و إن كانت اكتسبت الشقاء فی البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه و تعذب جزاء لعملها السيئ و هكذا،و هؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياه إلى وساطه الملائكه.

ص:۱۷۴

و لهـذا أعنى كـون القول بالتناسـخ دائرا بين الوثنيه ذكر بعض المفسـرين أن المراد بالآيه قولهم بالتناسـخ،و المعنى:« مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الـدُّنْيَا »فلسـنا نخرج من الـدنيا أبـدا« نَمُوتُ »عن حياه دنيا« وَ نَحْيَا »بعـد الموت بالتعلق ببدن جديد و هكذا« وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ».

و هـذا لا يخلو من وجه لكن لا يلائمه قولهم المنقول ذيلا: « وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الـدَّهْرُ » إلا أن يوجه بأن مرادهم من نسـبه الإهلاك إلى الـدهر كون الـدهر وسـيله يتوسـل بهـا الملـك الموكل على الموت إلى الإماته،و كـذا لا تلائمه حجتهم المنقوله ذيلا:« اِئْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »الظاهره فى أنهم يرون آباءهم معدومين باطلى الذوات.

و ذكر فى معنى الآيه وجوه أخر لا يعبأ بها كقول بعضهم:المعنى نكون أمواتا لا حياه فيها و هو قبل ولوج الروح ثم نحيا بولوجها على حد قوله تعالى: «وَ كُنْتُمْ أَمْوٰاتاً فَأَحْيٰاكُمْ» :البقره:٢٨.

و قول بعضهم:المراد بالحياه بقاء النسل مجازا،و المعنى:نموت نحن و نحيا ببقاء نسلنا.إلى غير ذلك مما قيل.

و قوله:« وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ »أى إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم و إنما هو ظن يظنونه و ذلك أنهم لا دليل لهم يدل على نفى المعاد مع ما هناك من الأدله على ثبوته.

قوله تعـالى:« وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا ائْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »تأكيـد لكون قولهم بنفى المعاد و حصر الحياه فى الحياه الدنيا قولا بغير علم.

و المراد بالآيات البينات الآيات المشـتمله على الحجـج المثبته للمعاد و كونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك،و تسـميه قولهم:« اِئْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ » مع كونه اقتراحا جزافيا بعـد قيام الحجه إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الـدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل:ما كانت حجتهم إلا اللاحجه.

و المعنى:و إذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشـتمله على الحجـج المثبته للمعاد و الحال أنها واضـحات الـدلاله على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول و هو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين.

قوله تعالى:« قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ -إلى قوله- وَ الْأَرْضِ »ما ذكر من اقتراحهم الحجه على مطلوب قامت عليه الحجه و إن كان اقتراحا جزافيا لا يستدعى شيئا من الجواب لكنه سبحانه أمر نبيه ص أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذى كانوا يستبعدونه.

و محصله:أن الذى يحييكم لأول مره ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامه الذى لا ريب فيه هو الله سبحانه و لله ملك السماوات و الأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه و يتصرف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامه و القضاء بينكم ثم الجزاء،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ »قال الراغب: الخسر و الخسران انتقاص رأس المال و ينسب ذلك إلى الإنسان فيقال:خسر فلان،و إلى الفعل فيقال:خسرت تجارته،قال تعالى:« تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خٰاسِرَةٌ »و يستعمل ذلك فى المقتنيات الخارجيه كالمال و الجاه فى الدنيا و هو الأكثر،و فى المقتنيات النفسيه كالصحه و السلامه و العقل و الإيمان و الثواب و هو الذى جعله الله تعالى الخسران المبين.

قال:و كل خسران ذكره الله تعالى فى القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الماليه و التجارات البشريه.

و قال:و الإبطال يقال فى إفساد الشىء و إزالته سواء كان ذلك الشىء حقا أو باطلا قال تعالى:« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبٰاطِلَ »و قد يقال فيمن يقول شيئا لا حقيقه له نحو« وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ »،و قوله تعالى:

« خَسِرَ هُنٰالِكَ الْمُبْطِلُونَ »أى الذين يبطلون الحق.انتهى.

و الأشبه أن يكون المراد بقيام الساعه فعليه ما يقع فيها من البعث و الجمع و الحساب و الجزاء و ظهوره،و بذلك صح جعل الساعه مظروفا لليوم و هما واحد، و الأشبه أن يكون قوله:« يَوْمَئِذٍ »تأكيدا لقوله:« يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ ».

و المعنى:و يوم تقوم الساعه و هى يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق و عدلوا عنه.

قوله تعالى:« وَ تَرىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا »إلخ، الجثو البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع.

و الخطاب عام لكل من يصح منه الرؤيه و إن كان متوجها إلى النبى ص و المراد بالدعوه إلى الكتاب الدعوه إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهاده قوله بعده:« اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ».

و المعنى:و ترى أنت و غيرك من الرائين كل أمه من الأمم جالسه على الجثو جلسه الخاضع الخائف كل أمه منهم تدعى إلى كتابها الخاص بها و هى صحيفه الأعمال و قيل لهم:« اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ».

و يستفاد من ظاهر الآيه أن لكل أمه كتابا خاصا بهم كما أن لكل إنسان كتابا خاصا به قال تعالى: «وَ كُلَّ إِنْسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ كِتٰاباً يَلْقٰاهُ مَنْشُوراً» :إسراء:١٣.

قوله تعالى:« هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » قال فى الصحاح:و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كله بمعنى،و النسخه اسم المنتسخ منه.انتهى،و قال الراغب: النسخ إزاله الشىء بشىء يتعقبه كنسخ الشمس الظل و نسخ الظل الشمس و الشيب الشباب-إلى أن قال-و نسخ الكتاب نقل صورته المجرده إلى كتاب آخر و ذلك لا يقتضى إزاله الصوره الأولى بل يقتضى إثبات مثلها فى ماده أخرى كاتخاذ نقش الخاتم فى شموع كثيره،و الاستنساخ التقدم بنسخ الشىء و الترشح للنسخ.انتهى.

و مقتضى ما نقل أن المفعول الذى يتعدى إليه الفعل فى قولنا:استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه،و لازم ذلك أن تكون الأعمال فى قوله:« إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »كتابا و أصلا و إن شئت فقل:فى أصل و كتاب يستنسخ و ينقل منه و لو أريد به ضبط الأعمال الخارجيه القائمه بالإنسان بالكتابه لقيل:إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكته تستدعى فرض هذه الأعمال كتابا و أصلا يستنسخ، و لا دليل على كون«يستنسخ»بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم.

و لازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجيه بما أنها فى اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ و تكون

صحیفه الأعمال صحیفه الأعمال و جزء من اللوح المحفوظ،و یکون معنی کتابه الملائکه للأعمال تطبیقهم ما عندهم من نسخه اللوح علی الأعمال.

و هذا هو المعنی الذی وردت به الروایه من طرق الشیعه عن الصادق(ع)و من طرق أهل السنه عن ابن عباس،و سیوافیک فی البحث الروائی التالی.

و علی هذا فقوله:« هٰذٰا کِتٰابُنٰا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ »من کلامه تعالی لا من کلام الملائکه،و هو من خطابه تعالی لأهل الجمع یوم القیامه یحکیه لنا فیکون فی معنی:

«و یقال لهم هذا کتابنا»إلخ.

و الإشاره بهذا-علی ما یعطیه السیاق-إلی صحیفه الأعمال و هی بعینها إشاره إلی اللوح المحفوظ علی ما تقدم و إضافه الکتاب إلیه تعالی نظرا إلی أنه صحیفه الأعمال من جهه أنه مکتوب بأمره تعالی و نظرا إلی أنه اللوح المحفوظ من جهه التشریف و قوله:« یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ »أی یشهد علی ما عملتم و یدل علیه دلاله واضحه ملابسا للحق.

و قوله:« إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »تعلیل لکون الکتاب ینطق علیهم بالحق أی إن کتابنا هذا دال علی عملکم بالحق من غیر أن یتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحیط بأعمالکم بجمیع جهاتها الواقعیه.

و لو لا أن الکتاب یریهم أعمالهم بنحو لا یداخله شک و لا یحتمل منهم التکذیب لکذبوه،قال تعالی: «یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً» :آل عمران:۳۰.

و للقوم فی الآیه أقوال أخر:

منها ما قیل:إن الآیه من کلام الملائکه لا من کلام الله و معنی الاستنساخ الکتابه و المعنی:هذا أی صحیفه الأعمال کتابنا معشر الملائکه الکاتبین للأعمال یشهد علیکم بالحق إنا کنا نکتب ما کنتم تعملون.

و فیه أن کونه من کلام الملائکه بعید من السیاق علی أن کون الاستنساخ بمعنی مطلق الکتابه لم یثبت لغه.

و منها:أن الآیه من کلام الله،و الإشاره بهذا إلی صحیفه الأعمال،و قیل:إلی اللوح المحفوظ،و الاستنساخ بمعنی الاستکتاب مطلقا.

قوله تعالی:« فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَیُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ »تفصیل حال الناس یومئذ بحسب اختلافهم بالسعاده و الشقاء و الثواب و العقاب،و السعداء المثابون هم الذین آمنوا و عملوا الصالحات،و الأشقیاء المعاقبون هم الذین کفروا من المستکبرین المجرمین.

و المراد بالرحمه الإفاضه الإلهیه تسعد من استقر فیها و منها الجنه،و الفوز المبین الفلاح الظاهر،و الباقی واضح.

قوله تعالی:« وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا أَ فَلَمْ تَکُنْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فَاسْتَکْبَرْتُمْ وَ کُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِینَ »المراد بالذین کفروا المتلبسون بالکفر عن تکذیب و جحود بشهاده قوله:« أَ فَلَمْ تَکُنْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فَاسْتَکْبَرْتُمْ »إلخ.

و الفاء فی« أَ فَلَمْ تَکُنْ »للتفریع فتدل علی مقدر متفرع علیه هو جواب لما،و التقدیر:فیقال لهم أ لم تکن آیاتی تتلی علیکم،و المراد بالآیات الحجج الإلهیه الملقاه إلیهم عن وحی و دعوه،و المجرم هو المتلبس بالأجرام و هو الذنب.

و المعنی:و أما الذین کفروا جاحدین للحق مع ظهوره فیقال لهم توبیخا و تقریعا:

أ لم تکن حججی تقرأ و تبین لکم فی الدنیا فاستکبرتم عن قبولها و کنتم قوما مذنبین.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا قِیلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ السّٰاعَهُ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا قُلْتُمْ مٰا نَدْرِی مَا السّٰاعَهُ »إلخ،المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعث و الجزاء فیکون قوله:« وَ السّٰاعَهُ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا »من عطف التفسیر،و یمکن أن یراد بالوعد المعنی المصدری.

و قولهم:« مٰا نَدْرِی مَا السّٰاعَهُ »معناه أنه غیر مفهوم لهم و الحال أنهم أهل فهم و درایه فهو کنایه عن کونه أمرا غیر معقول و لو کان معقولا لدروه.

و قوله:« إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَیْقِنِینَ »أی لیست مما نقطع به و نجزم بل نظن ظنا لا یسعنا أن نعتمد علیه،ففی قولهم:« مٰا نَدْرِی مَا السّٰاعَهُ »إلخ،غب ما تلیت علیهم من الآیات البینه أفحش المکابره مع الحق.

قوله تعالی:« وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ » إضافه السیئات إلی ما عملوا بیانیه أو بمعنی من،و المراد بما عملوا جنس ما عملوا أی

ظهر لهم أعمالهم السيئه أو السيئات من أعمالهم فالآيه فی معنی قوله: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ» :آل عمران:۳۰.

فالآيه من الآيات الداله علی تمثل الأعمال،و قيل:إن فی الكلام حذفا و التقدير:

و بدا لهم جزاء سيئات ما عملوا.

و قوله:« وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ »أی و حل بهم العذاب الذی كانوا يسخرون منه فی الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل.

قوله تعالی:« وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ »النسيان كنايه عن الإعراض و الترك فنسيانه تعالی لهم يوم القيامه إعراضه عنهم و تركه لهم فی شدائده و أهواله،و نسيانهم لقاء يومهم ذاك فی الدنيا إعراضهم عن تذكره و تركهم التأهب للقائه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللّٰهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا »إلخ، الإشاره بقوله:« ذٰلِكُمْ »إلی ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول العذاب و الهزء السخريه التی يستهزأ بها و الباء للسببيه.

و المعنی:ذلكم العذاب الذی يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخريه تستهزءون بها و بسبب أنكم غرتكم الحياه الدنيا فأخلدتم إليها و تعلقتم بها.

و قوله:« فَالْيَوْمَ لاٰ يُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »صرف الخطاب عنهم إلی النبی ص،و يتضمن الكلام خلاصه القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود فی النار و عدم قبول العذر منهم.

و الاستعتاب طلب العتبی و الاعتذار،و نفی الاستعتاب كنايه عن عدم قبول العذر.

قوله تعالی:« فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ »تحميد له تعالی بالتفريع علی ما تقدم فی السوره من كونه خالق السماوات و الأرض و ما بينهما و المدبر لأمر الجميع و من بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتبع ليوم الرجوع إليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعی لجعل الشرائع التی تسوق إلی السعاده و الثواب و يتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجميع علی الرحمه و العدل بإعطاء كل شیء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيرا جميلا و لم يفعل إلا فعلا محمودا فله الحمد كله.

ص :۱۸۰

و قد كرر«الرب»فقال: رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ ثم أبدل منهما قوله:

« رَبِّ الْعٰالَمِينَ »ليأتى بالتصريح بشمول الربوبيه للجميع فلو جىء برب العالمين و اكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصه رب آخر و للأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنيه،و كذا لو اكتفى بالسماوات و الأرض لم يكن صريحا فى ربوبيته لغيرهما،و كذا لو اكتفى بإحداهما.

قوله تعالى:« وَ لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » الكبرياء على ما عن الراغب:الترفع عن الانقياد،و عن ابن الأثير:العظمه و الملك و فى المجمع، السلطان القاهر و العظمه القاهره و العظمه و الرفعه.

و هى على أى حال أبلغ معنى من الكبر و تستعمل فى العظمه غير الحسيه و مرجعه إلى كمال وجوده و لا تناهى كماله.

و قوله:« وَ لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »أى له الكبرياء فى كل مكان فلا يتعالى عليه شىء فيهما و لا يستصغره شىء و تقديم الخبر فى« لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ » يفيد الحصر كما فى قوله:« فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ ».

و قوله:« وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير فى الدنيا و الآخره و البانى خلقه و تدبيره على الحكمه و الإتقان.

بحث روائی

فى تفسير القمى،":فى قوله تعالى:« أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ »قال:نزلت فى قريش كلما هووا شيئا عبدوه.

و فى الدر المنثور،أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال"*:كان الرجل من العرب يعبد الحجر-فإذا رأى أحسن منه أخذه و ألقى الآخر-فأنزل الله« أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ ».

و فى المجمع،فى قوله تعالى:« وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ »و

قد روى فى الحديث عن النبى ص أنه قال: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.

أقول:قال الطبرسى بعد إيراد الحديث:و تأويله أن أهل الجاهليه كانوا ينسبون

الحوادث المجحفه و البلايا النازله إلى الدهر فيقولون:فعل الدهر كذا،و كانوا يسبون الدهر

فقال(ص): إن فاعل هذه الأمور هو الله فلا تسبوا فاعلها انتهى.و يؤيد هذا الوجه الروايه التاليه.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى هريره قال*:قال رسول الله ص: قال الله تبارك و تعالى:لا يقل ابن آدم يسب الدهر- يا خيبه الدهر فإنى أنا الدهر-أرسل الليل و النهار فإذا شئت قبضتهما.

و فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى:« هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ »الآيه:،

حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن عبد الرحيم القصير عن أبى عبد الله(ع)قال: سألته عن« ن وَ الْقَلَمِ »قال:إن الله خلق القلم من شجره فى الجنه يقال لها الخلد-ثم قال لنهر فى الجنه:كن مدادا فجمد النهر-و كان أشد بياضا من الثلج و أحلى من الشهد.ثم قال للقلم:اكتب.قال:يا رب ما أكتب؟قال:اكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامه-فكتب القلم فى رق أشد بياضا من الفضه- و أصفى من الياقوت.ثم طواه فجعله فى ركن العرش ثم ختم على فم القلم-فلن ينطق أبدا.

فهو الكتاب المكنون الذى منه النسخ كلها-أ و لستم عربا؟فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟و أحدكم يقول لصاحبه:انسخ ذلك الكتاب-أ و ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل؟و هو قوله:« إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ».

أقول:

قوله(ع): فكتب القلم فى رق إلخ، تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق و الرق ما يكتب فيه شبه الكاغد-على ما ذكره الراغب-و قد تقدم الحديث عنه(ع)أن القلم ملك و اللوح ملك،و قوله:فجعله فى ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذى الأركان و القوائم و قوله:ثم ختم على فم القلم«إلخ»كنايه عن كون ما كتب فى الرق قضاء محتوما لا يتغير و لا يتبدل،و قوله:أ و لستم عربا«إلخ»،إشاره إلى ما تقدم توضيحه فى تفسير الآيه.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال"*:إن الله خلق النون و هو الدواه و خلق القلم-فقال:اكتب؟قال:ما أكتب- قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامه من عمل معمول-بر أو فاجر أو رزق مرزوق حلال أو حرام-ثم ألزم كل شىء من ذلك شأنه:دخوله فى الدنيا و مقامه فيها كم،و خروجه منها كيف؟.

ثم جعل على العباد حفظه و على الكتاب خزانا تحفظه-ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم-فإذا فنى ذلك الرزق انقطع الأمر و انقضى الأجل-أتت الحفظه الخزنه يطلبون عمل ذلك اليوم-فيقول لهم الخزنه:ما نجد لصاحبكم عندنا شيئا-فيرجع الحفظه فيجدونهم قد ماتوا.

قال ابن عباس:أ لستم قوما عربا؟تسمعون الحفظه يقولون:« إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »و هل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟.

أقول:و الخبر كما ترى يجعل الآيه من كلام الملائكه الحفظه.

و فيه،أخرج ابن مردويه عن ابن عباس":فى الآيه قال:يستنسخ الحفظه من أم الكتاب-ما يعمل بنو آدم-فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب.

و عن كتاب سعد السعود لابن طاووس،قال بعد ذكر الملكين الموكلين بالعبد:و فى روايه:أنهما إذا أرادا النزول صباحا و مساء-ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ-فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحا و مساء بديوان العبد-قابله إسرافيل بالنسخ التى انتسخ لهما-حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه.

و فى المجمع،":فى قوله تعالى:« وَ لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »-و

فى الحديث يقول الله:الكبرياء ردائى و العظمه إزارى-فمن نازعنى واحده منهما ألقيته فى نار جهنم.

أقول:و رواه فى الدر المنثور،عن مسلم و أبى داود و ابن ماجه و غيرهم عن أبى هريره عن النبى ص .

ص :۱۸۳

(۴۶) سوره الأحقاف مکیه و هی خمس و ثلاثون آیه(۳۵)

[سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (٢) مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا
عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَرُونِي مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ اِئْتُونِي
بِكِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ
وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ (۵) وَ إِذٰا حُشِرَ اَلنّٰاسُ كٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ (۶) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ
اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا
تُفِيضُونَ فِيهِ كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (٨) قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ اَلرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ
أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ
مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اِسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (١٠) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ
يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذٰا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً وَ هٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ اَلَّذِينَ
ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ اَلَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اِسْتَقٰامُوا فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ
خٰالِدِينَ فِيهٰا جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١۴)

ص: ۱۸۴

بيان

غرض السوره إنذار المشركين الرادين للدعوه إلى الإيمان بالله و رسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه،و لذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد:

« مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ »ثم يعود إليه عوده بعد عوده كقوله:

« وَ إِذٰا حُشِرَ النّٰاسُ »،و قوله:« وَ الَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ »، و قوله:« وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ »،و قوله:« وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ »،و قوله فی مختتم السوره:« كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ بَلاٰغٌ »الآيه.

و فيها احتجاج على الوحدانيه و النبوه،و إشاره إلى هلاك قوم هود و هلاك القرى التی حول مكه و إنذارهم بذلك،و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبی ص و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم إلى قومهم منذرين لهم.

ص :۱۸۵

و السوره مكيه كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله،قوله تعالى:« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ »إلخ،و قوله:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ »الآيه.

قوله تعالى:« حم تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »تقدم تفسيره.

قوله تعالى:« مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى » إلخ،المراد بالسماوات و الأرض و ما بينهما مجموع العالم المشهود علويه و سفليه، و الباء فى « بِالْحَقِّ »للملابسه،و المراد بالأجل المسمى ما ينتهى إليه أمد وجود الشيء،و المراد به فى الآيه الأجل المسمى لوجود مجموع العالم و هو يوم القيامه الذى تطوى (۱)فيه السماء كطى السجل للكتب و تبدل الأرض (۲)غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار.

و المعنى:ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلويه و السفليه إلا ملابسا للحق له غايه ثابته و ملابسا لأجل معين لا يتعداه وجوده و إذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله و كانت مع ذلك له غايه ثابته فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء و هو المعاد الموعود،و قد تكرر الكلام فيما تقدم فى معنى كون الخلق بالحق.

و قوله:« وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ »المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآيه التاليه لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد،و« مٰا »فى « عَمّٰا »مصدريه أو موصوله و الثانى هو الأوفق للسياق و المعنى:و المشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به-و هو يوم القيامه بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله- معرضون منصرفون.

قوله تعالى:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »إلى آخر الآيه« أَ رَأَيْتُمْ » بمعنى أخبرونى و المراد بما تدعون من دون الله الأصنام التى كانوا يدعونها و يعبدونها و إرجاع ضمائر أولى العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال أولى العقل و حجه الآيه و ما بعدها مع ذلك تجرى فى كل إله معبود من دون الله.

۱- ۱) إشاره إلى الآيه ۱۰۴ فيه من سوره الأنبياء.

۲- ۲) إشاره إلى الآيه ۴۸ من سوره إبراهيم.

و قوله:« أَرُونِي مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ »أرونى بمعنى أخبرونى و« مٰا »اسم استفهام و« ذٰا »بعده زائده و المجموع مفعول« خَلَقُوا »و من الأرض متعلق به.

و قوله:« أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰاوٰاتِ »أى شركه فى خلق السماوات فإن خلق شىء من السماوات و الأرض هو المسئول عنه.

توضيح ذلك أنهم و إن لم ينسبوا إليها إلا تدبير الكون و خصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ» :الزمر:٣٨، و قال: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ» :الزخرف:٨٧،لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم فى الخلق و لذلك أمر تعالى نبيه ص أن يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب فى خلق الأرض أو فى خلق السماوات فلا معنى للتدبير فى الكون من غير خلق.

و قوله:« اِئْتُونِي بِكِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ » الإشاره بهذا إلى القرآن،و المراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوى كالتوراه نازل من عند الله يذكر شركه آلهتهم فى خلق السماوات أو الأرض.

و الأثاره على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل و الروايه قال:و أثرت العلم رويته آثره أثرا و أثاره و أثره و أصله تتبعت أثره انتهى.و عليه فالأثاره فى الآيه مصدر بمعنى المفعول أى شىء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركه فى شىء من السماوات و الأرض،و فسره غالب المفسرين بمعنى البقيه و هو قريب مما تقدم.

و المعنى:ائتونى للدلاله على شركهم لله فى خلق شىء من الأرض أو فى خلق السماوات بكتاب سماوى من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشىء منقول من علم أو بقيه من علم أورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين فى دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

قوله تعالى:« وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ »إلخ،الاستفهام إنكارى،و تحديد عدم استجابتهم الدعوه بيوم القيامه لما أن يوم القيامه أجل مسمى للدنيا و الدعوه مقصوره فى الدنيا و لا دنيا بعد قيام الساعه.

و قوله:« وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ »صفه أخرى من صفات آلهتهم مضافه إلى صفه عدم استجابتهم و ليس تعليلا لعدم الاستجابه فإن عدم استجابتهم معلول كونهم

ص :١٨٧

لا یملکون لعبادهم شیئا قال تعالی: «قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مٰا لاٰ یَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً» :المائده:۷۶.

بل هی صفه مضافه إلی صفه مذکوره لتکون توطئه و تمهیدا لما سیذکره فی الآیه التالیه من عداوتهم لهم و کفرهم بعبادتهم یوم القیامه فهم فی الدنیا غافلون عن دعائهم و سیطلعون علیه یوم القیامه فیعادونهم و یکفرون بعبادتهم.

و فی الآیه دلاله علی سرایه الحیاه و الشعور فی الأشیاء حتی الجمادات فإن الأصنام من الجماد و قد نسب إلیها الغفله و الغفله من شئون ذوی الشعور لا تطلق إلا علی ما من شأن موصوفه أن یشعر.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا حُشِرَ النّٰاسُ کٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ کٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ کٰافِرِینَ » الحشر إخراج الشیء من مقره بإزعاج،و المراد بعث الناس من قبورهم و سوقهم إلی المحشر یوم القیامه فیومئذ یعادیهم آلهتهم و یکفرون بشرک عبادهم بالتبری منهم کما قال تعالی: «وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکْفُرُونَ بِشِرْکِکُمْ» :فاطر:۱۴،و قال حکایه عنهم: «تَبَرَّأْنٰا إِلَیْکَ مٰا کٰانُوا إِیّٰانٰا یَعْبُدُونَ» :القصص:۶۳،و قال: «فَکَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ إِنْ کُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِکُمْ لَغٰافِلِینَ» :یونس:۲۹.

و فی سیاق الآیتین تلویح إلی أن هذه الجمادات التی لا تظهر لنا فی هذه النشأه أن لها حیاه لعدم ظهور آثارها سیظهر فی النشأه الآخره أن لها حیاه و تظهر آثارها و قد تقدم بعض الکلام فی هذا المعنی فی ذیل قوله تعالی: «قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ» :الم السجده:۲۱.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا بَیِّنٰاتٍ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ »الآیه و التی بعدها مسوقتان للتوبیخ،و المراد بالآیات البینات آیات القرآن تتلی علیهم،ثم بدلها من الحق الذی جاءهم حیث قال:« لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ » -و کان مقتضی الظاهر أن یقال:«لها»للدلاله علی أنها حق جاءهم لا مسوغ لرمیها بأنها سحر مبین و هم یعلمون أنها حق مبین فهم متحکمون مکابرون للحق الصریح.

قوله تعالی:« أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَیْتُهُ فَلاٰ تَمْلِکُونَ لِی مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً » إلخ،« أَمْ »منقطعه أی بل یقولون افتری القرآن علی الله فی دعواه أنه کلامه.

و قوله:« قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِی مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً »أی إن افتریت القرآن لأجلکم أخذنی بالعذاب أو عاجلنی بالعذاب علی الافتراء و لستم تقدرون علی دفع عذابه عنی فکیف أفتریه علیه لأجلکم،و المحصل أنی علی یقین من أمر الله و أعلم أنه یأخذ المفتری علیه أو یعاجل فی عقوبته و أنکم لا تقدرون علی دفع ما یریده فکیف أفتری علیه فأعرض نفسی علی عذابه المقطوع لأجلکم؟أی لست بمفتر علیه.

و یتبین بذلک أن جزاء الشرط فی قوله:« إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِی »إلخ، محذوف و قد أقیم مقامه ما یجری مجری ارتفاع المانع،و التقدیر:إن افتریته أخذنی بالعذاب أو عاجلنی بالعذاب و لا مانع من قبلکم یمنع عنه،و لیس من قبیل وضع المسبب موضع السبب کما قیل.

و قوله:« هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ » الإفاضه فی الحدیث الخوض فیه و« بِمٰا » موصوله یرجع إلیه ضمیر«فیه»أو مصدریه و مرجع الضمیر هو القرآن،و المعنی:

الله سبحانه أعلم بالذی تخوضون فیه من التکذیب برمی القرآن بالسحر و الافتراء علی الله أو المعنی:هو أعلم بخوضکم فی القرآن.

و قوله:« كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِی وَ بَيْنَكُمْ »احتجاج ثان علی نفی الافتراء و أول الاحتجاجین قوله:« إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِی مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً »و قد تقدم بیانه آنفا، و معنی الجمله:أن شهاده الله سبحانه فی کلامه بأنه کلامه و لیس افتراء منی یکفی فی نفی کونی مفتریا به علیه،و قد صدق سبحانه هذه الدعوی بقوله: «لٰكِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» :النساء:۱۶۶،و ما فی معناه من الآیات،و أما أنه کلامه فیکفی فی ثبوته آیات التحدی.

و قوله:« وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »تذییل الآیه بالاسمین الکریمین للاحتجاج علی نفی ما یتضمنه تحکمهم الباطل من نفی الرساله کأنه قیل:إن قولکم:« افْتَرٰاهُ »یتضمن دعویین:دعوی عدم کون هذا القرآن من کلام الله و دعوی بطلان الرساله-و الوثنیون ینفونها مطلقا-أما الدعوی الأولی فیدفعه أولا:أنه إن افتریته فلا تملکون،إلخ، و ثانیا:أن الله یکفینی شهیدا علی کونه کلامه لا کلامی.

و أما الدعوی الثانیه فیدفعها أن الله سبحانه غفور رحیم،و من الواجب فی حکمته أن یعامل خلقه بالمغفره و الرحمه و لا تشملان إلا التائبین الراجعین إلیه الصالحین

لذلک و ذلک بأن یهدیهم إلی صراط یقربهم منه سلوکه فتشملهم مغفرته و رحمته بحط السیئات و الاستقرار فی دار السعاده الخالده،و کونه واجبا فی حکمته لأن فیهم صلاحیه هذا الکمال و هو الجواد الکریم،قال تعالی: «وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً» :إسراء:

۲۰،و قال: «وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ» :النحل:۹،و السبیل إلی هذه الهدایه هی الدعوه من طریق الرساله فمن الواجب فی الحکمه أن یرسل إلی الناس رسولا یدعوهم إلی سبیله الموصله إلی مغفرته و رحمته.

قوله تعالی:« قُلْ مٰا کُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ » إلخ، البدع ما کان غیر مسبوق بالمثل من حیث صفاته أو من حیث أقواله و أفعاله و لذا فسره بعضهم بأن المعنی:ما کنت أول رسول أرسل إلیکم لا رسول قبلی،و قیل:

المعنی:ما کنت مبدعا فی أقوالی و أفعالی لم یسبقنی إلیها أحد من الرسل.

و المعنی الأول لا یلائم السیاق و لا قوله المتقدم:« وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ »بالمعنی الذی تقدم توجیهه فثانی المعنیین هو الأنسب،و علیه فالمعنی:لست أخالف الرسل السابقین فی صوره أو سیره و فی قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فی من آثار البشریه ما فیهم و سبیلهم فی الحیاه سبیلی.

و بهذه الجمله یجاب عن مثل ما حکاه الله من قولهم: «مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعٰامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً أَوْ یُلْقیٰ إِلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّهٌ یَأْکُلُ مِنْهٰا» :الفرقان:۸.

و قوله:« وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ »نفی لعلم الغیب عن نفسه فهو نظیر قوله: «وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لاَسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ مٰا مَسَّنِیَ السُّوءُ» :الأعراف:۱۸۸، و الفرق بین الآیتین أن قوله:« وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ »إلخ،نفی للعلم بمطلق الغیب و استشهاد له بمس السوء و عدم الاستکثار من الخیر،و قوله:« وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ »نفی للعلم بغیب خاص و هو ما یفعل به و بهم من الحوادث التی یواجهونها جمیعا،و ذلک أنهم کانوا یزعمون أن المتلبس بالنبوه لو کان هناک نبی یجب أن یکون عالما فی نفسه بالغیوب ذا قدره مطلقه غیبیه کما یظهر من اقتراحاتهم المحکیه فی القرآن فأمر(ص)أن یعترف-مصرحا به-أنه لا یدری ما یفعل به و لا بهم فینفی عن

نفسه العلم بالغيب،و أن ما يجرى عليه و عليهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختياره و ليس له فى شىء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره و هو الله سبحانه.

فقوله:« وَ مٰا أَدْرِی مٰا يُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِكُمْ »كما ينفى عنه العلم بالغيب ينفى عنه القـدره على شـىء مما يصـيبه و يصـيبهم مما هو تحت أستار الغيب.

و نفى الآـيه العلم بـالغيب عنه(ص)لاـ ينـافى علمه بـالغيب من طريق الوحى كمـا يصـرح تعـالى به فى مواضع من كلاـمه كقوله: «ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» آل عمران:۴۴،يوسف:۱۰۲،و قوله: «تِلْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهٰا إِلَيْكَ» هود:۴۹،و قوله: «عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ» الجن:۲۷ و من هذا الباب قول المسيح(ع): «وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِی بُيُوتِكُمْ» :آل عمران:۴۹،و قول يوسف(ع)لصاحبى السـجن: «لاٰ يَأْتِيكُمٰا طَعٰامٌ تُرْزَقٰانِهِ إِلاّٰ نَبَّأْتُكُمٰا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمٰا» :يوسف:۳۷.

وجه عـدم المنافاه أن الآيـات النـافيه للعلم بالغيب عنه و عن سائر الأنبياء(ع) إنما تنفيه عن طبيعتهم البشـريه بمعنى أن تكون لهم طبيعه بشـريه أو طبيعه هى أعلى من طبيعه البشـر من خاصـتها العلم بالغيب بحيث يسـتعمله فى جلب كل نفع و دفع كل شـر كما نسـتعمل مـا يحصـل لنـا من طريق الأسـباب و هـذا لاـ ينـافى انكشـاف الغيب لهم بتعليم إلهى من طريق الوحى كمـا أن إتيـانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قـدره نفسيه فيهم يملكونها لأنفسـهم بل بإذن من الله تعالى و أمر،قال تعالى: «قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّی هَلْ كُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً» :الإسراء:۹۳،جوابـا عما اقترحوا عليه من الآيات، و قال: «قُلْ إِنَّمَا الْآيٰاتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» :العنكبوت:۵۰،و قال: «وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِیَ بِآيَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ» :المؤمن:۷۸.

و يشـهد بذلك قوله بعده متصـلا به:« إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَیَّ »فإن اتصاله بما قبله يعطى أنه فى موضع الإضـراب،و المعنى:أنى ما أدرى شيئا من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسى و إنما أتبع ما يوحى إلى من ذلك.

و قوله:« وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ »تأكيـد لجميع ما تقـدم فى الآيه من قوله:« مٰا كُنْتُ بِدْعاً »إلخ،و« وَ مٰا أَدْرِی »إلخ،و قوله:« إِنْ أَتَّبِعُ »إلخ.

بحث فلسفی و دفع شبهه

تظافرت الأخبار من طرق أئمه أهل البیت أن الله سبحانه علم النبی ص و الأئمه(ع)علم کل شیء،و فسر ذلک فی بعضها أن علم النبی ص من طریق الوحی و أن علم الأئمه(ع)ینتهی إلی النبی ص.

و أورد علیه أن المأثور من سیرتهم أنهم کانوا یعیشون مدی حیاتهم عیشه سائر الناس فیقصدون مقاصدهم ساعین إلیها علی ما یرشد إلیه الأسباب الظاهریه و یهدی إلیه السبل العادیه فربما أصابوا مقاصدهم و ربما أخطأ بهم الطریق فلم یصیبوا،و لو علموا الغیب لم یخیبوا فی سعیهم أبدا فالعاقل لا یترک سبیلا یعلم یقینا أنه مصیب فیه و لا یسلک سبیلا یعلم یقینا أنه مخطئ فیه.

و قد أصیبوا بمصائب لیس من الجائز أن یلقی الإنسان نفسه فی مهلکتها لو علم بواقع الأمر کما أصیب النبی ص یوم أحد بما أصیب،و أصیب علی(ع)فی مسجد الکوفه حین فتک به المرادی لعنه الله،و أصیب الحسین(ع)فقتل فی کربلاء، و أصیب سائر الأئمه بالسم،فلو کانوا یعلمون ما سیجری علیهم کان ذلک من إلقاء النفس فی التهلکه و هو محرم،و الإشکال کما تری مأخوذ من الآیتین:« وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ »« وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ ».

و یرده أنه مغالطه بالخلط بین العلوم العادیه و غیر العادیه فالعلم غیر العادی بحقائق الأمور لا أثر له فی تغییر مجری الحوادث الخارجیه.

توضیح ذلک أن أفعالنا الاختیاریه کما تتعلق بإرادتنا کذلک تتعلق بعلل و شرائط أخری مادیه زمانیه و مکانیه إذا اجتمعت علیها تلک العلل و الشرائط و تمت بالإراده تحققت العله التامه و کان تحقق الفعل عند ذلک واجبا ضروریا إذ من المستحیل تخلف المعلول عن علته التامه.

فنسبه الفعل و هو معلول إلی علته التامه نسبه الوجوب و الضروره کنسبه جمیع الحوادث إلی عللها التامه،و نسبته إلی إرادتنا و هی جزء علته نسبه الجواز و الإمکان.

فتبین أن جمیع الحوادث الخارجیه و منها أفعالنا الاختیاریه واجبه الحصول فی

الخارج واقعه فيها على صفه الضروره و لا ينافى ذلک کون أفعالنا الاختياريه ممكنه بالنسبه إلينا مع وجوبها على ما تقدم.

فإذا كان كل حادث و منها أفعالنا الاختياريه بصفه الاختيار معلولا له عله تامه يستحيل معها تخلفه عنها كانت الحوادث سلسله منتظمه يستوعبها الوجوب لا يتعدى حلقه من حلقاتها موضعها و لا تتبدل من غيرها و كان الجميع واجبا من أول يوم سواء فى ذلک ما وقع فى الماضى و ما لم يقع بعد،فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هى عليها فى متن الواقع لم يؤثر ذلک فى إخراج حادث منها و إن كان اختياريا عن ساحه الوجوب إلى حد الإمكان.

فإن قلت:بل يقع هذا العلم اليقينى فى مجرى أسباب الأفعال الاختياريه كالعلم الحاصل من الطرق العاديه فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العاديه فيصير سببا للفعل أو الترک حيث يبطل معه العلم العادى.

قلت:كلا-فإن المفروض تحقق العله التامه للعلم العادى مع سائر أسباب الفعل الاختيارى فمثله كمثل أهل الجحود و العناد من الكفار يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود إلى النار و مع ذلک يصرون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود و هذا منهم هو العلم العادى بوجوب الفعل،قال تعالى فى قصه آل فرعون: «وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ» :النمل:۱۴.

و بهذا يندفع ما يمكن أن يقال:لا يتصور علم يقينى بالخلاف مع عدم تأثيره فى الإراده فليكشف عدم تأثيره فى الإراده عن عدم تحقق علم على هذا الوصف.

وجه الاندفاع:أن مجرد تحقق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقق الإراده مستنده إليه و إنما هو العلم الذى يتعلق بوجوب الفعل مع التزام النفس به كما مر فى جحود أهل الجحود و إنكارهم الحق مع يقينهم به و مثله الفعل بالعنايه فإن سقوط الواقف على جذع عال،منه على الأرض بمجرد تصور السقوط لا يمنع عنه علمه بأن فى السقوط هلاكه القطعى.

[بيان]

و قد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأن للنبى ص و الأئمه(ع)

تكاليف خاصه بكل واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك و إن كان ذلك منا إلقاء النفس فى التهلكه و هو حرام،و إليه إشاره فى بعض الأخبار.

و أجاب بعضهم عنه بأن الذى ينجز التكاليف من العلم هو العلم من الطرق العاديه و أما غيره فليس بمنجز،و يمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدم.

قوله تعالى:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ »إلخ،ضمائر« كٰانَ »و« بِهِ »و« مِثْلِهِ »على ما يعطيه السياق للقرآن،و قوله:« وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ »إلخ،معطوف على الشرط و يشاركه فى الجزاء،و المراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه فى المعارف الإلهيه و هو كتاب التوراه الأصليه التى نزلت على موسى(ع)،و قوله:« فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ »أى فآمن الشاهد الإسرائيلى المذكور بعد شهادته.

و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »تعليل للجزاء المحذوف دال عليه، و الظاهر أنه أ لستم ضالين لا ما قيل:إنه أ لستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هدايه الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم و إن كانوا متصفين بالوصفين جميعا.

و المعنى:قل للمشركين:أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله و الحال أنكم كفرتم به و شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثل ما فى القرآن من المعارف فآمن هو و استكبرتم أنتم أ لستم فى ضلال؟فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

و الذى شهد على مثله فآمن على ما فى بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود،و الآيه على هذا مدنيه لا مكيه لأنه ممن آمن بالمدينه،و قول بعضهم:من الجائز أن يكون التعبير بالماضى فى قوله:« وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ »لتحقق الوقوع و القصه واقعه فى المستقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآيه فى سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبى ص صدقه فيما يخبرهم به من الأمور المستقبله.

و فى معنى الآيه أقوال أخر منها أن المراد ممن شهد على مثله فآمن هو موسى (ع)شهد على التوراه فآمن به و إنما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآيه مكيه،و أنه إنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينه.

و فيه أولا:عدم الدليل على كون الآيه مكيه و لتكن القصه دليلا على كونها مدنيه،و ثانيا:بعد أن يجعل موسى الكليم(ع)قرينا لهؤلاء المشركين الأجلاف

يقاسون به فيقال ما محصله:أن موسى(ع)آمن بالكتاب النازل عليه و أنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهره.

و مما قيل إن المثل فى الآيه بمعنى نفس الشىء كما قيل فى قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» :الشورى:١١، و هو فى البعد كسابقه.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ »إلى آخر الآيه قيل:اللام فى قوله:« لِلَّذِينَ آمَنُوا »للتعليل أى لأجل إيمانهم و يئول إلى معنى فى،و ضمير«كان»و«إليه»للقرآن من جهه الإيمان به.

و المعنى:و قال الذين كفروا فى الذين آمنوا-أى لأجل إيمانهم-:لو كان الإيمان بالقرآن خيرا ما سبقونا-أى المؤمنون-إليه.

و قال بعضهم:إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين و بالضمير العائد إليه فى قوله:«سبقونا»البعض الآخر،و اللام متعلق بقال و المعنى:و قال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيرا ما سبقنا البعض من المؤمنين و هم الغائبون إليه،و فيه أنه بعيد من سياق الآيه.

و قال آخرون:إن المراد بالذين آمنوا المؤمنون جميعا لكن فى قوله: مٰا سَبَقُونٰا التفاتا و الأصل ما سبقتمونا و هو فى البعد كسابقه و ليس خطاب الحاضرين بصيغه الغيبه من الالتفات فى شىء.

و قوله:« وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذٰا إِفْكٌ قَدِيمٌ »ضمير«به»للقرآن و كذا الإشاره بهذا إليه و الإفك الافتراء أى و إذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أى الذين كفروا هذا أى القرآن إفك و افتراء قديم،و قولهم:هذا إفك قديم كقولهم: أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

قوله تعالى:« وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً وَ هٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰاناً عَرَبِيًّا »إلخ،الظاهر أن قوله:« وَ مِنْ قَبْلِهِ »إلخ،جمله حاليه و المعنى:فسيقولون هذا إفك قديم و الحال أن كتاب موسى حال كونه إماما و رحمه قبله أى قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لسانا عربيا ليكون منذرا للذين ظلموا و هو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكا.

و کون التوراه إماما و رحمه هو کونها بحیث یقتدی بها بنو إسرائیل و یتبعونها فی أعمالهم و رحمه للذین آمنوا بها و اتبعوها فی إصلاح نفوسهم.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا »إلی آخر الآیه المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم و شهادتهم بانحصار الربوبیه فی الله سبحانه و توحده فیها،و باستقامتهم ثباتهم علی ما شهدوا به من غیر زیغ و انحراف و التزامهم بلوازمه العملیه.

و قوله:« فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ »أی لیس قبالهم مکروه محتمل یخافونه من عقاب محتمل،و لا مکروه محقق یحزنون به من عقاب أو هول،فالخوف إنما یکون من مکروه ممکن الوقوع،و الحزن من مکروه محقق الوقوع،و الفاء فی قوله:« فَلا خَوْفٌ »إلخ،لتوهم معنی الشرط فإن الکلام فی معنی من قال ربنا الله ثم استقام فلا خوف إلخ.

قوله تعالی:« أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَنَّهِ خالِدِینَ فِیها جَزاءً بِما کانُوا یَعْمَلُونَ »المراد بصحابه الجنه ملازمتها،و قوله:« خالِدِینَ فِیها »حال مؤکده لمعنی الصحابه.

و المعنی:أولئک الذین قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنه حال کونهم خالدین فیها جزاء بما کانوا یعملون فی الدنیا من الطاعات و القربات.

بحث روائی

فی الکافی،بإسناده عن أبی عبیده قال: سألت أبا جعفر (ع)عن قول الله تعالی:

« اِئْتُونِی بِکِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَهٍ مِنْ عِلْمٍ-إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ »قال:عنی بالکتاب التوراه و الإنجیل«و أَثارَهٍ مِنْ عِلْمٍ »فإنما عنی بذلک علم أوصیاء الأنبیاء.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه من طریق أبی سلمه بن عبد الرحمن عن ابن عباس عن النبی ص *« أَوْ أَثارَهٍ مِنْ عِلْمٍ » قال:الخط.

أقول:لعل المراد بالخط کتاب مخطوط موروث من الأنبیاء أو العلماء الماضین لکن فی بعض ما روی فی تفسیر قوله:« أَوْ أَثارَهٍ مِنْ عِلْمٍ »أنه حسن الخط و فی بعض آخر أنه جوده الخط و هو أجنبی من سیاق الاحتجاج الذی فی الآیه.

و فی العیون،فی باب مجلس الرضا مع المأمون عنه(ع)حدثنی أبی عن جدی عن آبائه عن الحسین بن علی(ع)قال: اجتمع المهاجرون و الأنصار إلی رسول الله ص-فقالوا:إن لک یا رسول الله مئونه فی نفقتک-و فیمن یأتیک من الوفود، و هذه أموالنا مع دمائنا فاحکم فیها بارا مأجورا-أعط ما شئت و احکم ما شئت من غیر حرج.

قال:فأنزل الله تعالی إلیه الروح الأمین-فقال:یا محمد« قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً- إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ »یعنی أن تودوا قرابتی من بعدی،فخرجوا فقال المنافقون:ما حمل رسول الله علی ترک ما عرضنا علیه-إلا لیحثنا علی قرابته من بعده،و إن هو إلا شیء افتراه فی مجلسه-و کان ذلک من قولهم عظیما.

فأنزل الله عز و جل هذه الآیه« أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَیْتُهُ-فَلاٰ تَمْلِکُونَ لِی مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِیضُونَ فِیهِ-کَفیٰ بِهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ » فبعث إلیهم النبی ص فقال:هل من حدث؟فقالوا:إی و الله یا رسول الله-لقد قال بعضنا کلاما غلیظا کرهناه-فتلا علیهم رسول الله ص الآیه فبکوا و اشتد بکاؤهم- فأنزل الله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ-وَ یَعْفُوا عَنِ السَّیِّئٰاتِ وَ یَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ ».

و فی الدر المنثور،أخرج أبو داود فی ناسخه من طریق عکرمه عن ابن عباس" *فی قوله:« وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ »قال:نسختها هذه (۱)الآیه التی فی الفتح- فخرج إلی الناس فبشرهم بالذی غفر له-ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

فقال رجل من المؤمنین:هنیئا لک یا نبی الله-قد علمنا الآن ما یفعل بک فما ذا یفعل بنا؟فأنزل الله فی سوره الأحزاب« وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ فَضْلاً کَبِیراً »و قال:« لِیُدْخِلَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ-جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا-وَ یُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ-وَ کٰانَ ذٰلِکَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِیماً »فبین الله ما به یفعل و بهم.

أقول:الروایه لا تخلو من شیء:

ص: ۱۹۷

۱- ۱) یرید قوله تعالی:«لیغفر لک الله ما تقدم من ذنبک و ما تأخر»الفتح.۲.

أما أولا:فلما تقدم بيانه فی تفسير الآيه أعنی قوله:« وَ مٰا أَدْرِی مٰا يُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِكُمْ »أنها أجنبيه عن العلم بالغيب الذی هو من طريق الوحی بدلاله صريحه من القرآن فلا ينفی بها العلم بالمغفره من طريق الوحی حتی تنسخها آيه سوره الفتح.

و أما ثانيا:فلأن ظاهر الروايه أن الذنب الذی تصرح بمغفرته آيه سوره الفتح هو الذنب بمعنی مخالفه الأمر و النهی المولويين و سيأتی فی تفسير سوره الفتح-إن شاء الله تعالی-أن الذنب فی الآيه لغير هذا المعنی.

و أما ثالثا:فلأن الآيات الداله علی دخول المؤمنين الجنه كثيره جدا فی مكيه السور و مدنيتها و لا تدل آيتا سوره الأحزاب علی أزيد مما يدل عليه سائر الآيات فلا وجه لتخصيصهما بالدلاله علی دخول المؤمنين الجنه و شمول المغفره لهم.

علی أن سوره الأحزاب نازله قبل سوره الفتح بزمان.

و فيه،أخرج أبو يعلی و ابن جرير و الطبرانی و الحاكم و صححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعی قال*: انطلق النبی ص و أنا معه حتی دخلنا علی كنيسه اليهود- يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم.

فقال لهم رسول الله ص:أرونی اثنی عشر رجلا منكم-يشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله-يحبط الله عن كل يهودی تحت أديم السماء-الغضب الذی عليه- فسكتوا فما أجابه منهم أحد،ثم رد عليهم فلم يجبه أحد فثلث فلم يجبه أحد-فقال:

أبيتم فوالله لأنا الحاشر و أنا العاقب-و أنا المقفی آمنتم أو كذبتم.

ثم انصرف و أنا معه حتی كدنا أن نخرج-فإذا رجل من خلفه فقال:كما أنت يا محمد،فأقبل فقال ذلك الرجل:أی رجل تعلمونني فيكم يا معشر اليهود؟فقالوا:و الله لا نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله-و لا أفقه منك و لا من أبيك و لا من جدك،فقال:

إنی أشهد بالله أنه النبی الذی تجدونه-فی التوراه و الإنجيل،قالوا:كذبت ثم ردوا عليه و قالوا شرا،فقال رسول الله ص:كذبتم لن يقبل منكم قولكم.

فخرجنا و نحن ثلاث:رسول الله ص-و أنا و ابن سلام فأنزل الله:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ-وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِيلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ- إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ ».

أقول:و فی نزول الآيه فی عبد الله بن سلام روايات أخری من طرق أهل السنه

غیر هذه الروایه،و سیاق الآیه و خاصه قوله:« مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ »لا یلائم کون الخطاب فیها لبنی إسرائیل،و قد عد الإنجیل فی الروایه من کتبهم و لیس من کتبهم و الیهود لا یصدقونه.

و فی بعض الروایات أن الآیه نزلت فی ابن یامین من علمائهم حین شهد و أسلم فکذبته الیهود،و الإشکال السابق علی حاله.

[سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۵ الی ۲۰]

اشاره

وَ وَصَّیْنَا اَلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ إِحْسٰاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَهً قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ اَلَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۵) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ نَتَجٰاوَزُ عَنْ سَیِّئٰاتِهِمْ فِی أَصْحٰابِ اَلْجَنَّهِ وَعْدَ اَلصِّدْقِ اَلَّذِی کٰانُوا یُوعَدُونَ (۱۶) وَ اَلَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ اَلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُمٰا یَسْتَغِیثٰانِ اَللّٰهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَیَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ کٰانُوا خٰاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۱۹) وَ یَوْمَ یُعْرَضُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی اَلنّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّبٰاتِکُمْ فِی حَیٰاتِکُمُ اَلدُّنْیٰا وَ اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ اَلْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ بِمٰا کُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰)

بیان

لما قسم الناس فی قوله:« لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ »إلی ظالمین و محسنین و أشیر فیه إلی أن للظالمین ما یخاف و یحذر و للمحسنین ما یسر الإنسان و یبشر به عقب ذلک فی هذا الفصل من الآیات بتفصیل القول فیه،و أن الناس بین قوم تائبین إلی الله مسلمین له و هم الذین یتقبل أحسن أعمالهم و یتجاوز عن سیئاتهم فی أصحاب الجنه،و قوم خاسرین حق علیهم القول فی أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس.

و مثل الطائفه الأولی بمن کان مؤمنا بالله مسلما له بارا بوالدیه یسأل الله أن یلهمه الشکر علی ما أنعم علیه و علی والدیه و العمل الصالح و إصلاح ذریته،و الطائفه الثانیه بمن کان عاقا لوالدیه إذا دعواه إلی الإیمان بالله و الیوم الآخر فیزجرهما و یعد ذلک من أساطیر الأولین.

قوله تعالی:« وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً »إلی آخر الآیه، الوصیه علی ما ذکره الراغب هو التقدم إلی الغیر بما یعمل به مقترنا بوعظ و التوصیه تفعیل من الوصیه قال تعالی: «وَ وَصّٰى بِهٰا إِبْرٰاهِيمُ بَنِيهِ» :البقره:۱۳۲،فمفعوله الثانی الذی یتعدی إلیه بالباء من قبیل الأفعال،فالمراد بالتوصیه بالوالدین التوصیه بعمل یتعلق بهما و هو الإحسان إلیهما.

و علی هذا فتقدیر الکلام:و وصینا الإنسان بوالدیه أن یحسن إلیهما إحسانا.

و فی إعراب:« إِحْساناً »أقوال أخر کقول بعضهم:إنه مفعول مطلق علی تضمین «وصینا»معنی أحسنا،و التقدیر:وصینا الإنسان محسنین إلیهما إحسانا،و قول بعضهم:إنه صفه لمصدر محذوف بتقدیر مضاف أی إیصاء ذا إحسان،و قول بعضهم:

هو مفعول له،و التقدیر: وصیناه بهما لإحساننا إلیهما،إلی غیر ذلک مما قیل.

و کیف کان فبر الوالدین و الإحسان إلیهما من الأحکام العامه المشرعه فی جمیع

الشـرائع كمـا تقـدم فى تفسير قـوله تعـالى: «قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً» :الأنعام:١٥١،و لذلك قال:« وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ » فعممه لكل إنسان.

ثم عقبه سبحانه بالإشاره إلى ما قاسته أمه فى حمله و وضعه و فصاله إشعارا بملاك الحكم و تهييجا لعواطفه و إثاره لغريزه رحمته و رأفته فقال:« حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً »أى حملته أمه حملا ذا كره أى مشقه و ذلك لما فى حمله من الثقل،و وضعته وضعا ذا كره و ذلك لما عنده من ألم الطلق.

و أما قوله:« وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً »فقد أخذ فيه أقل مده الحمل و هو سته أشهر،و الحولان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهرا مده الرضاع،قال تعالى: «وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ» :البقره:٢٣٣،و قال: «وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ» :لقمان:١۴.

و الفصال التفريق بين الصبى و بين الرضاع،و جعل العامين ظرفا للفصال بعنايه أنه فى آخر الرضاع و لا يتحقق إلا بانقضاء عامين.

و قوله:« حَتّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان،و قد مر نقل اختلافهم فى معنى بلوغ الأشد فى تفسير قوله: «وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً» :يوسف:٢٢،و بلوغ الأربعين ملازم عاده لكمال العقل.

و قوله:« قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ » الإيزاع الإلهام، و هـذا الإلهـام ليس بإلهـام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما فى قوله: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» الشمس:٨،بل هو إلهام عملى بمعنى البعث و الدعوه الباطنيه إلى فعل الخير و شكر النعمه و بالجمله العمل الصالح.

و قد أطلق النعمه التى سأل إلهام الشكر عليها فتعم النعم الظاهريه كالحياه و الرزق و الشعور و الإراده،و الباطنيه كالإيمان بالله و الإسـلام و الخشوع له و التوكـل عليه و التفويض إليه ففى قوله:« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ »إلخ،سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولا و فعلا:أما قولا فظاهر،و أما فعلا فباستعمال هذه النعم

استعمالا یظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها علیه و لیست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبودیه و المملوکیه من هذا الإنسان فی قوله و فعله جمیعا.

و تفسیر النعمه بقوله:« اَلَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ »یفید شکره من قبل نفسه علی ما اختص به من النعمه و من قبل والدیه فیما أنعم به علیهما فهو لسان ذاکر لهما بعدهما.

و قوله:« وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ »عطف علی قوله:« أَنْ أَشْکُرَ »إلخ، سؤال متمم لسؤال الشکر علی النعم فإن الشکر یحلی ظاهر الأعمال،و الصلاحیه التی یرتضیها الله تعالی تحلی باطنها و تخلصها له تعالی.

و قوله:« وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی »الإصلاح فی الذریه إیجاد الصلاح فیهم و هو من الله سبحانه توفیقهم للعمل الصالح و ینجر إلی إصلاح نفوسهم،و تقیید الإصلاح بقوله:

«لی»للدلاله علی أن یکون إصلاحهم بنحو ینتفع هو به أی أن یکون ذریته له فی بره و إحسانه کما کان هو لوالدیه.

و محصل الدعاء سؤال أن یلهمه الله شکر نعمته و صالح العمل و أن یکون بارا محسنا بوالدیه و یکون ذریته له کما کان هو لوالدیه،و قد تقدم (1)غیر مره أن شکر نعمه تعالی بحقیقه معناه هو کون العبد خالصا لله فیئول معنی الدعاء إلی سؤال خلوص النفس و صلاح العمل.

و قوله:« إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ الْمُسْلِمِینَ »أی الذین یسلمون الأمر لک فلا ترید شیئا إلا أرادوه بل لا یریدون إلا ما أردت.

و الجمله فی مقام التعلیل لما یتضمنه الدعاء من المطالب،و یتبین بالآیه حیث ذکر الدعاء و لم یرده بل أیده بما وعد فی قوله:« أُولٰئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ »إلخ،إن التوبه و الإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا فی العبد استعقب ذلک الهامه تعالی بما یصیر به العبد من المخلصین-بفتح اللام-ذاتا و المخلصین-بکسر اللام-عملا أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشاره إلیه آنفا،و أما إخلاص العمل فلأن العمل لا یکون صالحا لقبوله

۱- ۱) تفسیر الآیه ۱۴۴ من سوره آل عمران و الآیه ۱۷ من سوره الأعراف.

تعالى مرفوعا إليه إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم،قال تعالى: «أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ» :الزمر:٣.

قوله تعالى:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ نَتَجٰاوَزُ عَنْ سَيِّئٰاتِهِمْ فِي أَصْحٰابِ الْجَنَّةِ »إلخ،التقبل أبلغ من القبول،و المراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات و المندوبات فإنها هي المقبوله المتقبله و أما المباحات فإنها و إن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبله،كذا ذكر في مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيده مقابله تقبل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل:إن أعمالهم طاعات من الواجبات و المندوبات و هي أحسن أعمالهم فنتقبلها و سيئات فنتجاوز عنها و ما ليس بطاعه و لا حسنه فلا شأن له من قبول و غيره.

و قوله:« فِي أَصْحٰابِ الْجَنَّةِ »متعلق بقوله:« نَتَجٰاوَزُ »أي نتجاوز عن سيئاتهم في جمله من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنه،فهو حال من ضمير« عَنْهُمْ ».

و قوله:« وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كٰانُوا يُوعَدُونَ »أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء و الرسل،أو المراد أنه ينجز لهم بهذا التقبل و التجاوز يوم القيامه وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا.

قوله تعالى:« وَ الَّذِي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰا أَ تَعِدٰانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي »لما ذكر الإنسان الذي تاب إلى الله و أسلم له و سأله الخلوص و الإخلاص و بر والديه و إصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله و رسوله و المعاد و يعق والديه إذا دعواه إلى الإيمان و أنذراه بالمعاد.

فقوله:« وَ الَّذِي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰا »الظاهر أنه مبتدأ في معنى الجمع و خبره قوله بعد:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ »إلخ،و «أف» كلمه تبرم يقصد بها إظهار التسخط و التوجع و« أَ تَعِدٰانِنِي أَنْ أُخْرَجَ »الاستفهام للتوبيخ،و المعنى:أ تعدانني أن أخرج من قبري فأحيا و أحضر للحساب أي أ تعدانني المعاد« وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي »أي و الحال أنه هلكت أمم الماضون العائشون من قبلي و لم يحي منهم أحد و لا بعث.

و هذا على زعمهم حجه على نفي المعاد و تقريره أنه لو كان هناك إحياء و بعث لأحيي بعض من هلك إلى هذا الحين و هم فوق حد الإحصاء عددا في أزمنه طويله لا

أمـد لها و لا خبر عنهم و لا أثر و لم يتنبهوا أن القرون السالفه لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثا لهم و إحياء فى الدنيا و الذى وعده الله سبحانه هو البعث للحياه الآخره و القيام لنشأه أخرى غير الدنيا.

و قوله:« وَ هُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّٰهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ » الاستغاثه طلب الغوث من الله أى و الحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهمـا و يعينهمـا على إقـامه الحجه و اسـتمالته إلى الإيمـان و يقولان له:ويلك آمن بالله و بما جاء به رسوله و منه وعـده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

و منه يظهر أن مرادهما بقولهما:« آمِنْ »هو الأمر بالإيمان بالله و رسوله فيما جاء به من عند الله،و قولهما:« إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ »المراد به المعاد،و تعليل الأمر بالإيمان به لغرض الإنذار و التخويف.

و قوله:« فَيَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »الإشاره بهـذا إلى الوعـد الـذى ذكراه و أنـذراه به أو مجموع ما كانا يـدعوانه إليه و المعنى:فيقول هـذا الإنسان لوالـديه ليس هـذا الوعد الذى تنذراننى به أو ليس هذا الذى تدعواننى إليه إلا خرافات الأولين و هم الأمم الأوليه الهمجيه.

قوله تعالى:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ »إلخ،تقدم بعض الكلام فيه فى تفسير الآيه ۲۵ من سوره حم السجده.

قوله تعالى:« وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا »إلى آخر الآيه أى لكل من المذكورين و هم المؤمنون البرره و الكافرون الفجره منازل و مراتب مختلفه صعودا و حدورا فللجنه درجات و للنار دركات.

و يعـود هـذا الاختلاـف إلى اختلاـفهم فى أنفسـهم و إن كـان ظهـوره فى أعمـالهم و لـذلك قـال:« لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا »فالدرجات لهم و منشؤها أعمالهم.

و قوله:« وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ »اللام للغايه و الجمله معطوفه على غايه أو غايات أخرى محـذوفه لم يتعلق بـذكرها غرض،و إنمـا جعلت غـايه لقوله:« لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ »لأـنه فى معنى و جعلنـاهم درجات،و المعنى:جعلناهم درجات لكـذا و كـذا و ليوفيهم أعمالهم و هم لا يظلمون.

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال،و قيل:الكلام على تقدير مضاف و التقدير و ليوفيهم أجور أعمالهم.

قوله تعالى:« وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ »إلخ،عرض الماء على الدابه و للدابه وضعه بمرأى منها بحيث إن شاءت شربته،و عرض المتاع على البيع وضعه موضعا لا مانع من وقوع البيع عليه.

و قوله:« وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ »قيل:المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم:عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع.

و فيه أن قوله فى آخر السوره« وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ »لا يلائمه تلك الملاءمه حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

و قيل:إن فى الآيه قلبا و الأصل عرض النار على الذين كفروا لأن من الواجب فى تحقق معنى العرض أن يكون فى المعروض عليه شعور بالمعروض و النار لا شعور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس ففى الكلام قلب،و المراد عرض النار على الذين كفروا.

و وجهه بعض المفسرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما فى قولنا:عرضت الماء على الدابه و عرضت الطعام على الضيف،و لما كان الأمر فى عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنهم هم المسيرون إلى النار فقلب الكلام رعايه لهذا الاعتبار.

و فيه نظر أما ما ذكر من أن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور و إدراك بالمعروض حتى يرغب إليه أو يرغب عنه و النار لا شعور لها ففيه أولا:أنه ممنوع كما يؤيده قولهم:عرضت المتاع على البيع،و قوله تعالى: «إِنّٰا عَرَضْنَا الْأَمٰانَةَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبٰالِ» :الأحزاب:۷۲،و ثانيا:أنا لا نسلم خلو نار الآخره عن الشعور،ففى الأخبار الصحيحه أن للجنه و النار شعورا و يشعر به قوله:

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» :ق:۳۰،و غيره من الآيات.

و أما ما قيل من أن المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلم لزومه و لا اطراده فهو منقوض بقوله: «إِنّٰا عَرَضْنَا الْأَمٰانَةَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» :

Xالآيه X،الأحزاب:۷۲.

على أن فى كلامه تعالى ما يـدل على الإتيان بالنار إلى الذين كفروا كقوله: «وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنّى لَهُ الذِّكْرى» :الفجر:٢٣.

فالحق أن العرض و هو إظهار عدم المانع من تلبس شـىء بشـىء معنى له نسبه إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلا معروضا عليه و الآخر فرعا معروضا فتاره تؤخـذ النار معروضه على الكافرين بعنايه أن لا مانع من عمل صالح أو شـفاعه تمنع من دخولهم فيهـا كقوله تعالى: «وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً» :الكهف:١٠٠،و تـاره يؤخـذ الكفار معروضـين للنار بعنايه أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم،كما فى قوله:

«النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» :المؤمن:٣۶،و قوله:« يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّارِ »الآيه.

و على هذا فالأشـبه تحقق عرضين يوم القيامه:عرض جهنم للكافرين حين تبرز لهم ثم عرضهم على جهنم بعد الحساب و القضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها، قال تعالى: «وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً» :الزمر:٧١.

و قوله:« أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها »على تقـدير القول أى يقال لهم:« أَذْهَبْتُمْ »إلخ،و الطيبات الأمور التى تلائـم النفس و توافق الطبع و يسـتلذ بهـا الإنسـان،و إذهـاب الطيبـات إنفادهـا بالاستيفاء لها،و المراد بالاسـتمتاع بها اسـتعمالها و الانتفاع بها لنفسها لا للآخره و التهيؤ لها.

و المعنى:يقال لهم حين عرضـهم على النار:أنفذتم الطيبات التى تلتذون بها فى حياتكم الدنيا و اسـتمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شىء تلتذون به فى الآخره.

و قوله:« فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ »تفريع على إذهابهم الطيبات،و عذاب الهون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى.

و المعنى:فـاليوم تجزون العـذاب الـذى فيه الهـوان و الخزى قبـال اسـتكباركم فى الـدنيا عن الحق و قبـال فسـقكم و توليكم عن الطاعات،و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد و هو الاستكبار عن الحق و الثانى متعلق بالعمل و هو الفسق.

بحث روائی

فی الـدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن المنذر من طریق قتاده عن أبی حرب بن أبی الأسود الدؤلی قال*: رفع إلی عمر امرأه ولـدت لسته أشـهر-فسأل عنها أصـحاب النبی فقال علی:لا رجم علیها أ لا تری أنه یقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً ،و قال: وَ فِصٰالُهُ فِی عٰامَیْنِ ،و کان الحمل هاهنا سته أشهر فترکها عمر.قال:ثم بلغنا أنها ولدت آخر لسته أشهر.:

أقول:و روی القصه المفید فی الإرشاد، .

و فیه،أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن بعجه بن عبد الله الجهنی قال*: تزوج رجل منا امرأه من جهینه-فولدت له تماما لسـته أشـهر-فـانطلق زوجهـا إلی عثمان بن عفان فأمر برجمها-فبلغ ذلک علیا فأتاه فقال:ما تصـنع؟قال:ولـدت تماما لسـته أشـهر و هل یکون ذلک؟قال علی:أ ما سمعت الله تعالی یقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً -و قال:

حَوْلَیْنِ کٰامِلَیْنِ فکم تجده بقی إلا سته أشهر؟.

فقال عثمان:و الله ما فطنت لهذا.علی بالمرأه فوجدوها قد فرغ منها،و کان من قولها لأختها:لا تحزنی-فو الله ما کشف فرجی أحد قط غیره.قال:فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به-و کان أشبه الناس به.قال:فرأیت الرجل بعد یتساقط عضوا عضوا علی فراشه.

و فی التهذیب،بإسـناده عن عبد الله بن سـنان عن أبی عبد الله(ع)قال*: سأله أبی و أنا حاضر عن قول الله عز و جل:« حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ »قال:الاحتلام.

و فی الخصال،عن أبی بصـیر قال:قال أبو عبد الله(ع): إذا بلغ العبد ثلاثا و ثلاثین سـنه فقد بلغ أشده،و إذا بلغ أربعین سنه فقد بلغ منتهاه،فإذا طعن فی إحدی و أربعین فهو فی النقصان، و ینبغی لصاحب الخمسین أن یکون کمن کان فی النزع.

أقول:لا تخلو الروایه من إشعار بکون بلوغ الأشد مما یختلف بالمراتب فیکون الاحتلام و هو غالبا فی الست عشره أول مرتبه منها و الثلاث و الثلاثین و هی بعـد مضـی ست عشـره أخری المرتبه الثانیه،و قـد تقـدم فی نظیره الآیه من سوره یوسف بعض أخبار أخر.

ص: ۲۰۷

و اعلم أنه قد وردت فی الآیه أخبار تطبقها علی الحسین بن علی(ع)و ولادته لسته أشهر و هی من الجری.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن عبد الله قال"* :إنی لفی المسجد حین خطب مروان فقال:إن الله قد أری أمیر المؤمنین فی یزید رأیا حسنا-و إن یستخلفه فقد استخلف أبو بکر و عمر،فقال عبد الرحمن بن أبی بکر:أ هرقلیه؟إن أبا بکر و الله ما جعلها فی أحد من ولده-و لا أحد من أهل بیته-و لا جعلها معاویه إلا رحمه و کرامه لولده.

فقال مروان:أ لست الذی قال لوالدیه:أف لکما؟فقال عبد الرحمن:أ لست ابن اللعین-الذی لعن أباک رسول الله ص؟.

قال:و سمعتها عائشه فقالت:یا مروان أنت القائل لعبد الرحمن کذا و کذا؟ کذبت و الله ما فیه نزلت.نزلت فی فلان بن فلان.

و فیه،أخرج ابن جریر عن ابن عباس"*:فی الذی قال لوالدیه أف لکما الآیه،قال:

هذا ابن لأبی بکر:

أقول:و روی ذلک أیضا عن قتاده و السدی،و قصه روایه مروان و تکذیب عائشه له مشهوره.قال فی روح المعانی بعد رد روایه مروان:و وافق بعضهم کالسهیلی فی الأعلام مروان فی زعم نزولها فی عبد الرحمن،و علی تسلیم ذلک لا معنی للتعییر لا سیما من مروان فإن الرجل أسلم و کان من أفاضل الصحابه و أبطالهم،و کان له فی الإسلام عناء یوم الیمامه و غیره،و الإسلام یجب ما قبله فالکافر إذا أسلم لا ینبغی أن یعیر بما کان یقول.انتهی.

و فیه أن الروایات لو صحت لم یکن مناص عن صریح شهاده الآیه علیه بقوله:

« أُولٰئِکَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ -إلی قوله- إِنَّهُمْ کٰانُوا خٰاسِرِینَ »و لم ینفع شیء مما دافع عنه به.

و فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا -إلی قوله- وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا »قال:أکلتم و شربتم و رکبتم،و هی فی بنی فلان« فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ »قال:العطش.

و فی المحاسن،بإسناده عن ابن القداح عن أبی عبد الله(ع)عن آبائه(ع)

قال*: أتى يعنى النبى ص بخبيص (۱)فأبى أن يأكله-فقيل:أ تحرمه؟فقال:لا-و لكنى أكره أن تتوق إليه نفسى-ثم تلا الآيه« أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ».

و فى المجمع،فى الآيه و قد روى فى الحديث أن عمر بن الخطاب قال*: استأذنت على رسول الله ص-فدخلت عليه فى مشربه أم إبراهيم-و إنه لمضطجع على حفصه و إن بعضه على التراب-و تحت رأسه وساده محشوه ليفا-فسلمت عليه ثم جلست فقلت:يا رسول الله-أنت نبى الله و صفوته و خيرته من خلقه-و كسرى و قيصر على سرير الذهب و فرش الحرير و الديباج!فقال رسول الله ص:أولئك قوم عجلت طيباتهم-و هى وشيكه الانقطاع،و إنما أخرت لنا طيباتنا.:

أقول:و رواه فى الدر المنثور،بطرق عنه .

[سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الى ۲۸]

اشاره

وَ اُذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَ قَدْ خَلَتِ اَلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصَّادِقِينَ (۲۲) قَالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اِسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ (۲۵) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصَاراً وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاَ أَبْصَارُهُمْ وَ لاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اَللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ اَلْقُرَى وَ صَرَّفْنَا اَلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لاَ نَصَرَهُمُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸)

۱- ۱) نوع من الحلواء.

بیان

لما قسم الناس علی قسمین و انتهی الکلام إلی الإنذار عقب ذلک بالإشاره إلی قصتین قصه قوم عاد و هلاکهم و معها الإشاره إلی هلاک القری التی حول مکه و قصه إیمان قوم من الجن صرفهم الله إلی النبی ص فاستمعوا القرآن فآمنوا و رجعوا إلی قومهم منذرین و إنما أورد القصتین لیعتبر بهما من شاء أن یعتبر منهم،و هذه الآیات المنقوله تتضمن أولی القصتین.

قوله تعالی:« وَ اذْکُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ »إلخ،أخو القوم هو المنسوب إلیهم من جهه الأب،و المراد بأخی عاد هود النبی(ع)،و الأحقاف مسکن قوم عاد و المتیقن أنه فی جنوب جزیره العرب و لا أثر الیوم باقیا منهم،و اختلفوا أین هو؟فقیل:واد بین عمان و مهره،و قیل رمال بین عمان إلی حضرموت،و قیل:رمال مشرفه علی البحر بالشحر من أرض الیمن و قیل غیر ذلک.

ص: ۲۱۰

و قوله:« وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ » النذر جمع نذير و المراد به الرسول على ما يفيده السياق،و أما تعميم بعضهم النذر للرسول و نوابهم من العلماء ففى غير محله.

و فسروا« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ »بالذين كانوا قبله و« مِنْ خَلْفِهِ »بالذين جاءوا بعده و يمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا فى زمانه،و من خلفه من كان قبله،و الأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه و من خلفه أن يكون كنايه عن مجيئه إليهم و إنذاره لهم على فتره من الرسل.

و قوله:« أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ »تفسير للإنذار و فيه إشاره إلى أن أساس دينه الذى يرجع إليه تفاصيله هو التوحيد.

و قوله:« إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »تعليل لدعوتهم إلى التوحيد، و الظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامه يدل على ذلك ما سيأتى من قولهم:« فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا »و قوله:« بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ »و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَأْفِكَنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا »إلخ،جواب القوم له قبال إنذاره،و قوله:« لِتَأْفِكَنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا »بتضمين الإفك و هو الكذب و الفريه معنى الصرف و المعنى:قالوا أ جئتنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكا و افتراء.

و قوله:« فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ »أمر تعجيزى منهم له زعما منهم أنه(ع)كاذب فى دعواته آفك فى إنذاره.

قوله تعالى:« قٰالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ »إلخ،جواب هود عن قولهم ردا عليهم،فقوله:« إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ »قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنه من الغيب الذى لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه،و هو كنايه عن أنه(ع)لا علم له بأنه ما هو؟و لا كيف هو؟و لا متى هو؟و لذلك عقبه بقوله:« وَ أُبَلِّغُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ »أى إن الذى حملته و أرسلت به إليكم هو الذى أبلغكموه و لا علم لى بالعذاب الذى أمرت بإنذاركم به ما هو؟و كيف هو؟و متى هو؟و لا قدره لى عليه.

و قوله:« وَ لٰكِنِّي أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ »إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه،و المعنى:لا علم لى بما تستعجلون به من العذاب و لكنى أراكم قوما

تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم و خيركم من شركم حين تردون دعوه الله و تكذبون بآياته و تستهزءون بما يوعدكم به من العذاب.

قوله تعالى:« فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا »إلخ، صفه نزول العذاب إليهم بادئ ظهوره عليهم.

و العارض هو السحاب يعرض فى الأفق ثم يطبق السماء و هو صفه العذاب الذى يرجع إليه ضمير« رَأَوْهُ »المعلوم من السياق، و قوله:« مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ »صفه أخرى له،و الأوديه جمع الوادى،و قوله:« قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا »أى استبشروا ظنا منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا:هذا الذى نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

و قوله:« بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ »رد لقولهم:« هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا »بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقه فبين أولا على طريق التهكم أنه العذاب الذى استعجلتم به حين قلتم:« فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ »و زاد فى البيان ثانيا بقوله:« رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ ».

و الكلام من كلامه تعالى و قيل:هو كلام لهود النبى(ع).

قوله تعالى:« تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » التدمير الإهلاك،و تعلقه بكل شىء و إن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصصه بنحو الإنسان و الدواب و الأموال،فالمعنى:أن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرت عليه من إنسان و دواب و أموال.

و قوله:« فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاّ مَساكِنُهُمْ »بيان لنتيجه نزول العذاب،و قوله:

« كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »إعطاء ضابط كلى فى مجازاه المجرمين بتشبيه الكلى بالفرد الممثل به و التشبيه فى الشده أى إن سنتنا فى جزاء المجرمين على هذا النحو الذى قصصناه من الشده فهو كقوله تعالى: «وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» :هود:۱۰۲.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ »إلخ،موعظه لكفار مكه مستنتجه من القصه.

و التمكين إقرار الشىء و إثباته فى المكان،و هو كناية عن إعطاء القدره و الاستطاعه فى التصرف و«ما»فى«فيما»موصوله أو موصوفه و« إِنْ »نافيه، و المعنى:و لقد جعلنا قوم هود فى الذى-أو فى شىء-ما مكناكم معشر كفار مكه و من يتلوكم فيه من بسطه الأجسام و قوه الأبدان و البطش الشديد و القدره القوميه.

و قوله:« وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً »أى جهزناهم بما يدركون به ما ينفعهم و ما يضرهم و هو السمع و الأبصار و ما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع و لدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك.

و قوله:« فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللّهِ »ما فى« فَما أَغْنى »نافيه لا استفهاميه،و« إِذْ »ظرف متعلق بالنفى الذى فى قوله:« فَما أَغْنى ».

و محصل المعنى:أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره و الاتقاء من الحوادث المهلكه المبيده لكن لم يغن عنهم و لم ينفعهم هذه المشاعر و الأفئده شيئا عند ما جحدوا آيات الله فما الذى يؤمنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله.

و قيل:معنى الآيه:و لقد مكناهم فى الذى أو فى شىء ما مكناكم فيه من القوه و الاستطاعه و جعلنا لهم سمعا و أبصارا و أفئده ليستعملوها فيما خلقت له و يسمعوا كلمه الحق و يشاهدوا آيات التوحيد و يعتبروا بالتفكر فى العبر،و يستدلوا بالتعقل الصحيح على المبدإ و المعاد فما أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم و لا أفئدتهم من شىء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفه الله سبحانه،هذا و لعل الذى قدمناه من المعنى أنسب للسياق.

و قد جوزوا فى مفردات الآيه وجوها لم نوردها لعدم جدوى فيها.

و قد تقدم فى نظائر قوله:« سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً »أن إفراد السمع-و المراد منه الجمع-لمكان مصدريته فى الأصل نظير الضيف و القربان و الجنب،قال تعالى:

«ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» :الذاريات:۲۴ و قال: «إِذْ قَرَّبا قُرْباناً» :المائده:۲۷، و قال: «وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً» :المائده:۶.

و قوله:« وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ »عطف علی قوله:« فَما أَغْنی عَنْهُمْ »إلخ.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ أَهْلَکْنا ما حَوْلَکُمْ مِنَ الْقُری »تذکره إنذاریه متفرعه علی العظه التی فی قوله:« وَ لَقَدْ مَکَّنّاهُمْ »إلخ،فهی معطوفه علیه علی ما یفیده السیاق لا علی قوله:« وَ اذْکُرْ أَخا عادٍ ».

و قوله:« وَ صَرَّفْنَا الْآیاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ »أی و صیرنا الآیات المختلفه من معجزه أیدنا بها الأنبیاء و وحی أنزلناه علیهم و نعم رزقناهموها لیتذکروا بها و نقم ابتلیناهم بها لیتوبوا و ینصرفوا عن ظلمهم لعلهم یرجعون من عباده غیر الله سبحانه إلی عبادته.

و الضمیر فی« لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ »راجع إلی القری و المراد بها أهل القری.

قوله تعالی:« فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ قُرْباناً آلِهَهً »إلخ،ظاهر السیاق أن آلهه مفعول ثان لاتخذوا و مفعوله الأول هو الضمیر الراجع إلی الموصول و «قربانا» بمعنی ما یتقرب به،و الکلام مسوق للتهکم، و المعنی:فلو لا نصرهم الذین اتخذوهم آلهه حال کونهم متقربا بهم إلی الله کما کانوا یقولون:« ما نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِیُقَرِّبُونا إِلَی اللّهِ زُلْفی ».

و قوله:« بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ »أی ضل الآلهه عن أهل القری و انقطعت رابطه الألوهیه و العبودیه التی کانوا یزعمونها و یرجون بذلک أن ینصروهم عند الشدائد و المکاره فالضلال عنهم کنایه عن بطلان مزعمتهم.

و قوله:« وَ ذلِکَ إِفْکُهُمْ وَ ما کانُوا یَفْتَرُونَ »مبتدأ و خبر و الإشاره إلی ضلال آلهتهم،و المراد بالإفک أثر الإفک أو بتقدیر مضاف،و« ما »مصدریه،و المعنی:

و ذلک الضلال أثر إفکهم و افترائهم.

و یمکن أن یکون الکلام علی صورته من غیر تقدیر مضاف أو تجوز و الإشاره إلی إهلاکهم بعد تصریف الآیات و ضلال آلهتهم عند ذلک،و محصل المعنی:أن هذا الذی ذکرناه من عاقبه أمرهم هو حقیقه زعمهم أن الآلهه یشفعون لهم و یقربونهم من الله زعمهم الذی أفکوه و افتروه،و الکلام مسوق للتهکم.

ص :۲۱۴

[سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۲۹ الی ۳۵]

اشاره

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ اَلْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ اَلْقُرْآنَ فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ (۲۹) قالُوا یا قَوْمَنا
إِنّا سَمِعْنا کِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ یَهْدِی إِلَی اَلْحَقِّ وَ إِلی طَرِیقٍ مُسْتَقِیمٍ (۳۰) یا قَوْمَنا أَجِیبُوا داعِیَ اَللّهِ وَ
آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ (۳۱) وَ مَنْ لا یُجِبْ داعِیَ اَللّهِ فَلَیْسَ بِمُعْجِزٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لَیْسَ لَهُ مِنْ
دُونِهِ أَوْلِیاءُ أُولئِکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۳۲) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اَللّهَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلی أَنْ
یُحْیِیَ اَلْمَوْتی بَلی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۳) وَ یَوْمَ یُعْرَضُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی اَلنّارِ أَ لَیْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلی وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا
اَلْعَذابَ بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ کَما صَبَرَ أُولُوا اَلْعَزْمِ مِنَ اَلرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ ما یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّ
ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ یُهْلَکُ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْفاسِقُونَ (۳۵)

بیان

هذه هی القصه الثانیه عقبت بها قصه عاد لیعتبر بها قومه(ص)أن اعتبروا،

ص :۲۱۵

و فیه تقریع للقوم حیث کفروا به(ص)و بکتابه النازل علی لغتهم و هم یعلمون أنها آیه معجزه و هم مع ذلک یماثلونه فی النوعیه البشریه و قد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إلیه و رجعوا إلی قومهم منذرین.

قوله تعالی:« وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ »إلی آخر الآیه الصرف رد الشیء من حاله إلی حاله أو من مکان إلی مکان،و النفر-علی ما ذکره الراغب-عده من الرجال یمکنهم النفر و هو اسم جمع یطلق علی ما فوق الثلاثه من الرجال و النساء و الإنسان و علی الجن کما فی الآیه و« یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ »صفه نفر،و المعنی:

و اذکر إذ وجهنا إلیک عده من الجن یستمعون القرآن.

و قوله:« فَلَمّٰا حَضَرُوهُ قٰالُوا أَنْصِتُوا »ضمیر« حَضَرُوهُ »للقرآن بما یلمح إلیه من المعنی الحدثی و الإنصات السکوت للاستماع أی فلما حضروا قراءه القرآن و تلاوته قالوا أی بعضهم لبعض:اسکتوا حتی نستمع حق الاستماع.

و قوله:« فَلَمّٰا قُضِیَ وَلَّوْا إِلیٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ »ضمیر« قُضِیَ »للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته،و التولیه الانصراف و« مُنْذِرِینَ »حال من ضمیر الجمع فی« وَلَّوْا » أی فلما أتمت القراءه و فرغ منها انصرفوا إلی قومهم حال کونهم منذرین مخوفین لهم من عذاب الله.

قوله تعالی:« قٰالُوا یٰا قَوْمَنٰا إِنّٰا سَمِعْنٰا کِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسیٰ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ »إلخ،حکایه دعوتهم قومهم و إنذارهم لهم،و المراد بالکتاب النازل بعد موسی القرآن،و فی الکلام إشعار بل دلاله علی کونهم مؤمنین بموسی(ع)و کتابه،و المراد بتصدیق القرآن لما بین یدیه تصدیقه التوراه أو جمیع الکتب السماویه السابقه.

و قوله:« یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ وَ إِلیٰ طَرِیقٍ مُسْتَقِیمٍ »أی یهدی من اتبعه إلی صراط الحق و إلی طریق مستقیم لا یضل سالکوه عن الحق فی الاعتقاد و العمل.

قوله تعالی:« یٰا قَوْمَنٰا أَجِیبُوا دٰاعِیَ اللّٰهِ وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ »المراد بداعی الله هو النبی ص قال تعالی: «قُلْ هٰذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّٰهِ عَلیٰ بَصِیرَهٍ» :یوسف:۱۰۸،و قیل: المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعید.

و الظاهر أن« مِنْ »فی« یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ »للتبعیض،و المراد مغفره بعض الذنوب و هی التی اکتسبوها قبل الإیمان،قال تعالی: «إِنْ یَنْتَهُوا یُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ» :الأنفال:٣٨.

و قیل:المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفوره بالتوبه و الإیمان توبه و أما حقوق الناس فإنها غیر مغفوره بالتوبه،و رد بأن الإسلام یجب ما قبله.

قوله تعالی:« وَ مَنْ لاٰ یُجِبْ دٰاعِیَ اللّٰهِ فَلَیْسَ بِمُعْجِزٍ فِی الْأَرْضِ وَ لَیْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءُ »إلخ،أی و من لم یؤمن بداعی الله فلیس بمعجز لله فی الأرض برد دعوته و لیس له من دون الله أولیاء ینصرونه و یمدونه فی ذلک،و المحصل:أن من لم یجب داعی الله فی دعوته فإنما ظلم نفسه و لیس له أن یعجز الله بذلک لا مستقلا و لا بنصره من ینصره من الأولیاء فلیس له أولیاء من دون الله،و لذلک أتم الکلام بقوله:« أُولٰئِکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ ».

قوله تعالی:« أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ »إلخ،الآیه و ما بعدها إلی آخر السوره متصله بما تقدم من قوله تعالی:« وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ »إلخ،و فیها تتمیم القول فیما به الإنذار فی هذه السوره و هو المعاد و الرجوع إلی الله تعالی کما أشرنا إلیه فی البیان المتقدم.

و المراد بالرؤیه العلم عن بصیره،و العی العجز و التعب،و الأول أفصح علی ما قیل،و الباء فی« بِقٰادِرٍ »زائده لوقوعها موقعا فیه شائبه حیز النفی کأنه قیل:أ لیس الله بقادر.

و المعنی:أ و لم یعلموا أن الله الذی خلق السماوات و الأرض و لم یعجز عن خلقهن أو لم یتعب بخلقهن قادر علی إحیاء الموتی-و هو تعالی مبدئ وجود کل شیء و حیاته- بلی هو قادر لأنه علی کل شیء قدیر،و قد أوضحنا هذه الحجه فیما تقدم غیر مره.

قوله تعالی:« وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النّٰارِ أَ لَیْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ »إلی آخر الآیه،تأیید للحجه المذکوره فی الآیه السابقه بالإخبار عما سیجری علی منکری المعاد یوم القیامه،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی:« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ »إلی آخر الآیه،تفریع علی حقیه المعاد علی ما دلت علیه الحجه العقلیه و أخبر به الله سبحانه و نفی الریب عنه.

و المعنی:فاصبر علی جحود هؤلاء الکفار و عدم إیمانهم بذاک الیوم کما صبر أولوا العزم من الرسل و لا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سیلاقون الیوم بما فیه من العذاب و لیس الیوم عنهم ببعید و إن استبعدوه.

و قوله:« كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ »تبیین لقرب الیوم منهم و من حیاتهم الدنیا بالإخبار عن حالهم حینما یشاهدون ذلک الیوم فإنهم إذا رأوا ما یوعدون من الیوم و ما هیئ لهم فیه من العذاب کان حالهم حال من لم یلبث فی الأرض إلا ساعه من نهار.

و قوله:« بَلاٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفٰاسِقُونَ »أی هذا القرآن بما فیه من البیان تبلیغ من الله من طریق النبوه فهل یهلک بهذا الذی بلغه الله من الإهلاک إلا القوم الفاسقون الخارجون عن زی العبودیه.

و قد أمر الله سبحانه فی هذه الآیه نبیه ص أن یصبر کما صبر أولوا العزم من الرسل و فیه تلویح إلی أنه(ص)منهم فلیصبر کصبرهم،و معنی العزم هاهنا أما الصبر کما قال بعضهم لقوله تعالی: «وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» :الشوری:

۴۳،و إما العزم علی الوفاء بالمیثاق المأخوذ من الأنبیاء کما یلوح إلیه قوله: «وَ لَقَدْ عَهِدْنٰا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» :طه:۱۱۵،و إما العزم بمعنی العزیمه و هی الحکم و الشریعه.

و علی المعنی الثالث و هو الحق الذی تذکره روایات أئمه أهل البیت(ع) هم خمسه:نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمد صلی الله علیه و آله و سلم و علیهم و لقوله تعالی: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ» :الشوری:۱۳،و قد مر تقریب معنی الآیه.

و عن بعض المفسرین أن جمیع الرسل أولوا العزم،و قد أخذ« مِنَ الرُّسُلِ »

بیانا لأولی العزم فی قوله:« أَولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ »و عن بعضهم أنهم الرسل الثمانیه عشر المذکورون فی سوره الأنعام(الآیه ۸۳-۹۰)لأنه تعالی قال بعد ذکرهم:

« فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ ».

و فیه أنه تعالی قال بعد عدهم:« وَ مِنْ آبٰائِهِمْ وَ ذُرِّیّٰاتِهِمْ وَ إِخْوٰانِهِمْ »ثم قال:

« فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ »و لم یقل ذلک بعد عدهم بلا فصل.

و عن بعضهم أنهم تسعه:نوح و إبراهیم و الذبیح و یعقوب و یوسف و أیوب و موسی و داود و عیسی،و عن بعضهم أنهم سبعه:آدم و نوح و إبراهیم و موسی و داود و سلیمان و عیسی،و عن بعضهم أنهم سته و هم الذین أمروا بالقتال:نوح و هود و صالح و موسی و داود و سلیمان،و ذکر بعضهم أن السته هم نوح و إبراهیم و إسحاق و یعقوب و یوسف و أیوب،و عن بعضهم أنهم خمسه و هم:نوح و هود و إبراهیم و شعیب و موسی، و عن بعضهم أنهم أربعه:نوح و إبراهیم و موسی و عیسی،و ذکر بعضهم أن الأربعه هم نوح و إبراهیم و هود و محمد صلی الله علیه و آله و سلم و علیهم أجمعین.

و هذه الأقوال بین ما لم یستدل علیه بشیء أصلا و بین ما استدل علیه بما لا دلاله فیه،و لذا أغمضنا عن نقلها،و قد تقدم فی أبحاث النبوه فی الجزء الثانی من الکتاب بعض الکلام فی أولی العزم من الرسل فراجعه إن شئت.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی:« وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ »الآیات،کان سبب نزول هذه الآیات أن رسول الله ص-خرج من مکه إلی سوق عکاظ،و معه زید بن حارثه یدعو الناس إلی الإسلام-فلم یجبه أحد و لم یجد أحدا یقبله ثم رجع إلی مکه.

فلما بلغ موضعا یقال له:وادی مجنه (۱)تهجد بالقرآن فی جوف اللیل فمر به

۱- ۱) المجنه:محل الجن.

نفر من الجن-فلما سمعوا قراءه رسول الله ص استمعوا له-فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض:« أَنْصِتُوا »يعنى اسكتوا« فَلَمّٰا قُضِيَ »أى فرغ رسول الله ص من القرآن- « وَلَّوْا إِلىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰا »إلى آخر الآيات.

فجاءوا إلى رسول الله ص و أسلموا و آمنوا-و علمهم رسول الله ص شرائع الإسلام-فأنزل الله عز و جل على نبيه ص« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » السوره كلها،فحكى الله قولهم-و ولى عليهم رسول الله ص منهم،و كانوا يعودون إلى رسول الله ص فى كل وقت-فأمر رسول الله ص أمير المؤمنين(ع) أن يعلمهم و يفقههم-فمنهم مؤمنون و كافرون و ناصبون-و يهود و نصارى و مجوس، و هم ولد الجان.

أقول:و الروايات فى قصه هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيره مختلفه اختلافا شديدا،و لا سبيل إلى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها و لذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمى و سيأتى نبذ منها فى تفسير سوره الجن إن شاء الله تعالى.

و فيه،: سئل العالم(ع)عن مؤمنى الجن أ يدخلون الجنه؟فقال:لا-و لكن لله حظائر بين الجنه و النار-يكون فيها مؤمنوا الجن و فساق الشيعه.

أقول:و روى مثله فى بعض الروايات الموقوفه من طرق أهل السنه،و روايه القمى مرسله كالمضمره فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنه و عمومات الكتاب تدل على عموم الثواب للمطيعين من الإنس و الجن.

و فى الكافى،بإسناده عن ابن أبى يعفور قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول:

ساده النبيين و المرسلين خمسه:و هم أولوا العزم من الرسل و عليهم دارت الرحى:نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم و على جميع الأنبياء.

و فيه،بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبى جعفر(ع)قال*:قال رسول الله ص: إن أول وصى كان على وجه الأرض هبه الله بن آدم،و ما من نبى مضى إلا و له وصى.

و كان جميع الأنبياء مائه ألف و عشرين ألف نبى:منهم خمسه أولوا العزم:

نوح و إبراهيم و موسى-و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم و عليهم.الحديث.

أقول:كون أولى العزم خمسه مما استفاضت عليه الروايات عن أئمه أهل البيت (ع)فهو مروى عن النبى ص و عن الباقر و الصادق و الرضا(ع) بطرق كثيره.

و عن روضه الواعظين للمفيد،: قيل للنبى ص:كم بين الدنيا و الآخره؟قال:

غمضه عين قال الله عز و جل:« كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُونَ-لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ بَلاٰغٌ »الآيه.

ص :٢٢١

(۴۷) سوره محمد مدنیه و هی ثمان و ثلاثون آیه(۳۸)

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلیٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ اَلْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ کَفَّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ (۲) ذٰلِکَ بِأَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا اِتَّبَعُوا اَلْبٰاطِلَ وَ أَنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّبَعُوا اَلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ
کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ (۳) فَإِذٰا لَقِیتُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ اَلرِّقٰابِ حَتّٰی إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا اَلْوَثٰاقَ فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا
فِدٰاءً حَتّٰی تَضَعَ اَلْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا ذٰلِکَ وَ لَوْ یَشٰاءُ اَللّٰهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ وَ اَلَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَلَنْ
یُضِلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۴) سَیَهْدِیهِمْ وَ یُصْلِحُ بٰالَهُمْ (۵) وَ یُدْخِلُهُمُ اَلْجَنَّهَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ (۶)

بیان

تصف السوره الذین کفروا بما یخصهم من الأوصاف الخبیثه و الأعمال السیئه و تصف الذین آمنوا بصفاتهم الطیبه و أعمالهم الحسنه ثم تذکر ما یعقب صفات هؤلاء

ص: ۲۲۲

من النعمه و الكرامه و صفات أولئك من النقمه و الهوان و على الجمله فيها المقايسه بين الفريقين فى صفاتهم و أعمالهم فى الدنيا و ما يترتب عليها فى الأخرى،و فيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام.

و هى سوره مدنيه على ما يشهد به سياق آياتها.

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ »فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله و هو الإسلام كما عن بعضهم،و فسر بالمنع و هو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبى ص يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

و ثانى التفسيرين أوفق لسياق الآيات التاليه و خاصه ما يأمر المؤمنين بقتلهم و أسرهم و غيرهم.

فالمراد بالذين كفروا كفار مكه و من تبعهم فى كفرهم و قد كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالنبى ص و يفتنونهم،و صدوهم أيضا عن المسجد الحرام.

و قوله:« أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ »أى جعل أعمالهم ضاله لا تهتدى إلى مقاصدها التى قصدت بها و هى بالجمله إبطال الحق و إحياء الباطل فالجمله فى معنى ما تكرر منه تعالى من قوله: «وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ» :البقره:۲۶۴،و قد وعد سبحانه بإحياء الحق و إبطال الباطل كما فى قوله: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبٰاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» :الأنفال:۸.

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول إلى الغايه،و عد ذلك ضلالا من الاستعاره بالكنايه.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ »إلخ،ظاهر إطلاق صدر الآيه أن المراد بالذين آمنوا إلخ،مطلق من آمن و عمل صالحا فيكون قوله:« وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ »تقييدا احترازيا لا تأكيدا و ذكرا لما تعلقت به العنايه فى الإيمان.

و قوله:« وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ »جمله معترضه و الضمير راجع إلى ما نزل.

و قوله:« كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ »قال فى المجمع: البال الحال و الشأن و البال القلب أيضا يقال:خطر ببالى كذا،و البال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال و الشأن انتهى.

و قد قوبل إضلال الأعمال فی الآیه السابقه بتکفیر السیئات و إصلاح البال فی هذه الآیه فمعنی ذلک هدایه إیمانهم و عملهم الصالح إلی غایه السعاده،و إنما یتم ذلک بتکفیر السیئات المانعه من الوصول إلی السعاده،و لذلک ضم تکفیر السیئات إلی إصلاح البال.

و المعنی:ضرب الله الستر علی سیئاتهم بالعفو و المغفره،و أصلح حالهم فی الدنیا و الآخره أما الدنیا فلأن الدین الحق هو الدین الذی یوافق ما تقتضیه الفطره الإنسانیه التی فطر الله الناس علیها،و الفطره لا تقتضی إلا ما فیه سعادتها و کمالها ففی الإیمان بما أنزل الله من دین الفطره و العمل به صلاح حال المؤمنین فی مجتمعهم الدنیوی،و أما فی الآخره فلأنها عاقبه الحیاه الدنیا و إذ کانت فاتحتها سعیده کانت خاتمتها کذلک قال تعالی: «وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوی» :طه:۱۳۲.

قوله تعالی:« ذٰلِکَ بِأَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ »إلخ،تعلیل لما فی الآیتین السابقتین من إضلال أعمال الکفار و إصلاح حال المؤمنین مع تکفیر سیئاتهم.

و فی تقیید الحق بقوله:« مِنْ رَبِّهِمْ »إشاره إلی أن المنتسب إلیه تعالی هو الحق و لا نسبه للباطل إلیه و لذلک تولی سبحانه إصلاح بال المؤمنین لما ینتسب إلیه طریق الحق الذی اتبعوه،و أما الکفار بأعمالهم فلا شأن له تعالی فیهم و أما انتساب ضلالهم إلیه فی قوله:« أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ »فمعنی إضلال أعمالهم عدم هدایته لها إلی غایات صالحه سعیده.

و فی الآیه إشاره إلی أن الملاک کل الملاک فی سعاده الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل و السبب فی ذلک انتساب الحق إلیه تعالی دون الباطل.

و قوله:« کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ »أی یبین لهم أوصافهم علی ما هی علیه، و فی الإتیان باسم الإشاره الموضوعه للبعید تفخیم لأمر ما ضربه من المثل.

قوله تعالی:« فَإِذٰا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ »إلی آخر الآیه،تفریع علی ما تقدم فی الآیات الثلاث من وصف الفریقین کأنه قیل:إذا کان المؤمنون أهل الحق و الله ینعم علیهم بما ینعم و الکفار أهل الباطل و الله یضل أعمالهم فعلی المؤمنین إذا لقوا

الکفار أن یقتلوهم و یأسروهم لیحیا الحق الذی علیه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذی علیه الکفار.

فقوله:« فَإِذٰا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ »المراد باللقاء اللقاء فی القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فیه،و التقدیر:فاضربوا الرقاب -أی رقابهم-ضربا و ضرب الرقبه کنایه عن القتل بالسیف،لأن أیسر القتل و أسرعه ضرب الرقبه به.

و قوله:« حَتّٰی إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ »فی المجمع: الإثخان إکثار القتل و غلبه العدو و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتد علیه و أثخنه الجراح.انتهی.و فی المفردات: وثقت به أثق ثقه سکنت إلیه و اعتمدت علیه،و أوثقته شددته،و الوثاق -بفتح الواو- و الوثاق -بکسر الواو-اسمان لما یوثق به الشیء.انتهی.و« حَتّٰی » غایه لضرب الرقاب،و المعنی:فاقتلوهم حتی إذا أکثرتم القتل فیهم فأسروهم بشد الوثاق و إحکامه فالمراد بشد الوثاق الأسر فالآیه فی ترتب الأسر فیها علی الإثخان فی معنی قوله تعالی: «مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ» :الأنفال:۶۷.

و قوله:« فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰاءً »أی فأسروهم و یتفرع علیه أنکم إما تمنون علیهم منا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم و إما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لکم عندهم من الأساری.

و قوله:« حَتّٰی تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا » أوزار الحرب أثقالها و هی الأسلحه التی یحملها المحاربون و المراد به وضع المقاتلین و أهل الحرب أسلحتهم کنایه عن انقضاء القتال.

و قد تبین بما تقدم من المعنی ما فی قول بعضهم إن هذه الآیه ناسخه لقوله تعالی:

«مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ» :الأنفال:۶۷،لأن هذه السوره متأخره نزولا عن سوره الأنفال فتکون ناسخه لها.

و ذلک لعدم التدافع بین الآیتین فآیه الأنفال تنهی عن الأسر قبل الإثخان و الآیه المبحوث عنها تأمر بالأسر بعد الإثخان.

و کذا ما قیل:إن قوله:« فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ »إلخ،منسوخ بآیه السیف «فَاقْتُلُوا

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» :التوبه:۵،و كأنه مبنى على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخا له لا مخصصا به و الحق خلافه و تمام البحث فى الأصول،و فى الآيه أيضا مباحث فقهيه محلها علم الفقه.

و قوله:« ذٰلِكَ »أى الأمر ذلك أى إن حكم الله هو ما ذكر فى الآيه.

و قوله:« وَ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ »الضمير للكفار أى و لو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم و تعذيبهم من غير أن يأمركم بقتالهم.

و قوله:« وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ »استدراک من مشيه الانتصار أى و لكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين و يمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبه من الباطل و الرجوع إلى الحق.

و قد ظهر بذلک أن قوله:« لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ »تعليل للحكم المذكوره فى الآيه و الخطاب فى« بَعْضَكُمْ »لمجموع المؤمنين و الكفار و وجه الخطاب إلى المؤمنين.

و قوله:« وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمٰالَهُمْ »الكلام مسوق سوق الشرط و الحكم عام أى و من قتل فى سبيل الله و هو الجهاد و القتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحه التى أتوا بها فى سبيل الله.

و قيل:المراد بقوله:« وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ »شهداء يوم أحد،و فيه أنه تخصيص من غير مخصص و السياق سياق العموم.

قوله تعالى:« سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ »الضمير للذين قتلوا فى سبيل الله فالآيه و ما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهاده أى سيهديهم الله إلى منازل السعاده و الكرامه و يصلح حالهم بالمغفره و العفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنه.

و إذا انضمت هذه الآيه إلى قوله تعالى: «وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» :آل عمران:۱۶۹،ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحياؤهم حياه يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء.

و قال فى المجمع،:و الوجه فى تكرير قوله:« بٰالَهُمْ »أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم فى الدين و الدنيا،و بالثانى أنه يصلح حالهم فى نعيم العقبى فالأول سبب النعيم و الثانى نفس النعيم.انتهى. و الفرق بين ما ذكره من المعنى و ما قدمناه أن قوله

تعالى:« وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ »على ما ذكرنا كالعطف التفسيرى لقوله:« سَيَهْدِيهِمْ »دون ما ذكره،و قوله الآتى:« وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ »على ما ذكره كالعطف التفسيرى لقوله:

« وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ »دون ما ذكرناه.

قوله تعالى:« وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ »غايه هدايته لهم،و قوله:« عَرَّفَهٰا لَهُمْ »حال من إدخاله إياهم الجنه أى سيدخلهم الجنه و الحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدنيوى من طريق الوحى و النبوه و إما بالبشرى عند القبض أو فى القبر أو فى القيامه أو فى جميع هذه المواقف هذا ما يفيده السياق من المعنى.

بحث روائی

فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن على قال*: سوره محمد آيه فينا و آيه فى بنى أميه.

أقول:و روى القمى فى تفسيره،عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبى عبد الله (ع):مثله .

و فى المجمع،:فى قوله:« فَإِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ »إلخ:،

المروى عن أئمه الهدى(ع): أن الأسارى ضربان:ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال- و الحرب قائمه فهؤلاء يكون الإمام مخيرا بين أن يقتلهم-أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتى ينزفوا،و لا يجوز المن و لا الفداء.

و الضرب الآخر الذين يؤخذون-بعد أن وضعت الحرب أوزارها و انقضى القتال- فالإمام مخير فيهم بين المن و الفداء-إما بالمال أو بالنفس و بين الاسترقاق و ضرب الرقاب- فإذا أسلموا فى الحالين سقط جميع ذلك-و كان حكمهم حكم المسلمين.

أقول:و روى ما فى معناه فى الكافى عن أبى عبد الله(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج ابن المنذر عن ابن جريح"*: فى قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمٰالَهُمْ »قال:نزل فيمن قتل من أصحاب النبى ص يوم أحد.

أقول:قد عرفت أن الآيه عامه،و سياق الاستقبال فى قوله: سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ »إلخ،إنما يلائم العموم و كون الكلام مسوقا لضرب القاعده.

و قد روى أن قوله تعالى:« حَتّٰى إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ »ناسخ لقوله:

« مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ »الآيه،و أيضا أن قوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »ناسخ لقوله:« فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰاءً »و قد عرفت فيما تقدم عدم استقامه النسخ.

[سوره محمد (۴۷): الآيات ۷ الى ۱۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اَللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ (۷) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۸) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ (۹) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكٰافِرِينَ أَمْثٰالُهٰا (۱۰) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّٰهَ مَوْلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ اَلْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ (۱۱) إِنَّ اَللّٰهَ يُدْخِلُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمٰا تَأْكُلُ اَلْأَنْعٰامُ وَ اَلنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ (۱۲) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ اَلَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۴) مَثَلُ اَلْجَنَّةِ اَلَّتِى وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ فِيهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهٰا مِنْ كُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِى اَلنّٰارِ وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ (۱۵)

ص: ۲۲۸

بیان

الآیات جاریه علی السیاق السابق.

قوله تعالی:« یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدامَکُمْ » تحضیض لهم علی الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالی فالمراد بنصرهم لله أن یجاهدوا فی سبیل الله علی أن یقاتلوا لوجه الله تأییدا لدینه و إعلاء لکلمه الحق لا لیستعلوا فی الأرض أو لیصیبوا غنیمه أو لیظهروا نجده و شجاعه.

و المراد بنصر الله لهم توفیقه الأسباب المقتضیه لظهورهم و غلبتهم علی عدوهم کإلقاء الرعب فی قلوب الکفار و إداره الدوائر للمؤمنین علیهم و ربط جاش المؤمنین و تشجیعهم،و علی هذا فعطف تثبیت الأقدام علی النصر من عطف الخاص علی العام و تخصیص تثبیت الأقدام،و هو کنایه عن التشجیع و تقویه القلوب،لکونه من أظهر أفراد النصر.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ کَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ »ذکر ما یفعل بالکفار عقیب ذکر ما یفعل بالمؤمنین الناصرین لله لقیاس حالهم من حالهم.

و التعس هو سقوط الإنسان علی وجهه و بقاؤه علیه و یقابله الانتعاش و هو القیام عن السقوط علی الوجه فقوله:« فَتَعْساً لَهُمْ »أی تعسوا تعسا و هو ما یتلوه دعاء علیهم نظیر قوله: «قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّی یُؤْفَکُونَ» :التوبه:۳۰، «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ» :عبس:

۱۷،و یمکن أن یکون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعیهم علی نحو الکنایه فإن الإنسان أعجز ما یکون إذا کان ساقطا علی وجهه.

قوله تعالی:« ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ »المراد بما أنزل الله هو القرآن و الشرائع و الأحکام التی أنزلها الله تعالی علی نبیه ص و أمر بإطاعتها و الانقیاد لها فکرهوها و استکبروا عن اتباعها.

و الآیه تعلیل مضمون الآیه السابقه و المعنی ظاهر.

قوله تعالی:« أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ لِلْکٰافِرِینَ أَمْثٰالُهٰا » التدمیر الإهلاک، یقال:دمره الله أی أهلکه، و یقال:دمر الله علیه أی أهلک ما یخصه من نفس و أهل و دار و عقار فدمر علیه أبلغ من دمره کما قیل،و ضمیر« أَمْثٰالُهٰا »للعاقبه أو للعقوبه المدلول علیها بسابق الکلام.

و المراد بالکافرین الکافرون بالنبی ص،و المعنی:و للکافرین بک یا محمد أمثال تلک العاقبه أو العقوبه و إنما أوعدوا بأمثال العاقبه أو العقوبه و لا یحل بهم إلا مثل واحد لأنهم فی معرض عقوبات کثیره دنیویه و أخرویه و إن کان لا یحل بهم إلا بعضها،و یمکن أن یراد بالکافرین مطلق الکافرین،و الجمله من باب ضرب القاعده.

قوله تعالی:« ذٰلِکَ بِأَنَّ اَللّٰهَ مَوْلَی اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ اَلْکٰافِرِینَ لاٰ مَوْلیٰ لَهُمْ » الإشاره بذلک إلی ما تقدم من نصر المؤمنین و مقت الکافرین و سوء عاقبتهم،و لا یصغی إلی ما قیل:إنه إشاره إلی ثبوت عاقبه أو عقوبه الأمم السالفه لهؤلاء،و کذا ما قیل:

إنه إشاره إلی نصر المؤمنین،و ذلک لأن الآیه متعرضه لحال الطائفتین:المؤمنین و الکفار جمیعا.

و المولی کأنه مصدر میمی أرید به المعنی الوصفی فهو بمعنی الولی و لذلک یطلق علی سید العبد و مالکه لأن له ولایه التصرف فی أمور عبده،و یطلق علی الناصر لأنه یلی التصرف فی أمر منصوره بالتقویه و التأیید و الله سبحانه مولی لأنه المالک الذی یلی أمور خلقه فی صراط التکوین و یدبرها کیف یشاء،قال تعالی: «مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ شَفِیعٍ» :الم السجده:۴،و قال: «وَ رُدُّوا إِلَی اَللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ اَلْحَقِّ» یونس:۳۰،و هو تعالی مولی لأنه یلی تدبیر أمور عباده فی صراط السعاده فیهدیهم إلی سعادتهم و الجنه و یوفقهم للصالحات و ینصرهم علی أعدائهم،و المولویه بهذا المعنی الثانیه تختص بالمؤمنین،لأنهم هم الداخلون فی حظیره العبودیه المتبعون لما یریده منهم ربهم دون الکفار.

و للمؤمنین مولی و ولی هو الله سبحانه کما قال:« ذٰلِکَ بِأَنَّ اَللّٰهَ مَوْلَی اَلَّذِینَ آمَنُوا »، و قال: «اَللّٰهُ وَلِیُّ اَلَّذِینَ آمَنُوا» :البقره:۲۵۷،و أما الکفار فقد اتخذوا الأصنام أو

أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ» :البقره:۲۵۷،و نفى ولايتهم بالبناء على حقيقه الأمر فقال:« وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ »ثم نفى ولايتهم مطلقا تكوينا و تشريعا مطلقا فقال: «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» :الشورى:۹، و قال: «إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ» :النجم:۲۳.

فمعنى الآيه:أن نصره تعالى للمؤمنين و تثبيته أقدامهم و خذلانه الكفار و إضلاله أعمالهم و عقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين و وليهم،و أن الكفار لا مولى لهم فينصرهم و يهدى أعمالهم و ينجيهم من عقوبته.

و قد تبين بما تقدم ضعف ما قيل:إن المولى فى الآيه بمعنى الناصر دون المالك و إلا كان منافيا لقوله تعالى: «وَ رُدُّوا إِلَى اللّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ» :يونس:۳۰،و وجه الضعف ظاهر.

قوله تعالى:« إِنَّ اللّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النّارُ مَثْوىً لَهُمْ » مقايسه بين الفريقين و بيان أثر ولايه الله للمؤمنين و عدم ولايته للكفار من حيث العاقبه و الآخره و هى أن المؤمنين يدخلون الجنه و الكفار يقيمون فى النار.

و قد أشير فى الكلام إلى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلا من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفه المؤمنين بقوله:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ » و إلى صفه الكفار بقوله:« يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ »فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابله أن المؤمنين راشدون فى حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله و عملوا الأعمال الصالحه فسلكوا سبيل الرشد و قاموا بوظيفه الإنسانيه،و أما الكفار فلا عنايه لهم بإصابه الحق و لا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانيه،و إنما همهم بطنهم و فرجهم يتمتعون فى حياتهم الدنيا القصيره و يأكلون كما تأكل الأنعام لا منيه لهم إلا ذلك و لا غايه لهم وراءه.

فهؤلاء أى المؤمنون تحت ولايه الله حيث يسلكون مسلكا يريده منهم ربهم و يهديهم إليه و لذلك يدخلهم فى الآخره جنات تجرى من تحتها الأنهار،و أولئك أى الكفار ما لهم من ولى و إنما وكلوا إلى أنفسهم و لذلك كان مثواهم و مقامهم النار.

ص :۲۳۱

و إنما نسب دخول المؤمنين الجنات إلى الله نفسه دون إقامه الكفار فى النار قضاء لحق الولايه المذكوره فله تعالى عنايه خاصه بأوليائه،و أما المنسلخون من ولايته فلا يبالى فى أى واد هلكوا.

قوله تعالى:« وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَهٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّهً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ »المراد بالقريه أهل القريه بدليل قوله بعد:« أَهْلَكْنٰاهُمْ »إلخ،و القريه التى أخرجته(ص)هى مكه.

و فى الآيه تقويه لقلب النبى ص و تهديد لأهل مكه و تحقير لأمرهم إن الله أهلك قرى كثيره كل منها أشد قوه من قريتهم و لا ناصر لهم ينصرهم.

قوله تعالى:« أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ » السياق الجارى على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينه من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينه من ربهم كونهم على دلاله بينه من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هى الحجه البرهانيه فهم إنما يتبعون الحجه القاطعه على ما هو الحرى بالإنسان الذى من شأنه أن يستعمل العقل و يتبع الحق.

و أما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئه التى زينها لهم الشيطان و تعلقت بها أهواؤهم و عملوا السيئات،فكم بين الفريقين من فرق.

قوله تعالى:« مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »إلى آخر الآيه يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما و هو فى الحقيقه توضيح ما مر فى قوله:« إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا »إلخ من الفرق بينهما فهذه الآيه فى الحقيقه تفصيل تلك الآيه.

فقوله:« مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »المثل بمعنى الصفه-كما قيل-أى صفه الجنه التى وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها،و ربما حمل المثل على معناه المعروف و استفيد منه أن الجنه أرفع و أعلى من أن يحيط بها الوصف و يحدها اللفظ و إنما تقرب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبه كما يلوح إليه قوله تعالى: «فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ» :السجده:۱۷.

و قد بدل قوله فى الآيه السابقه:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »فى هذه الآيه من قوله:« اَلْمُتَّقُونَ »تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به و عمل

الصالحات من الأعمال.

و قوله:« فِيهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَيْرِ آسِنٍ »أی غیر متغیر بطول المقام،و قوله:« وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ »کما فی ألبان الدنیا،و قوله:« وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ » أی لذیذه للشاربین،و اللذه إما صفه مشبهه مؤنثه وصف للخمر،و إما مصدر وصفت به الخمر مبالغه،و إما بتقدیر مضاف أی ذات لذه،و قوله:« وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى »أی خالص من الشمع و الرغوه و القذی و سائر ما فی عسل الدنیا من الأذی و العیوب،و قوله:« وَ لَهُمْ فِيهٰا مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ »جمع للتعمیم.

و قوله:« وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ »ینمحی بها عنهم کل ذنب و سیئه فلا تتکدر عیشتهم بمکدر و لا ینتغص بمنغص،و فی التعبیر عنه تعالی بربهم إشاره إلی غشیان الرحمه و شمول الحنان و الرأفه الإلهیه.

و قوله:« كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِي النّٰارِ »قیاس محذوف أحد طرفیه أی أ من یدخل الجنه التی هذا مثلها کمن هو خالد فی النار و شرابهم الماء الشدید الحراره الذی یقطع أمعاءهم و ما فی جوفهم من الأحشاء إذا سقوه،و إنما یسقونه و هم مکرهون کما فی قوله:« وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ »و قیل:قوله:« كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ »إلخ، بیان لقوله فی الآیه السابقه:« كَمَنْ زُيِّنَ »إلخ،و هو کما تری.

بحث روائی

فی المجمع،: فی قوله تعالی:« ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »:قال أبو جعفر(ع):

کرهوا ما أنزل الله فی حق علی(ع).

و فیه،: فی قوله تعالی:« كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ »قیل:هم المنافقون: و هو المروی عن أبی جعفر(ع) .

أقول:و یحتمل أن تکون الروایتان من الجری.

و فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِي النّٰارِ-وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ »قال:لیس من هو فی هذه الجنه الموصوفه-کمن هو فی هذه النار کما أن لیس عدو الله کولیه.

[سوره محمد (۴۷): الآيات ۱۶ الی ۳۲]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّٰى إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قٰالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ
اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۶) وَ اَلَّذِينَ اِهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدىً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّٰاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا
فَأَنّٰى لَهُمْ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ ذِكْرٰاهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ
مَثْوٰاكُمْ (۱۹) وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا اَلْقِتٰالُ رَأَيْتَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ اَلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ اَلْمَوْتِ فَأَوْلىٰ لَهُمْ (۲۰) طٰاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذٰا عَزَمَ اَلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اَللّٰهَ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ
(۲۱) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَكُمْ (۲۲) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمىٰ أَبْصٰارَهُمْ
(۲۳) أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا (۲۴) إِنَّ اَلَّذِينَ اِرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدَى اَلشَّيْطٰانُ سَوَّلَ
لَهُمْ وَ أَمْلىٰ لَهُمْ (۲۵) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ اَلْأَمْرِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذٰا
تَوَفَّتْهُمُ اَلْمَلاٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ (۲۷) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اِتَّبَعُوا مٰا أَسْخَطَ اَللّٰهَ وَ كَرِهُوا رِضْوٰانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ (۲۸) أَمْ
حَسِبَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اَللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ اَلْقَوْلِ
وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ اَلْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ (۳۱) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ شَاقُّوا اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اَللّٰهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ (۳۲)

ص: ۲۳۴

بیان

الآیات جاریه علی السیاق السابق،و فیها تعرض لحال الذین فی قلوبهم مرض و المنافقین و من ارتد بعد إیمانه.

قوله تعـالی:« وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْـتَمِعُ إِلَیْـکَ حَتّی إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْـدِکَ قالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً »إلـخ، آنفا اسم فاعل منصوب علی الظرفیه أو لکونه مفعولاـ فیه،و معنـاه السـاعه التی قبیل ساعتک،و قیل:معناه هـذه الساعه و هو علی أی حال مأخوذ من الأنف بمعنی الجارحه.

و قوله:« وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْـتَمِعُ إِلَیْکَ »الضمیر للذین کفروا،و المراد باستماعهم إلی النبی ص إصغاؤهم إلی ما یتلوه من القرآن و ما یبین لهم من أصول المعارف و شرائع الدین.

و قوله:« حَتّی إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ »الضمیر للموصول و جمع الضمیر باعتبار المعنی کما أن إفراده فی« یَسْتَمِعُ »باعتبار اللفظ.

ص: ۲۳۵

و قوله:« قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً »المراد بالـذين أوتوا العلم العلماء بالله من الصـحابه،و الضـمير فى« ما ذا قالَ »للنبى ص.

و الاسـتفهام فى قولهم:« ما ذا قالَ آنِفاً »قيل:للاسـتعلام حقيقه لأن استغراقهم فى الكبر و الغرور و اتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى:

«فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» :النساء:۷۸،و قيل:للاستهزاء،و قيل:

للتحقير كأن القول لكونه مشحونا بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصل،و لكل من المعانى الثلاثه وجه.

و قـوله:« أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ »تعريف لهم،و قوله:« وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ »تعريف بعـد تعريف فهو كعطف التفسـير،و يتحصل منه أن اتباع الأهواء أماره الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقى على طهاره الفطره الأصـليه لا يتوقف فى فهم المعارف الدينيه و الحقائق الإلهيه.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ »المقابله الظاهره بين الآيه و بين الآيه السابقه يعطى أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدى إليه الفطره السليمه و اتباع الحق،و زياده هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجه إيمانهم،و قـد تقـدم أن الهدى و الإيمان ذو مراتب مختلفه، و المراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله و التجنب عن ارتكاب المعاصى.

و بـذلك يظهر أن زيـاده الهـدى راجع إلى تكميلهم فى نـاحيه العلم و إيتـاء التقوى إلى تكميلهم فى ناحيه العمل،و يظهر أيضـا بالمقابله أن الطبع على القلوب راجع إلى فقـدانهم كمال العلم و اتباع الأهواء راجع إلى فقـدانهم العمل الصالح و حرمانهم منه و هذا لا ينافى ما قدمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبه إلى الطبع على القلوب.

قوله تعـالى:« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّاعَهَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها »إلـخ، النظر هو الانتظار،و الأشـراط جمع شـرط بمعنى العلامه،و الأصـل فى معناه الشـرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشـىء لأن تحققه علامه تحقق الشـىء فأشـراط الساعه علاماتها الداله عليها.

و سياق الآيه سياق التهكم كأنهم واقفون موقفا عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم،و إما أن ينتظروا الساعه حتى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها تذكروا و آمنوا و اتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجه أو بموعظه أو عبره،و أما انتظارهم مجیء الساعه ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئا فإنها تجیء بغته و لا تمهلهم شيئا حتى يستعدوا لها بالذكرى و إذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنّى لَهُ الذِّكْرى يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» :الفجر:٢۴.

مضافا إلى أن أشراطها و علاماتها قد جاءت و تحققت،و لعل المراد بأشراطها خلق الإنسان و انقسام نوعه إلى صلحاء و مفسدين و متقين و فجار المستدعى للحكم الفصل بينهم و نزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعه و إتيان الساعه، و قيل:المراد بأشراط الساعه ظهور النبى ص و هو خاتم الأنبياء و انشقاق القمر و نزول القرآن و هو آخر الكتب السماويه.

هذا ما يعطيه التدبر فى الآيه من المعنى و هى-كما ترى-حجه برهانيه فى عين أنها مسوقه سوق التهكم.

و عليه فقوله:« بَغْتَةً »حال من الإتيان جیء به لبيان الواقع و ليتفرع عليه قوله الآتى:« فَأَنّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ »و ليس قيدا للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغته،و لدفع هذا التوهم قيل:« إِلاَّ السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً »و لم يقل:إلا أن تأتيهم الساعه بغته.

و قوله:« فَأَنّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ »أنى خبر مقدم و« ذِكْراهُمْ »مبتدأ مؤخر و« إِذا جاءَتْهُمْ »معترضه بينهما،و المعنى:فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم؟أى كيف ينتفعون بالذكرى فى يوم لا ينفع العمل الذى يعمل فيه و إنما هو يوم الجزاء.

و للقوم فى معنى جمل الآيه و معناها بالجمله أقوال مختلفه تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصله.

قوله تعالى:« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ » إلخ،قيل:هو متفرع على جميع ما تقدم فى السوره من سعاده المؤمنين و شقاوه الكفار

كأنه قيل:إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعاده هؤلاء و شقاوه أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيه الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم.

و يمكن أن يكون تفريعا على ما بينه فى الآيتين السابقتين أعنى قوله:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ -إلى قوله- وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ »من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر فى الذين اهتدوا إلى توحيده و الإيمان به فكأنه قيل:

إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانيه الإله و اطلب مغفره ذنبك و مغفره أمتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه،و يؤيد هذا الوجه قوله فى ذيل الآيه:« وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ ».

فقوله:« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ »معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله،و قوله:« وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ »تقدم الكلام فى معنى الذنب المنسوب إليه(ص)و سيأتى أيضا فى تفسير أول سوره الفتح إن شاء الله تعالى.

و قوله:« وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ »أمر بطلب المغفره للأمه من المؤمنين و المؤمنات و حاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار و لا يواجهه بالمغفره أو بالدعاء و لا يقابله بالاستجابه.

و قوله:« وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ »تعليل لما فى صدر الآيه:« فَاعْلَمْ أَنَّهُ » إلخ،و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمى بمعنى الانتقال من حال إلى حال،و كذلك المثوى بمعنى الاستقرار و السكون،و المراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير و ثابت و حركه و سكون فاثبتوا على توحيده و اطلبوا مغفرته،و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم.

و قيل:المراد بالمتقلب و المثوى التصرف فى الحياه الدنيا و الاستقرار فى الآخره و قيل:المتقلب هو التقلب من الأصلاب إلى الأرحام و المثوى السكون فى الأرض.

و قيل:المتقلب التصرف فى اليقظه و المثوى المنام،و قيل:المتقلب التصرف فى المعايش و المكاسب و المثوى الاستقرار فى المنازل،و ما قدمناه أظهر و أعم.

قوله تعالى:« وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَةٌ »إلى آخر الآيه،لو لا تحضيضيه أى هلا أنزلت سوره يظهرون بها الرغبه فى نزول سوره جديده تأتيهم

بتكاليف جديده يمتثلونها،و المراد بالسوره المحكمه المبينه التى لا تشابه فيها،و المراد بذكر القتال الأمر به.

و المراد بالـذين فى قلوبهم مرض،الضـعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآيه صـريحه فى أن الذين أظهروا الرغبه فى نزولها هم الـذين آمنوا،و لا يعم الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهله غير اللائقه بكلام الله تعالى فالآيه كقوله تعالى فى فريق من المؤمنين: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكٰاةَ فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتٰالُ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّٰاسَ كَخَشْيَةِ اللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً» :النساء:٧٧.

و المغشـى عليه من الموت هو المحتضـر،يقال: غشيه غشاوه إذا ستره و غطاه و غشى على فلان-بالبناء-للمفعول-إذا نابه ما غشى فهمه،و نظر المغشى عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يطرف.

و قـوله:« فَأَوْلىٰ لَهُـمْ »لعله خـبر لمبتـدإ محـذوف،و التقـدير:أولى لهم ذلـك أى حرى بهم أن ينظروا كـذلك أى أن يحتضـروا فيموتوا،و عن الأصمعى أن قولهم:

« أَوْلىٰ لَکَ »كلمه تهديد معناه وليك و قارنك ما تكره،و الآيه نظيره قوله تعالى:

«أَوْلىٰ لَکَ فَأَوْلىٰ ثُمَّ أَوْلىٰ لَکَ فَأَوْلىٰ» :القيامه:٣٥.

و معنى الآيه:و يقول الـذين آمنوا هلا أنزلت سوره فـإذا أنزلت سوره محكمه لا تشـابه فيها و أمروا فيها بالقتال و الجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون إليك من شده الخشيه نظر المحتضر فأولى لهم ذلك.

قوله تعالى:« طٰاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذٰا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّٰهَ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ » عزم الأمر أى جد و تنجز.

و قوله:« طٰاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ »كأنه خبر لمبتـدإ محـذوف و التقدير أمرنا-أو أمرهم و شأنهم-أى إيمانهم بنا طاعه واثقونا عليها و قول معروف غير منكر قـالوا لنـا و هو إظهـار السـمع و الطاعه كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ -Xإلى أن قالX- وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا» :البقره:٢٨٥.

و على هذا يتصل قوله بعده:« فَإِذٰا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّٰهَ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ » بما قبله اتصالا بينا،و المعنى:أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم: سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا

فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا و أطاعوه فيما يأمر به و منه أمر القتال لكان خيرا لهم.

و يحتمل أن يكون قوله:« طاعَةٌ »إلخ،خبرا لضمير عائد إلى القتال المذكور و التقدير القتال المذكور فى السوره طاعه منهم و قول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فى إيمانهم و أطاعوه به لكان خيرا لهم.أما كونه طاعه منهم فظاهر،و أما كونه قولا معروفا فلأن إيجاب القتال و الأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل و العقلاء.

و قيل:إن قوله:« طاعَةٌ »إلخ،مبتدأ الخبر و التقدير طاعه و قول معروف خير لهم و أمثل،و قيل:مبتدأ خبره« فَأَوْلى لَهُمْ »فى الآيه السابقه فالآيه من تمام الآيه السابقه،و هو قول ردى،و أردأ منه ما قيل:إن« طاعَةٌ »إلخ،صفه لسوره فى قوله:« فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ »و قيل غير ذلك.

قوله تعالى:« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ » الخطاب للذين فى قلوبهم مرض المتثاقلين فى أمر الجهاد فى سبيل الله،و قد التفت إليهم بالخطاب لزياده التوبيخ و التقريع،و الاستفهام للتقرير،و التولى الإعراض و المراد به الإعراض عن كتاب الله و العمل بما فيه و العود إلى الشرك و رفض الدين.

و المعنى:فهل يتوقع منكم أن أعرضتم عن كتاب الله و العمل بما فيه و منه الجهاد فى سبيل الله أن تفسدوا فى الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء و نهب الأموال و هتك الأعراض تكالبا على جيفه الدنيا أى إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك.

و قد ظهر بذلك أن الآيه فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه:« لَكانَ خَيْراً لَهُمْ »و لذا صدر بالفاء.

و قيل:المراد بالتولى التصدى للحكم و الولايه،و المعنى:هل يتوقع منكم إن جعلتم ولاه أن تفسدوا فى الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء الحرام و أخذ الرشاء و الجور فى الحكم هذا،و هو معنى بعيد عن السياق.

قوله تعالى:« أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ »الإشاره إلى المفسدين فى الأرض المقطعين للأرحام و قد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمهم و أذهب

بسمعهم فلا يسمعون القول الحق و أعمى أبصارهم فلا يرون الرأى الحق فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

قوله تعالى:« أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا »الاستفهام للتوبيخ و ضمير الجمع راجع إلى المذكورين فى الآيه السابقه،و تنكير« قُلُوبٍ »كما قيل للدلاله على أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم.

قال فى مجمع البيان،:و فى هذا دلاله على بطلان قول من قال:لا يجوز تفسير شىء من ظاهر القرآن إلا بخبر و سمع.انتهى.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلىٰ لَهُمْ » الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال و هو استعاره أريد بها الترك بعد الأخذ،و التسويل تزيين ما تحرض النفس عليه و تصوير القبيح لها فى صوره الحسن،و المراد بالإملاء الأمداد أو تطويل الآمال.

قوله تعالى:« ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ »الإشاره بذلك إلى تسويل الشيطان و إملائه و بالجمله تسلطه عليهم، و المراد ب« لِلَّذِينَ كَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ »هم الذين كفروا كما تقدم فى قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ» :الآيه:۹ من السوره.

و قوله:« سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ »مقول قولهم و وعد منهم للكفار بالطاعه و هو كما يلوح من تقييد الطاعه ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعه من يريد طاعته فى جميع الأمور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعه المطلقه فيسر إلى من يعده أنه سيطيعه فى بعض الأمر و فيما تيسر له ذلك ثم يكتم ذلك و يقعد متربصا للدوائر.

و يستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوما من المنافقين أسروا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم و وعدهم الطاعه لهم مهما تيسر لهم ذلك،و يؤيد ذلك قوله تعالى بعد:

« وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ ».

و اختلفوا فى هؤلاء من هم؟فقيل:هم اليهود قالوا للمنافقين:إن أعلنتم الكفر

نصرناكم،و قيل:هم اليهود أو اليهود و المنافقون قالوا ذلك للمشركين.و يرد على الوجهين جميعا أن موضوع الكلام فى الآيه المرتدون بعد إيمانهم و اليهود لم يؤمنوا حتى يرتدوا.

و قيل:هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ» :الحشر:١١.

و فيه أن الآيه تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود فى وعدهم النصر للمشركين على تكلف فى صدق الارتداد على كفرهم برسول الله ص بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآيه على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم.

قوله تعالى:« فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ »متفرع على ما قبله،و المعنى:هذا حالهم اليوم يرتدون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاءون فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكه و هم يضربون وجوههم و أدبارهم.

قوله تعالى:« ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويلات الشيطان المستتبعه للمعاصى و الذنوب الموبقه كما قال تعالى:« وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ »،و قال:« اَلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَى لَهُمْ ».

و السخط و الرضا من صفاته تعالى الفعليه و المراد بهما العقاب و الثواب.

و الإشاره فى قوله:« ذَلِكَ »إلى ما ذكر فى الآيه السابقه من عذاب الملائكه لهم عند توفيهم أى سبب عقابهم أن أعمالهم حابطه لاتباعهم ما أسخط الله و كراهتهم رضوانه،و إذ لا عمل لهم صالحا يشقون بالعذاب.

قوله تعالى:« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ »قال الراغب: الضغن -بكسر الضاد-و الضغن -بضمها- الحقد الشديد و جمعه أضغان انتهى.و المراد بالذين فى قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلهم الذين آمنوا أولا على ضعف فى إيمانهم ثم مالوا إلى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان،فالتدبر الدقيق فى تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوما ممن آمن بالنبى ص كانوا على هذه الصفه كما أن قوما منهم آخرين كانوا

منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم،و على هذا فعدهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظه بادئ أمرهم.

و المعنى:بل ظن هؤلاء المنافقون الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله.

قوله تعالى:« وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ » السيماء العلامه،و المعنى:و لو نشاء لأريناك أولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التى أعلمناهم بها.

و قوله:« وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »قال الراغب: اللحن صرف الكلام عن سننه الجارى عليه:إما بإزاله الإعراب أو التصحيف و هو المذموم،و ذلك أكثر استعمالا،و أما بإزالته عن التصريح و صرفه إلى تعريض و فحوى،و هو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغه.انتهى.

فالمعنى:و لتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكنايه و التعريض،و فى جعل لحن القول ظرفا للمعرفه نوع من العنايه المجازيه.

و قوله:« وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ »أى يعلم حقائقها و أنها من أى القصود و النيات صدرت فيجازى المؤمنين بصالح أعمالهم و غيرهم بغيرها،ففيه وعد للمؤمنين و وعيد لغيرهم.

قوله تعالى:« وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصّٰابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ » البلاء و الابتلاء الامتحان و الاختبار،و الآيه بيان عله كتابه القتال على المؤمنين،و هو الاختبار الإلهى ليمتاز به المجاهدون فى سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الإلهيه.

و قوله:« وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ »كان المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون إخبارا لهم يخبر بها عنهم،و اختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحه الخيره و قد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك،و بنظر أدق هو علم فعلى له تعالى خارج عن الذات.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ

»المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكه و من يلحق بهم لأنهم الذين صدوا عن سبيل الله و شاقوا الرسول و عادوه أشد المعاداه بعد ما تبين لهم الهدى.

و قوله:« لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً »لأن كيد الإنسان و مكره لا يرجع إلا إلى نفسه و لا يضر إلا إياه و قوله:« وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ »أى مساعيهم لهدم أساس الدين و ما عملوه لإطفاء نور الله،و قيل:المراد إحباط أعمالهم و إبطالها فلا يثابون فى الآخره على شيء من أعمالهم،و المعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين و تشجيعهم على قتال المشركين و تطييب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيده الآيات التاليه.

بحث روائى

فى المجمع،:فى قوله تعالى:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ »إلخ:،عن الأصبغ بن نباته عن على(ع)قال: إنا كنا عند رسول الله ص فيخبرنا بالوحى-فأعيه أنا و من يعيه فإذا خرجنا قالوا:ما ذا قال آنفا.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى عن أنس قال*:قال رسول الله ص: بعثت أنا و الساعه كهاتين،و أشار بالسبابه و الوسطى.:

أقول:و روى هذا اللفظ عنه(ص)بطرق أخرى عن أبى هريره و سهل بن مسعود .

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه و البخارى و مسلم و ابن ماجه و ابن مردويه عن أبى هريره قال*: كان رسول الله ص يوما بارزا للناس-فأتاه رجل فقال:يا رسول الله متى الساعه؟فقال:ما المسئول عنها بأعلم من السائل-و لكن سأحدثك عن أشراطها.

إذا ولدت الأمه ربتها فذاك من أشراطها،و إذا كانت الحفاه العراه رعاء الشاء رءوس الناس-فذاك من أشراطها،و إذا تطاول رعاء الغنم فى البنيان-فذاك من أشراطها.

و فى العلل،بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبى ص فى حديث طويل *يقول فيه لعبد الله بن سلام و قد سأله عن مسائل:أما أشراط الساعه-فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

أقول:و لعل المراد به غير ظاهره،و الأخبار فی أشراط الساعه من طرق الشیعه و أهل السنه فوق حد الإحصاء،و قد مرت فی آخر الجزء الخامس من الکتاب روایه سلمان عن النبی ص و روایه حمران عن الصادق(ع)و هما روایتان جامعتان فی الباب.

و فی المجمع،قد صح الحدیث بالإسناد عن حذیفه بن الیمان قال: کنت رجلا ذرب اللسان علی أهلی-فقلت:یا رسول الله إنی لأخشی-أن یدخلنی لسانی النار-فقال رسول الله ص:فأین أنت من الاستغفار؟إنی لأستغفر الله فی الیوم مائه مره.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و ابن أبی شیبه و مسلم و أبو داود و النسائی و ابن حبان و ابن مردویه عن الأغر المزنی قال*:قال رسول الله ص: إنه لیغان علی قلبی، و إنی لأستغفر الله کل یوم مائه مره.

و فیه،:فی قوله تعالی:« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ »الآیه:أخرج البیهقی عن جابر بن عبد الله قال:قال رسول الله ص: إن الرحم معلقه بالعرش لها لسان ذلق تقول:

اللهم صل من وصلنی،و اقطع من قطعنی.

أقول:و الروایات فیها و فی صلتها و قطعها کثیره،و قد مر شطر منها فی تفسیر أول سوره النساء.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« أَ فَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ »الآیه-أ فلا یتدبرون القرآن فیقضوا ما علیهم من الحق: عن أبی عبد الله و أبی الحسن(ع) .

و فی التوحید،بإسناده إلی محمد بن عماره قال: سألت الصادق جعفر بن محمد(ع) فقلت له:یا ابن رسول الله أخبرنی عن الله عز و جل-هل له رضی و سخط؟قال:نعم- و لیس ذلک علی ما یوجد من المخلوقین-و لکن غضب الله عقابه و رضاه ثوابه.

و فی المجمع،":فی قوله تعالی:« وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »الآیه":،عن أبی سعید الخدری قال":لحن القول بغضهم علی بن أبی طالب.قال:کنا نعرف المنافقین علی عهد رسول الله ص-ببغضهم علی بن أبی طالب.":

قال فی المجمع،:و روی مثل ذلک عن جابر بن عبد الله الأنصاری.

و قال:و عن عباده بن الصامت قال":کنا نبور أولادنا بحب علی بن أبی طالب- فإذا رأینا أحدهم لا یحبه علمنا أنه لغیر رشده.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن ابن مسعود قال":ما کنا نعرف المنافقین علی عهد رسول الله ص-إلا ببغض علی بن أبی طالب.

و فی أمالی الطوسی،بإسناده إلی علی(ع)أنه قال: قلت أربعا أنزل الله تعالی تصدیقی بها فی کتابه،قلت:المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تکلم ظهر،فأنزل الله:

« وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ اَلْقَوْلِ ».

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۳۳ الی ۳۸]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ (۳۳) إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ فَلَنْ یَغْفِرَ اَللّٰهُ لَهُمْ (۳۴) فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی اَلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ اَلْأَعْلَوْنَ وَ اَللّٰهُ مَعَکُمْ وَ لَنْ یَتِرَکُمْ أَعْمٰالَکُمْ (۳۵) إِنَّمَا اَلْحَیٰاةُ اَلدُّنْیٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا یُؤْتِکُمْ أُجُورَکُمْ وَ لاٰ یَسْئَلْکُمْ أَمْوٰالَکُمْ (۳۶) إِنْ یَسْئَلْکُمُوهٰا فَیُحْفِکُمْ تَبْخَلُوا وَ یُخْرِجْ أَضْغٰانَکُمْ (۳۷) هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَمِنْکُمْ مَنْ یَبْخَلُ وَ مَنْ یَبْخَلْ فَإِنَّمٰا یَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اَللّٰهُ اَلْغَنِیُّ وَ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ ثُمَّ لاٰ یَکُونُوا أَمْثٰالَکُمْ (۳۸)

بیان

لما وصف حال الکفار و أضاف إلیه وصف حال الذین فی قلوبهم مرض و تثاقلهم فی أمر القتال و حال من ارتد منهم بعد،رجع یحذر المؤمنین أن یکونوا أمثالهم

ص: ۲۴۶

فیفاوضوا المشرکین و یمیلوا إلیهم فیتبعوا ما أسخط الله و یکرهوا رضوانه فیبطل أعمالهم بالحبط،و فی الآیات موعظه لهم بالترغیب و الترهیب و التطمیع و التخویف، و بذلک تختتم السوره.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ »الآیه و إن کانت فی نفسها مستقله فی مدلولها مطلقه فی معناها حتی استدل الفقهاء بقوله فیها:« وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ »علی حرمه إبطال الصلاه بعد الشروع فیها لکنها من حیث وقوعها فی سیاق الآیات السابقه المتعرضه لأمر القتال،و کذا الآیات اللاحقه الجاریه علی السیاق و خاصه ما فی ظاهر قوله:« إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا »إلخ،من التعلیل و ما فی قوله:« فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ »إلخ،من التفریع،و بالجمله الآیه بالنظر إلی سیاقها تدل علی إیجاب طاعه الله سبحانه فیما أنزل من الکتاب و شرع من الحکم و إیجاب طاعه الرسول فیما بلغ عن الله سبحانه،و فیما یصدر من الأمر من حیث ولایته علی المؤمنین فی المجتمع الدینی،و علی تحذیر المؤمنین من إبطال أعمالهم بفعل ما یوجب حبط أعمالهم کما ابتلی به أولئک الضعفاء الإیمان المائلون إلی النفاق الذین انجر أمر بعضهم أن ارتدوا بعد ما تبین لهم الهدی.

فالمراد بحسب المورد من طاعه الله طاعته فیما شرع و أنزل من حکم القتال،و من طاعه الرسول طاعته فیما بلغ منه و فیما أمر به منه و من مقدماته بما له من الولایه فیه و بإبطال الأعمال التخلف عن حکم القتال کما تخلف المنافقون و أهل الرده.

و قیل:المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنهم علی الله و رسوله بإیمانهم کما فی قوله تعالی:« یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا »،و قیل.:إبطالها بالریاء و السمعه،و قیل:

بالعجب،و قیل:بالکفر و النفاق،و قیل:المراد إبطال الصدقات بالمن و الأذی کما قال: «لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذیٰ» :البقره:۲۶۴،و قیل:إبطالها بالمعاصی، و قیل:بخصوص الکبائر.

و یرد علی هذه الأقوال جمیعا أن کل واحد منها علی تقدیر صحته و تسلیمه مصداق من مصادیق الآیه مع الغض من وقوعها فی السیاق الذی تقدمت الإشاره إلیه،و أما من حیث وقوعها فی السیاق فلا تشمل إلا القتال کما مر.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ فَلَنْ

يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ

»ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآيه السابقه فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله و رسوله و أبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله و كراهه رضوانه أداكم ذلك إلى اللحوق بأهل الكفر و الصد و لا مغفره لهم بعد موتهم كذلك أبدا.

و المراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا.

قوله تعالى:« فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللّٰهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ »تفريع على ما تقدم،و قوله:« فَلاٰ تَهِنُوا »من الوهن بمعنى الضعف و الفتور، و قوله:« وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ »معطوف على« تَهِنُوا »واقع في حيز النهي أي و لا تدعوا إلى السلم،و السلم -بفتح السين-الصلح،و قوله:« وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ »جمله حاليه أي لا تفعلوا الصلح،و قوله:« وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ »جمله حاليه أي لا تفعلوا ذلك و الحال أنكم الغالبون،و المراد بالعلو الغلبه و هي استعاره مشهوره.

و قوله:« وَ اللّٰهُ مَعَكُمْ »معطوف على« وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ »يبين سبب علوهم و يعلله فالمراد بمعيته تعالى لهم معيه النصر دون المعيه القيوميه التي يشير إليها قوله تعالى:

«وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ» :الحديد:۴.

و قوله:« وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ »قال في المجمع:يقال: وتره يتره وترا إذا نقصه و منه الحديث (۱)فكأنه وتر أهله و ماله،و أصله القطع و منه التره القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره.انتهى.

فالمعنى:لن ينقصكم أعمالكم أي يوفي أجرها تاما كاملا،و قيل:المعنى:لن يضيع أعمالكم،و قيل:لن يظلمكم،و المعاني متقاربه.

و معنى الآيه:إذا كانت سبيل عدم طاعه الله و رسوله و إبطال أعمالكم هذه السبيل و كان مؤديا إلى الحرمان من مغفره الله أبدا فلا تضعفوا و لا تفتروا في أمر القتال و لا تدعوا المشركين إلى الصلح و ترك القتال و الحال أنكم أنتم الغالبون و الله ناصركم عليهم و لن ينقصكم شيئا من أجوركم بل يوفيكموها تامه كامله.

۱- ۱) و هو ما عن النبي صلى الله عليه و آله:«من فاتته صلاه العصر فكأنما وتر أهله و ماله» عن الجوامع.

و فی الآیه وعد المؤمنین بالغلبه و الظفر إن أطاعوا الله و رسوله فهی کقوله: «وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» :آل عمران:۱۳۹.

قوله تعالی:« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ »ترغیب لهم فی الآخره و تزهید لهم عن الدنیا ببیان حقیقتها و هی أنها لعب و لهو-و قد مر معنی کونها لعبا و لهوا-.

و قوله:« وَ إِنْ تُؤْمِنُوا »إلخ،أی أن تؤمنوا و تتقوا بطاعته و طاعه رسوله یؤتکم أجورکم و لا یسألکم أموالکم بإزاء ما أعطاکم و ظاهر السیاق أن المراد بالأموال جمیع أموالهم و یؤیده أیضا الآیه التالیه.

قوله تعالی:« إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ » الإحفاء الإجهاد و تحمیل المشقه،و المراد بالبخل-کما قیل-الکف عن الإعطاء، و الأضغان الأحقاد.

و المعنی:أن یسألکم جمیع أموالکم فیجهدکم بطلب کلها کففتم عن الإعطاء لحبکم لها و یخرج أحقاد قلوبکم فضللتم.

قوله تعالی:« هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ »إلی آخر الآیه بمنزله الاستشهاد فی بیان الآیه السابقه کأنه قیل:إنه إن یسأل الجمیع فیحفکم تبخلوا و یشهد بذلک أنکم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فی سبیل الله-و هو بعض أموالکم-فبعضکم یبخل فیظهر به أنه لو سأل الجمیع جمیعکم بخلتم.

و قوله:« وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ »أی یمنع الخیر عن نفسه فإن الله لا یسأل ما لهم لینتفع هو به بل لینتفع به المنفقون فیما فیه خیر دنیاهم و آخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خیر أنفسهم،و إلیه یشیر قوله بعده:« وَ اللّٰهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ »و القصران للقلب أی الله هو الغنی دونکم و أنتم الفقراء دون الله.

و قوله:« وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »قیل:عطف علی قوله:« وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا »و المعنی:إن تؤمنوا و تتقوا یؤتکم أجورکم و إن تتلوا و تعرضوا یستبدل قوما غیرکم بأن یوفقهم للإیمان دونکم ثم لا یکونوا أمثالکم بل یؤمنون و یتقون و ینفقون فی سبیل الله.

بحث روائی

فی ثواب الأعمال،عن أبی جعفر(ع)قال:قال رسول الله ص: من قال:

سبحان الله غرس الله له بها شجره فی الجنه،و من قال:الحمد لله غرس الله له بها شجره فی الجنه،و من قال:لا إله إلا الله غرس الله له بها شجره فی الجنه،و من قال:الله أکبر غرس الله له بها شجره فی الجنه.

فقال رجل من قریش:یا رسول الله-إن شجرنا فی الجنه لکثیر.قال:نعم و لکن إیاکم أن ترسلوا علیها نارا فتحرقوها،و ذلک أن الله عز و جل یقول:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ-وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ ».

و فی تفسیر القمی،:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا »قال:هی منسوخه بقوله:« فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ-وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللّٰهُ مَعَکُمْ ».

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و الترمذی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی فی الأوسط و البیهقی فی الدلائل عن أبی هریره قال*: تلا رسول الله هذه الآیه:« وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ-ثُمَّ لاٰ یَکُونُوا أَمْثٰالَکُمْ »فقالوا:یا رسول الله-من هؤلاء الذین إن تولینا استبدلوا بنا؟فضرب رسول الله ص علی منکب سلمان-ثم قال:هذا و قومه،و الذی نفسی بیده لو کان الإیمان منوطا بالثریا- لتناوله رجال من فارس.

أقول:و روی بطرق أخر عن أبی هریره:مثله.و کذا عن ابن مردویه عن جابر:مثله .

و فی المجمع،و روی أبو بصیر عن أبی جعفر(ع)قال: « إِنْ تَتَوَلَّوْا »یا معشر العرب« یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ »یعنی الموالی.

و فیه،عن أبی عبد الله(ع)قال: قد و الله أبدل خیرا منهم الموالی.

(۴۸) سوره الفتح مدنیه و هی تسع و عشرون آیه(۲۹)

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً (۱) لِیَغْفِرَ لَکَ اَللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِرٰاطاً مُسْتَقِیماً (۲) وَ یَنْصُرَکَ اَللّٰهُ نَصْراً عَزِیزاً (۳) هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلسَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ اَلْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً (۴) لِیُدْخِلَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا وَ یُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ وَ کٰانَ ذٰلِکَ عِنْدَ اَللّٰهِ فَوْزاً عَظِیماً (۵) وَ یُعَذِّبَ اَلْمُنٰافِقِینَ وَ اَلْمُنٰافِقٰاتِ وَ اَلْمُشْرِکِینَ وَ اَلْمُشْرِکٰاتِ اَلظّٰانِّینَ بِاللّٰهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ عَلَیْهِمْ دٰائِرَهُ اَلسَّوْءِ وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِیراً (۶) وَ لِلّٰهِ جُنُودُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۷)

بیان

مضامین آیات السوره بفصولها المختلفه ظاهره الانطباق علی قصه صلح الحدیبیه الواقعه فی السنه السادسه من الهجره و ما وقع حولها من الوقائع کقصه تخلف الأعراب

و صد المشركين،و بيعه الشجره على ما تفصله الآثار و سيجىء شطر منها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

فغرض السوره بيان ما امتن الله تعالى على رسوله ص بما رزقه من الفتح المبين فى هذه السفره،و على المؤمنين ممن معه،و مدحهم البالغ،و الوعد الجميل للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات،و السوره مدنيه.

قوله تعالى:« إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً »كلام واقع موقع الامتنان،و تأكيد الجمله بإن و نسبه الفتح إلى نون العظمه و توصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذى يمتن به.

و المراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه ص من الفتح فى صلح الحديبيه.

و ذلك أن ما سيأتى فى آيات السوره من الامتنان على النبى ص و المؤمنين، و مدحهم و الرضا عن بيعتهم و وعدهم الجميل فى الدنيا بمغانم عاجله و آجله و فى الآخره بالجنه و ذم المخلفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله ص فلم يخرجوا معه،و ذم المشركين فى صدهم النبى ص و من معه،و ذم المنافقين،و تصديقه تعالى رؤيا نبيه ص،و قوله:« فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ فَتْحاً قَرِيباً »-و كاد يكون صريحا-كل ذلك معان مرتبطه بخروجه(ص)إلى مكه للحج و انتهاء ذلك إلى صلح الحديبيه.

و أما كون هذا الصلح فتحا مبينا رزقه الله نبيه ص فظاهر بالتدبر فى لحن آيات السوره فى هذه القصه فقد كان خروج النبى و المؤمنين إلى هذه البغيه خروجا على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينه عاده كما يشير إليه قوله تعالى:« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً »و المشركون من صناديد قريش و من يتبعهم على ما لهم من الشوكه و القوه و العداوه مع النبى ص و المؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف و لم يجمعهم جامع غير معركه القتال كغزوه بدر و أحد و الأحزاب، و لم يخرج مع النبى ص إلا شرذمه قليلون-ألف و أربعمائه-لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم فى عقر دارهم.

لكن الله سبحانه قلب الأمر للنبى ص و المؤمنين على المشركين فرضوا بما لم

يكن مطموعا فيه متوقعا منهم فسألوا النبى ص أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين،و على تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به،و على أن يرجع النبى ص إلى المدينه عامه هذا ثم يقدم إلى مكه العام القابل فيخلوا له المسجد و الكعبه ثلاثه أيام.

و هذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه ص و كان من أمس الأسباب بفتح مكه سنه ثمان من الهجره فقد آمن جمع كثير من المشركين فى السنتين بين الصلح و فتح مكه، و فتح فى أوائل سنه سبع خيبر و ما والاه و قوى به المسلمون و اتسع الإسلام اتساعا بينا و كثر جمعهم و انتشر صيتهم و أشغلوا بلادا كثيره،و خرج النبى ص لفتح مكه فى عشره آلاف أو فى اثنى عشر ألفا،و قد كان خرج إلى حديبيه فى ألف و أربعمائه على ما تفصله الآثار.

و قيل:المراد بالفتح فتح مكه فالمراد بقوله:« إِنّٰا فَتَحْنٰا لَكَ »إنا قضينا لك فتح مكه،و فيه أن القرائن لا تساعده.

و قيل:المراد به فتح خيبر،و معناه-على تقدير نزول السوره عند مرجع النبى ص من الحديبيه إلى المدينه-أنا قضينا لك فتح خيبر،و حال هذا القول أيضا كسابقه.

و قيل:المراد به الفتح المعنوى و هو الظفر على الأعداء بالحجج البينه و المعجزات الباهره التى غلب بها كلمه الحق على الباطل و ظهر الإسلام على الدين كله،و هذا الوجه و إن كان فى نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه.

قوله تعالى:« لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً وَ يَنْصُرَكَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً »اللام فى قوله:« لِيَغْفِرَ »للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفره ما تقدم من ذنبك و ما تأخر،و من المعلوم أن لا رابطه بين الفتح و بين مغفره الذنب و لا معنى معقولا لتعليله بالمغفره.

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال:أن اللام المكسوره فى« لِيَغْفِرَ »لام القسم و الأصل ليغفرن حذفت نون التوكيد و بقى ما قبلها مفتوحا للدلاله على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

و كذا قول بعض آخر فرارا عن الإشكال:«أن العله هو مجموع المغفره و ما عطف عليه من إتمام النعمه و الهدايه و النصر العزيز من حيث المجموع فلاـ ينافى عدم كون البعض أى مغفره الذنب فى نفسه عله للفتح»كلام سخيف لاـ يغنى طائلاـ فإن مغفره الذنب لاـ هى عله أو جزء عله للفتح و لاـ مرتبطه نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها فى ضمن علله فلا مصحح لذكرها وحدها و لا مع العلل و فى ضمنها.

و بالجمله هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب فى الآيه هو الذنب المعروف و هو مخالفه التكليف المولوى،و لا المراد بالمغفره معناها المعروف و هو ترك العقاب على المخالفه المذكوره فالذنب فى اللغه على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذى له تبعه سيئه كيفما كان،و المغفره هى الستر على الشيء،و أما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظى الذنب و المغفره إلى أذهاننا اليوم أعنى مخالفه الأمر المولوى المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنما لزماهما بحسب عرف المتشرعين.

و قيام النبى ص بالدعوه و نهضته على الكفر و الوثنيه فيما تقدم على الهجره و إدامته ذلك و ما وقع له من الحروب و المغازى مع الكفار و المشركين فيما تأخر عن الهجره كان عملا منه(ص)ذا تبعه سيئه عند الكفار و المشركين و ما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكه و مقدره،و ما كانوا لينسوا زهوق ملتهم و انهدام سنتهم و طريقتهم،و لا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه و إمحاء اسمه و إعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه(ص)هذا الفتح و هو فتح مكه أو فتح الحديبيه المنتهى إلى فتح مكه فذهب بشوكتهم و أخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه(ص)من الذنب و آمنه منهم.

فالمراد بالذنب-و الله أعلم-التبعه السيئه التى لدعوته(ص)عند الكفار و المشركين و هو ذنب لهم عليه كما فى قول موسى لربه: «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» :الشعراء:۱۴،و ما تقدم من ذنبه هو ما كان منه(ص)بمكه قبل الهجره، و ما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجره،و مغفرته تعالى لذنبه هى ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم و هدم بنيتهم،و يؤيد ذلك ما يتلوه من قوله:« وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ -إلى أن قال- وَ يَنْصُرَكَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً ».

و للمفسرين فى الآيه مذاهب مختلفه أخر:

فمن ذلک:أن المراد بذنبه(ص)ما صدر عنه من المعصیه،و المراد بما تقدم منه.

و ما تأخر ما صدر عنه قبل النبوه و بعدها،و قیل:ما صدر قبل الفتح و ما صدر بعده.

و فیه أنه مبنی علی جواز صدور المعصیه عن الأنبیاء(ع)و هو خلاف ما یقطع به الکتاب و السنه و العقل من عصمتهم(ع)و قد تقدم البحث عنه فی الجزء الثانی من الکتاب و غیره.

علی أن إشکال عدم الارتباط بین الفتح و المغفره علی حاله.

و من ذلک:أن المراد بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر مغفره ما وقع من معصیته و ما لم یقع بمعنی الوعد بمغفره ما سیقع منه إذا وقع لئلا یرد الإشکال بأن مغفره ما لم یتحقق من المعصیه لا معنی له.

و فیه مضافا إلی ورود ما ورد علی سابقه علیه أن مغفره ما سیقع من المعصیه قبل وقوعه تلازم ارتفاع التکالیف عنه(ص)عامه،و یدفعه نص کلامه تعالی فی آیات کثیره کقوله تعالی: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ» الزمر:۲،و قوله: «وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِینَ» :الزمر:۱۲،إلی غیر ذلک من الآیات التی تأبی بسیاقها التخصیص.

علی أن من الذنوب و المعاصی مثل الشرک بالله و افتراء الکذب علی الله و الاستهزاء بآیات الله و الإفساد فی الأرض و هتک المحارم،و إطلاق مغفره الذنوب یشملها و لا معنی لأن یبعث الله عبدا من عباده فیأمره أن یقیم دینه علی ساق و یصلح به الأرض فإذا فتح له و نصره و أظهره علی ما یرید یجیز له مخالفه ما أمره و هدم ما بناه و إفساد ما أصلحه بمغفره کل مخالفه و معصیه منه و العفو عن کل ما تقوله و افتراه علی الله،و فعله تبلیغ کقوله،و قد قال تعالی: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنٰا بَعْضَ الْأَقٰاوِیلِ لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْیَمِینِ ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ الْوَتِینَ» :الحاقه:۴۶.

و من ذلک:قول بعضهم:إن المراد بمغفره ما تقدم من ذنبه مغفره ما تقدم من ذنب أبویه آدم و حواء(ع)ببرکته(ص)و المراد بمغفره ما تأخر منه مغفره ذنوب أمته بدعائه.

و فیه ورود ما ورد علی ما تقدم علیه.

و من ذلک:أن الکلام فی معنی التقدیر و إن کان فی سیاق التحقیق و المعنی:

لیغفر لک الله قدیم ذنبک و حدیثه لو کان لک ذنب.

و فیه أنه أخذ بخلاف الظاهر من غیر دلیل.

و من ذلک:أن القول خارج مخرج التعظیم و حسن الخطاب و المعنی:غفر الله لک کما فی قوله تعالی: «عَفَا اللّٰهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» :التوبه:۴۳.

و فیه أن العاده جرت فی هذا النوع من الخطاب أن یورد بلفظ الدعاء.

کما قیل.

و من ذلک:أن المراد بالذنب فی حقه(ص)ترک الأولی و هو مخالفه الأوامر الإرشادیه دون التمرد عن امتثال التکالیف المولویه،و الأنبیاء علی ما هم علیه من درجات القرب یؤاخذون علی ترک ما هو أولی کما یؤاخذ غیرهم علی المعاصی المعروفه کما قیل:حسنات الأبرار سیئات المقربین.

و من ذلک:ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أن المراد بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر مغفره ما تقدم من ذنوب أمته و ما تأخر منها بشفاعته(ص)،و لا ضیر فی إضافه ذنوب أمته(ص)إلیه للاتصال و السبب بینه و بین أمته.

و هذا الوجه و الوجه السابق علیه سلیمان عن عامه الإشکالات لکن إشکال عدم الارتباط بین الفتح و المغفره علی حاله.

و من ذلک:ما عن علم الهدی رحمه الله إن الذنب مصدر،و المصدر یجوز إضافته إلی الفاعل و المفعول معا فیکون هنا مضافا إلی المفعول،و المراد ما تقدم من ذنبهم إلیک فی منعهم إیاک من مکه و صدهم لک عن المسجد الحرام،و یکون معنی المغفره علی هذا الإزاله و النسخ لأحکام أعدائه من المشرکین أی یزیل الله تعالی ذلک عنک و یستر علیک تلک الوصمه بما یفتح لک من مکه فتدخلها فیما بعد.

و هذا الوجه قریب المأخذ مما قدمنا من الوجه،و لا بأس به لو لم یکن فیه بعض المخالفه لظاهر الآیه.

و فی قوله:« لِیَغْفِرَ لَکَ اللّٰهُ »إلخ،بعد قوله:« إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ »التفات من التکلم إلی الغیبه و لعل الوجه فیه أن محصل السوره امتنانه تعالی علی النبی ص

و المؤمنين بما رزق من الفتح و إنزال السكينه و النصر و سائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجارى فى السوره سياق الغيبه و يذكر تعالى فيها باسمه و ينسب إليه النصر بما يعبده نبيه و المؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون و إنما يعبدون آلهه من دونه طمعا فى نصرهم و لا ينصرونهم.

و أما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمه فى الآيه الأولى فلمناسبته ذكر الفتح فيها و يجرى الكلام فى قوله تعالى الآتى:« إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً »الآيه.

و قوله:« وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ »قيل:أى يتمها عليك فى الدنيا بإظهارك على عدوك و إعلاء أمرك و تمكين دينك،و فى الآخره برفع درجتك،و قيل:أى يتمها عليك بفتح خيبر و مكه و الطائف.

و قوله:« وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً »قيل:أى و يثبتك على صراط يؤدى بسالكه إلى الجنه،و قيل:أى و يهديك إلى مستقيم الصراط فى تبليغ الأحكام و إجراء الحدود.

و قوله:« وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً »قيل:النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد و عات مريد،و قد فعل بنبيه(ص)ذلك إذ جعل دينه أعز الأديان و سلطانه أعظم السلطان،و قيل:المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظير أو عديمه و نصره تعالى لنبيه(ص)كذلك كما يظهر بقياس حاله فى أول بعثته إلى حاله فى آخر أيام دعوته.

و التدبر فى سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله:« إِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ »يعطى أن يكون المراد بقوله:« وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ »هو تمهيده تعالى له(ص)لتمام الكلمه و تصفيته الجو لنصره نصرا عزيزا بعد رفع الموانع بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

و بقوله:« وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً »هدايته(ص)بعد تصفيه الجو له إلى الطريق الموصل إلى الغايه الذى سلكه بعد الرجوع من الحديبيه من فتح خيبر و بسط سلطه الدين فى أقطار الجزيره حتى انتهى إلى فتح مكه و الطائف.

و بقوله:« وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً »نصره له(ص)ذاك النصر الظاهر الباهر

الذی قلما یوجد-أو لا یوجد-له نظیر إذ فتح له مکه و الطائف و انبسط الإسلام فی أرض الجزیره و انقلع الشرک و ذل الیهود و خضع له نصاری الجزیره و المجوس القاطنون بها،و أکمل تعالی للناس دینهم و أتم علیهم نعمته و رضی لهم الإسلام دینا.

قوله تعالی:« هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ »إلخ،الظاهر أن المراد بالسکینه سکون النفس و ثباتها و اطمئنانها إلی ما آمنت به،و لذا علل إنزالها فیها بقوله:« لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ »و قد تقدم البحث عن السکینه فی ذیل قوله تعالی: «أَنْ یَأْتِیَکُمُ التّابُوتُ فِیهِ سَکِینَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ» :البقره:۲۴۸ فی الجزء الثانی من الکتاب و ذکرنا هناک أنها تنطبق علی روح الإیمان المذکور فی قوله تعالی: «وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» :المجادله:۲۲.

و قیل: السکینه هی الرحمه،و قیل:العقل،و قیل:الوقار و العصمه لله و لرسوله،و قیل:المیل إلی ما جاء به الرسول ص،و قیل:ملک یسکن قلب المؤمن،و قیل:شیء له رأس کرأس الهره،و هذه الأقاویل لا دلیل علی شیء منها.

و المراد بإنزال السکینه فی قلوبهم إیجادها فیها بعد عدمها فکثیرا ما یعبر فی القرآن عن الخلق و الإیجاد بالإنزال کقوله: «وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَهَ أَزْواجٍ» الزمر:۶،و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ» :الحدید:۲۵،و قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر:۲۱.و إنما عبر عن الخلق و الإیجاد بالإنزال للإشاره إلی علو مبدئه.

و قیل:المراد بالإنزال الإسکان و الإقرار من قولهم:نزل فی مکان کذا أی حط رحله فیه و أنزلته فیه أی حططت رحله فیه هذا.

و هو معنی غیر معهود فی کلامه تعالی مع کثره وروده فیه،و لعل الباعث لهم علی اختیار هذا المعنی تعدیته فی الآیه بلفظه«فی»إذ قال:« أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ »لکنه عنایه کلامیه لوحظ فیها تعلق السکینه بالقلوب تعلق الاستقرار فیها کما لوحظ تعلقها تعلق الوقوع علیها من علو فی قوله الآتی:« فَأَنْزَلَ السَّکِینَهَ عَلَیْهِمْ » الآیه و قوله:« فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ »الآیه.

و المراد بزیاده الإیمان اشتداده فإن الإیمان بشیء هو العلم به مع الالتزام بحیث یترتب علیه آثاره العملیه،و من المعلوم أن کلا من العلم و الالتزام المذکورین مما یشتد

و یضعف فالإیمان الذی هو العلم المتلبس بالالتزام یشتد و یضعف.

فمعنی الآیه:الله الـذی أوجـد الثبات و الاطمئنان الذی هو لازم مرتبه من مراتب الروح فی قلوب المؤمنین لیشـتد به الإیمان الذی کان لهم قبل نزول السکینه فیصیر أکمل مما کان قبله.

کلام فی الإیمان و ازدیاده

الإیمـان بالشـیء لیس مجرد العلم الحاصل به کما یسـتفاد من أمثال قوله تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ ارْتَـدُّوا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْـدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی» :سوره محمد:۲۵،و قوله: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَـدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدیٰ» :سوره محمد:۳۲،و قوله: «وَ جَحَـدُوا بِهٰا وَ اسْتَیْقَنَتْهٰا أَنْفُسُـهُمْ» :النمل:۱۴،و قوله: «وَ أَضَـلَّهُ اللّهُ عَلیٰ عِلْمٍ» :الجاثیه:۲۳،فالآیات-کما تری-تثبت الارتداد و الکفر و الجحود و الضلال مع العلم.

فمجرد العلم بالشـیء و الجزم بکونه حقـا لا یکفی فی حصول الإیمان و اتصاف من حصل له به،بل لا بـد من الالتزام بمقتضاه و عقـد القلب علی مؤداه بحیث یترتب علیه آثـاره العملیه و لو فی الجمله،فالـذی حصل له العلم بأن الله تعالی إله لا إله غیره فالتزم بمقتضاه و هو عبودیته و عبادته وحـده کان مؤمنا و لو علم به و لم یلتزم فلم یأت بشـیء من الأعمال المظهره للعبودیه کان عالما و لیس بمؤمن.

و من هنا یظهر بطلان ما قیل:إن الإیمان هو مجرد العلم و التصدیق و ذلک لما مر أن العلم ربما یجامع الکفر.

و من هنـا یظهر أیضـا بطلان ما قیل:إن الإیمان هو العمل،و ذلک لأن العمل یجامع النفاق فالمنافق له عمل و ربما کان ممن ظهر له الحق ظهورا علمیا و لا إیمان له علی أی حال.

و إذ کـان الإیمان هو العلم بالشـیء مع الالتزام به بحیث یترتب علیه آثاره العملیه، و کل من العلم و الالتزام مما یزداد و ینقص و یشـتد و یضـعف کان الإیمان المؤلف منهما قابلا للزیاده و النقیصه و الشده و الضعف فاختلاف المراتب و تفاوت الدرجات من الضروریات التی لا یشک فیها قط.

هـذا ما ذهب إليه الأكثر و هو الحق و يدل عليه من النقل قوله تعالى:« لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ »و غيره من الآيات،و ما ورد من أحاديث أئمه أهل البيت(ع) الداله على أن الإيمان ذو مراتب.

و ذهب جمع منهم أبـو حنيفه و إمـام الحرمين و غيرهمـا إلى أن الإيمـان لا يزيـد و لا ينقص،و احتجوا عليه بـأن الإيمـان اسـم للتصـديق البالغ حد الجزم و القطع و هو مما لا يتصور فيه الزياده و النقصان فالمصدق إذا ضم إلى تصديقه الطاعات أو ضم إليه المعاصى فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا.

و أولوا مـا دل من الآيـات على قبوله الزياده و النقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشـخصه بل بتجـدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمـان بأمثـاله المتجـدده يزيـد و ينقص كوقوعه للنـبى ص مثلا على التوالى من غير فتره متخلله و فى غيره بفترات قليله أو كثيره فالمراد بزياده الإيمان توالى أجزاء الإيمان من غير فتره أصلا أو بفترات قليله.

و أيضا للإيمان كثره بكثره ما يؤمن به،و شـرائع الدين لما كانت تنزل تدريجا و المؤمنون يؤمنون بما ينزل منها و كان يزيد عدد الأحكام حينا بعد حين كان إيمانهم أيضا يزيد تدريجا،و بالجمله المراد بزياده الإيمان كثرته عددا.

و هو بين الضـعف،أمـا الحجه ففيهـا أولا:أن قولهم:الإيمان اسم للتصـديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصـديق الجازم الـذى معه الالتزام كما تقدم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام.

و ثانيـا:أن قولهم:إن هـذا التصـديق لا يختلف بالزيـاده و النقصـان دعوى بلا دليـل بل مصادره على المطلوب و بناؤه على كون الإيمان عرضا و بقاء الأعراض على نحو تجدد الأمثال لا ينفعهم شيئا فإن من الإيمان ما لا تحركه العواصف و منه ما يزول بأدنى سبب يعترض و أوهن شـبهه تطرأ،و هذا مما لا يعلل بتجدد الأمثال و قله الفترات و كثرتها بل لا بد من استناده إلى قوه الإيمان و ضعفه سواء قلنا بتجدد الأمثال أم لا.

مضافا إلى بطلان تجدد الأمثال على ما بين فى محله.

و قولهم:إن المصـدق إذا ضم إليه الطاعـات أو ضم إليه المعاصـى لم يتغير حـاله أصـلا ممنوع فقوه الإيمـان بمزاوله الطاعـات و ضعفها بارتكاب المعاصى مما لا ينبغى

الارتیاب فیه،و قوه الأثر و ضعفه کاشفه عن قوه مبدإ الأثر و ضعفه،قال تعالی: «إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ یَرْفَعُهُ» :فاطر:۱۰،و قال: «ثُمَّ کٰانَ عٰاقِبَهَ الَّذِینَ أَسٰاؤُا السُّوایٰ أَنْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ وَ کٰانُوا بِهٰا یَسْتَهْزِؤُنَ» :الروم:۱۰.

و أما ما ذکروه من التأویل فأول التأویلین یوجب کون من لم یستکمل الإیمان و هو الذی فی قلبه فترات خالیه من أجزاء الإیمان علی ما ذکروه مؤمنا و کافرا حقیقه و هذا مما لا یساعده و لا یشعر به شیء من کلامه تعالی.

و أما قوله تعالی: «وَ مٰا یُؤْمِنُ أَکْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِکُونَ» :یوسف:۱۰۶، فهو إلی الدلاله علی کون الإیمان مما یزید و ینقص أقرب منه إلی الدلاله علی نفیه فإن مدلوله أنهم مؤمنون فی حال أنهم مشرکون فإیمانهم إیمان بالنسبه إلی الشرک المحض و شرک بالنسبه إلی الإیمان المحض،و هذا معنی قبول الإیمان للزیاده و النقصان.

و ثانی التأویلین یفید أن الزیاده فی الإیمان و کثرته إنما هی بکثره ما تعلق به و هو الأحکام و الشرائع المنزله من عند الله فهی صفه للإیمان بحال متعلقه و السبب فی اتصافه بها هو متعلقه،و لو کان هذه الزیاده هی المراده من قوله:« لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ » کان الأنسب أن تجعل زیاده الإیمان فی الآیه غایه لتشریع الأحکام الکثیره و إنزالها لا لإنزال السکینه فی قلوب المؤمنین هذا.

و حمل بعضهم زیاده الإیمان فی الآیه علی زیاده أثره و هو النور المشرق منه علی القلب.

و فیه أن زیاده الأثر و قوته فرع زیاده المؤثر و قوته فلا معنی لاختصاص أحد الأمرین المتساویین من جمیع الجهات بأثر یزید علی أثر الآخر.

و ذکر بعضهم أن الإیمان الذی هو مدخول مع فی قوله:« لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ »الإیمان الفطری و الإیمان المذکور قبله هو الإیمان الاستدلالی،و المعنی:

لیزدادوا إیمانا استدلالیا علی إیمانهم الفطری.

و فیه أنه دعوی من غیر دلیل یدل علیه.علی أن الإیمان الفطری أیضا استدلالی فمتعلق العلم و الإیمان علی أی حال أمر نظری لا بدیهی.

و قال بعضهم کالإمام الرازی:إن النزاع فی قبول الإیمان للزیاده و النقص و عدم قبوله نزاع لفظی فمراد النافین عدم قبول أصل الإیمان و هو التصدیق ذلک و هو کذلک

لعدم قبوله الزياده و النقصان،و مراد المثبتين قبول ما به كمال الإيمان و هو الأعمال للزياده و النقصان و هو كذلك بلا شك.

و فيه أولا:أن فيه خلطا بين التصديق و الإيمان فالإيمان تصديق مع الالتزام و ليس مجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه.

و ثانيا:أن نسبه نفى الزياده فى أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحه فهم إنما يثبتون الزياده فى أصل الإيمان،و يرون أن كلا من العلم و الالتزام المؤلف منهما الإيمان يقبل القوه و الضعف.

و ثالثا:أن إدخال الأعمال فى محل النزاع غير صحيح لأن النزاع فى شىء غير النزاع فى أثره الذى به كماله و لا نزاع لأحد فى أن الأعمال و الطاعات تقبل العد و تقل و تكثر بحسب تكرر الواحد.

[بيان]

و قوله:« وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ » الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم،و السياق يشهد أن المراد بجنود السماوات و الأرض الأسباب الموجوده فى العالم مما يرى و لا يرى من الخلق فهى وسائط متخلله بينه تعالى و بين ما يريده من شىء تطيعه و لا تعصاه.

و إيراد الجمله أعنى قوله:« وَ لِلّٰهِ جُنُودُ »إلخ،بعد قوله:« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ »إلخ،للدلاله على أن له جميع الأسباب و العلل التى فى الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء و لا يغلبه شىء فى ذلك، و قد نسبت إلى زياده إيمان المؤمنين بإنزال السكينه فى قلوبهم.

و قوله:« وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً »أى منيعا جانبه لا يغلبه شىء متقنا فى فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته و الجمله بيان تعليلى لقوله:« وَ لِلّٰهِ جُنُودُ »إلخ،كما أنه بيان تعليلى لقوله:« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ »إلخ،كأنه قيل:أنزل السكينه لكذا و له ذلك لأن له جميع الجنود و الأسباب لأنه العزيز على الإطلاق و الحكيم على الإطلاق.

قوله تعالى:« لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ »إلى

آخر الآيه،تعليل آخر لقوله:« أَنْزَلَ السَّكِينَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ »علی المعنی کما أن قوله:« لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً »تعلیل له بحسب اللفظ کأنه قیل:خص المؤمنین بإنزال السکینه و حرم علی غیرهم ذلک لیزداد إیمان هؤلاء مع إیمانهم و حقیقه ذلک أن یدخل هؤلاء الجنه و یعذب أولئک فیکون قوله:«لیدخل»بدلا أو عطف بیان من قوله.

« لِیَزْدٰادُوا »إلخ.

و فی متعلق لام« لِیُدْخِلَ »إلخ،أقوال أخر کالقول بتعلقها بقوله:« فَتَحْنٰا » أو قوله:« لِیَزْدٰادُوا »أو بجمیع ما تقدم إلی غیر ذلک مما لا جدوی لإیراده.

و ضم المؤمنات إلی المؤمنین فی الآیه لدفع توهم اختصاص الجنه و تکفیر السیئات بالذکور لوقوع الآیه فی سیاق الکلام فی الجهاد،و الجهاد و الفتح واقعان علی أیدیهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم کما قیل.

و ضمیر« خٰالِدِینَ »و« یُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ »للمؤمنین و المؤمنات جمیعا علی التغلیب.

و قوله:« وَ کٰانَ ذٰلِکَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِیماً »بیان لکون ذلک سعاده حقیقیه لا ریب فیها لکونه عند الله کذلک و هو یقول الحق.

قوله تعالی:« وَ یُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِینَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْمُشْرِکِینَ وَ الْمُشْرِکٰاتِ »إلی آخر الآیه معطوف علی قوله:« لِیُدْخِلَ »بالمعنی الذی تقدم،و تقدیم المنافقین و المنافقات علی المشرکین و المشرکات فی الآیه لکونهم أضر علی المسلمین من أهل الشرک و لأن عذاب أهل النفاق أشد قال تعالی:« إِنَّ الْمُنٰافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ ».

و قوله:« اَلظّٰانِّینَ بِاللّٰهِ ظَنَّ السَّوْءِ » السوء بالفتح فالسکون مصدر بمعنی القبح و السوء بالضم اسم مصدر،و ظن السوء هو ظنهم أن الله لا ینصر رسوله و قیل:المراد بظن السوء ما یعم ذلک و سائر ظنونهم السیئه من الشرک و الکفر.

و قوله:« عَلَیْهِمْ دٰائِرَهُ السَّوْءِ »دعاء علیهم أو قضاء علیهم أی لیستضروا بدائره السوء التی تدور لتصیب من تصیب من الهلاک و العذاب.

و قوله:« وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ »معطوف علی قوله:

« عَلَیْهِمْ دٰائِرَهُ »إلخ،و قوله:« وَ سٰاءَتْ مَصِیراً »بیان مساءه مصیرهم،کما أن قوله:

« وَ کٰانَ ذٰلِکَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِیماً »بیان لحسن مصیر أهل الإیمان.

قوله تعالی:« وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »تقدم معناه،و الظاهر أنه بیان

تعلیلی للآیتین أعنی قوله:« لِیُدْخِلَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ »-إلی قوله- وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ »علی حذو ما کان مثله فیما تقدم بیانا تعلیلیا لقوله:« أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ »إلخ.

و قیل:إن مضمونه متعلق بالآیه الأخیره فهو تهدید لهم أنهم فی قبضه قدرته فینتقم منهم،و الوجه الأول أظهر.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً »:حدثنی أبی عن ابن أبی عمیر عن ابن سنان عن أبی عبد الله(ع)قال: کان سبب نزول هذه الآیه و هذا الفتح العظیم-أن الله جل و عز أمر رسوله ص فی النوم-أن یدخل المسجد الحرام و یطوف و یحلق مع المحلقین-فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا.

فلما نزل ذا الحلیفه أحرموا بالعمره و ساقوا البدن-و ساق رسول الله ص سته و ستین بدنه-و أحرموا من ذی الحلیفه ملبین بالعمره-و قد ساق من ساق منهم الهدی معرات مجللات.

فلما بلغ قریشا بعثوا خالد بن الولید-فی مائتی فارس کمینا یستقبل رسول الله ص-فکان یعارضه علی الجبال-فلما کان فی بعض الطریق حضرت صلاه الظهر-فأذن بلال فصلی رسول الله ص بالناس-فقال خالد بن الولید:لو کنا حملنا علیهم و هم فی الصلاه-لأصبناهم لأنهم لا یقطعون صلاتهم-و لکن تجیء الآن لهم صلاه أخری-أحب إلیهم من ضیاء أبصارهم-فإذا دخلوا فی الصلاه أغرنا علیهم،فنزل جبرئیل علی رسول الله ص بصلاه الخوف فی قوله عز و جل:« وَ إِذٰا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاٰهَ »الآیه.

قال:فلما کان فی الیوم الثانی-نزل رسول الله ص الحدیبیه،و کان رسول الله ص یستنفر الأعراب فی طریقه-فلم یتبعه أحد و یقولون:أ یطمع محمد و أصحابه أن یدخلوا الحرم-و قد غزتهم قریش فی عقر دیارهم فقتلوهم،أنه لا یرجع محمد و أصحابه إلی المدینه أبدا.الحدیث.

و فی المجمع،:قال ابن عباس: إن رسول الله ص خرج یرید مکه-فلما بلغ الحدیبیه وقفت ناقته-فزجرها فلم تنزجر و برکت الناقه-فقال أصحابه:خلأت الناقه، فقال:ما هذا لها عاده و لکن حبسها حابس الفیل.

و دعا عمر بن الخطاب لیرسله إلی أهل مکه-لیأذنوا له بأن یدخل مکه و یحل من عمرته و ینحر هدیه-فقال:یا رسول الله ما لی بها حمیم-و إنی أخاف قریشا لشده عداوتی إیاها-و لکن أدلک علی رجل هو أعز بها منی عثمان بن عفان-فقال:صدقت.

فدعا رسول الله ص عثمان-فأرسله إلی أبی سفیان و أشراف قریش-یخبرهم أنه لم یأت لحرب-و إنما جاء زائرا لهذا البیت معظما لحرمته،فاحتبسته قریش عندها- فبلغ رسول الله ص و المسلمین أن عثمان قد قتل.فقال(ص):لا نبرح حتی نناجز القوم،و دعا الناس إلی البیعه-فقام رسول الله ص إلی الشجره و استند إلیها-و بایع الناس علی أن یقاتلوا المشرکین و لا یفروا.قال عبد الله بن مغفل:کنت قائما علی رأس رسول الله ص-ذلک الیوم و بیدی غصن من السمره أذب عنه-و هو یبایع الناس فلم یبایعهم علی الموت-و إنما بایعهم علی أن لا یفروا.

و روی الزهری و عروه بن الزبیر و المسور بن مخرمه قالوا: خرج رسول الله ص من المدینه-فی بضع عشره مائه من أصحابه-حتی إذا کانوا بذی الحلیفه-قلد رسول الله ص الهدی و أشعره و أحرم بالعمره-و بعث بین یدیه عینا له من خزاعه یخبره عن قریش.

و سار رسول الله ص-حتی إذا کان بغدیر الأشطاط قریبا من عسفان-أتاه عینه الخزاعی فقال:إنی ترکت کعب بن لؤی و عامر بن لؤی -قد جمعوا لک الأحابیش و جمعوا جموعا-و هم قاتلوک أو مقاتلوک و صادوک عن البیت-فقال(ص):روحوا فراحوا حتی إذا کانوا ببعض الطریق-قال النبی ص:إن خالد بن الولید بالغمیم-فی خیل لقریش طلیعه فخذوا ذات الیمین.

فسار حتی إذا کان بالثنیه برکت راحلته-فقال(ص):ما خلأت القصواء و لکن حبسها حابس الفیل.ثم قال:و الله لا یسألونی خطه یعظمون فیها حرمات الله-إلا أعطیتهم إیاها ثم زجرها فوثبت به.

قال:فعدل حتی نزل بأقصی الحدیبیه علی ثمد قلیل الماء-إنما یتبرضه الناس تبرضا

فشكوا إليه العطش-فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فى الماء-فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه.

فبينا هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعى-فى نفر من خزاعه-و كانوا عيبه نصح رسول الله ص من أهل تهامه-فقال:إنى تركت كعب بن لؤى و عامر بن لؤى- و معهم العوذ المطافيل-و هم مقاتلوك و صادوك عن البيت-فقال رسول الله ص:إنا لم نجئ لقتال أحد-و إنا جئنا معتمرين،و إن قريشا قد نهكتهم الحرب و أضرت بهم- فإن شاءوا ماددتهم مده و يخلو بينى و بين الناس،و إن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا-و إلا فقد جموا-و إن أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا-حتى تنفرد سالفتى أو لينفذ الله تعالى أمره،فقال بديل:سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشا فقال:إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل و أنه يقول:

كذا و كذا-فقام عروه بن مسعود الثقفى فقال:إنه قد عرض عليكم خطه رشد فاقبلوها و دعونى آته-فقالوا:ائته فأتاه فجعل يكلم النبى ص-فقال له رسول الله ص نحوا من قوله لبديل.

فقال عروه عند ذلك:أى محمد-أ رأيت إن استأصلت قومك-هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟و إن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوها-و أرى أشابا من الناس خلقاء أن يفروا و يدعوك-فقال له أبو بكر:امصص بظر اللات أ نحن نفر عنه و ندعه؟فقال:من ذا؟قال:أبو بكر.قال:أما و الذى نفسى بيده-لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك.

قال:و جعل يكلم النبى ص-و كلما كلمه أخذ بلحيته-و المغيره بن شعبه قائم على رأس النبى ص-و معه السيف و عليه المغفر-فكلما أهوى عروه بيده إلى لحيه رسول الله ص-ضرب يده بنعل السيف و قال:أخر يدك عن لحيه رسول الله ص قبل أن لا ترجع إليك،فقال:من هذا؟قال المغيره بن شعبه.قال:أى غدر أ و لست أسعى فى غدرتك.

قال:و كان المغيره صحب قوما فى الجاهليه-فقتلهم و أخذ أموالهم.ثم جاء فأسلم-فقال النبى ص:أما الإسلام فقد قبلنا،و أما المال فإنه مال غدر لا حاجه لنا فيه.

ثم إن عروه جعل يرمق أصحاب النبی ص-إذا أمرهم رسول الله ص ابتدروا أمره،و إذا توضأ ثاروا يقتتلون علی وضوئه، و إذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده،و ما يحدون إليه النظر تعظيما له.

قال:فرجع عروه إلی أصحابه و قال:أی قوم و الله لقد وفدت علی الملوك- و وفدت علی قيصر و كسری و النجاشی-و الله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد-إذا أمرهم ابتدروا أمره،و إذا توضأ كادوا يقتتلون علی وضوئه، و إذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده،و ما يحدون إليه النظر تعظيما له،و أنه قد عرض عليكم خطه رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بنی كنانه:دعونی آته فقالوا:ائته-فلما أشرف عليهم قال رسول الله ص:هذا فلان و هو من قوم يعظمون البدن- فابعثوها فبعثت له و استقبله القوم يلبون-فلما رأی ذلك قال:سبحان الله-ما ينبغی لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال:دعونی آته-فقالوا:ائته فلما أشرف عليهم قال النبی ص:هذا مكرز و هو رجل فاجر فجعل يكلم النبی ص-فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو-فقال(ص):قد سهل عليكم أمركم-فقال:اكتب بيننا و بينك كتابا.

فدعا رسول الله ص علی بن أبی طالب-فقال له رسول الله ص:اكتب بسم الله الرحمن الرحيم-فقال سهيل:أما الرحمن فوالله ما أدری ما هو؟و لكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون:و الله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم-فقال النبی ص:

اكتب باسمك اللهم-هذا ما قاضی عليه محمد رسول الله-فقال سهيل:لو كنا نعلم أنك رسول الله-ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك-و لكن اكتب محمد بن عبد الله-فقال رسول الله ص:إنی لرسول الله و إن كذبتمونی-ثم قال لعلی امح رسول الله فقال:يا رسول الله-إن يدی لا تنطلق بمحو اسمك من النبوه-فأخذه رسول الله ص فمحاه.

ثم قال:اكتب هذا ما قاضی عليه محمد بن عبد الله-و سهيل بن عمرو-و اصطلحا علی وضع الحرب عن الناس عشر سنين-يأمن فيهن الناس و يكف بعضهم عن بعض-و علی أنه من قدم مكه من أصحاب محمد حاجا-أو معتمرا أو يبتغی من فضل الله-فهو آمن علی دمه و ماله-و من قدم المدينه من قريش مجتازا إلی مصر أو إلی الشام-فهو آمن

علی دمه و ماله،و إن بیننا (۱)عیبه مکفوفه،و أنه لا إسلال و لا إغلال،و أنه من أحب أن یدخل فی عقد محمد و عهده دخل فیه،و من أحب أن یدخل فی عقد قریش و عهده دخل فیه.

فتواثبت خزاعه فقالوا:نحن فی عقد محمد و عهده،و تواثبت بنو بکر فقالوا:

نحن فی عقد قریش و عهدهم.

فقال رسول الله ص:علی أن تخلو بیننا-و بین البیت فنطوف-فقال سهیل:

و الله ما تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطه-و لکن ذلک من العام المقبل.فکتب فقال سهیل:علی أنه لا یأتیک منا رجل-و إن کان علی دینک إلاـ رددته إلینا-و من جاءنا ممن معک لم نرده علیک-فقال المسلمون سبحان الله-کیف یرد إلی المشرکین و قد جاء مسلما؟ فقال رسول الله ص:من جاءهم منا فأبعده الله،و من جاءنا منهم رددناه إلیهم-فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجا.

فقال سهیل:و علی أنک ترجع عنا عامک هذا-فلا تدخل علینا مکه-فإذا کان عام قابل خرجنا عنها لک-فدخلتها بأصحابک فأقمت بها ثلاثا-و لا تدخلها بالسلاح إلا السیوف فی القراب (۲)و سلاح الراکب،و علی أن هذا الهدی حیث ما حبسناه محله لا تقدمه علینا-فقال:نحن نسوق و أنتم تردون.

فبینا هم کذلک إذ جاء أبو جندل بن سهیل بن عمرو-یرسف (۳)فی قیوده و قد خرج من أسفل مکه-حتی رمی بنفسه بین أظهر المسلمین-فقال سهیل:هذا یا محمد أول ما أقاضیک علیه أن ترده-فقال النبی ص:إنا لم نقض بالکتاب بعد.قال:و الله إذا لا أصالحک علی شیء أبدا-فقال النبی ص:فأجره لی-فقال:ما أنا بمجیره لک قال:بلی فافعل،قال ما أنا بفاعل.قال مکرز:بلی قد أجرناه،قال أبو جندل بن سهیل:معاشر المسلمین أرد إلی المشرکین-و قد جئت مسلما أ لا ترون ما قد لقیت؟ -و کان قد عذب عذابا شدیدا-.

۱- ۱) أی یکون بیننا صدر نقی من الغل و الخداع.

۲- ۲) القراب:جمع قربه بمعنی الغمد.

۳- ۳) رسف رسفا:إذا مشی مشی المقید.

فقال عمر بن الخطاب:و الله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذ-فأتيت النبى ص فقلت:أ لست نبى الله؟فقال:بلى.قلت:أ لسنا على الحق و عدونا على الباطل؟ قال:بلى،قلت:فلم نعطى الدنيه فى ديننا إذا؟قال:إنى رسول الله و لست أعصيه و هو ناصرى-قلت:أ و لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت و نطوف حقا؟قال:بلى أ فأخبرتك أن نأتيه العام؟قلت:لا.قال:فإنك تأتيه و تطوف به-فنحر رسول الله ص بدنه فدعا بحالقه-فحلق شعره ثم جاءه نسوه مؤمنات-فأنزل الله تعالى:«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-إِذٰا جٰاءَكُمُ الْمُؤْمِنٰاتُ مُهٰاجِرٰاتٍ »الآيه.

قال محمد بن إسحاق بن يسار:و حدثنى بريده بن سفيان عن محمد بن كعب: أن كاتب رسول الله ص فى هذا الصلح-كان على بن أبى طالب-فقال له رسول الله ص:

اكتب«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو»فجعل على يتلكأ و يأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله-فقال رسول الله:فإن لك مثلها-تعطيها و أنت مضطهد، فكتب ما قالوا.

ثم رجع رسول الله ص إلى المدينه-فجاءه أبو بصير رجل من قريش و هو مسلم- فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا:العهد الذى جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين-فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفه-فنزلا يأكلان من تمر لهم-قال أبو بصير لأحد الرجلين:و إنى لأرى سيفك جيدا جدا فاستله-فقال:أجل إنه لجيد و جربت به ثم جربت-فقال أبو بصير:

أرنى أنظر إليه فأمكنه منه-فضربه به حتى برد و فر الآخر حتى بلغ المدينه-فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ص حين رآه:لقد رأى هذا ذعرا،فلما انتهى إلى النبى ص قال:قتل و الله صاحبى و إنى لمقتول.

قال:فجاء أبو بصير فقال:يا رسول الله-قد أوفى الله ذمتك و رددتنى إليهم-ثم أنجانى الله منهم فقال النبى ص:ويل أمه-مسعر حرب لو كان له أحد،فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم-فخرج حتى أتى سيف البحر.

و انفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير-فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير-حتى اجتمعت عليه عصابه.قال:فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام-إلا اعترضوا لها فقتلوهم و أخذوا أموالهم-فأرسلت قريش إلى النبى

ص تناشده الله و الرحم-لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن-فأرسل(ص) إليهم فأتوه.

و فی تفسیر القمی،فی حدیث طویل أوردنا صدره فی أول البحث قال:و قال رسول الله ص لأصحابه -بعد ما کتب الکتاب- :انحروا بدنکم و احلقوا رءوسکم-فامتنعوا و قالوا:کیف ننحر و نحلق-و لم نطف بالبیت و لم نسع بین الصفا و المروه- فاغتم رسول الله ص و شکا ذلک إلی أم سلمه-فقالت:یا رسول الله انحر أنت و احلق- فنحر رسول الله و حلق-فنحر القوم علی حیث یقین و شک و ارتیاب.:

أقول:و هو مروی فی روایات أخر من طرق الشیعه و أهل السنه.و هذا الذی رواه الطبرسی مأخوذ مع تلخیص ما عما رواه البخاری و أبو داود و النسائی عن مروان و المسور: .

و فی الدر المنثور،أخرج البیهقی عن عروه قال: أقبل رسول الله ص من الحدیبیه راجعا-فقال رجل من أصحاب رسول الله ص:و الله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البیت و صد هدینا-و عکف رسول الله بالحدیبیه-و رد رجلین من المسلمین خرجا.

فبلغ رسول الله ص قول رجال من أصحابه:إن هذا لیس بفتح-فقال رسول الله ص:بئس الکلام.هذا أعظم الفتح-لقد رضی المشرکون أن یدفعوکم بالراح عن بلادهم-و یسألوکم القضیه و یرغبون إلیکم فی الإیاب-و قد کرهوا منکم ما کرهوا،و قد أظفرکم الله علیهم-و ردکم سالمین غانمین مأجورین فهذا أعظم الفتح.

أ نسیتم یوم أحد إذ تصعدون و لا تلوون علی أحد-و أنا أدعوکم فی أخراکم؟أ نسیتم یوم الأحزاب إذ جاءوکم من فوقکم و من أسفل منکم-و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر-و تظنون بالله الظنونا؟.

قال المسلمون:صدق الله و رسوله هو أعظم الفتوح-و الله یا نبی الله ما فکرنا فیما فکرت فیه-و لأنت أعلم بالله و بالأمور منا فأنزل الله سوره الفتح.

أقول:و الأحادیث فی قصه الحدیبیه کثیره و ما أوردناه طرف منها.

و فی تفسیر القمی،بإسناده إلی عمر بن یزید بیاع السابری قال: قلت لأبی عبد الله (ع)قول الله فی کتابه:« لِیَغْفِرَ لَکَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ »قال:ما کان له ذنب و لا هم بذنب-و لکن الله حمله ذنوب شیعته ثم غفر لها.

و فی العیون،فی مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلی ابن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا(ع)-فقال المأمون:یا ابن رسول الله أ لیس من قولک- إن الأنبیاء معصومون؟قال:بلی،-إلی أن قال-قال:فأخبرنی عن قول الله عز و جل:« لِیَغْفِرَ لَکَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ ».

قال الرضا(ع):لم یکن أحد عند مشرکی مکه-أعظم ذنبا من رسول الله ص- لأنهم کانوا یعبدون من دون الله ثلاثمائه و ستین صنما-فلما جاءهم بالدعوه إلی کلمه الإخلاص-ص-کبر ذلک علیهم و عظم،و قالوا أ جعل الآلهه إلها واحدا-إن هذا لشیء عجاب،و انطلق الملأ منهم أن امشوا و اصبروا علی آلهتکم-إن هذا لشیء یراد ما سمعنا بهذا فی الملة الآخره-إن هذا إلا اختلاق-فلما فتح الله علی نبیه ص مکه قال:یا محمد- إنا فتحنا لک فتحا مبینا لیغفر لک الله-ما تقدم من ذنبک و ما تأخر عند مشرکی مکه- بدعائک إلی توحید الله فیما تقدم و ما تأخر-لأن مشرکی مکه أسلم بعضهم،و خرج بعضهم عن مکه،و من بقی منهم لم یقدر علی إنکار التوحید -إذا دعا الناس إلیه-فصار ذنبه عندهم فی ذلک مغفورا بظهوره علیهم.فقال المأمون:لله درک یا أبا الحسن.

و فی تفسیر العیاشی،عن منصور بن حازم عن أبی عبد الله(ع)قال*: ما ترک رسول الله ص« إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ »حتی نزلت سوره الفتح فلم یعد إلی ذلک الکلام.

أقول:و هذا المعنی مروی من طرق أهل السنه أیضا،و الحدیث لا یخلو من شیء لأنه مبنی علی کون المراد بالذنب فی الآیه هو المعصیه المنافیه للعصمه.

و فی الکافی،بإسناده إلی جمیل قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:« هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ »قال:الإیمان قال عز من قائل:

« لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ ».

أقول:«ظاهر الروایه أنه(ع)أخذ قوله تعالی فی الآیه:« لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ »تفسیرا للسکینه،و فی معنی الروایه روایات أخر.

و فیه،بإسناده عن أبی عمرو الزبیری عن أبی عبد الله(ع)قال*: قلت له:أیها العالم أخبرنی أی الأعمال أفضل عند الله؟قال:ما لا یقبل الله شیئا إلا به.قلت:و ما

هو؟قال:الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو-أعلى الأعمال درجه و أشرفها منزله و أسناها حظا.

قال:قلت:أ لا تخبرنى عن الإيمان-أ قول هو و عمل أم قول بلا عمل؟قال:

الإيمان عمل كله و القول بعض ذلك العمل-بفرض من الله بين فى كتابه واضح نوره ثابته حجته-يشهد له به الكتاب و يدعوه إليه.قال:قلت:صف لى جعلت فداك حتى أفهمه- قال:الإيمان حالات و درجات و صفات و منازل-فمنه التام المنتهى تمامه و منه الناقص المبين نقصانه-و منه الراجح الزائد رجحانه.

قلت:إن الإيمان ليتم و ينقص و يزيد؟قال:نعم.قلت:كيف ذلك؟قال:

لأن الله تبارك و تعالى فرض الإيمان-على جوارح ابن آدم و قسمه عليها و فرقه فيها-فليس من جوارحه جارحه إلا و قد وكلت من الإيمان-بغير ما وكلت به أختها-فمن لقى الله عز و جل حافظا لجوارحه-موفيا كل جارحه من جوارحه-ما فرض الله عز و جل عليها- لقى الله مستكملا لإيمانه و هو من أهل الجنه،و من خان فى شيء منها أو تعدى ما أمر الله عز و جل فيها-لقى الله عز و جل ناقص الإيمان.

قلت:و قد فهمت نقصان الإيمان و تمامه-فمن أين جاءت زيادته؟فقال:قول الله عز و جل:« وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ-أَيُّكُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِيمٰاناً- فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ- وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ »و قال:« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ-إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنٰاهُمْ هُدىً ».

و لو كان كله واحدا لا زياده فيه و لا نقصان-لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر و لاستوت النعم فيه،و لاستوى الناس و بطل التفضيل-و لكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنه،و بالزياده فى الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله،و بالنقصان دخل المفرطون النار.

[سوره الفتح (۴۸): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشاره

إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۹) إِنَّ اَلَّذِينَ يُبٰايِعُونَكَ إِنَّمٰا يُبٰايِعُونَ اَللّٰهَ يَدُ اَللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمٰا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفىٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَيْهُ اَللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۰)

بيان

فصل ثان من آيات السوره يعرف سبحانه فيه نبيه ص تعريف إكبار و إعظام بأنه أرسله شاهدا و مبشرا و نذيرا طاعته طاعه الله و بيعته بيعه الله،و قد كان الفصل الأول امتنانا منه تعالى على نبيه بالفتح و المغفره و إتمام النعمه و الهدايه و النصر و على المؤمنين بإنزال السكينه فى قلوبهم و إدخال الجنه و وعيد المشركين و المنافقين بالغضب و اللعن و النار.

قوله تعالى:« إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً »المراد بشهادته(ص) شهادته على الأعمال من إيمان و كفر و عمل صالح أو طالح،و قد تكرر فى كلامه تعالى ذكر شهادته(ص)،و تقدم استيفاء الكلام فى معنى هذه الشهاده،و هى شهاده حمل فى الدنيا،و أداء فى الآخره.

و كونه مبشرا تبشيره لمن آمن و اتقى بالقرب من الله و جزيل ثوابه،و كونه نذيرا إنذاره و تخويفه لمن كفر و تولى بأليم عذابه.

قوله تعالى:« لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً »القراءه المشهوره بتاء الخطاب فى الأفعال الأربعه،و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بياء الغيبه فى الجميع و قراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق.

ص: ۲۷۳

و کیف کان فاللام فی« لِتُؤْمِنُوا »للتعلیل أی أرسلناک کذا و کذا لتؤمنوا بالله و رسوله.

و التعزیر -علی ما قیل-النصر و التوقیر التعظیم کما قال تعالی: «مٰا لَکُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰاراً» :نوح:۱۳،و الظاهر أن الضمائر فی« تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ » جمیعا لله تعالی و المعنی:إنا أرسلناک کذا و کذا لیؤمنوا بالله و رسوله و ینصروه تعالی بأیدیهم و ألسنتهم و یعظموه و یسبحوه -و هو الصلاه-بکره و أصیلا أی غداه و عشیا.

و قیل:الضمیران فی« تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ »للرسول(ص)،و ضمیر« تُسَبِّحُوهُ » لله تعالی و یوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقه.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ »إلی آخر الآیه. البیعه نوع من المیثاق ببذل الطاعه قال فی المفردات:و بایع السلطان إذا تضمن بذل الطاعه له بما رضخ له انتهی،و الکلمه مأخوذه من البیع بمعناه المعروف فقد کان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البیع أعطی البائع یده للمشتری فکأنهم کانوا یمثلون بذلک نقل الملک بنقل التصرفات التی یتحقق معظمها بالید إلی المشتری بالتصفیق، و بذلک سمی التصفیق عند بذل الطاعه بیعه و مبایعه،و حقیقه معناه إعطاء المبایع یده للسلطان مثلا لیعمل به ما یشاء.

فقوله:« إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ »تنزیل بیعته(ص)منزله بیعته تعالی بدعوی أنها هی فیما یواجهونه(ص)به من بذل الطاعه لا یواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعه الله ثم قرره زیاده تقریر و تأکید بقوله:« یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ » حیث جعل یده(ص)ید الله کما جعل رمیه(ص)رمی نفسه فی قوله: «وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ» :الأنفال:۱۷.

و فی نسبه ما له(ص)من الشأن إلی نفسه تعالی آیات کثیره کقوله تعالی: «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ» :النساء:۸۰،و قوله: «فَإِنَّهُمْ لاٰ یُکَذِّبُونَکَ وَ لٰکِنَّ الظّٰالِمِینَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ یَجْحَدُونَ» :الأنعام:۳۳،و قوله: «لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ» :آل عمران:۱۲۸.

و قوله:« فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّمٰا یَنْکُثُ عَلیٰ نَفْسِهِ » النکث نقض العهد و البیعه، و الجمله تفریع علی قوله:« إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ »و المعنی:فإذا کان

بیعتک بیعه الله فالناکث الناقض لها ناقض لبیعه الله و لا یتضرر بذلک إلا نفسه کما لا ینتفع بالإیفاء إلا نفسه لأن الله غنی عن العالمین.

و قوله:« وَ مَنْ أَوْفیٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَیْهُ اللّٰهَ فَسَیُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً »وعد جمیل علی حفظ العهد و الإیفاء به.

و الآیه لا تخلو من إیماء إلی أن النبی ص کان عند البیعه یضع یده علی أیدیهم فکانت یده علی أیدیهم لا بالعکس.

و للمفسرین فی قوله:« یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ »أقوال أخر.

فقیل:إنه من الاستعاره التخییلیه و الاستعاره بالکنایه جیء به لتأکید ما تقدمه و تقریر أن مبایعه الرسول ص کمبایعه الله من غیر تفاوت فخیل أنه سبحانه کأحد المبایعین من الناس فأثبتت له ید تقع فوق أیدی المبایعین للرسول(ص)مکان ید الرسول و فیه أنه غیر مناسب لساحه قدسه تعالی أن یخیل علی وجه هو منزه عنه.

و قیل:المراد بالید القوه و النصره أی قوه الله و نصرته فوق قوتهم و نصرتهم أی ثق بنصره الله لا بنصرتهم.

و فیه أن المقام مقام إعظام بیعه النبی ص و أن مبایعتهم له مبایعه لله،و الوثوق بالله و نصرته و إن کان حسنا فی کل حال لکنه أجنبی عن المقام.

و قیل:المراد بالید العطیه و النعمه أی نعمه الله علیهم بالثواب أو بتوفیقهم لمبایعتک فوق نعمتهم علیک بالمبایعه،و قیل:نعمته علیهم بالهدایه أعظم من نعمتهم علیک بالطاعه إلی غیر ذلک من الوجوه التی أوردوها و لا طائل تحتها.

بحث روائی

فی الدر المنثور،أخرج ابن عدی و ابن مردویه و الخطیب و ابن عساکر فی تاریخه عن جابر بن عبد الله قال*: لما نزلت علی رسول الله ص هذه الآیه« وَ تُعَزِّرُوهُ »قال النبی ص لأصحابه:ما ذاک؟قالوا:الله و رسوله أعلم.قال:لتنصروه.

و فی العیون،بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروی قال*: قلت لعلی بن موسی الرضا(ع):یا ابن رسول الله-ما تقول فی الحدیث الذی یرویه أهل الحدیث:أن

المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم فى الجنه؟فقال:يا أبا الصلت إن الله تعالى فضل نبيه محمدا-على جميع خلقه من النبيين و الملائكه،و جعل طاعته طاعته،و مبايعته مبايعته،و زيارته فى الدنيا و الآخره زيارته،فقال عز و جل:« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللّهَ »و قال:« إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللّهَ-يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ »و قال النبى ص:من زارنى فى حياتى أو بعد موتى فقد زار الله.

و درجته فى الجنه أعلى الدرجات،و من زاره فى درجته فى الجنه من منزله-فقد زار الله تبارك و تعالى.

و فى إرشاد المفيد،فى حديث بيعه الرضا(ع)قال: و جلس المأمون و وضع للرضا(ع)وسادتين عظيمتين-حتى لحق بمجلسه و فرشه،و أجلس الرضا(ع)فى الحضره و عليه عمامه و سيف.ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له فى أول الناس-فرفع الرضا(ع)يده فتلقى بها وجهه و ببطنها وجوههم-فقال له المأمون:

ابسط يدك للبيعه فقال الرضا(ع):إن رسول الله ص هكذا كان يبايع-فبايعه الناس و يده فوق أيديهم.

[سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۱ الى ۱۷]

اشاره

سَيَقُولُ لَكَ اَلْمُخَلَّفُونَ مِنَ اَلْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اَللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اَللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ اَلرَّسُولُ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ اَلسَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴) سَيَقُولُ اَلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اَللّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اَللّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاّ قَلِيلاً (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ اَلْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اَللّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى اَلْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى اَلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (۱۷)

بيان

فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الـذين قعدوا عن رسول الله ص فی سـفره الحديبيه و لم ينفروا إذا اسـتنفرهم و هم علی مـا قيـل أعراب حول المـدينه من قبائـل جهينه و مزينه و غفـار و أشـجع و أسـلم و دئل فتخلفوا عن النبی ص و لم يصاحبوه قائلين:إن محمدا و من معه يذهبون إلی قوم غزوهم بالأمس فی عقر دارهم فقتلوهم قتلا ذريعا،و إنهم لن يرجعوا من هذه السفره و لن ينقلبوا إلی ديارهم و أهليهم أبدا.

فـأخبر الله سـبحانه لنبيه(ص)فی هـذه الآيـات أنهم سـيلقونک و يعتلون فی قعودهم باشـتغالهم بالأموال و الأهلين و يسألونک أن تستغفر الله لهم،و كذبهم الله فيما قالوا و ذكر أن السبب فی قعودهم غير ذلک و هو ظنهم السوء،و أخبر أنهم سيسألونک

اللحوق و ليس لهم ذلک غير أنهم سيدعون إلى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل و إن تولوا فأليم العذاب.

قوله تعالى:« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا »إلى آخر الآيه،قال فی المجمع،: المخلف هو المتروک فی المكان خلف الخارجين من البلد،و هو مشتق من الخلف و ضده المقدم.انتهى.و الأعراب -و على ما قالوا- الجماعه من عرب الباديه و لا يطلق على عرب الحاضره،و هو اسم جمع لا مفرد له من لفظه.

و قوله:« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ »إخبار عما سيأتی من قولهم للنبی ص،و فی اللفظ دلاله ما على نزول الآيات فی رجوعه(ص)من الحديبيه إلى المدينه و لما يردها.

و قوله:« شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا »أی كان الشاغل المانع لنا عن صحابتک و الخروج معک هو أموالنا و أهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخفنا ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنک،و فی سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنبا فتعلقهم بأنه شغلتهم الأموال و الأهلون ليس اعتذارا للتبری عن الذنب بل ذكرا للسبب الموقع فی الذنب.

و قوله:« يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِی قُلُوبِهِمْ »تكذيب لهم فی جميع ما أخبروا به و سألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال و الأهلين،و لا أنهم يهتمون باستغفاره (ص)،و إنما سألوه ليكون ذلک جنه يصرفون بها العتاب و التوبيخ عن أنفسهم.

و قوله:« قُلْ فَمَنْ يَمْلِکُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً » جواب حلی عما اعتذروا به من شغل الأموال و الأهلين محصله أن الله سبحانه له الخلق و الأمر و هو المالک المدبر لكل شیء لا رب سواه فلا ضر و لا نفع إلا بإرادته و مشيته فلا يملک أحد منه تعالى شيئا حتى يقهره على ترک الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترک الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير،و إذا كان كذلک فانصرافكم عن الخروج مع النبی ص نصره للدين و اشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال

و الأهلين لا يغنى من الله شيئا لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضرا و لا يعين على جلب الخير و لا يعجله إن أراد بكم خيرا.

فقوله:« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ »إلخ،جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه،ملخصه أن تعلقكم فى دفع الضر و جلب الخير بظاهر الأسباب و منها تدبيركم و القعود بذلك عن مشروع دينى لا يغنيكم شيئا فى ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراده الله سبحانه فالآيه فى معنى قوله تعالى:« قُلْ لَنْ يُصِيبَنٰا إِلاّٰ مٰا كَتَبَ اللّٰهُ لَنٰا ».

و التمسک بالأسباب و عدم إلغائها و إن كان مشروعا مأمورا به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهم منها كالدفاع عن الحق و إن كان فيه بعض المكاره المحتمله اللهم إلا إذا تعقب خطرا قطعيا لا أثر معه للدفاع و السعى.

و قوله:« بَلْ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »تعريض لهم فيه إشاره إلى كذبهم فى قولهم:« شَغَلَتْنٰا أَمْوٰالُنٰا وَ أَهْلُونٰا ».

قوله تعالى:« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ »إلخ،بيان لما يشير إليه قوله:« بَلْ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » من كذبهم فى اعتذارهم،و المعنى:ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال و الأهلين بل ظننتم أن الرسول و المؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدا و أن الخارجين سيقتلون بأيدى قريش بما لهم من الجموع و البأس الشديد و الشوكه و القدره و لذلک تخلفتم.

و قوله:« وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ »أى زين الشيطان ذلک الظن فى قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلک الظن المزين و هو أن تتخلفوا و لا تخرجوا حذرا من أن تهلكوا و تبيدوا.

و قوله:« وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً » البور -على ما قيل-مصدر بمعنى الفساد أو الهلاک أريد به معنى الفاعل أى كنتم قوما فاسدين أو هالكين.

قيل:المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون إلى أهليهم أبدا و لا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و لا يظهر دينه كما مر فى قوله فى الآيه السادسه من السوره:« اَلظّٰانِّينَ بِاللّٰهِ ظَنَّ السَّوْءِ »بل هو أظهر.

قوله تعالى:« وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَعِيراً »الجمع فى هذه

الآيات بين الإيمان بالله و رسوله للدلاله على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله، و فى الآيه لحن تهديد.

و قوله:« فَإِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَعِيراً »كان مقتضى الظاهر أن يقال:أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشاره إلى عله الحكم بتعليقه على المشتق،و المعنى:

أعتدنا و هيأنا لهم لكفرهم سعيرا أى نارا مسعره مشتعله،و تنكير سعيرا للتهويل.

قوله تعالى:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً »معنى الآيه ظاهر و فيها تأييد لما تقدم،و فى تذييل الملك المطلق بالاسمين:الغفور الرحيم إشاره إلى سبق الرحمه الغضب و حث على الاستغفار و الاسترحام.

قوله تعالى:« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ذَرُونٰا نَتَّبِعْكُمْ » إلى آخر الآيه إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوه فيرزقون الفتح و يصيبون مغانم و يسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعا فى الغنيمه،و تلك غزوه خيبر اجتاز النبى ص و المؤمنون إليه ففتحوه و أخذوا الغنائم و خصها الله تعالى بمن كان مع النبى ص فى سفره الحديبيه لم يشرك معهم غيرهم.

و المعنى:أنكم ستنطلقون إلى غزوه فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون:

اتركونا نتبعكم.

و قوله:« يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ اللّٰهِ »قيل:المراد به وعده تعالى أهل الحديبيه أن يخصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجىء من قوله:« وَعَدَكُمُ اللّٰهُ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ الآيه،و يشير إليه فى هذه الآيه بقوله:« إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ».

و قوله:« قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا كَذٰلِكُمْ قٰالَ اللّٰهُ مِنْ قَبْلُ »أمر منه تعالى للنبى ص أن يمنعهم عن اتباعهم استنادا إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

و قوله:« فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنٰا »أى سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع:« بَلْ تَحْسُدُونَنٰا »و قوله:« بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً »جواب عن قولهم:« بَلْ تَحْسُدُونَنٰا »لم يوجه الخطاب إليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون

الحديث و لذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبى ص و قال:« بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ».

و ذلك أن قولهم:« بَلْ تَحْسُدُونَنَا »إضراب عن قول النبى ص لهم بأمر الله:« لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ »فمعنى قولهم:إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت و من معك من المؤمنين أهل الحديبيه أن نشارككم فى الغنائم و تريدون أن تختص بكم.

و هذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل و تمييز رسول الله ص المعصوم الذى لا يرد و لا يصدر فى شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطه العقل و بلاده الفهم فهذا القول الذى واجهوا به النبى ص و هم مدعون للإيمان و الإسلام أدل دليل على ضعف تعقلهم و قله فقههم.

و من هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلا بساطه عقلهم و ضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول و لا يفقهون بعضه و هو الكثير و لا أن بعضهم يفقه القول و جلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم.

قوله تعالى:« قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ »إلخ،اختلفوا فى هذا القوم من هم؟فقيل:المراد به هوازن، و قيل:ثقيف،و قيل:هوازن و ثقيف،و قيل:هم الروم فى غزاه مؤته و تبوك، و قيل:هم أهل الرده قاتلهم أبو بكر بعد الرحله،و قيل:هم الفارس،و قيل:

أعراب الفارس و أكرادهم.

و ظاهر قوله:« سَتُدْعَوْنَ »أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبى ص بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف و الروم فى مؤته،و قوله تعالى سابقا:« قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا » ناظر إلى نفى اتباعهم فى غزوه خيبر على ما يفيده السياق.

و قوله:« تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ »استئناف يدل على التنويع أى إما تقاتلون أو يسلمون أى إنهم مشركون لا تقبل منهم جزيه كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا.

و لا يصح أخذ« تُقَاتِلُونَهُمْ »صفه لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال

قوم يقاتلونهم،و كذا لا- يصح أخذ حالا- من نائب فاعل« سَتُدْعَوْنَ »لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا أنهم يدعون إليهم حال قتالهم، كذا قيل.

ثم تمم سبحانه الكلام بالوعد و الوعيد على الطاعه و المعصيه فقال:« فَإِنْ تُطِيعُوا » أى بالخروج إليهم« يُؤْتِكُمُ اللّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا » أى بالمعصيه و عدم الخروج« كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ »و لم تخرجوا فى سفره الحديبيه« يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً »أى فى الدنيا كما هو ظاهر المقام أو فى الدنيا و الآخره معا.

قوله تعالى:« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا- عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا- عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوى العاهه الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه و هو الحرج.

ثم تمم الآيه أيضا بإعاده نظير ذيل الآيه السابقه فقال:« وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً ».

[سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۸ الى ۲۸]

اشاره

لَقَدْ رَضِيَ اَللّهُ عَنِ اَلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَهِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اَلسَّكِينَهَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (۱۸) وَ مَغانِمَ كَثِيرَهً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اَللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۹) وَعَدَكُمُ اَللّهُ مَغانِمَ كَثِيرَهً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ اَلنّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَهً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اَللّهُ بِها وَ كانَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۱) وَ لَوْ قاتَلَكُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا اَلْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۲۲) سُنَّهَ اَللّهِ اَلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اَللّهِ تَبْدِيلاً (۲۳) وَ هُوَ اَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّهَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اَللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۲۴) هُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ وَ اَلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا- رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّهٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اَللّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۲۵) إِذْ جَعَلَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اَلْحَمِيَّهَ حَمِيَّهَ اَلْجاهِلِيَّهِ فَأَنْزَلَ اَللّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَهَ اَلتَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اَللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۲۶) لَقَدْ صَدَقَ اَللّهُ رَسُولَهُ اَلرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرامَ إِنْ شاءَ اَللّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا- تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷) هُوَ اَلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً (۲۸)

بيان

فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبى ص فى خروجه إلى الحديبيه فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبى ص تحت الشجره ثم يمتن عليهم بإنزال السكينه و إثابه فتح قريب و مغانم كثيره يأخذونها.

ص :۲۸۳

و یخبرهم-و هو بشری-أن المشرکین لو قاتلوهم لانهزموا و ولوا الأدبار و أن الرؤیا التی رآها النبی ص رؤیا صادقه سیدخلون المسجد الحرام آمنین محلقین رءوسهم لا یخافون فإنه تعالی أرسل رسوله بالهدی و دین الحق لیظهره علی الدین کله و لو کره المشرکون.

قوله تعالی:« لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبٰایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ » الرضا هیئه تطرأ علی النفس من تلقی ما یلائمها و تقبله من غیر دفع،و یقابله السخط،و إذا نسب إلی الله سبحانه کان المراد الإثابه و الجزاء الحسن دون الهیأه الطارئه و الصفه العارضه الحادثه لاستحاله ذلک علیه تعالی:فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

و الرضا-کما قیل-یستعمل متعدیا إلی المفعول بنفسه و متعدیا بعن و متعدیا بالباء فإذا عدی بنفسه جاز دخوله علی الذات نحو:رضیت زیدا،و علی المعنی نحو:

رضیت إماره زید،قال تعالی: «وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً» :المائده:۳،و إذا عدی بعن دخل علی الذات کقوله: «رَضِیَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» :البینه:۸،و إذا عدی بالباء دخل علی المعنی کقوله تعالی:« أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا مِنَ الْآخِرَهِ ».

و لما کان الرضا المنسوب إلیه تعالی صفه فعل له بمعنی الإثابه و الجزاء،و الجزاء إنما یکون بإزاء العمل دون الذات ففیما نسب من رضاه تعالی إلی الذات و عدی بعن کما فی الآیه« لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ »نوع عنایه استدعی عد الرضا و هو متعلق بالعمل متعلقا بالذات و هو أخذ بیعتهم التی هی متعلقه الرضا ظرفا للرضی فلم یسع إلا أن یکون الرضا متعلقا بهم أنفسهم.

فقوله:« لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبٰایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ »إخبار عن إثابته تعالی لهم بإزاء بیعتهم له(ص)تحت الشجره.

و قد کانت البیعه یوم الحدیبیه تحت شجره سمره بها بایعه(ص)من معه من المؤمنین و قد ظهر به أن الظرف فی قوله:« إِذْ یُبٰایِعُونَکَ »متعلق بقوله:« لَقَدْ رَضِیَ » و اللام للقسم.

قوله تعالی:« فَعَلِمَ مٰا فِی قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّکِینَهَ عَلَیْهِمْ وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً

وَ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً

»تفريع على قوله:« لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ » إلخ،و المراد بما فى قلوبهم حسن النيه و صدقها فى مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضيا عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النيه و إخلاصها.

فالمعنى:فعلم ما فى قلوبهم من صدق النيه و إخلاصها فى مبايعتهم لك.

و قيل:المراد بما فى قلوبهم الإيمان و صحته و حب الدين و الحرص عليه،و قيل:

الهم و الأنفه من لين الجانب للمشركين و صلحهم.و السياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى.

فإن قلت:المراد بما فى قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيتهم الصادقه المخلصه فى المبايعه كما ذكر،و علمه تعالى بنيتهم الموصوفه بالصدق و الإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لا مسبب متفرع على الرضا،و لازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال:لقد علم ما فى قلوبهم فرضى عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما فى الآيه.

قلت:كما أن للمسبب تفرعا على السبب من حيث التحقق و الوجود كذلك للسبب -سواء كان تاما أو ناقصا-تفرع على المسبب من حيث الانكشاف و الظهور،و الرضا كما تقدم صفه فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح و ما يثيب به و يجزى صاحب العمل،و الذى انتزع عنه الرضا فى المقام هو مجموع علمه تعالى بما فى قلوبهم و إنزاله السكينه عليهم و إثابتهم فتحا قريبا و مغانم كثيره يأخذونها.

فقوله:« فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ »إلخ،تفريع على قوله:« لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ »للدلاله على حقيقه هذا الرضا و الكشف عن مجموع الأمور التى بتحققها يتحقق معنى الرضا.

ثم قوله:« فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ »متفرع على قوله:« فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ » و كذا ما عطف عليه من قوله:« وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً »إلخ.

و المراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق و كذا المراد بمغانم كثيره يأخذونها،غنائم خيبر،و قيل:المراد بالفتح القريب فتح مكه،و السياق لا يساعد عليه.

و قوله:« وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً »أى غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه.

ص:۲۸۵

قوله تعالی:« وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ »إلخ،المراد بهذه المغانم الکثیره المغانم التی سیأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحدیبیه أعم من مغانم خیبر و غیرها فتکون الإشاره بقوله:« فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ »إلی المغانم المذکوره فی الآیه السابقه و هی مغانم خیبر نزلت منزله الحاضره لاقتراب وقوعها.

هذا علی تقدیر نزول الآیه مع الآیات السابقه،و أما علی ما قیل:إن الآیه نزلت بعد فتح خیبر فأمر الإشاره فی قوله:« فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ »ظاهر لکن المعروف نزول السوره بتمامها فی مرجع النبی ص من الحدیبیه بینها و بین المدینه.

و قیل:الإشاره بهذه إلی البیعه التی بایعوها تحت الشجره و هو کما تری.

و قوله:« وَ كَفَّ أَيْدِيَ النّٰاسِ عَنْكُمْ »قیل:المراد بالناس قبیلتا أسد و غطفان هموا بعد مسیر النبی ص إلی خیبر أن یغیروا علی أموال المسلمین و عیالهم بالمدینه فقذف الله فی قلوبهم الرعب و کف أیدیهم.

و قیل:المراد مالک بن عوف و عیینه بن حصین مع بنی أسد و غطفان جاءوا لنصره یهود خیبر فقذف الله فی قلوبهم الرعب فرجعوا، و قیل:المراد بالناس أهل مکه و من والاها حیث لم یقاتلوه(ص)و رضوا بالصلح.

و قوله:« وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ »عطف علی مقدر أی وعدهم الله بهذه الإثابه إثابه الفتح و الغنائم الکثیره المعجله و المؤجله لمصالح کذا و کذا و لتکون آیه للمؤمنین أی علامه و أماره تدلهم علی أنهم علی الحق و أن ربهم صادق فی وعده و نبیهم(ص) صادق فی إنبائه.

و قد اشتملت السوره علی عده من أنباء الغیب فیها هدی للمتقین کقوله:« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرٰابِ شَغَلَتْنٰا »إلخ،و قوله:« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ » إلخ،و قوله:« قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ »إلخ،و ما فی هذه الآیات من وعد الفتح و المغانم،و قوله بعد:« وَ أُخْرىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا »إلخ،و قوله بعد:« لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا »إلخ.

و قوله:« وَ يَهْدِيَكُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً »عطف علی« لِتَكُونَ »أی و لیهدیکم صراطا مستقیما و هو الطریق الموصل إلی إعلاء کلمه الحق و بسط الدین،و قیل:هو الثقه بالله

و التوكل عليه فى كل ما تأتون و تذرون،و ما ذكرناه أوفق للسياق.

قوله تعالى:« وَ أُخْرىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً »أى و غنائم أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطه قدره و كان الله على كل شىء قديرا.

فقوله:« أُخْرىٰ »مبتدأ و« لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا »صفته و قوله:« قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا »خبره الثانى و خبره الأول محذوف،و تقدير الكلام:و ثمه غنائم أخرى قد أحاط الله بها.

و قيل:قوله:« أُخْرىٰ »فى موضع نصب بالعطف على قوله:« هٰذِهِ »و التقدير:

و عجل لكم غنائم أخرى،و قيل:فى موضع نصب بفعل محذوف،و التقدير:

و قضى غنائم أخرى،و قيل:فى موضع جر بتقدير رب و التقدير:و رب غنائم أخرى و هذه وجوه لا يخلو شىء منها من وهن.

و المراد بالأخرى فى الآيه-على ما قيل-غنائم هوازن،و قيل:المراد غنائم فارس و الروم،و قيل:المراد فتح مكه و الموصوف محذوف،و التقدير:و قريه أخرى لم تقدروا عليها أى على فتحها،و أول الوجوه أقربها.

قوله تعالى:« وَ لَوْ قٰاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً »خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم و أن ليس لهم ولى يتولى أمرهم و لا نصير ينصرهم،و يتخلص فى أنهم لا يقوون فى أنفسهم على قتالكم و لا نصير لهم من الأعراب ينصرهم،و هذا فى نفسه بشرى للمؤمنين.

قوله تعالى:« سُنَّةَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً » « سُنَّةَ اللّٰهِ »مفعول مطلق لفعل مقدر أى سن سنه الله أى هذه سنه قديمه له سبحانه أن يظهر أنبياءه و المؤمنين بهم إذا صدقوا فى إيمانهم و أخلصوا نياتهم على أعدائهم من الذين كفروا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً كما قال تعالى: «كَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي» المجادله:۲۱.و لم يصب المسلمون فى شىء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله و رسوله بعض المخالفه.

قوله تعالى:« وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ

بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ

»إلخ،الظاهر أن المراد بكف أيدى كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبيه و هى بطن مكه لقربها منها و اتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم و ذلك أن كلا من الفئتين كانت أعدى عدو للأخرى و قد اهتمت قريش بجمع المجموع من أنفسهم و من الأحابيش،و بايع المؤمنون النبى ص على أن يقاتلوا،و عزم النبى ص على أن يناجز القوم،و قد أظفر الله النبى و الذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم و ركزوا أقدامهم فى عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدى الكفار عن المؤمنين و أيدى المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم و كان الله بما يعملون بصيرا.

قوله تعالى:« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ » العكوف على أمر هو الإقامه عليه،و المعكوف -كما فى المجمع- الممنوع من الذهاب إلى جهه بالإقامه فى مكانه،و منه الاعتكاف و هو الإقامه فى المسجد للعباده.

و المعنى:المشركون مشركو مكه هم الذين كفروا و منعوكم عن المسجد الحرام و منعوا الهدى-الذى سقتموه-حال كونه محبوسا من أن يبلغ محله أى الموضع الذى ينحر أو يذبح فيه و هو مكه التى ينحر أو يذبح فيها هدى العمره كما أن هدى الحج ينحر أو يذبح فى منى،و قد كان النبى ص و من معه من المؤمنين محرمين للعمره ساقوا هديا لذلك.

قوله تعالى:« وَ لَوْ لاٰ رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ » الوطء الدوس،و المعره المكروه،و قوله:« أَنْ تَطَؤُهُمْ »بدل اشتمال من مدخول لو لا،و جواب لو لا محذوف،و التقدير:ما كف أيديكم عنهم.

و المعنى:و لو لا أن تدوسوا رجالا مؤمنين و نساء مؤمنات بمكه و أنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم و إهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم.

و قوله:« لِيُدْخِلَ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ »اللام متعلق بمحذوف،و التقدير:

و لكن كف أيديكم عنهم ليدخل فى رحمته أولئك المؤمنين و المؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل و إياكم بحفظكم من أصابه المعره.

و قیل:المعنی:لیدخل فی رحمته من أسلم من الکفار بعد الصلح.

و قوله:« لَوْ تَزَیَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً » التزیل التفرق و ضمیر « تَزَیَّلُوا »لجمیع من تقدم ذکره من المؤمنین و الکفار من أهل مکه أی لو تفرقوا بأن یمتاز المؤمنون من الکفار لعذبنا الذین کفروا من أهل مکه عذابا ألیما لکن لم نعذبهم لحرمه من اختلط بهم من المؤمنین.

قوله تعالی:« إِذْ جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ الْجاهِلِیَّهِ »إلی آخر الآیه قال الراغب:و عبر عن القوه الغضبیه إذا ثارت و کثرت بالحمیه فیقال:حمیت علی فلان أی غضبت علیه قال تعالی:« حَمِیَّهَ الْجاهِلِیَّهِ »و عن ذلک أستعیر قولهم:

حمیت المکان حمی انتهی.

و الظرف فی قوله:« إِذْ جَعَلَ »متعلق بقوله سابقا:« وَ صَدُّوکُمْ »و قیل: متعلق بقوله:« لَعَذَّبْنَا »و قیل:متعلق باذکر المقدر،و الجعل بمعنی الإلقاء و« اَلَّذِینَ کَفَرُوا »فاعله و الحمیه مفعوله و« حَمِیَّهَ الْجاهِلِیَّهِ »بیان للحمیه و الجاهلیه وصف موضوع فی موضع الموصوف و التقدیر المله الجاهلیه.

و لو کان« جَعَلَ »بمعنی صیر کان مفعوله الثانی مقدرا و التقدیر إذ جعل الذین کفروا الحمیه راسخه فی قلوبهم و وضع الظاهر موضع الضمیر فی قوله:« جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا »للدلاله علی سبب الحکم.

و معنی الآیه:هم الذین کفروا و صدوکم إذ ألقوا فی قلوبهم الحمیه حمیه المله الجاهلیه.

و قوله:« فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ »تفریع علی قوله:« جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا »و یفید نوعا من المقابله کأنه قیل:جعلوا فی قلوبهم الحمیه فقابله الله سبحانه بإنزال السکینه علی رسوله و علی المؤمنین فاطمأنت قلوبهم و لم یستخفهم الطیش و أظهروا السکینه و الوقار من غیر أن یستفزهم الجهاله.

و قوله:« وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ التَّقْویٰ »أی جعلها معهم لا تنفک عنهم،و هی علی ما اختاره جمهور المفسرین کلمه التوحید و قیل:المراد الثبات علی العهد و الوفاء به و قیل:

المراد بها السكينه و قيل:قولهم:بلى فى عالم الذر،و هو أسخف الأقوال.

و لا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التى تأمر بالتقوى كما قال تعالى: «أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمٰانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» :المجادله:۲۲، و قد أطلق الله الكلمه على الروح فى قوله: «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» :النساء:۱۷۱.

و قوله:« وَ كٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا »أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقى هذه العطيه الإلهيه بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم،و أما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد فى غيرهم و أهل الشىء خاصته.

و قيل:المراد و كانوا أحق بالسكينه و أهلها،و قيل:إن فى الكلام تقديما و تأخيرا و الأصل و كانوا أهلها و أحق بها و هو كما ترى.

و قوله:« وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »تذييل لقوله:« وَ كٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا » أو لجميع ما تقدم،و المعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى:« لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لاٰ تَخٰافُونَ »إلخ،قيل:إن صدق و كذب مخففين يتعديان إلى مفعولين يقال:صدقت زيدا الحديث و كذبته الحديث،و إلى المفعول الثانى بفى يقال:صدقته فى الحديث و كذبته فيه،و مثقلين يتعديان إلى مفعول واحد يقال:صدقته فى حديثه و كذبته فى حديثه.

و اللام فى« لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ »للقسم،و قوله:« لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ » جواب القسم.

و قوله:« بِالْحَقِّ »حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسه،و التعليق بالمشيه فى قوله:

« إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ »لتعليم العباد و المعنى:أقسم لقد صدق الله رسوله فى الرؤيا التى أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون المشركين.

و قوله:« فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً »« ذٰلِكَ »إشاره إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين،و المراد بقوله:« مِنْ دُونِ ذٰلِكَ »أقرب من ذلك و المعنى:فعلم تعالى من المصلحه فى دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه و لم تعلموه،و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك.

و من هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب فی هذه الآيه فتح الحديبيه فهو الذی سوی للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين و يسر لهم ذلك و لو لا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال و سفك الدماء و لا عمره مع ذلك لكن صلح الحديبيه و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين فی العام القابل.

و من هنا تعرف أن قول بعضهم:إن المراد بالفتح القريب فی الآيه فتح خيبر بعيد من السياق،و أما القول بأنه فتح مكه فأبعد.

و سياق الآيه يعطی أن المراد بها إزاله الريب عن بعض من كان مع النبی ص فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبی ص من دخولهم المسجد آمنين محلقين رءوسهم و مقصرين،أنهم سيدخلونه كذلك فی عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكه معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبيه و صدوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم فی الرؤيا فأزال الله ريبهم بما فی الآيه.

و محصله:أن الرؤيا حقه أراها الله نبيه ص و قد صدق تعالی فی ذلك، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون، لكنه تعالی أخره و قدم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديبيه ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالی بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق.

قوله تعالی:« هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَی الدِّينِ كُلِّهِ » إلخ،تقدم تفسيره فی سوره التوبه الآيه ۳۳،و قوله:« وَ كَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً »أی شاهدا علی صدق نبوته و الوعد إن دينه سيظهر علی الدين كله أو علی أن رؤياه صادقه،فالجمله تذييل ناظر إلی نفس الآيه أو الآيه السابقه.

بحث روائی

فی الدر المنثور،:فی قوله تعالی:« لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ »الآيه:أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن سلمه بن الأكوع قال: بينا نحن قائلون إذ نادی منادی رسول الله ص:أيها الناس البيعه البيعه نزل روح القدس،فثرنا إلی رسول

الله ص و هو تحت شجره سمره-فبايعناه فذلك قول الله تعالى:« لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ »فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى فقال الناس- هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت و نحن هاهنا.فقال رسول الله ص:لو مكث كذا و كذا سنه-ما طاف حتى أطوف.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و مسلم و ابن مردويه عن مغفل بن يسار قال"*: لقد رأيتنى يوم الشجره و النبى ص يبايع الناس-و أنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه- و نحن أربع عشره مائه و لم نبايعه على الموت-و لكن بايعناه على أن لا نفر.

أقول:كون المؤمنين يومئذ أربع عشره مائه مروى فى روايات أخرى،و فى بعض الروايات ألف و ثلاثمائه و فى بعضها إلى ألف و ثمان مائه،و كذا كون البيعه على أن لا يفروا و فى بعضها على الموت.

و فيه،أخرج أحمد عن جابر و مسلم عن أم بشر عنه عن النبى ص قال*: لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجره.

و فيه،أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس"*فى قوله تعالى:« فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ-فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ »قال:إنما أنزلت السكينه على من علم منه الوفاء.

أقول:و الروايه تخصص ما تقدم عليها و يدل عليه قوله تعالى فيما تقدم:« إِنَّ الَّذِينَ يُبٰايِعُونَكَ إِنَّمٰا يُبٰايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمٰا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفىٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »فاشترط فى الأجر-و يلازمه الاشتراط فى الرضا-الوفاء و عدم النكث،و قد أورد القمى هذا المعنى فى تفسيره و كأنه روايه.

و فى الدر المنثور،أيضا:فى قوله تعالى:« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا »الآيه:أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و البخارى و مسلم و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن سهل بن حنيف *أنه قال يوم صفين:اتهموا أنفسكم-فلقد رأيتنا يوم الحديبيه نرجئ الصلح-الذى كان بين النبى ص و بين المشركين-و لو نرى قتالا لقاتلنا.

فجاء عمر إلى رسول الله ص فقال:يا رسول الله-أ لسنا على الحق و هم على الباطل؟ قال:بلى.قال:أ ليس قتلانا فى الجنه و قتلاهم فى النار؟قال:بلى.قال:ففيم نعطى

الدنیه فی دیننا؟و نرجع و لما یحکم الله بیننا و بینهم؟قال:یا ابن الخطاب إنی رسول الله و لن یضیعنی الله أبدا.

فرجع متغیظا فلم یصبر حتی جاء أبا بکر-فقال:یا أبا بکر أ لسنا علی الحق و هم علی الباطل؟قال:بلی.قال:أ لیس قتلانا فی الجنه و قتلاهم فی النار؟قال:بلی- قال:فلم نعطی الدنیه فی دیننا؟قال:یا ابن الخطاب-إنه رسول الله و لن یضیعه الله أبدا فنزلت سوره الفتح-فأرسل رسول الله ص إلی عمر فأقرأه إیاها-فقال:یا رسول الله أ و فتح هو؟قال:نعم.

و فی کمال الدین،بإسناده عن منصور بن حازم عن أبی عبد الله(ع) *فی قول الله عز و جل:« لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً »قال:لو أخرج الله ما فی أصلاب المؤمنین من الکافرین-و ما فی أصلاب الکافرین من المؤمنین-لعذبنا الذین کفروا.

أقول:و هذا المعنی مروی فی روایات أخر.

و بإسناده عن جمیل قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قوله تعالی:« وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ »قال:هو الإیمان.

و فی الدر المنثور،أخرج الترمذی و عبد الله بن أحمد فی زوائد المسند و ابن جریر و الدارقطنی فی الإفراد و ابن مردویه و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن أبی بن کعب عن النبی ص: « وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ »قال:لا إله إلا الله.

أقول:و روی هذا المعنی أیضا بطرق أخری عن علی و سلمه بن الأکوع و أبی هریره،

و روی أیضا من طرق الشیعه کما فی العلل،بإسناده عن الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جده الحسن بن علی(ع)عن النبی ص: فی حدیث یفسر فیه«سبحان الله و الحمد لله-و لا إله إلا الله و الله أکبر»قال(ص):و قوله:لا إله إلا الله یعنی وحدانیته- لا یقبل الله الأعمال إلا بها،و هی کلمه التقوی-یثقل الله بها الموازین یوم القیامه.

و فی المجمع،فی قصه فتح خیبر قال: و لما قدم رسول الله ص المدینه من الحدیبیه- مکث بها عشرین لیله ثم خرج منها غادیا إلی خیبر.

ذکر ابن إسحاق بإسناده إلی أبی مروان الأسلمی عن أبیه عن جده قال*:

خرجنا مع رسول الله ص إلی خیبر-حتی إذا کنا قریبا منها و أشرفنا علیها-قال رسول

الله ص:قفوا فوقف الناس-فقال اللهم رب السماوات السبع و ما أظللن-و رب الأرضين السبع و ما أقللن-و رب الشياطين و ما أضللن-إنا نسألك خير هذه القريه و خير أهلها و خير ما فيها-و نعوذ بك من شر هذه القريه و شر أهلها و شر ما فيها.أقدموا بسم الله.

و عن سلمه بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ص إلى خيبر فسرنا ليلا- فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع:أ لا تسمعنا من هنيهاتك و كان عامر رجلا شاعرا فجعل يقول:

لا هم لو لا أنت ما حجينا-

و لا تصدقنا و لا صلينا-

فاغفر فداء لك ما اقتنينا-

و ثبت الأقدام إن لاقينا-

و أنزلن سكينه علينا-

إنا إذا صيح بنا أتينا-

و بالصياح عولوا علينا-

فقال رسول الله ص:من هذا السائق؟قالوا:عامر.قال:يرحمه الله.قال عمر و هو على جمل له وجيب (۱):يا رسول الله لو لا أمتعتنا به،و ذلك أن رسول الله ص ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد.

قالوا:فلما جد الحرب و تصاف القوم خرج يهودى و هو يقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب-

شاكى السلاح بطل مجرب-

إذا الحروب أقبلت تلهب-

فبرز إليه عامر و هو يقول:

قد علمت خيبر أنى عامر-

شاكى السلاح بطل مغامر-

فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهودى فى ترس عامر-و كان سيف عامر فيه قصر- فتناول به ساق اليهودى ليضربه فرجع ذباب سيفه-فأصاب عين ركبه عامر فمات منه.

قال سلمه:فإذا نفر من أصحاب رسول الله ص يقولون:بطل عمل عامر قتل نفسه.قال:فأتيت النبى ص و أنا أبكى-فقلت:قالوا:إن عامرا بطل عمله،

ص :۲۹۴

۱- ۱) وجب البعير أعيى،و وجب برك و ضرب بنفسه الأرض.

فقال:من قال ذلک؟قلت:نفر من أصحابک،فقال:کذب أولئک بل أوتی من الأجر مرتین.

قال:فحاصرناهم حتی أصابنا مخمصه شدیده-ثم إن الله فتحها علینا،و ذلک أن النبی ص أعطی اللواء عمر بن الخطاب-و نهض من نهض معه من الناس-فلقوا أهل خیبر فانکشف عمر و أصحابه-فرجعوا إلی رسول الله یجبنه أصحابه و یجبنهم،و کان رسول الله ص أخذته الشقیقه فلم یخرج إلی الناس-فقال حین أفاق من وجعه:ما فعل الناس بخیبر؟فأخبر-فقال:لأعطین الرایه غدا رجلا یحب الله و رسوله-و یحبه الله و رسوله کرارا غیر فرار-لا یرجع حتی یفتح الله علی یدیه.

و روی البخاری و مسلم عن قتیبه بن سعید قال*:حدثنا یعقوب عن عبد الرحمن الإسکندرانی عن أبی حازم قال:أخبرنی سعد بن سهل:أن رسول الله ص قال یوم خیبر:

لأعطین هذه الرایه غدا رجلا یفتح الله علی یدیه-یحب الله و رسوله و یحبه الله و رسوله.

قال:فبات الناس یدوکون بجملتهم أنهم یعطاها؟فلما أصبح الناس غدوا علی رسول الله ص-کلهم یرجون أن یعطاها.

فقال:أین علی بن أبی طالب؟فقالوا:یا رسول الله هو یشتکی عینیه.قال:

فأرسلوا إلیه فأتی به-فبصق رسول الله ص فی عینیه-فبرأ کأن لم یکن به وجع فأعطاه الرایه،فقال علی:یا رسول الله أقاتلهم حتی یکونوا مثلنا.قال:أنفذ علی رسلک حتی تنزل بساحتهم-ثم أدعهم إلی الإسلام-و أخبرهم بما یجب علیهم من حق الله-فوالله لأن یهدی الله بک رجلا واحدا-خیر لک من أن یکون لک حمر النعم.

قال سلمه:فبرز مرحب و هو یقول:قد علمت خیبر أنی مرحب...الأبیات، فبرز له علی و هو یقول:

أنا الذی سمتنی أمی حیدره-

کلیث غابات کریه المنظره-

أوفیهم بالصاع کیل السندره-

فضرب مرحبا ففلق رأسه فقتله و کان الفتح علی یده.:

أورده مسلم فی صحیحه.

و روی أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبی رافع مولی رسول الله ص قال:

خرجنا مع علی حین بعثه رسول الله ص،فلما دنا من الحصن خرج إلیه أهله فقاتلهم-

فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده-فتناول على باب الحصن فترس به عن نفسه-فلم يزل فى يده و هو يقاتل حتى فتح الله عليه-ثم ألقاه من يده،فلقد رأيتنى فى نفر مع سبعه أنا ثامنهم-نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه.

و بإسناده عن ليث بن أبى سليم عن أبى جعفر محمد بن على قال*:حدثنى جابر بن عبد الله: أن عليا حمل الباب يوم خيبر-حتى صعد المسلمون عليه فاقتحموها،و أنه حرك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلا.:

قال:و روى من وجه آخر عن جابر:ثم اجتمع عليه سبعون رجلا فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

و بإسناده عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: كان على يلبس فى الحر و الشتاء القباء-المحشو الثخين و ما يبالى الحر-فأتانى أصحابى فقالوا:إنا رأينا من أمير المؤمنين شيئا فهل رأيت؟فقلت:و ما هو؟قالوا:رأيناه يخرج علينا فى الحر الشديد-فى القباء المحشو الثخين و ما يبالى الحر،و يخرج علينا فى البرد الشديد فى الثوبين الخفيفين-و ما يبالى البرد فهل سمعت فى ذاك شيئا؟فقلت:لا فقالوا:فسل لنا أباك عن ذلك-فإنه يسمر معه فسألته-فقال:ما سمعت فى ذلك شيئا.

فدخل على على فسمر معه ثم سأله عن ذلك-فقال:أ و ما شهدت خيبر؟قلت:

بلى.قال:أ فما رأيت رسول الله حين دعا أبا بكر-فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم-ثم جاء بالناس و قد هزم ثم بعث إلى عمر-فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم-فقاتلهم ثم رجع و قد هزم.

فقال رسول الله ص:لأعطين الرايه اليوم-رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله-يفتح الله على يديه كرارا غير فرار-فدعانى و أعطانى الرايه ثم قال:اللهم اكفه الحر و البرد-فما وجدت بعد ذلك حرا و لا بردا و هذا كله منقول من كتاب دلائل النبوه للإمام أبى بكر البيهقى.

قال الطبرسى":ثم لم يزل رسول الله ص-يفتح الحصون حصنا حصنا و يحوز الأموال-حتى انتهوا إلى حصن الوطيح و السلالم-و كان آخر حصون خيبر افتتح، و حاصرهم رسول الله ص بضع عشره ليله.

قال ابن إسحاق: و لما افتتح القموص حصن أبی الحقیق-أتی رسول الله ص بصفیه بنت حیی بن أخطب-و بأخری معها فمر بهما بلال-و هو الذی جاء بهما-علی قتلی من قتلی یهود-فلما رأتهم التی معها صفیه صاحت و صکت وجهها -و حثت التراب علی رأسها-فلما رآها رسول الله ص قال:أعزبوا عنی هذه الشیطانه،و أمر بصفیه فحیزت خلفه و ألقی علیها رداءه-فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه،و قال لبلال لما رأی من تلک الیهودیه ما رأی:أ نزعت منک الرحمه یا بلال-حیث تمر بامرأتین علی قتلی رجالهما؟ و کانت صفیه قد رأت فی المنام-و هی عروس بکنانه بن الربیع بن أبی الحقیق- أن قمرا وقع فی حجرها فعرضت رؤیاها علی زوجها-فقال:ما هذا إلا أنک تتمنین ملک الحجاز محمدا-و لطم وجهها لطمه اخضرت عینها منها-فأتی بها رسول الله ص و بها أثر منها-فسألها رسول الله ص ما هو؟فأخبرته.

و أرسل ابن أبی الحقیق إلی رسول الله ص أنزل فأکلمک؟قال:نعم.فنزل و صالح رسول الله ص-علی حقن دماء من فی حصونهم من المقاتله-و ترک الذریه لهم، و یخرجون من خیبر و أرضها بذراریهم-و یخلون بین رسول الله ص و بین ما کان لهم- من مال و أرض علی الصفراء و البیضاء و الکراع (۱)و الخلقه و علی البز إلا ثوبا علی ظهر إنسان،و قال رسول الله ص فبرئت منکم ذمه الله و ذمه رسوله-إن کتمتمونی شیئا فصالحوه علی ذلک.

فلما سمع بهم أهل فدک قد صنعوا ما صنعوا-بعثوا إلی رسول الله ص یسألونه أن یسیرهم-و یحقن دماءهم و یخلون بینه و بین الأموال-ففعل و کان ممن مشی بین رسول الله ص-و بینهم فی ذلک محیصه بن مسعود أحد بنی حارثه.

فلما نزل أهل خیبر علی ذلک-سألوا رسول الله ص أن یعاملهم الأموال علی النصف،و قالوا:نحن أعلم بها منکم و أعمر لها- فصالحهم رسول الله ص علی النصف- علی أنا إذا شئنا أن نخرجکم أخرجناکم،و صالحه أهل فدک علی مثل ذلک-فکانت

۱- ۱) الکراع:بضم الکاف مطلق الماشیه و الخلفه بالکسر فالسکون الأثاث و البز الثوب.

أموال خيبر فيئا بين المسلمين-و كانت فدك خالصه لرسول الله ص-لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل و لا ركاب.

و لما اطمأن رسول الله ص-أهدت له زينب بنت الحارث-امرأه سلام بن مشكم و هى ابنه أخى مرحب شاه مصليه،و قد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ص- فقيل لها:الذراع فأكثرت فيها السم-و سمت سائر الشاه ثم جاءت بها-فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع-فأخذها و لاك منها مضغه و انتهش منها-و معه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظما فانتهش منه-فقال رسول الله ص:ارفعوا أيديكم-فإن كتف هذه الشاه يخبرنى أنها مسمومه-ثم دعاها فاعترفت فقال:ما حملك على ذلك؟فقالت:

بلغت من قومى ما لم يخف عليك-فقلت:إن كان نبيا فسيخبر-و إن كان ملكا استرحت منه-فتجاوز عنها رسول الله ص-و مات بشر بن البراء من أكلته التى أكل.

قال:و دخلت أم بشر بن البراء على رسول الله ص-يعوده فى مرضه الذى توفى فيه-فقال(ص):يا أم بشر ما زالت أكله خيبر-التى أكلت بخيبر مع ابنك تعاودنى- فهذا أوان قطعت أبهرى،و كان المسلمون يرون أن رسول الله ص مات شهيدا-مع ما أكرمه الله به من النبوه.

[سوره الفتح (۴۸): آیه ۲۹]

اشاره

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى اَلْكُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ تَرٰاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اَللّٰهِ وَ رِضْوٰاناً سِيمٰاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ اَلسُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي اَلتَّوْرٰاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي اَلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوىٰ عَلىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ اَلزُّرّٰاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ اَلْكُفّٰارَ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۲۹)

بیان

الآیه خاتمه السوره تصف النبی ص و تصف الذین معه بما وصفهم به فی التوراه و الإنجیل و تعد الذین آمنوا منهم و عملوا الصالحات وعدا جمیلا،و للآیه اتصال بما قبلها حیث أخبر فیه أنه أرسل رسوله بالهدی و دین الحق.

قوله تعالی:« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ »إلی آخر الآیه،الظاهر أنه مبتدأ و خبر فهو کلام تام،و قیل:« مُحَمَّدٌ »خبر مبتدإ محذوف و هو ضمیر عائد إلی الرسول فی الآیه السابقه و التقدیر:هو محمد،و« رَسُولُ اللّهِ »عطف بیان أو صفه أو بدل،و قیل:

« مُحَمَّدٌ »مبتدأ و« رَسُولُ اللّهِ »عطف بیان أو صفه أو بدل و« اَلَّذِینَ مَعَهُ »معطوف علی المبتدإ و« أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ »إلخ،خبر المبتدإ.

و قوله:« وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ »مبتدأ و خبر،فالکلام مسوق لتوصیف الذین معه و الشده و الرحمه المذکورتان من نعوتهم.

و تعقیب قوله:« أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ »بقوله:« رُحَماءُ بَیْنَهُمْ »لدفع ما یمکن أن یتوهم أن کونهم أشداء علی الکفار یستوجب بعض الشده فیما بینهم فدفع ذلک بقوله:

« رُحَماءُ بَیْنَهُمْ »و أفادت الجملتان أن سیرتهم مع الکفار الشده و مع المؤمنین فیما بینهم الرحمه.

و قوله:« تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً » الرکع و السجد جمعا راکع و ساجد،و المراد بکونهم رکعا سجدا إقامتهم للصلاه،و« تَراهُمْ »یفید الاستمرار،و المحصل:أنهم مستمرون علی الصلاه،و الجمله خبر بعد خبر للذین معه.

و قوله:« یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْواناً » الابتغاء الطلب،و الفضل العطیه و هو الثواب،و الرضوان أبلغ من الرضا.

و الجمله إن کانت مسوقه لبیان غایتهم من الرکوع و السجود کان الأنسب أن تکون حالا من ضمیر المفعول فی« تَراهُمْ »و إن کانت مسوقه لبیان غایتهم من الحیاه مطلقا کما هو الظاهر کانت خبرا بعد خبر للذین معه.

و قوله:« سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » السیما العلامه و« سِیماهُمْ فِی

وُجُوهِهِمْ

»مبتدأ و خبر و« مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ »حال من الضمير المستكن فی الخبر أو بیان للسیما أی إن سجودهم لله تذللا و تخشعا أثر فی وجوههم أثرا و هو سیما الخشوع لله یعرفهم به من رآهم،و یقرب من هذا المعنی ما عن الصادق(ع)أنه السهر فی الصلاه (١).

و قیل:المراد أثر التراب فی جباههم لأنهم کانوا إنما یسجدون علی التراب لا علی الأثواب.

و قیل:المراد سیماهم یوم القیامه فیکون موضع سجودهم یومئذ مشرقا مستنیرا.

و قوله:« ذٰلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ » المثل هو الصفه أی الذی وصفناهم به من أنهم أشداء علی الکفار رحماء بینهم إلخ،وصفهم الذی وصفناهم به فی الکتابین التوراه و الإنجیل.

فقوله:« وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ »معطوف علی قوله:« مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ »و قیل:

إن قوله:« وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ »إلخ،استئناف منقطع عما قبله،و هو مبتدأ خبره قوله:« کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ »إلخ، فیکون وصفهم فی التوراه هو أنهم أشداء علی الکفار-إلی قوله-:« مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ »،و وصفهم فی الإنجیل هو أنهم کزرع أخرج شطأه إلخ.

و قوله:« کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَویٰ عَلیٰ سُوقِهِ یُعْجِبُ الزُّرّٰاعَ » شطء النبات أفراخه التی تتولد منه و تنبت حوله،و الإیزار الإعانه،و الاستغلاظ الأخذ فی الغلظه،و السوق جمع ساق،و الزراع جمع زارع.

و المعنی:هم کزرع أخرج أفراخه فأعانها فقویت و غلظت و قام علی سوقه یعجب الزارعین بجوده رشده.

و فیه إشاره إلی أخذ المؤمنین فی الزیاده و العده و القوه یوما فیوما و لذلک عقبه بقوله:« لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفّٰارَ ».

ص:٣٠٠

١- ١) رواه الصدوق فی الفقیه و المفید فی روضه الواعظین مرسلا عن عبد الله بن سنان عنه علیه السلام.

و قوله:« وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً » ضمير« مِنْهُمْ »للذين معه،و« مِنَ »للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفره و الأجر العظيم بالإيمان حدوثا و بقاء و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى:

«وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَهِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» :التوبه:۱۰۱،أو آمن أولا ثم أشرك و كفر كما فى قوله: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى -Xإلى أن قالX- وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ» :سوره محمد:۳۰.

أو آمن و لم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك (۱)و آيه التبين فى نبأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشمله وعد المغفره و الأجر العظيم.

و نظير هذا الاشتراط ما تقدم فى قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »و يؤيده أيضا ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى:« فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَهَ عَلَيْهِمْ »حيث فسره بقوله:إنما أنزلت السكينه على من علم منه الوفاء،و قد تقدمت الروايه.

و نظير الآيه أيضا فى الاشتراط قوله تعالى: «وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ -Xإلى أن قالX- وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» :النور:۵۵.

و قيل:إن« مِنَ »فى الآيه بيانيه لا تبعيضيه فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه.

و هو مدفوع-كما قيل-بأن«من»البيانيه لا تدخل على الضمير مطلقا فى

۱- ۱) فمن أهل الإفك من هو صحابى بدرى و قد قال تعالى:«إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا و الآخره و لهم عذاب عظيم»النور:۲۳،و من نزل فيه:إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا»الحجرات:۶،و هو الوليد بن عقبه صحابى و قد سماه الله فاسقا و قد قال تعالى:«فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين»التوبه:۹۶.

كلامهم،و الاستشهاد لـذلك بقوله تعالى:« لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ »مبنى على إرجاع ضـمير« تَزَيَّلُوا »إلى المؤمنين و ضمير« مِنْهُمْ »للذين كفروا،و قد تقدم فى تفسير الآيه أن الضميرين جميعا راجعان إلى مجموع المؤمنين و الكافرين من أهل مكه فتكون« مَنْ »تبعيضيه لا بيانيه.

و بعد ذلك كله لو كانت العده بالمغفره أو نفس المغفره شـملتهم شمولا مطلقا من غير اشتراط بالإيمان و العمل الصالح و كانوا مغفورين-آمنوا أو أشـركوا و أصـلحوا أو فسـقوا-لزمته لزوما بينا لغويه جميع التكاليف الـدينيه فى حقهم و ارتفاعها عنهم و هذا مما يـدفعه الكتاب و السـنه فهـذا الاشتراط ثابت فى نفسه و إن لم يتعرض له فى اللفظ، و قد قال تعالى فى أنبيائه: «وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» :الأنعام:۸۸، فأثبته فى أنبيائه و هم معصومون فكيف فيمن هو دونهم.

فإن قيل:اشتراط الوعد بالمغفره و الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح اشتراط عقلى كما ذكر و لا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ »يشهد باتصافهم بالإيمان و عمل الصالحات و أنهم واجدون للشرط.

و خاصه بالنظر إلى تأخير« مِنْهُمْ »عن قوله:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ » حيث يـدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله فى آيه النور: «وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ» :النور:۵۵،كما ذكره بعضـهم، و يؤيده أيضا قوله فى مدحهم« تَرٰاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰاناً » حيث يدل على الاستمرار.

قلنـا:أمـا تأخير« مِنْهُمْ »فى الآيه فليس للـدلاله على كون العمل الصالـح لا ينفك عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »و لا يـترتب على مجرد الإيمـان من دون العمـل الصالـح أثر المغفره و الأجر ثم قوله:« مِنْهُمْ »متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أن يـذكر بعـد تمام الموضوع و هو«الـذين آمنوا و عملوا الصالحات»، و أما تقدم الضـمير فى قوله:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ » فلانه مسوق سوق البشرى للمؤمنين و الأنسب لهـا التسـريع فى خطاب من بشر بها لينشط بذلك و ينبسط لتلقى البشرى.

و أما دلاله قوله:« تَرٰاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً »إلخ،على الاستمرار فإنما يدل عليه فى ما مضى إلى أن ينتهى إلى الحال،و أما فى المستقبل فلا و مصب إشكال لغويه الأحكام إنما هو المستقبل دون الماضى إذ مغفره الذنوب الماضيه لا تزاحم تعلق التكليف بل تؤكده بخلاف تعلق المغفره المطلقه بما سيأتى فإنه لا يجامع بقاء التكليف المولوى على اعتباره فيرتفع بذلك التكاليف و هو مقطوع البطلان.على أن ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصيه و يرتفع بارتفاعها موضوع المغفره فوجود المغفره كذلك يستلزم عدمها.

(۴۹) سوره الحجرات مدنيه و هى ثمان عشره آيه(۱۸)

[سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اَللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اِتَّقُوا اَللَّهَ إِنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ اَلنَّبِيِّ وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ اَلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ
عِنْدَ رَسُولِ اَللَّهِ أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اِمْتَحَنَ اَللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ اَلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ اَلْحُجُرَاتِ
أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اَللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ
فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (۶) وَ اِعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اَللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ
اَلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰكِنَّ اَللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ اَلْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ اَلْكُفْرَ وَ اَلْفُسُوقَ وَ اَلْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلرَّاشِدُونَ (۷)
فَضْلاً مِنَ اَللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اَللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸) وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ اِقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى اَلْأُخْرىٰ
فَقَاتِلُوا اَلَّتِي تَبْغِي حَتّٰى تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ اَللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اَلْمُقْسِطِينَ (۹) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اِتَّقُوا اَللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

ص: ۳۰۴

بیان

تتضمن السوره مسائل من شرائع الدین بها تتم الحیاه السعیده للفرد و یستقر النظام الصالح الطیب فی المجتمع منها ما هو أدب جمیل للعبد مع الله سبحانه و مع رسوله کما فی الآیات الخمس فی مفتتح السوره،و منها ما یتعلق بالإنسان مع أمثاله من حیث وقوعهم فی المجتمع الحیوی،و منها ما یتعلق بتفاضل الأفراد و هو من أهم ما ینتظم به الاجتماع المدنی و یهدی الإنسان إلی الحیاه السعیده و العیش الطیب الهنیء و یتمیز به دین الحق من غیره من السنن الاجتماعیه القانونیه و غیرها و تختتم السوره بالإشاره إلی حقیقه الإیمان و الإسلام و امتنانه تعالی بما یفیضه من نور الإیمان.

و السوره مدنیه بشهاده مضامین آیاتها سوی ما قیل فی قوله تعالی:«یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ »الآیه و سیجیء.

قوله تعالی:«یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ »بین یدی الشیء أمامه و هو استعمال شائع مجازی أو استعاری و إضافته إلی الله و رسوله معا لا-إلی الرسول دلیل علی أنه أمر مشترک بینه تعالی و بین رسوله و هو مقام الحکم الذی یختص بالله سبحانه و برسوله بإذنه کما قال تعالی: «إِنِ

الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» :یوسف:۴۰،و قال: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّهِ» النساء:۶۴.

و من الشاهد علی ذلک تصدیر النهی بقوله:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »و تذییله بقوله:« وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ »الظاهر فی أن المراد بما بین یدی الله و رسوله هو المقام الذی یربط المؤمنین المتقین بالله و رسوله و هو مقام الحکم الذی یأخذون منه أحکامهم الاعتقادیه و العملیه.

و بذلک یظهر أن المراد بقوله:« لاٰ تُقَدِّمُوا »تقدیم شیء ما من الحکم قبال حکم الله و رسوله إما بالاستباق إلی قول قبل أن یأخذوا القول فیه من الله و رسوله أو إلی فعل قبل أن یتلقوا الأمر به من الله و رسوله لکن تذییله تعالی النهی بقوله:« إِنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ »یناسب تقدیم القول دون تقدیم الفعل و دون الأعم الشامل للقول و الفعل و إلا لقیل:إن الله سمیع بصیر لیحاذی بالسمیع القول و بالبصیر الفعل کما یأتی تعالی فی کثیر من موارد الفعل بمثل قوله: «وَ اللّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ» :الحدید:۴،فمحصل المعنی:أن لا تحکموا فیما لله و لرسوله فیه حکم إلا بعد حکم الله و رسوله أی لا تحکموا إلا بحکم الله و رسوله و لتکن علیکم سمه الاتباع و الاقتفاء.

لکن بالنظر إلی أن کل فعل و ترک من الإنسان لا یخلو من حکم له فیه و کذلک العزم و الإراده إلی فعل أو ترک یدخل الأفعال و التروک و کذا إرادتها و العزم علیها فی حکم الاتباع،و یفید النهی عن التقدیم بین یدی الله و رسوله النهی عن المبادره و الإقدام إلی قول لم یسمع من الله و رسوله،و إلی فعل أو ترک أو عزم و إراده بالنسبه إلی شیء منهما قبل تلقی الحکم من الله و رسوله فتکون الآیه قریبه المعنی من قوله تعالی فی صفه الملائکه: «بَلْ عِبٰادٌ مُکْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ» :الأنبیاء:۲۷.

و هذا الاتباع المندوب إلیه بقوله:« لاٰ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ »هو الدخول فی ولایه الله و الوقوف فی موقف العبودیه و السیر فی مسیرها بجعل العبد مشیته تابعه لمشیه الله فی مرحله التشریع کما أنها تابعه لها فی مرحله التکوین قال تعالی: «وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّ أَنْ یَشٰاءَ اللّهُ» :الإنسان:۳۰،و قال: «وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ» :آل عمران:

۶۸،و قال: «وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُتَّقِینَ» :الجاثیه:۱۹.

و للقوم فی قوله تعالی:« لاٰ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ »وجوه

منها:أن التقديم بمعنى التقدم فهو لازم و معنى« لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ »لا تعجلوا بالأمر و النهى دون الله و رسوله و لا تقطعوا بالأمر و النهى دون الله و رسوله،و ربما قيل:إن التقديم فى الآيه بمعناه المعروف لكنه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله: «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» :الحديد:۲،فيئول المعنى إلى مجرد كون شىء قدام شىء فيرجع إلى معنى التقدم.

و اللفظ مطلق يشمل التقدم فى قول أو فعل حتى التقدم على النبى ص فى المشيه و الجلسه،و التقدم بالطاعات الموقته قبل وقتها و غير ذلك.

و منها:أن المراد النهى عن التكلم قبل رسول الله ص أى إذا كنتم فى مجلسه و سئل عن شىء فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب هو أولا.

و منها:أن المعنى:لا تسبقوه بقول أو فعل حتى يأمركم به.

و منها:أن المعنى:لا تقدموا أقوالكم و أفعالكم على قول النبى ص و فعله و لا تمكنوا أحدا يمشى أمامه.

و الظاهر أن تفسير« لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ »بالنهى عن التقديم بين يدى رسول الله ص فقط فى هذه الوجوه الثلاثه الأخيره مبنى على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله فى الآيه على نوع من التشريف كقوله:أعجبنى زيد و كرمه فيكون ذكره تعالى للإشاره إلى أن السبقه على النبى ص على أى حال فى معنى السبقه على الله سبحانه.

و لعل التأمل فيما قدمناه من الوجه يكفيك فى المنع عن المصير إلى شىء من هذه الوجوه.

و قوله:« وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »أمر بالتقوى فى موقف الاتباع و العبوديه و لا ظرف للإنسان إلا ظرف العبوديه و لذلك أطلق التقوى.

و فى قوله:« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »تعليل للنهى و التقوى فيه أى اتقوه بالانتهاء عن هذا النهى فلا تقدموا قولا بلسانكم و لا فى سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم و باطنكم و علانيتكم و سركم.

قوله تعالى:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ »إلخ، و ذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته و تكليمه(ص)أرفع من صوته و أجهر لأن فى

ذلک کما قیل أحد شیئین:إما نوع استخفاف به و هو الکفر،و إما إساءه الأدب بالنسبه إلی مقامه و هو خلاف التعظیم و التوقیر المأمور به.

و قوله:« وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ »فإن من التعظیم عند التخاطب أن یکون صوت المتکلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنی التعظیم فخطاب العظماء بالجهر فیه کخطاب عامه الناس لا یخلو من إساءه الأدب و الوقاحه.

و قوله:« أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ »أی لئلا تحبط أو کراهه أن تحبط أعمالکم،و هو متعلق بالنهیین جمیعا أی إنما نهیناکم عن رفع الصوت فوق صوته و الجهر له بالقول کجهر بعضکم لبعض لئلا تبطل أعمالکم بذلک من حیث لا تشعرون فإن فیهما الحبط،و قد تقدم القول فی الحبط فی الجزء الثانی من الکتاب.

و جوز بعضهم کون« أَنْ تَحْبَطَ »إلخ،تعلیلا للمنهی عنه و هو الرفع و الجهر، و المعنی:فعلکم ذلک لأجل الحبوط منهی عنه،و الفرق بین تعلیله للنهی و تعلیله للمنهی عنه أن الفعل المنهی عنه معلل علی الأول و الفعل المعلل منهی عنه علی الثانی،و فیه تکلف ظاهر.

و ظاهر الآیه أن رفع الصوت فوق صوت النبی ص و الجهر له بالقول معصیتان موجبتان للحبط فیکون من المعاصی غیر الکفر ما یوجب الحبط.

و قد توجه الآیه بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال کما فی الکفر،قال فی مجمع البیان،:و قال أصحابنا:أن المعنی فی قوله:

« أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُکُمْ »إنه ینحبط ثواب ذلک العمل لأنهم لو أوقعوه علی وجه تعظیم النبی ص و توقیره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه علی خلاف ذلک الوجه استحقوا العقاب و فاتهم ذلک الثواب فانحبط عملهم فلا تعلق لأهل الوعید بهذه الآیه.

و لأنه تعالی علق الإحباط فی هذه الآیه بنفس العمل و هم یعلقونه بالمستحق علی العمل و ذلک خلاف الظاهر.انتهی.

و فیه أن الحبط المتعلق بالکفر الذی لا ریب فی تعلقه بثواب الأعمال أیضا متعلق فی کلامه بنفس الأعمال کما فی هذه الآیه فلتحمل هذه علی ما حملت علیه ذلک من غیر فرق،و کونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب علیه.

ص :٣٠٨

و قد توجه الآیه أیضا بالبناء علی اختصاص الحبط بالکفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبی ص و الجهر له بالقول لیسا بمحبطین من حیث أنفسهما بل من حیث أدائهما أحیانا إلی إیذائه(ص)و إیذاؤه کفر و الکفر محبط للعمل.

قال بعضهم:المراد فی الآیه النهی عن رفع الصوت مطلقا و معلوم أن ملاکه التحذر مما یتوقع فیه من إیذاء النبی ص الذی هو کفر محبط للعمل بالاتفاق.فورد النهی عما هو مظنه أذاه-سواء وجد هذا المعنی أو لا-حمایه للحومه و حسما للماده.

ثم لما کان هذا المنهی عنه منقسما إلی ما یبلغ حد الکفر و هو المؤذی له علیه الصلاه و السلام و إلی ما لا یبلغ ذلک المبلغ،و لا دلیل یمیز أحد القسمین من الآخر و لو فرض وجوده لم یلتفت إلیه فی کثیر من الأحیان،لزم المکلف أن یکف عن ذلک مطلقا مخافه أن یقع فیما هو محبط للعمل و هو البالغ حد الأذی.

و إلی التباس أحد القسمین بالآخر الإشاره بقوله تعالی:« أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ »و إلا فلو کان رفع الصوت و الجهر بالقول منهیا عنهما مطلقا سواء بلغا حد الأذی أو لم یبلغا لم یکن موقع لقوله تعالی:« وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ »إذ الأمر منحصر بین أن یکون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغا حد الأذی فیکون کفرا محبطا قطعا أو غیر بالغ فیکون أیضا ذنبا محبطا قطعا فالإحباط محقق علی أی تقدیر فلا موقع لإدعام الکلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقا للعلم به بعد النهی.انتهی ملخصا.

و فیه أن ظهور قوله:« لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ »فی النهی النفسی دون النهی المقدمی أخذا بالاحتیاط مما لا ریب فیه لکن کلا من الفعلین مما یدرک کونه عملا سیئا عقلا قبل ورود النهی الشرعی عنه کالافتراء و الإفک،و کان الذین یأتون بهما المؤمنین کما صدر النهی بقوله:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »و هم و إن أمکن أن یسامحوا فی بعض السیئات بحسبانه هینا لکنهم لا یرضون ببطلان إیمانهم و أعمالهم الصالحه من أصله.

فنبه سبحانه بقوله:« أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ »علی أنکم لا تشعرون بما لذلک من الأثر الهائل العظیم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شیئا منهما أن تحبط أعمالکم و أنتم لا تشعرون.

فقوله:« وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ »ناظر إلى حالهم قبل النهى حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيئه لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمه مساءته لهذا الحد،و أما بعد صدور البيان الإلهى فهم شاعرون بالإحباط.

فالآيه من وجه نظيره قوله تعالى فى آيات الإفك: «وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيمٌ» :النور:۱۵، و قوله فى آيات القيامه: «وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» :الزمر:۴۷.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ »إلخ،غض الصوت خلاف رفعه،و معنى الامتحان الابتلاء و الاختبار و إنما يكون لتحصيل العلم بحال الشىء المجهول قبل ذلك،و إذ يستحيل ذلك فى حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين و التعويد-كما قيل-أو حمل المحنه و المشقه على القلب ليعتاد بالتقوى.

و الآيه مسوقه للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله ص بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنه للتقوى و الذى امتحنهم لذلك هو الله سبحانه،و فيه تأكيد و تقويه لمضمون الآيه السابقه و تشويق للانتهاء بما فيها من النهى.

و فى التعبير عنه(ص)فى هذه الآيه برسول الله بعد التعبير عنه فى الآيه السابقه بالنبى إشاره إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شىء فما له فلمرسله،و تعظيمه و توقيره تعظيم لمرسله و توقير له فغض الصوت عند رسول الله تعظيم و تكبير لله سبحانه،و المداومه و الاستمرار على ذلك-كما يستفاد من قوله:« يَغُضُّونَ » المفيد للاستمرار-كاشف عن تخلقهم بالتقوى و امتحانه تعالى قلوبهم للتقوى.

و قوله:« لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ »وعد جميل لهم بإزاء ما فى قلوبهم من تقوى الله،و العاقبه للتقوى.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ يُنٰادُونَكَ مِنْ وَرٰاءِ الْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ » سياق الآيه يؤدى أنه واقع و أنهم كانوا قوما من الجفاه ينادونه(ص)من وراء حجرات بيته من غير رعايه لمقتضى الأدب و واجب التعظيم و التوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان.

قوله تعالی:« وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰی تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أی و لو أنهم صبروا عن ندائک فلم ینادوک حتی تخرج إلیهم لکـان خیرا لمـا فیه من حسن الأـدب و رعایه التعظیم و التوقیر لمقام الرساله،و کان ذلک مقربا لهم إلی مغفره الله و رحمته لأنه غفور رحیم.

فقوله:« وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »کالنـاظر إلی مـا ذکر من الصـبر و یمکن أن یکون نـاظرا إلی کون أکثرهم لاـ یعقلون و المعنی:أن ما صدر عنهم من الجهاله و سوء الأدب معفو عنه لأنه لم یکن عن تعقل و فهم منهم بل عن قصور فی ذلک و الله غفور رحیم.

قوله تعالی:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا »إلخ، الفاسق -کما قیل-الخارج عن الطاعه إلی المعصـیه،و النبأ الخبر العظیم الشأن،و التبین و الاسـتبانه و الإبانه- علی ما فی الصـحاح-بمعنی واحـد و هی تتعدی و لا تتعدی فإذا تعدت کانت بمعنی الإیضـاح و الإظهـار یقـال:تـبینت الأـمر و اسـتبنته و أبنتـه أی أوضـحته و أظهرتـه،و إذا لزمـت کـانت بمعنی الاتضـاح و الظهـور یقال:أبان الأمر و استبان و تبین أی اتضح و ظهر.

و معنی الآـیه:یـا أیهـا الـذین آمنوا إن جـاءکم فاسق بخبر ذی شأن فتبینوا خبره بالبحث و الفحص للوقوف علی حقیقته حـذر أن تصیبوا قوما بجهاله فتصیروا نادمین علی ما فعلتم بهم.

و قـد أمضـی الله سبحانه فی هـذه الآـیه أصـل العمـل بـالخبر و هو من الأصول العقلائیه التی یبتنی علیه أساس الحیاه الاجتماعیه الإنسانیه،و أمر بالتبین فی خبر الفاسق و هو فی معنی النهی عن العمل بخبره،و حقیقته الکشف عن عدم اعتبار حجیته و هذا أیضا کالإمضاء لما بنی علیه العقلاء من عدم حجیه الخبر الذی لا یوثق بمن یخبر به و عدم ترتیب الأثر علی خبره.

بیـان ذلـک:أن حیاه الإنسان حیاه علمیه یبنی فیها سـلوکه طریق الحیاه علی ما یشاهـده من الخیر و الشـر و النافع و الضار و الرأی الذی یأخذ به فیه،و لا یتیسـر له ذلک إلا فیما هو بمرأی منه و مشـهد،و ما غاب عنه مما تتعلق به حیاته و معاشه أکثر مما یحضره و أکثر فاضـطر إلی تتمیم ما عنـده من العلم بما هو عند غیره من العلم الحاصل بالمشاهده و النظر،و لا طریق إلیه إلا السـمع و هو الخبر.

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملا و معامله مضـمونه معامله العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهـده و النظر فى الجمله مما يتوقف عليه حياه الإنسان الاجتماعيه توقفا ابتدائيا،و عليه بناء العقلاء و مدار العمل.

فـالخبر إن كان متواترا أو محفوفا بقرائن قطعيه توجب قطعيه مضـمونه كان حجه معتبره من غير توقف فيها فإن لم يكن متواترا و لا محفوفا بما يفيد قطعيه مضـمونه و هو المسمى بخبر الواحد اصطلاحا كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه و إن لم يفـده بحسب شـخصه،و كـل ذلـك لأـنهم لاـ يعملون إلا بما يرونه علما و هو العلم الحقيقى أو الوثوق و الظن الاطمئنانى المعدود علما عاده.

إذا تمهد هذا فقوله تعالى فى تعليل الأمر بالتبين فى خبر الفاسق:« أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ »إلخ،يفيد أن المأمور به هو رفع الجهاله و حصول العلم بمضـمون الخبر عنـد مـا يراد العمـل به و ترتيب الأثر عليه ففى الآيه إثبات ما أثبته العقلاء و نفى ما نفوه فى هـذا الباب،و هو إمضاء لا تأسيس.

قوله تعـالى:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » إلـخ، العنت الإـثم و الهلاـك،و الطوع و الطـاعه الانقيـاد لكن أكثر مـا يقـال الطـاعه فى الائتمار لما أمر و الارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسـمى جرى المتبـوع على مـا يريـده التـابع و يهـواه طـاعه من المتبوع للتـابع و منه قوله تعـالى فى الآـيه:« لَوْ يُطِيعُكُمْ »حيث سـمى عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعه منه لهم.

و الآيه على ما يفيـده السـياق من تتمه الكلام فى الآيه السابقه تعمم ما فيها من الحكم و تؤكـد ما فيها من التعليل فمضـمون الآيه السـابقه الحكم بوجوب التبين فى خبر الفـاسق و تعليله بوجوب التحرز عن بنـاء العمـل على الجهـاله،و مضـمون هـذه الآـيه تنبيه المؤمنين على أن الله سـبحانه أوردهم شـرع الرشد و لذلك حبب إليهم الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله و هو مؤيد من عند الله و على بينه من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغى فعليهم أن يطيعوا الرسول ص فيمـا يـأمرهم به و يريـدوا مـا أراده و يختـاروا مـا اختاره،و لا يصـروا على أن يطيعهم فى آرائهم و أهوائهم فإنه لو يطيعهم فى كثير من الأمر جهدوا و هلكوا.

فقوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ »عطف على قوله فى الآيه السابقه:

« فَتَبَيَّنُوا »و تقديم الخبر للدلاله على الحصر،و الإشاره إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ص فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد و يتجنبوا الغى و يرجعوا الأمور إليه و يطيعوه و يتبعوا أثره و لا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى:و لا تنسوا أن فيكم رسول الله،و هو كنايه عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الأمور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

و قوله:« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ »أى جهدتم و هلكتم،و الجمله كالجواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول:لما ذا نرجع إليه و لا يرجع إلينا و لا يوافقنا؟فأجيب بأنه« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ».

و قوله:« وَ لٰكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ »استدراك عما يدل عليه الجمله السابقه:« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ »من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك و الغى فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان.

و المراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوبا عندهم و بتزيينه فى قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به و يعرضون عما يلهيهم عنه.

و قوله:« وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيٰانَ »عطف على« حَبَّبَ »و تكريه الكفر و ما يتبعه إليهم جعلها مكروهه عندهم تتنفر عنها نفوسهم،و الفرق بين الفسوق و العصيان-على ما قيل-إن الفسوق هو الخروج عن الطاعه إلى المعصيه،و العصيان نفس المعصيه و إن شئت فقل:جميع المعاصى،و قيل:المراد بالفسوق الكذب بقرينه الآيه السابقه و العصيان سائر المعاصى.

و قوله:« أُولٰئِكَ هُمُ الرّٰاشِدُونَ »بيان أن حب الإيمان و الانجذاب إليه و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان هو سبب الرشد الذى يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفر عن الغى الذى يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنبوا الكفر و الفسوق و العصيان حتى يرشدوا و يتبعوا الرسول و لا يتبعوا أهواءهم.

و لما كان حب الإيمان و الانجذاب إليه و كراهه الكفر و نحوه صفه بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرح به الآيه السابقه،و قد وصف بذلك جماعتهم تحفظا على وحدتهم و تشويقا لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق و التفت عن خطابهم إلى خطاب النبى ص فقال:« أُولئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ »و الإشاره إلى من اتصف بحب الإيمان و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان،ليكون مدحا للمتصفين بذلك و تشويقا لغيرهم.

و اعلم أن فى قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ »إشعارا بأن قوما من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبأ الفاسق الذى تشير إليه الآيه السابقه،و هو الوليد بن عقبه أرسله النبى ص إلى بنى المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلما رآهم هابهم و رجع إلى المدينه و أخبر النبى ص أنهم ارتدوا فعزم النبى ص على قتالهم فنزلت الآيه فانصرف و فى القوم بعض من يصر على أن يغزوهم.

و سيجىء القصه فى البحث الروائى التالى.

قوله تعالى:« فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان و تزيينه و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان أى إن ذلك منه تعالى مجرد عطيه و نعمه لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلا جزافيا فإنه تعالى عليهم بمورد عطيته و نعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافا كما قال: «وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» :الفتح:۲۶.

قوله تعالى:« وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما »إلى آخر الآيه الاقتتال و التقاتل بمعنى واحد كالاستباق و التسابق،و رجوع ضمير الجمع فى« اِقْتَتَلُوا » إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلا من الطائفتين جماعه و مجموعهما جماعه كما أن رجوع ضمير التثنيه إليهما باعتبار المعنى.

و نقل عن بعضهم فى وجه التفرقه بين الضميرين:أنهم أولا فى حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضميرهم،و فى حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير.

و قوله:« فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ » البغى الظلم و التعدى بغير حق،و الفىء الرجوع،و المراد بأمر الله ما أمر به

الله،و المعنی:فإن تعدت إحدی الطائفتین علی الأخری بغیر حق فقاتلوا الطائفه المتعدیه حتی ترجع إلی ما أمر به الله و تنقاد لحکمه.

و قوله:« فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ »أی فإن رجعت الطائفه المتعدیه إلی أمر الله فأصلحوا بینهما لکن لا إصلاحا بوضع السلاح و ترک القتال فحسب بل إصلاحا متلبسا بالعدل بإجراء أحکام الله فیما تعدت به المتعدیه من دم أو عرض أو مال أو أی حق آخر ضیعته.

و قوله:« وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ » الإقساط إعطاء کل ما یستحقه من القسط و السهم و هو العدل فعطف قوله:« وَ أَقْسِطُوا »علی قوله:« فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ »من عطف المطلق علی المقید للتأکید،و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ » تعلیل یفید تأکیدا علی تأکید کأنه قیل:أصلحوا بینهما بالعدل و أعدلوا دائما و فی جمیع الأمور لأن الله یحب العادلین لعدالتهم.

قوله تعالی:« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ »استئناف مؤکد لما تقدم من الإصلاح بین الطائفتین المتقاتلتین من المؤمنین،و قصر النسبه بین المؤمنین فی نسبه الإخوه مقدمه ممهده لتعلیل ما فی قوله:« فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ »من حکم الصلح فیفید أن الطائفتین المتقاتلتین لوجود الإخوه بینهما یجب أن یستقر بینهما الصلح، و المصلحون لکونهم إخوه للمتقاتلتین یجب أن یسعوا فی إصلاح ما بینهما.

و قوله:« فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ »و لم یقل:فأصلحوا بین الأخوین من أوجز الکلام و ألطفه حیث یفید أن المتقاتلتین بینهما أخوه فمن الواجب أن یستقر بینهما الصلح و سائر المؤمنین إخوان للمتقاتلتین فیجب علیهم أن یسعوا فی الإصلاح بینهما.

و قوله:« وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ »موعظه للمتقاتلتین و المصلحین جمیعا.

کلام فی معنی الإخوه

و اعلم أن قوله:« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »جعل تشریعی لنسبه الإخوه بین المؤمنین لها آثار شرعیه و حقوق مجعوله،و قد تقدم فی بعض المباحث المتقدمه أن من الأبوه و البنوه و الأخوه و سائر أنواع القرابه ما هو اعتباری مجعول یعتبره الشرائع و القوانین

لترتيب آثار خاصه عليه كالوراثه و الإنفاق و حرمه الازدواج و غير ذلك،و منها ما هو طبيعى بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحده أو هما.

و الاعتبارى من القرابه غير الطبيعى منها فربما يجتمعان كالأخوين المتولدين بين الرجل و المرأه عن نكاح مشروع،و ربما يختلفان كالولد الطبيعى المتولد من زنا فإنه ليس ولدا فى الإسلام و لا يلحق بمولده و إن كان ولدا طبيعيا،و كالداعى الذى هو ولد فى بعض القوانين و ليس بولد طبيعى.

و اعتبار المعنى الاعتبارى و إن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأسا لهم ليكون نسبته إليهم نسبه الرأس إلى البدن فيدبر أمر المجتمع و يحكم بينهم و فيهم كما يحكم الرأس على البدن.

لكن لما كان الاعتبار لمصلحه مقتضيه كان تابعا للمصلحه فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقه ترتبت عليه جميعا و إن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتبارى ذلك البعض كما أن القراءه مثلا جزء من الصلاه و الجزء الحقيقى ينتفى بانتفائه الكل مطلقا لكن القراءه لا ينتفى بانتفائها الصلاه إذا كان ذلك سهوا و إنما تبطل الصلاه إذا تركت عمدا.

و لذلك أيضا ربما اختلفت آثار معنى اعتبارى بحسب الموارد المختلفه كجزئيه الركوع حيث تبطل الصلاه بزيادته و نقيصته عمدا و سهوا بخلاف جزئيه القراءه كما تقدم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتبه على معنى اعتبارى بحسب الموارد المختلفه لكن لا تترتب الآثار الاعتباريه إلا على موضوع اعتبارى كالإنسان يتصرف فى ماله لكن لا بما أنه إنسان بل بما أنه مالك و الأخ يرث أخاه فى الإسلام لا لأنه أخ طبيعى يشارك الميت فى الوالد أو الوالده أو فيهما-فولد الزنا كذلك و لا يرث أخاه الطبيعى- بل يرثه لأنه أخ فى الشريعه الإسلاميه.

و الإخوه من هذا القبيل فمنها أخوه طبيعيه لا أثر لها فى الشرائع و القوانين و هى اشتراك إنسانين فى أب أو أم أو فيهما،و منها أخوه اعتباريه لها آثار اعتباريه و هى فى الإسلام أخوه نسبيه لها آثار فى النكاح و الإرث،و أخوه رضاعيه لها آثار فى النكاح دون الإرث،و أخوه دينيه لها آثار اجتماعيه و لا أثر لها فى النكاح و الإرث،

و سيجیء قول الصادق(ع):المؤمن أخو المؤمن،عينه و دليله،لا يخونه،و لا يظلمه و لا يغشه، و لا يعده عده فيخلفه.

و قد خفی هذا المعنی علی بعض المفسرين فأخذ إطلاق الإخوه فی كلامه تعالی علی المؤمنين إطلاقا مجازيا من باب الاستعاره بتشبيه الاشتراك فی الإيمان بالمشاركه فی أصل التوالد لأن كلا منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياه،و الإيمان منشأ البقاء الأبدی فی الجنان،و قيل:هو من باب التشبيه البليغ من حيث انتسابهم إلی أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبدی.

بحث روائی

فی المجمع،:فی قوله تعالی:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »:روی زراره عن أبی جعفر(ع) أنه قال: ما سلت السيوف،و لا أقيمت الصفوف فی صلاه و لا زحوف،و لا جهر بأذان،و لا أنزل الله:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »حتی أسلم أبناء قبيله الأوس و الخزرج.

أقول:و عن ابن عباس أيضا":ما نزل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إلا بالمدينه،و لا« يَا أَيُّهَا النَّاسُ »إلا بمكه الخبر.و توقف بعضهم فی عموم ذيله،و اعلم أن هناك روايات فی الدر المنثور،و تفسير القمی،فی سبب نزول قوله:« لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ » الآيه لا تنطبق علی الآيه ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعهما.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و البخاری و مسلم و أبو يعلی و البغوی فی معجم الصحابه،و ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردويه و البيهقی فی الدلائل،عن أنس قال*: لما نزلت« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاَ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ -إلی قوله- وَ أَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ »و كان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت-فقال:أنا الذی كنت أرفع صوتی علی رسول الله ص-حبط عملی أنا من أهل النار،و جلس فی بيته حزينا.

ففقده رسول الله ص فانطلق بعض القوم إليه-فقالوا له:فقدك رسول الله ص ما لك؟قال:أنا الذی أرفع صوتی فوق صوت النبی ص-و أجهر له بالقول حبط عملی و أنا من أهل النار،فأتوا النبی ص فأخبروه بذلك-فقال:لا بل هو من أهل الجنه.فلما كان يوم اليمامه قتل.

أقول:قوله:«فلما كان يوم اليمامه قتل»من كلام الراوى يريد أنه استشهد يوم اليمامه فكان ذلك تصديق قول النبى ص،و الروايه مرويه بطرق مختلفه أخرى باختلاف يسير.

و فيه،أخرج البخارى فى الأدب،و ابن أبى الدنيا و البيهقى عن داود بن قيس قال"*:

رأيت الحجرات من جريد النخل-مغشى من خارج بمسوح الشعر-و أظن عرض الباب من باب الحجره-إلى باب البيت نحوا من سته أو سبعه أذرع-و أخرر (۱)البيت الداخل عشره أذرع،و أظن سمكه بين الثمان و السبع":

أقول:و روى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراسانى قال":أدركت حجر أزواج رسول الله ص-من جريد النخل على أبوابها المسوح-من شعر أسود. الحديث.

و فيه،أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن منده و ابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال*: قدمت على رسول الله ص فدعانى إلى الإسلام- فدخلت فيه و أقررت به،و دعانى إلى الزكاه فأقررت بها.قلت:يا رسول الله أرجع إلى قومى-فأدعوهم إلى الإسلام و أداء الزكاه-فمن استجاب لى و ترسل إلى يا رسول الله رسولا-إبان كذا و كذا لتأتيك ما جمعت من الزكاه.

فلما جمع الحارث الزكاه ممن استجاب له-و بلغ الإبان الذى أراد رسول الله ص- أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت-فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله و رسوله-فدعا بسروات قومه فقال لهم:إن رسول الله ص كان وقت لى وقتا يرسل إلى رسوله-ليقبض ما كان عندى من الزكاه-و ليس من رسول الله ص الخلف-و لا أرى حبس رسوله إلا من سخطه-فانطلقوا فنأتى رسول الله ص.

و بعث رسول الله ص الوليد بن عقبه-إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاه-فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق-فرجع فأتى رسول الله ص فقال:إن الحارث منعنى الزكاه و أراد قتلى-فضرب رسول الله ص البعث إلى الحارث.

فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث-و فصل عن المدينه لقيهم الحارث

۱- ۱) كذا فى الأصل و لعله جمع خرير بالخاء المعجمه و هو المكان المطمئن.

فقالوا:هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم:إلى من بعثتم؟قالوا:إليك.قال:و لم؟ قالوا:إن رسول الله ص بعث إليك الوليد بن عقبه- فزعم أنك منعته الزكاه و أردت قتله.قال:لا و الذى بعث محمدا بالحق ما رأيته و لا أتانى.

فلما دخل الحارث على رسول الله ص قال:منعت الزكاه و أردت قتل رسولى؟ قال:لا و الذى بعثك بالحق ما رأيته و لا رآنى-و ما أقبلت إلا حين احتبس على رسول الله ص-خشيت أن يكون كانت سخطه من الله و رسوله-فنزل« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ-فَتَبَيَّنُوا -إلى قوله- حَكِيمٌ ».

أقول:نزول الآيه فى قصه الوليد بن عقبه مستفيض من طرق أهل السنه و الشيعه و قال ابن عبد البر فى الاستيعاب:و لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز و جل:« إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ »نزلت فى الوليد بن عقبه.

و فى المحاسن،بإسناده عن زياد الحذاء عن أبى جعفر(ع)فى حديث له قال*:

يا زياد ويحك و هل الدين إلا الحب؟أ لا ترى إلى قول الله:« إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي- يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ »؟أ و لا ترون إلى قول الله لمحمد ص:« حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ »قال:« يُحِبُّونَ مَنْ هٰاجَرَ إِلَيْهِمْ »و قال:الحب هو الدين و الدين هو الحب:

أقول:و روى فى الكافى،بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق(ع)ما فى معناه و لفظه:و هل الإيمان إلا الحب و البغض؟ثم تلا هذه الآيه:« حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ » إلى آخر الآيه.:

و فى المجمع،و قيل:الفسوق هو الكذب-عن ابن عباس و ابن زيد و هو المروى عن أبى جعفر(ع): .

أقول:و فى هذا المعنى بعض روايات أخر.

و فى الكافى،بإسناده عن على بن عقبه عن أبى عبد الله(ع)قال*: المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه و لا يظلمه-و لا يغشه و لا يعده عده فيخلفه.

أقول:و فى معناه روايات أخر

عنه(ع)و فى بعضها: المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يخذله و لا يغتابه.

و فی المحاسن،بإسناده عن أبی حمزه الثمالی عن أبی جعفر(ع)قال*: المؤمن أخو المؤمن لأبیه و أمه-و ذلک أن الله تبارک و تعالی خلق المؤمن-من طینه جنان السماوات، و أجری فیهم من ریح روحه فلذلک هو أخوه لأبیه و أمه.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و البخاری و مسلم و ابن جریر و ابن المنذر و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن أنس قال*: قیل للنبی ص:لو أتیت عبد الله بن أبی فانطلق و رکب حمارا-و انطلق المسلمون یمشون و هی أرض سبخه،فلما انطلق إلیهم قال:إلیک عنی-فوالله لقد آذانی ریح حمارک.

فقال رجل من الأنصار:و الله لحمار رسول الله ص أطیب ریحا منک،فغضب لعبد الله رجال من قومه -فغضب لکل منهما أصحابه-فکان بینهم ضرب بالجرید و الأیدی و النعال-فأنزل فیهم« وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا-فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما ».

أقول:و فی بعض الروایات کما فی المجمع،أن الذی قال ذلک لعبد الله بن أبی بن سلول هو عبد الله بن رواحه و أن التضارب وقع بین رهطه من الأوس و رهط عبد الله بن أبی من الخزرج،و فی انطباق الآیه بموضوعها و حکمها علی هذه الروایات خفاء.

[سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۱ الی ۱۸]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ اَلاِسْمُ اَلْفُسُوقُ بَعْدَ اَلْإِیمٰانِ وَ مَنْ لَمْ یَتُبْ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۱۱) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ اَلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ اَلظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِیمٌ (۱۲) یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ أَتْقٰاکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ (۱۳) قٰالَتِ اَلْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰکِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا یَدْخُلِ اَلْإِیمٰانُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ إِنْ تُطِیعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ یَلِتْکُمْ مِنْ أَعْمٰالِکُمْ شَیْئاً إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۴) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ یَرْتٰابُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ أُولٰئِکَ هُمُ اَلصّٰادِقُونَ (۱۵) قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اَللّٰهَ بِدِینِکُمْ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۶) یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلاٰمَکُمْ بَلِ اَللّٰهُ یَمُنُّ عَلَیْکُمْ أَنْ هَدٰاکُمْ لِلْإِیمٰانِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۷) إِنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ غَیْبَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ بَصِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۸)

بیان

قوله تعالی:«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ »إلخ، السخریه الاستهزاء و هو ذکر ما یستحقر و یستهان به الإنسان بقول أو إشاره أو فعل تقلیدا بحیث یضحک منه بالطبع،و القوم الجماعه و هو فی الأصل الرجال دون النساء لقیامهم بالأمور المهمه دونهن،و هذا المعنی هو المراد بالقوم فی الآیه بما قوبل بالنساء.

ص :۳۲۱

و قوله:« عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ »و« عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ » حكمه النهى.

و المستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلا أو امرأه و كذا المسخور منه فتخصيص النهى فى اللفظ بسخريه القوم من القوم و سخريه النساء من النساء لمكان الغلبه عاده.

و قوله:« وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » اللمز -على ما قيل-التنبيه على المعايب،و تعليق اللمز بقوله:« أَنْفُسَكُمْ »للإشاره إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره فى الحقيقه لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره،ففى قوله:

« أَنْفُسَكُمْ »إشاره إلى حكمه النهى.

و قوله:« وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمٰانِ » النبز بالتحريك هو اللقب،و يختص-على ما قيل-بما يدل على ذم فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضا بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق و السفيه و نحو ذلك.

و المراد بالاسم فى« بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ »الذكر كما يقال:شاع اسم فلان بالسخاء و الجود،و على هذا فالمعنى:بئس الذكر ذكر الناس-بعد إيمانهم-بالفسوق فإن الحرى بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير و لا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا و يا من أمه كانت كذا.

و يمكن أن يكون المراد بالاسم السمه و العلامه و المعنى:بئست السمه أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمه السوء كان يقال لمن اقترف معصيه ثم تاب:يا صاحب المعصيه الفلانيه،أو المعنى:بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوءهم من الألقاب،و على أى معنى كان ففى الجمله إشاره إلى حكمه النهى.

و قوله:« وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ »أى و من لم يتب عن هذه المعاصى التى يقترفها بعد ورود النهى فلم يندم عليها و لم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فأولئك ظالمون حقا فإنهم لا يرون بها بأسا و قد عدها الله معاصى و نهى عنها.

و فى الجمله أعنى قوله:« وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ »إلخ،إشعار بأن هناك من كان يقترف هذه المعاصى من المؤمنين.

ص :۳۲۲

قوله تعـالی:« یٰا أَیُّهَـا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » إلی آخر الآـیه المراد بـالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فـإن ظن الخیر منـدوب إلیه کمـا یسـتفاد من قوله تعالی: «لَوْ لاٰ إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِـهِمْ خَیْراً» :النور:١٢.

و المراد بالاجتنـاب عن الظن الاجتنـاب عن ترتیب الأـثر علیه کان یظن بأخیه المؤمن سوء فیرمیه به و یـذکره لغیره و یرتب علیه سـائر آثـاره،و أمـا نفس الظن بمـا هو نوع من الإدراک النفسانی فهو أمر یفاجئ النفس لا عن اختیار فلا یتعلق به النهی اللهم إلا إذا کان بعض مقدماته اختیاریا.

و علی هـذا فکون بعض الظن إثمـا من حیث کون مـا یترتب علیه من الأثر إثما کإهانه المظنون به و قـذفه و غیر ذلک من الآثار السیئه المحرمه،و المراد بکثیر من الظن -و قد جیء به نکره لیدل علی کثرته فی نفسه لا بالقیاس إلی سائر أفراد الظن- هو بعض الظن الـذی هو إثم فهو کثیر فی نفسه و بعض من مطلق الظن،و لو أریـد بکثیر من الظن أعم من ذلـک کـأن یراد ما یعلم أن فیه إثما و ما لا یعلم منه ذلک کان الأمر بالاجتناب عنه أمرا احتیاطیا توقیا من الوقوع فی الإثم.

و قوله:« وَ لاٰ تَجَسَّسُوا » التجسـس بـالجیم تتبع مـا اسـتتر من أمور النـاس للاطلاـع علیهـا،و مثله التحسـس بالحـاء المهمله إلاـ أن التجسـس بالجیم یسـتعمل فی الشـر و التحسـس بالحاء یسـتعمل فی الخیر،و لذا قیل:معنی الآیه لا تتبعوا عیوب المسلمین لتهتکوا الأمور التی سترها أهلها.

و قوله:« وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُـکُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَـدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ » الغیبه علی ما فی مجمع البیان ذکر العیب بظهر الغیب علی وجه یمنع الحکمه منه،و قـد فسـرت بتفاسـیر مختلفه حسب الاختلاـف فی مصادیقهـا سـعه و ضـیقا فی الفقه، و یئول إلی أن یذکر من الإنسان فی ظهر الغیب ما یسوءه لو ذکر به و لذا لـم یعدوا من الغیبه ذکر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به.

و الغیبه تفسـد أجزاء المجتمع واحـدا بعـد واحـد فتسـقطها عن صـلاحیه التأثیر الصالح المرجو من الاجتماع و هو أن یخالط کل صاحبه و یمازجه فی أمن و سلامه بأن

يعرفه إنسانا عدلا سويا يأنس به و لا يكرهه و لا يستقذره،و أما إذا عرفه بما يكرهه و يعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك و ضعفت رابطه الاجتماع فهى كالأكله التى تأكل جثمان من ابتلى بها عضوا بعد عضو حتى تنتهى إلى بطلان الحياه.

و الإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهويه اجتماعيه أعنى بمنزله اجتماعيه صالحه لأن يخالطه و يمازج فيفيد و يستفاد منه،و غيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزله و تبطل منه هذه الهويه،و فيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح و لا يزال ينتقص بشيوع الغيبه حتى يأتى على آخره فيتبدل الصلاح فسادا و يذهب الأنس و الأمن و الاعتماد و ينقلب الدواء داء.

فهى فى الحقيقه إبطال هويه اجتماعيه على حين غفله من صاحبها و من حيث لا يشعر به،و لو علم بذلك على ما فيه من المخاطره لتحرز منه و توقى انهتاك ستره و هو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان و نواقصه ليتم به ما أراده من طريق الفطره من تألف أفراد الإنسان و تجمعهم و تعاونهم و تعاضدهم،و أين الإنسان و النزاهه من كل عيب.

و إلى هذه الحقيقه أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله:« أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ »و قد أتى بالاستفهام الإنكارى و نسب الحب المنفى إلى أحدهم و لم يقل:بعضكم و نحو ذلك ليكون النفى أوضح استيعابا و شمولا و لذا أكده بقوله بعد:« فَكَرِهْتُمُوهُ »فنسب الكراهه إلى الجميع و لم يقل:فكرهه.

و بالجمله محصله أن اغتياب المؤمن بمنزله أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتا،و إنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامى المؤلف من المؤمنين و إنما المؤمنون إخوه،و إنما كان ميتا لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه.

و فى قوله:« فَكَرِهْتُمُوهُ »و لم يقل:فتكرهونه إشعار بأن الكراهه أمر ثابت محقق منكم فى أن تأكلوا إنسانا هو أخوكم و هو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروها لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه فى معنى أكل أحدكم أخاه ميتا.

و اعلم أن ما فى قوله:« أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ »إلخ،من التعليل جار فى

التجسس أيضا كالغيبه،و إنما الفرق أن الغيبه هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير،و التجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبع آثاره و لذلك لم يبعد أن يكون الجمله أعنى قوله:« أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً »إلخ،تعليلا لكل من الجملتين أعنى« وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ».

و اعلم أن فى الكلام إشعارا أو دلاله على اقتصار الحرمه فى غيبه المسلمين،و من القرينه عليه قوله فى التعليل:« لَحْمَ أَخِيهِ »فالأخوه إنما هى بين المؤمنين.

و قوله:« وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ »ظاهره أنه عطف على قوله:« اِجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ »إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التى كانوا يقترفونها بالتوبه إلى الله سبحانه فالمراد بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ »أن الله كثير القبول للتوبه رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به.

و إن كان هو التجنب عنها و التورع فيها و إن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله:

« إِنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ »أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهدايه و التوفيق و الحفظ عن الوقوع فى مهالك الشقوه رحيم بهم.

و ذلك أن التوبه من الله توبتان:توبه قبل توبه العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبه كما قال تعالى: «ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» :التوبه:۱۱۸،و توبه بعد توبه العبد بالرجوع إليه بالمغفره و قبول التوبه كما فى قوله: «فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» :المائده:۳۹.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ »إلخ، الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون و هو على ما فى المجمع الحى العظيم من الناس كربيعه و مضر،و القبائل جمع قبيله و هى دون الشعب كتميم من مضر.

و قيل:الشعوب دون القبائل و سميت بها لتشعبها،قال الراغب:الشعب القبيله المنشعبه من حى واحد،و جمعه شعوب،قال تعالى:« شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ »و الشعب من الوادى ما اجتمع منه طرف و تفرق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الذى تفرق

أخـذت فی وهمـک واحـدا یتفرق،و إذا نظرت من جـانب الاجتمـاع أخـذت فی وهمـک اثنین اجتمعـا فلـذلک قیل:شـعبت إذا جمعت،و شعبت إذا فرقت.انتهی.

و قیل:الشعوب العجم و القبائل العرب،و الظاهر أن مآله إلی أحد القولین السابقین،و سیجیء تمام الکلام فیه (۱).

ذکر المفسرون أن الآیه مسوقه لنفی التفاخر بالأنساب،و علیه فالمراد بقوله:

« مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ »آدم و حواء،و المعنی:أنـا خلقنـاکم من أب و أم تشترکون جمیعـا فیهمـا من غیر فرق بین الأـبیض و الأـسود و العربی و العجمی و جعلنـاکم شـعوبا و قبائـل مختلفه لاـ لکرامه لبعضـکم علی بعض بل لأن تتعارفوا فیعرف بعضـکم بعضا و یتم بذلک أمرا اجتماعکم فیستقیم مواصلاتکم و معاملاتکم فلو فرض ارتفاع المعرفه من بین أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع و بادت الإنسانیه فهذا هو الغرض من جعل الشعوب و القبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتباهوا بالآباء و الأمهات.

و قیـل:المراد بالـذکر و الأـنثی مطلق الرجـل و المرأه،و الآیه مسوقه لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات کالأبیض و الأسود و العرب و العجم و الغنی و الفقیر و المولی و العبـد و الرجل و المرأه،و المعنی:یا أیها الناس إنا خلقناکم من رجل و امرأه فکل واحد منکم إنسـان مولود من إنسـانین لاـ تفترقون من هـذه الجهه،و الاختلاـف الحاصل بالشـعوب و القبائل-و هو اختلاف راجع إلی الجعل الإلهی-لیس لکرامه و فضیله و إنما هو لأن تتعارفوا فیتم بذلک اجتماعکم.

و اعترض علیه بأن الآیه مسوقه لنفی التفاخر بالأنساب و ذمه کما یدل علیه قوله:« وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا »و ترتب هذا الغرض علی هـذا الوجه غیر ظـاهر، و یمکن أن یناقش فیه أن الاختلاف فی الأنساب من مصادیق الاختلاف الطبقاتی و بناء هـذا الوجه علی کون الآـیه مسوقه لنفی مطلق الاختلاـف الطبقـاتی و کما یمکن نفی التفاخر بالأنساب و ذمه اسـتنادا إلی أن الأنساب تنتهی إلی آدم و حواء و الناس جمیعا مشترکون فیهما،کـذلک یمکن نفیه و ذمه اسـتنادا إلی أن کل إنسان مولود من إنسانین و الناس جمیعا مشترکون فی ذلک.

ص :۳۲۶

۱- ۱) فی البحث الروائی الآتی.

و الحق أن قوله:« وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ »إن كان ظاهرا فی ذم التفاخر بالأنساب فأول الوجهین أوجه،و إلا فالثانی لکونه أعم و أشمل.

و قوله:« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ »استئناف مبین لما فیه الکرامه عند الله سبحانه،و ذلک أنه نبههم فی صدر الآیه علی أن الناس بما هم ناس یساوی بعضهم بعضا لا اختلاف بینهم و لا فضل لأحدهم علی غیره،و أن الاختلاف المترائی فی الخلقه من حیث الشعوب و القبائل إنما هو للتوصل به إلی تعارفهم لیقوم به الاجتماع المنعقد بینهم إذ لا یتم ائتلاف و لا تعاون و تعاضد من غیر تعرف فهذا هو غرض الخلقه من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتفاضلوا بأمثال البیاض و السواد فیستعبد بذلک بعضهم بعضا و یستخدم إنسان إنسانا و یستعلی قوم علی قوم فینجر إلی ظهور الفساد فی البر و البحر و هلاک الحرث و النسل فینقلب الدواء داء.

ثم نبه سبحانه فی ذیل الآیه بهذه الجمله أعنی قوله:« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ »علی ما فیه الکرامه عنده،و هی حقیقه الکرامه.

و ذلک أن الإنسان مجبول علی طلب ما یتمیز به من غیره و یختص به من بین أقرانه من شرف و کرامه،و عامه الناس لتعلقهم بالحیاه الدنیا یرون الشرف و الکرامه فی مزایا الحیاه المادیه من مال و جمال و نسب و حسب و غیر ذلک فیبذلون جل جهدهم فی طلبها و اقتنائها لیتفاخروا بها و یستعلوا علی غیرهم.

و هذه مزایا وهمیه لا تجلب لهم شیئا من الشرف و الکرامه دون أن توقعهم فی مهابط الهلکه و الشقوه،و الشرف الحقیقی هو الذی یؤدی الإنسان إلی سعادته الحقیقیه و هو الحیاه الطیبه الأبدیه فی جوار رب العزه و هذا الشرف و الکرامه هو بتقوی الله سبحانه و هی الوسیله الوحیده إلی سعاده الدار الآخره،و تتبعها سعاده الدنیا قال تعالی: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيٰا وَ اللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» :الأنفال:۶۷،و قال: «وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّٰادِ التَّقْوىٰ» :البقره:۱۹۷،و إذا کانت الکرامه بالتقوی فأکرم الناس عند الله أتقاهم کما قال تعالی.

و هذه البغیه و الغایه التی اختارها الله بعلمه غایه للناس لا تزاحم فیها و لا تدافع بین المتلبسین بها علی خلاف الغایات و الکرامات التی یتخذها الناس بحسب أوهامهم

غايات يتوجهون إليها و يتباهون بها كالغنى و الرئاسه و الجمال و انتشار الصيت و كذا الأنساب و غيرها.

و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »فيه تأكيد لمضمون الآيه و تلويح إلى أن الذى اختاره الله كرامه للناس كرامه حقيقيه اختارها الله بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامه و شرفا لأنفسهم فإنها وهميه باطله فإنها جميعا من زينه الحياه الدنيا قال تعالى: «وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ» :العنكبوت:۶۴.

و فى الآيه دلاله على أن من الواجب على الناس أن يتبعوا فى غايات الحياه أمر ربهم و يختاروا ما يختاره و يهدى إليه و قد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياه ما يختاره لهم من الدين.

قوله تعالى:« قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ »إلخ الآيه و ما يليها إلى آخر السوره متعرضه لحال الأعراب فى دعواهم الإيمان و منهم على النبى ص بإيمانهم،و سياق نقل قولهم و أمر النبى ص أن يجيبهم بقوله:« لَمْ تُؤْمِنُوا »يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم،و يؤيده قوله: «وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» :التوبه:۹۹.

و قوله:« قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا »أى قالوا لك آمنا و ادعوا الإيمان قل لم تؤمنوا و كذبهم فى دعواهم،و قوله:« وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا »استدراك مما يدل عليه سابق الكلام،و التقدير:فلا تقولوا آمنا و لكن قولوا:أسلمنا.

و قوله:« وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ »لنفى دخول الإيمان فى قلوبهم مع انتظار دخوله،و لذلك لم يكن تكرارا لنفى الإيمان المدلول عليه بقوله:« لَمْ تُؤْمِنُوا ».

و قد نفى فى الآيه الإيمان عنهم و أوضحه بأنه لم يدخل فى قلوبهم بعد و أثبت لهم الإسلام،و يظهر به الفرق بين الإيمان و الإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد،و الإسلام أمر قائم باللسان و الجوارح فإنه الاستسلام و الخضوع لسانا بالشهاده على التوحيد و النبوه و عملا بالمتابعه العمليه ظاهرا سواء قارن الاعتقاد بحقيه

ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن،و بظاهر الشهادتين تحقن الدماء و عليه تجرى المناكح و المواريث.

و قوله:« وَ إِنْ تُطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئاً » الليت النقص يقال:لاته يليته ليتا إذا نقصه،و المراد بالإطاعه الإخلاص فيها بموافقه الباطن للظاهر من غير نفاق،و طاعه الله استجابه ما دعا إليه من اعتقاد و عمل،و طاعه رسوله تصديقه و اتباعه فيما يأمر به فيما له الولايه عليه من أمور الأمه،و المراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها.

و المعنى:و إن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقادا،و تطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيئا،و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه و رسوله.

قوله تعالى:« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰادِقُونَ »تعريف تفصيلى للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالا بأنهم الذين دخل الإيمان فى قلوبهم كما هو لازم قوله:« لَمْ تُؤْمِنُوا »و« لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ ».

فقوله:« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ »فيه قصر المؤمنين فى الذين آمنوا بالله و رسوله إلخ،فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفا جامعا مانعا فمن اتصف بها مؤمن حقا كما أن من فقد شيئا منها ليس بمؤمن حقا.

و الإيمان بالله و رسوله عقد القلب على توحيده تعالى و حقيه ما أرسل به رسوله و على صحه الرساله و اتباع الرسول فيما يأمر به.

و قوله:« ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا »أى لم يشكوا فى حقيه ما آمنوا به و كان إيمانهم ثابتا مستقرا لا يزلزله شك،و التعبير بثم دون الواو-كما قيل-للدلاله على انتفاء عروض الريب حينا بعد حين كأنه طرى جديد دائما فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأولى و لو قيل:و لم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولا مقارنا لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

و قوله:« وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ » المجاهده بذل الجهد و الطاقه

و سبیل الله دینه،و المراد بالمجاهده بالأموال و الأنفس العمل بما تسعه الاستطاعه و تبلغه الطاقه فی التکالیف المالیه کالزکاه و غیر ذلک من الإنفاقات الواجبه،و التکالیف البدنیه کالصلاه و الصوم و الحج و غیر ذلک.

و المعنی:و یجدون بإتیان التکالیف المالیه و البدنیه حال کونهم أو حال کون عملهم فی دین الله و سبیله.

و قوله:« أُولٰئِکَ هُمُ الصّٰادِقُونَ »تصدیق فی إیمانهم إذا کانوا علی الصفات المذکوره.

قوله تعالی:« قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّٰهَ بِدِینِکُمْ وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ »توبیخ للأعراب حیث قالوا:آمنا و لازمه دعوی الصدق فی قولهم و الإصرار علی ذلک،و قیل:لما نزلت الآیه السابقه حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون فی قولهم:آمنا،فنزل:« قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّٰهَ بِدِینِکُمْ »الآیه،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی:« یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلاٰمَکُمْ بَلِ اللّٰهُ یَمُنُّ عَلَیْکُمْ أَنْ هَدٰاکُمْ لِلْإِیمٰانِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ »أی یمنون علیک بأن أسلموا و قد أخطئوا فی منهم هذا من وجهین أحدهما أن حقیقه النعمه التی فیها المن هو الإیمان الذی هو مفتاح سعاده الدنیا و الآخره دون الإسلام الذی له فوائد صوریه من حقن الدماء و جواز المناکح و المواریث،و ثانیهما أن لیس للنبی ص من أمر الدین إلا أنه رسول مأمور بالتبلیغ فلا من علیه لأحد ممن أسلم.

فلو کان هناک من لکان لهم علی الله سبحانه لأن الدین دینه لکن لا من لأحد علی الله لأن المنتفع بالدین فی الدنیا و الآخره هم المؤمنون دون الله الغنی علی الإطلاق فالمن لله علیهم أن هداهم له.

و قد بدل ثانیا الإسلام من الإیمان للإشاره إلی أن المن إنما هو بالإیمان دون الإسلام الذی إنما ینفعهم فی الظاهر فقط.

فقد تضمن قوله:« قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلاٰمَکُمْ بَلِ اللّٰهُ یَمُنُّ »إلخ،الإشاره إلی خطئهم من الجهتین جمیعا:

إحداهما:خطئهم من جهه توجیه المن إلی النبی ص و هو رسول لیس له من الأمر شیء،و إلیه الإشاره بقوله:« لاٰ تَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلاٰمَکُمْ ».

و ثانيهما:أن المن-لو كان هناك من-إنما هو بالإيمان دون الإسلام،و إليه الإشاره بتبديل الإسلام من الإيمان.

قوله تعالى:« إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ »ختم للسوره و تأكيد يعلل و يؤكد به جميع ما تقدم في السوره من النواهي و الأوامر و ما بين فيها من الحقائق و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين فالآيه تعلل بمضمونها جميع ذلك.

و المراد بغيب السماوات و الأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما و من الخارج منهما.

بحث روائی

في الدر المنثور،أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل "*في قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- لاٰ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ »قال:نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا من بلال و سلمان-و عمار و خباب و صهيب و ابن فهيره و سالم مولى أبي حذيفه.

و في المجمع،": نزل قوله:« لاٰ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ »في ثابت بن قيس بن شماس و كان في أذنه وقر-و كان إذا دخل المسجد تفسحوا له-حتى يقعد عند النبي ص فيسمع ما يقول.- فدخل المسجد يوما و الناس قد فرغوا من الصلاه-و أخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس و يقول:تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلى رجل-فقال له:أصبت مجلسا فاجلس فجلس خلفه مغضبا-فلما انجلت الظلمه قال:من هذا؟قال الرجل:أنا فلان فقال ثابت:ابن فلانه ذكر أما له كان يعير بها في الجاهليه -فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآيه.": عن ابن عباس.

و فيه،": و قوله:« وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ »نزل في نساء النبي ص-سخرن من أم سلمه." :عن أنس.":و ذلك أنها ربطت حقويها بسبيبه-و هي ثوب أبيض و سدلت طرفيها خلفها فكانت تجره-فقالت عائشه لحفصه:انظري ما ذا تجر خلفها-كأنه لسان كلب

فهذه كانت سخريتهما،و قيل:إنها عيرتها بالقصر،و أشارت بيدها أنها قصيره.":

عن الحسن.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاری فی الأدب،و أبو داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجه و أبو يعلی و ابن جرير و ابن المنذر و البغوی فی معجمه، و ابن حبان و الشيرازی فی الألقاب،و الطبرانی و ابن السنی فی عمل اليوم و الليله،و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقی فی شعب الإيمان،عن أبی جبيره بن الضحاك قال"*: فينا نزلت فی بنی سلمه« وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ »قدم رسول الله ص المدينه-و ليس فينا رجل إلا و له اسمان أو ثلاثه-فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء-قالوا:يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم-فأنزل الله« وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ ».

و فيه،أخرج ابن أبی حاتم عن السدی": أن سلمان الفارسی كان مع رجلين فی سفر- يخدمهما و ينال من طعامهما-و أن سلمان نام نوما فطلبه صاحباه فلم يجداه-فضربا الخباء و قالا ما يريد سلمان شيئا غير هذا-أن يجیء إلی طعام معدود و خباء مضروب-فلما جاء سلمان أرسلاه إلی رسول الله ص-يطلب لهما إداما فانطلق فأتاه-فقال:يا رسول الله بعثنی أصحابی لتؤدمهم إن كان عندك.قال:ما يصنع أصحابك بالأدم؟قد ائتدموا.

فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ص-فقالا:و الذی بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا.قال:إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما.فنزلت« أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ».

و فيه،أخرج الضياء المقدسی عن أنس قال: كانت العرب يخدم بعضها بعضا فی الأسفار-و كان مع أبی بكر و عمر رجل يخدمهما-فناما و استيقظا و لم يهيئ لهما طعاما- فقالا:إن هذا لنئوم فأيقظاه فقالا:ائت رسول الله ص فقل له:إن أبا بكر و عمر يقرئانك السلام و يستأدمانك،فقال:إنهما ائتدما،فجاءاه-فقالا يا رسول الله بأی شیء ائتدمنا؟قال:بلحم أخيكما،و الذی نفسی بيده إنی لأری لحمه بين ثناياكما، فقالا:استغفر لنا يا رسول الله.قال:مراه فليستغفر لكما.

أقول:الظاهر أن القصه المورده فی الروايتين واحده و الرجلان المذكوران فی الروايه الأولی أبو بكر و عمر و الرجل المذكور فی الثانيه هو سلمان،و يؤيد هذا ما

عن

جوامع الجامع،قال:و روى: أن أبا بكر و عمر بعثا سلمان إلى رسول الله ص-ليأتى لهما بطعام فبعثه إلى أسامه بن زيد-و كان خازن رسول الله ص على رحله-فقال:ما عندى شيء فعاد إليهما فقالا:بخل أسامه -و لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحه لغار ماؤها.

ثم انطلقا إلى رسول الله ص فقال لهما:ما لى أرى خضره اللحم فى أفواهكما- قالا:يا رسول الله ما تناولنا اليوم لحما.قال:ظلمتم تأكلون لحم سلمان و أسامه فنزلت.

و فى العيون،بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبى عباد عن عمه قال:سمعت الرضا (ع) يوما ينشد و قليلا ما كان ينشد شعرا:

كلنا نأمل مدا فى الأجل-

و المنايا هن آفات الأمل-

لا يغرنك أباطيل المنى-

و الزم القصد و دع عنك العلل-

إنما الدنيا كظل زائل-

حل فيه راكب ثم رحل-

فقلت:لمن هذا أعز الله الأمير؟فقال:لعراقى لكم-قلت:أنشدنيه أبو العتاهيه (١)لنفسه-فقال:هات اسمه و دع هذا،إن الله سبحانه يقول:« وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ » و لعل الرجل يكره هذا.

و فى الكافى،بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبى عبد الله(ع)قال*:قال أمير المؤمنين(ع)فى كلام له: ضع أمر أخيك على أحسنه-حتى يأتيك ما يقلبك منه، و لا تظنن بكلمه خرجت من أخيك سوءا-و أنت تجد لها فى الخير محملا.

و فى نهج البلاغه،و قال(ع): إذا استولى الصلاح على الزمان و أهله،ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبه فقد ظلم،و إذا استولى الفساد على الزمان و أهله-ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر.

أقول:و الروايتان غير متعارضتين فالثانيه ناظره إلى نفس الظن و الأولى إلى ترتيب الأثر عليه عملا.

و فى الخصال،عن أسباط بن محمد بإسناده إلى النبى ص أنه قال*: الغيبه أشد من الزنا،فقيل:يا رسول الله و لم ذلك؟قال:صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه- و صاحب الغيبه يتوب فلا يتوب الله عليه-حتى يكون صاحبه الذى يحله.:

١- ١) العتاهيه بمعنى نقصان العقل.

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن ابن مردویه و البیهقی عن أبی سعید و جابر عنه(ص)،و لفظه قال رسول الله ص*: الغیبه أشد من الزنا.قالوا:یا رسول الله و کیف الغیبه أشد من الزنا؟قال:إن الرجل یزنی فیتوب فیتوب الله علیه-و إن صاحب الغیبه لا یغفر له حتی یغفرها له صاحبه.

و فی الکافی،بإسناده إلی السکونی عن أبی عبد الله(ع)قال:قال رسول الله ص: الغیبه أسرع فی دین الرجل المسلم من الأکله فی جوفه.

و فیه،بإسناده عن حفص بن عمر عن أبی عبد الله(ع)قال: سئل النبی ص ما کفاره الاغتیاب قال:تستغفر الله لمن اغتبته کما ذکرته.

و فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ »قال:

الشعوب العجم و القبائل العرب.:

أقول:و نسبه فی مجمع البیان،إلی الصادق(ع).

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه و البیهقی عن جابر بن عبد الله قال*: خطبنا رسول الله ص فی وسط أیام التشریق خطبه الوداع-فقال:یا أیها الناس ألا إن ربکم واحد،ألا إن أباکم واحد،ألا لا فضل لعربی علی عجمی،و لا لعجمی علی عربی، و لا لأسود علی أحمر و لا لأحمر علی أسود إلا بالتقوی-إن أکرمکم عند الله أتقاکم.ألا هل بلغت؟قالوا:بلی یا رسول الله.قال فلیبلغ الشاهد الغائب.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی بکر الحضرمی عن أبی عبد الله(ع)قال*: إن رسول الله ص زوج مقداد بن الأسود-ضباعه بنت الزبیر بن عبد المطلب.إنما زوجه لتضع المناکح،و لیتأسوا برسول الله ص،و لیعلموا أن أکرمهم عند الله أتقاهم.

و فی روضه الکافی،بإسناده عن جمیل بن دراج قال*: قلت لأبی عبد الله(ع):

فما الکرم؟قال:التقوی.

و فی الکافی،بإسناده عن یونس بن یعقوب عن أبی عبد الله(ع)فی حدیث قال*:

إن الإسلام قبل الإیمان و علیه یتوارثون-و علیه یتناکحون و الإیمان علیه یثابون.

و فی الخصال،عن الأعمش عن جعفر بن محمد(ع)فی حدیث*: و الإسلام غیر الإیمان،و کل مؤمن مسلم و لیس کل مسلم مؤمنا.

و فی الـدر المنثور،":فی قوله تعـالی:« قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا »":أخرج ابن جریر عن قتاده": فی قوله:« قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا »قال:نزلت فی بنی أسد.":

أقول:و هو مروی أیضا عن مجاهد و غیره.

و فیه،أخرج ابن مـاجه و ابن مردویه و الطـبرانی و الـبیهقی فی شـعب الإیمـان،عن علی بن أبی طـالب قـال*:قـال رسول الله ص: الإیمان معرفه بالقلب و إقرار باللسان و عمل بالأرکان.

و فیه،أخرج النسـائی و البزاز و ابن مردویه عن ابن عبـاس قـال*: جاءت بنو أسـد إلی رسول الله ص فقالوا:یا رسول الله أسـلمنا و قاتلک العرب و لم نقاتلک-فنزلت هذه الآیه« یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا ».

أقول:و فی هذا المعنی روایات أخر.

(۵۰) سوره ق مكيه و هى خمس و أربعون آيه(۴۵)

[سوره ق (۵۰): الآيات ۱ الى ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

ق وَ اَلْقُرْآنِ اَلْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقٰالَ اَلْكٰافِرُونَ هٰذٰا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ
بَعِيدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ اَلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ (۴) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (۵) أَ فَلَمْ
يَنْظُرُوا إِلَى اَلسَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً مُبٰارَكاً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ جَنّٰاتٍ وَ حَبَّ اَلْحَصِيدِ (۹) وَ اَلنَّخْلَ
بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبٰادِ وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ اَلْخُرُوجُ (۱۱) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحٰابُ اَلرَّسِّ وَ
ثَمُودُ (۱۲) وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوٰانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَهِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (۱۴)

ص: ۳۳۶

بیان

السوره تذکر الدعوه و تشیر إلی ما فیها من الإنذار بالمعاد و جحد المشرکین به و استعجابهم ذلک بأن الموت یستعقب بطلان الشخصیه الإنسانیه بصیرورته ترابا لا یبقی معه أثر مما کان علیه فکیف یرجع ثانیا إلی ما کان علیه قبل الموت فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب و الاستبعاد بأن العلم الإلهی محیط بهم و عنده الکتاب الحفیظ الذی لا یعزب عنه شیء مما دق و جل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابه مثل ما أصاب الأمم الماضیه الهالکه.

و تنبه ثانیا علی علمه و قدرته تعالی بالإشاره إلی ما جری من تدبیره تعالی فی خلق السماوات و ما زینها به من الکواکب و النجوم و غیر ذلک،و فی خلق الأرض من حیث مدها و إلقاء الرواسی علیها و إنبات الأزواج النباتیه فیها ثم بإنزال الماء و تهیئه أرزاق العباد و إحیاء الأرض به.

ثم بیان حال الإنسان من أول ما خلق و أنه تحت المراقبه الشدیده الدقیقه حتی ما یلفظ به من لفظ و حتی ما یخطر بباله و توسوس به نفسه ما دام حیا ثم إذا أدرکه الموت ثم إذا بعث لفصل القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فأدخل النار إن کان من المکذبین أو الجنه المزیفه إن کان من المتقین.

و بالجمله مصب الکلام فی السوره هو المعاد،و من غرر الآیات فیها قوله:« لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ »،و قوله:« یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیدٍ »و قوله:« لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ ».

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها إلا ما قیل فی قوله:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ »الآیه أو الآیتین،و لا شاهد علیه من اللفظ.

و ما أوردناه من الآیات فیه إجمال الإشاره إلی المعاد و استبعادهم له،و إجمال الجواب و التهدید أولا ثم الإشاره إلی تفصیل الجواب و التهدید ثانیا.

قوله تعالی:« ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیدِ »،قال فی المجمع،: المجد فی کلامهم الشرف

الواسع يقال:مجد الرجل و مجد-بضم العين و فتحها-مجدا إذا عظم و كرم، و أصله من قولهم:مجدت الإبل مجودا إذا عظمت بطونها من كثره أكلها من كلاء الربيع.انتهى.

و قوله:« وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ »قسم و جوابه محذوف يدل عليه الجمل التاليه و التقدير و القرآن المجيد أن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الإنذار حق،و قيل:جواب القسم مذكور و هو قوله:« بَلْ عَجِبُوا »إلخ،و قيل:هو قوله:« قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ » إلخ،و قيل:قوله:« ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ »إلخ،و قيل:قوله:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ » إلخ،و قيل:قوله:« ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »إلخ،و هذه أقوال سخيفه لا يصار إليها.

قوله تعالى:« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هٰذا شَيْءٌ عَجِيبٌ »إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل:إنا أرسلناك نذيرا فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم،أو قيل إن البعث الذى أنذرتهم به حق و لم يؤمنوا به بل عجبوا منه و استبعدوه.

و ضمير« مِنْهُمْ »فى قوله:« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ »راجع إليهم بما هم بشر أى من جنسهم و ذلك أن الوثنيين ينكرون نبوه البشر كما تقدمت الإشاره إليه مرارا أو راجع إليهم بما هم عرب و المعنى:بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم و بلسانهم يبين لهم الحق أوفى بيان فيكون أبلغ فى تقريعهم.

و قوله:« فَقالَ الْكافِرُونَ هٰذا شَيْءٌ عَجِيبٌ »وصفهم بالكفر و لم يقل:و قال المشركون و نحو ذلك للدلاله على سترهم للحق لما جاءهم،و الإشاره فى قولهم: «هٰذا شَيْءٌ عَجِيبٌ »،إلى البعث و الرجوع إلى الله كما يفسره قوله بعد:« أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً »إلخ.

قوله تعالى:« أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » الرجع و الرجوع بمعنى و المراد بالبعد البعد عن العقل.

و جواب إذا فى قولهم:« أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً »محذوف يدل عليه قولهم:« ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »و التقدير أ ءذا متنا و كنا ترابا نبعث و نرجع؟و الاستفهام للتعجيب، و إنما حذف للإشاره إلى أنه عجيب بحيث لا ينبغى أن يذكر،إذ لا يقبله عقل ذى عقل

و الآیه فی مساق قوله: «وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ» :الم السجده:١٠.

و المعنی:أنهم یتعجبون و یقولون:أ ءذا متنا و کنا ترابا-و بطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها-نبعث و نرجع؟ثم کان قائلا یقول لهم:مم تتعجبون؟فقالوا:ذلک رجع بعید یستبعده العقل و لا یسلمه.

قوله تعالی:« قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا کِتٰابٌ حَفِیظٌ »رد منه تعالی لاستبعادهم البعث و الرجوع مستندین فی ذلک إلی أنهم ستتلاشی أبدانهم بالموت فتصیر ترابا متشابه الأجزاء لا تمایز لجزء منها من جزء و الجواب أنا نعلم بما تأکله الأرض من أبدانهم و تنقصه منها فلا یفوت علمنا جزء من أجزائهم حتی یتعسر علینا إرجاعه أو یتعذر بالجهل.

أو أنا نعلم من یموت منهم فیدفن فی الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم،و«من» علی أول الوجهین تبعیضیه و علی الثانی تبیینیه.

و قوله:« وَ عِنْدَنٰا کِتٰابٌ حَفِیظٌ »أی حافظ لکل شیء و لآثاره و أحواله،أو کتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغییر و التحریف،و هو اللوح المحفوظ الذی فیه کل ما کان و ما یکون و ما هو کائن إلی یوم القیامه.

و قول بعضهم إن المراد به کتاب الأعمال غیر سدید أولا من جهه أن الله ذکره حفیظا لما تنقص الأرض منهم و هو غیر الأعمال التی یحفظه کتاب الأعمال.

و ثانیا:أنه سبحانه إنما وصف فی کلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون کتب الأعمال فحمل الکتاب الحفیظ علی کتاب الأعمال من غیر شاهد.

و محصل جواب الآیه أنهم زعموا أن موتهم و صیرورتهم ترابا متلاشی الذرات غیر متمایز الأجزاء یصیرهم مجهولی الأجزاء عندنا فیمتنع علینا جمعها و إرجاعها لکنه زعم باطل فإنا نعلم بمن مات منهم و ما یتبدل إلی الأرض من أجزاء أبدانهم و کیف یتبدل و إلی أین یصیر؟و عندنا کتاب حفیظ فیه کل شیء و هو اللوح المحفوظ.

قوله تعالی:« بَلْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَهُمْ فِی أَمْرٍ مَرِیجٍ » المرج الاختلاط و الالتباس،و فی الآیه إضراب عما تلوح إلیه الآیه السابقه فإن اللائح منها أنهم إنما

تعجبوا من أمر البعث و الرجوع و استبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شیء من أحوال خلقه و آثارهم و أن جميع ذلك مستطر فی اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذ عنه شاذ.

فأضرب فی هذه الآیه أن ذلك ليس من جهلهم و إن تجاهلوا بل كذبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له و ليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم فی أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق و يكذبون به مع أن لازم العلم بشیء تصديقه و الإيمان به.

و قيل:المراد بكونهم فی أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتاره يقولون:افتراء على الله،و تاره:سحر،و تاره:شعر،و تاره:كهانه و تاره:زجر.

و لذلك عقب الكلام بذكر آيات علمه و قدرته توبيخا لهم ثم بالإشاره إلى تكذيب الأمم الماضيه الهالكه الذی ساقهم إلى عذاب الاستئصال،تهديدا لهم.

قوله تعالى:« أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ » الفروج جمع فرجه:الشقوق و الفتوق،و تقييد السماء بكونها فوقهم للدلاله على أنها بمرأى منهم لا تغيب عن أنظارهم،و المراد بتزيينها خلق النجوم اللامعه فيها بما لها من الجمال البديع،فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق و فتوق أصدق شاهد على قدرته القاهره و علمه المحيط بما خلق.

قوله تعالى:« وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » مد الأرض بسطها لتلائم عيشه الإنسان،و الرواسی جمع الراسيه بمعنى الثابته صفه محذوفه الموصوف و هو الجبال،و المراد جعل الجبال الثابته على ظهرها،و البهيج من البهجه،قال فی المجمع،:البهجه الحسن الذی له روعه عند الرؤيه كالزهره و الأشجار النضره و الرياض الخضره.انتهى.و قيل:المراد بالبهيج الذی من رآه بهج و سر به فهو بمعنى المبهوج به.

و المراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات.

فخلق الأرض و ما جرى فيها من التدبير الإلهى العجيب أحسن دليل يدل العقل على كمال القدره و العلم.

قوله تعالى:« تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ »مفعول له أى فعلنا ما فعلنا من بناء السماء و مد الأرض و عجائب التدبير التى أجريناها فيهما ليكون تبصره يتبصر بها و ذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه.

قوله تعالى:« وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ » السماء جهه العلو و الماء المبارك المطر،وصف بالمباركه لكثره خيراته العائده إلى الأرض و أهلها،و حب الحصيد المحصود من الحب و هو من إضافه الموصوف إلى الصفه، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ » الباسقات جمع باسقه و هى الطويله العاليه،و الطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل،و النضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ » الرزق ما يمد به البقاء،و« رِزْقاً لِلْعِبادِ »مفعول له أى أنبتنا هذه الجنات و حب الحصيد و النخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقا للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما فى ذلك من التدبير الوسيع الذى يدهش اللب و يحير العقل هو ذو علم لا يتناهى و قدره لا تعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته و إن تلاشت ذرأت جسمه و ضلت فى الأرض أجزاء بدنه.

و قوله:« وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ »برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طى الكلام فإن البيان السابق فى رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم ترابا غير متمايز الأجزاء كان برهانا من مسلك إثبات علمه بكل شيء و قدرته على كل شيء و هذا البرهان الذى يتضمنه قوله:« وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ » من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها و وقوف قواه عن النماء و النشوء.

و قد قررنا هذا البرهان فى ذيل الآيات المستدله بإحياء الأرض بعد موتها على

البعث غير مره فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى:« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -إلى قوله- كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ »،تهديد و إنذار لهم بما كذبوا بالحق لما جاءهم و تبين لهم عنادا كما أشرنا إليه قبل.

و قد تقدم ذكر أصحاب الرس فی تفسیر سوره الفرقان،و ذكر أصحاب الأيكه و هم قوم شعيب فی سور الحجر و الشعراء و ص،و ذكر قوم تبع فی سوره الدخان.

و فی قوله:« كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ »إشاره إلى أن هناك وعيدا بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى: «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» :النحل:۳۶.

بحث روائی

فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال"*:خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها-ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له:ق-السماء الدنيا مترفرفه عليه،ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا-مثل تلك الأرض سبع مرات-ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها،ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق-السماء الثانيه مترفرفه عليه حتى عد سبع أرضين-و سبعه أبحر و سبعه أجبل و سبع سماوات.قال:و ذلك قوله:

« وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ».

و فيه،أخرج ابن المنذر و ابن مردويه و أبو الشيخ و الحاكم عن عبد الله بن بريده"*فی قوله تعالى:« ق »قال:جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء.

و فيه،أخرج ابن أبی الدنيا فی العقوبات،و أبو الشيخ فی العظمه،عن ابن عباس قال"*:

خلق الله جبلا يقال له ق محيط بالعالم-و عروقه إلى الصخره التی عليها الأرض-فإذا أراد الله أن يزلزل قريه أمر ذلك الجبل-فحرك العرق الذی يلی تلك القريه فيزلزلها و يحركها- فمن ثم تحرك القريه دون القريه:

أقول:و روى القمی بإسناده عن يحيى بن ميسره الخثعمی عن الباقر(ع):

مثل ما مر عن عبد الله بن بريده،و روى ما فى معناه مرسلا و مضمرا و لفظه:قال:

جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج و مأجوج.

و كيفما كان لا تعويل على هذه الروايات،و بطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها.

و فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى:« فَقٰالَ الْكٰافِرُونَ هٰذٰا شَيْءٌ عَجِيبٌ »قال:

نزلت فى أبى بن خلف قال لأبى جهل:تعال إلى أعجبك من محمد ثم أخذ عظما ففته- ثم قال:يا محمد تزعم أن هذا يحيا؟فقال الله: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ».

[سوره ق (۵۰): الآيات ۱۵ الى ۳۸]

اشاره

أَ فَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ اَلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۵) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ اَلْوَرِيدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى اَلْمُتَلَقِّيٰانِ عَنِ اَلْيَمِينِ وَ عَنِ اَلشِّمٰالِ قَعِيدٌ (۱۷) مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸) وَ جٰاءَتْ سَكْرَةُ اَلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مٰا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلْوَعِيدِ (۲۰) وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ (۲۱) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ اَلْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲۲) وَ قٰالَ قَرِينُهُ هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ (۲۳) أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ عَنِيدٍ (۲۴) مَنّٰاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (۲۵) اَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيٰاهُ فِي اَلْعَذٰابِ اَلشَّدِيدِ (۲۶) قٰالَ قَرِينُهُ رَبَّنٰا مٰا أَطْغَيْتُهُ وَ لٰكِنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ (۲۷) قٰالَ لاٰ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (۲۸) مٰا يُبَدَّلُ اَلْقَوْلُ لَدَيَّ وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۲۹) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ اِمْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۳۰) وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (۳۱) هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّٰابٍ حَفِيظٍ (۳۲) مَنْ خَشِيَ اَلرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (۳۳) اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ (۳۵) وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي اَلْبِلاٰدِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۶) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى اَلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (۳۷) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸)

بیان

الآیه الأولی متممه لما أورده فی الآیات السابقه من الحجه علی علمه و قدرته بما خلق السماء و الأرض و ما فیهما من خلق و دبر ذلک أکمل التدبیر و أتمه و ذلک کله هو الخلق الأول و النشأه الأولی.فتمم ذلک بقوله:« أَ فَعَیِینٰا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ »و استنتج منه أن القادر علی الخلق الأول العالم به قادر علی خلق جدید و نشأه ثانیه و عالم به لأنهما مثلان إذا جاز له خلق أحدهما جاز خلق الآخر و إنما أمره إذا أراد شیئا أن یقول له کن.

ص :۳۴۴

ثم أضرب عنه أنهم فى التباس من خلق جديد مع مماثله الخلقين ثم أشار إلى نشأه الإنسان أول مره و هو يعلم منه حتى خطرات قلبه و عليه رقباؤه يراقبونه أدق المراقبه ثم يجيئه سكره الموت بالحق ثم البعث ثم دخول الجنه أو النار ثم أشار ثانيا إلى ما حل بالقرون الماضيه المكذبه من السخط الإلهى و عذاب الاستئصال و هم أشد بطشا من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازى هؤلاء.

قوله تعالى:« أَ فَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » العى عجز يلحق من تولى الأمر و الكلام كذا،قال الراغب:يقال:أعيانى كذا و عييت بكذا أى عجزت عنه و الخلق الأول خلق هذه النشأه الطبيعيه بنظامها الجارى و منها الإنسان فى حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول فى خلق السماء و الأرض فقط كما مال إليه الرازى فى التفسير الكبير و لا لقصره فى خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم و ذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء و الأرض و الإنسان جميعا كما قال تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» :إبراهيم:۴۸.و الخلق الجديد خلق النشأه الثانيه و هى النشأه الآخره،و الاستفهام للإنكار.

و المعنى:أ عجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟أى لم نعجز عن الخلق الأول و هو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد و هو إعادته.

و لو أخذ العى بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى:هل تعبنا بسبب الخلق الأول حتى يتعذر أو يتعسر علينا الخلق الجديد؟و ذلك كما أن الإنسان و سائر الحيوان إذا أتى بشىء من الفعل و أكثر منه انتهى به إلى التعب البدنى فيكفه ذلك عن الفعل بعد،فما لم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكنه لا يؤتى به لأن الفاعل لا يستطيعه لتعبه و إن كان الفعل جائزا متشابه الأمثال.

و هذا معنى لا بأس به لكن قيل:إن استعمال العى بمعنى العجز أفصح.

على أن سوق الحجه من طريق العجز يفيد استحاله الإتيان و نفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنه يفيد تعسره دون استحاله الإتيان و مراد النافين للمعاد استحالته دون تعسره هذا.

و قوله:« بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » اللبس هو الالتباس،و المراد بالخلق

الجدید تبدیل نشأتهم الدنیا من نشأه أخری ذات نظام آخر وراء النظام الطبیعی الحاکم فی الدنیا فإن فی النشأه الأخری و هی الخلق الجدید بقاء من غیر فناء و حیاه من غیر موت ثم إن کان الإنسان من أهل السعاده فله نعمه من غیر نقمه و إن کان من أهل الشقاء ففی نقمه لا نعمه معها،و النشأه الأولی و هی الخلق الأول و النظام الحاکم فیها علی خلاف ذلک.

و المعنی:إذا کنا خلقنا العالم بسمائه و أرضه و ما فیهما و دبرناه أحسن تدبیر لأول مره بقدرتنا و علمنا و لم نعجز عن ذلک علما و قدره فنحن غیر عاجزین عن تجدید خلقه و هو تبدیله خلقا جدیدا فلا ریب فی قدرتنا و لا التباس بل هم فی التباس لا سبیل لهم مع ذلک إلی الإیمان بخلق جدید.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ »قال الراغب: الوسوسه الخطره الردیئه و أصله من الوسواس و هو صوت الحلی و الهمس الخفی.انتهی.

و المراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقا بعد خلق لا أول تکوینه إنسانا و إن عبر عنه بالماضی إذ قال:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ »إذ الإنسان-و کذا کل مخلوق له حظ من البقاء-کما یحتاج إلی عطیه ربه فی أول وجوده کذلک یحتاج إلیه فی بقائه.

و لما ذکر من النکته عطف قوله:« وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ »و هو فعل مضارع مسوق للدلاله علی الاستمرار علی قوله:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ »و هو فعل ماض لکنه مستمر المعنی،و کذا قوله:« وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ »مفید للثبوت و الدوام و الاستمرار باستمرار وجود الإنسان.

و للآیه اتصال بما تقدم من الاحتجاج علی علمه و قدرته تعالی فی الخلق الأول بقوله:

« أَ فَلَمْ یَنْظُرُوا إِلَی السَّمٰاءِ »و اتصال أیضا بقوله تعالی فی الآیه السابقه:« بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِیدٍ »فهی فی سیاق یذکر قدرته علی الإنسان بخلقه،و علمه به بلا واسطه و بواسطه الملائکه الحفظه الکتبه.

فقوله:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ »-و اللام للقسم-دال علی القدره علیه بإثبات الخلق.

و قوله:« وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ »فی ذکر أخفی أصناف العلم و هو العلم بالخطور النفسانی الخفی إشاره إلی استیعاب العلم له کأنه قیل:و نعلم ظاهره و باطنه حتی ما توسوس به نفسه و مما توسوس به الشبهه فی أمر المعاد:کیف یبعث الإنسان و قد صار بعد الموت ترابا متلاشی الأجزاء غیر متمیز بعضها من بعض.

و قد بان أن«ما»فی« مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ »موصوله و ضمیر« بِهِ »عائد إلیه و الباء للآله أو للسببیه،و نسب الوسوسه إلی النفس دون الشیطان و إن کانت منسوبه إلیه أیضا لأن الکلام فی إحاطه العلم بالإنسان حتی بما فی زوایا نفسه من هاجس و وسوسه.

و قوله:« وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ » الورید عرق متفرق فی البدن فیه مجاری الدم،و قیل:هو العرق الذی فی الحلق،و کیف کان فتسمیته حبلا لتشبیهه به،و إضافه حبل الورید بیانیه.

و المعنی:نحن أقرب إلی الإنسان من حبل وریده المخالط لأعضائه المستقر فی داخل بدنه فکیف لا نعلم به و بما فی نفسه.

و هذا تقریب للمقصود بجمله ساذجه یسهل تلقیها لعامه الأفهام و إلا فأمر قربه تعالی إلیه أعظم من ذلک و أعظم فهو سبحانه الذی جعلها نفسا و رتب علیها آثارها فهو الواسطه بینها و بین نفسها و بینها و بین آثارها و أفعالها فهو أقرب إلی الإنسان من کل أمر مفروض حتی فی نفسه،و لکون هذا المعنی دقیقا یشق تصوره علی أکثر الأفهام عدل سبحانه إلی بیانه بنحو قوله:« وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ »و قریب منه بوجه قوله:« أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ ».

و لهم فی معنی الآیه وجوه کثیره أخر لا جدوی فی نقلها و البحث عنها من أرادها فلیراجع کتبهم.

قوله تعالی:« إِذْ یَتَلَقَّی الْمُتَلَقِّیٰانِ عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِیدٌ » التلقی الأخذ و التلقن،و المراد بالمتلقیان علی ما یفیده السیاق الملکان الموکلان علی الإنسان اللذان یتلقیان عمله فیحفظانه بالکتابه.

و قوله:« عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِیدٌ »تقدیره عن الیمین قعید و عن الشمال قعید،و المراد بالیمین و الشمال یمین الإنسان و شماله،و القعید القاعد.

ص:۳۴۷

و الظرف فی قوله:« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ »الظاهر أنه متعلق بمحذوف و التقدير اذكر إذ يتلقى المتلقيان،و المراد به الإشاره إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكه وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

و قيل:الظرف متعلق بقوله فی الآيه السابقه:« أَقْرَبُ »و المعنى:نحن أقرب إليه من حبل الوريد فی حين يتلقى الملكان الموكلان عليه أعماله ليكتباها.

و لعل الوجه السابق أوفق للسياق فإن بناء هذا الوجه على كون العمده فی الغرض بيان أقربيته تعالى إليه و علمه به و الباقی مقصود لأجله،و ظاهر السياق و خاصه بالنظر إلى الآيه التاليه كون كل من العلم من طريق القرب و من طريق تلقی الملكين مقصودا بالاستقلال.

و قيل:« إِذْ »تعليليه تعلل علمه تعالى المدلول عليه بقوله:« وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ » إلخ،بمفاد مدخولها.

و فيه أن من البعيد من مذاق القرآن أن يستدل على علمه تعالى بعلم الملائكه أو بحفظهم و كتابتهم.

و قوله:« عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ »تمثيل لموقعهما من الإنسان،و اليمين و الشمال جانبا الخير و الشر ينتسب إليهما الحسنه و السيئه.

قوله تعالى:« ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » اللفظ الرمی سمی به التكلم بنوع من التشبيه،و الرقيب المحافظ،و العتيد المعد المهيأ للزوم الأمر.

و الآيه تذكر مراقبه الكتبه للإنسان فيما يتكلم به من كلام،و هی بعد قوله:

« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ »إلخ،من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العنايه به.

قوله تعالى:« وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » الحيد العدول و الميل على سبيل الهرب،و المراد بسكره الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه و ينقطع عن الناس كالسكران الذی لا يدری ما يقول و لا ما يقال له.

و فی تقييد مجیء سكره الموت بالحق إشاره إلى أن الموت داخل فی القضاء الإلهی مراد فی نفسه فی نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» :الأنبياء:۳۵،و قد مر تفسيره فالموت-و هو

الانتقال من هـذه الـدار إلى دار بعدها-حق كما أن البعث حق و الجنه حق و النار حق، و فى معنى كون الموت بالحق أقوال أخر لا جدوى فى نقلها و التعرض لها.

و فى قوله:« ذٰلِكَ مٰا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ »إشاره إلى أن الإنسان يكره الموت بالطبع و ذلك أن الله سبحانه زين الحياه الدنيا و التعلق بزخارفهـا للإنسـان ابتلاء و امتحانا،قال تعالى: «إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى الْأَرْضِ زِينَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَيْهٰا صَعِيداً جُرُزاً» :الكهف:٨.

قوله تعـالى:« وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ »هـذه نقله ثانيه إلى عالم الخلود بنفـخ الصور بعـد النقله الأولى،و المراد بنفخ الصور النفخه الثانيه المقيمه للساعه أو مجموع النفختين بإراده مطلق النفخ.

و المراد بيوم الوعيد يوم القيامه الذى ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده.

قوله تعـالى:« وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ » السـياقه حث الماشـيه على المسـير من خلفها بعكس القياده فهى جلبها من أمامها.

فقـوله:« وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ »أى جـاءت إلى الله و حضـرت عنـده لفصـل القضـاء، و الـدليل عليه قوله تعـالى: «إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسٰاقُ» :القيامه:٣٠.

و المعنى:و حضـرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها و شاهد يشـهد بأعمالها و لم يصرح تعالى بكونهما من الملائكه أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكه، غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكه،و سيجىء الروايات فى ذلك.

و كذا لا تصـريح بكون الشـهاده منحصره فى هذا الشاهد المذكور فى الآيه بل الآيات الوارده فى شهداء يوم القيامه تقضى بعدم الانحصار،و كذا الآيات التاليه الذاكره لاختصام الإنسان و قرينه داله على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق و الشهيد.

قوله تعـالى:« لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »وقوع الآيه فى سـياق آيات القيامه و احتفافها بها يقضى بكونها من خطابات يوم القيامه،و المخاطب بها هو الله سبحانه،و الذى خوطب بها هو الإنسان المذكور

فی قوله:« وَ جٰاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ »و علیه فالخطاب عام متوجه إلی کل إنسان إلا أن التوبیخ و التقریع اللائح من سیاق الآیه ربما استدعی اختصاص الخطاب بمنکری المعاد، أضف إلی ذلک،کون الآیات مسوقه لرد منکری المعاد فی قولهم:« أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ ».

و الإشاره بقوله:« هٰذٰا »إلی ما یشاهده یومئذ و یعاینه من تقطع الأسباب و بوار الأشیاء و رجوع الکل إلی الله الواحد القهار،و قد کان تعلق الإنسان فی الدنیا بالأسباب الظاهریه و رکونه إلیها أغفله عن ذلک حتی إذا کشف الله عنه حجاب الغفله فبدت له حقیقه الأمر فشاهد ذلک مشاهده عیان لا علما فکریا.

و لذا خوطب بقوله:« لَقَدْ کُنْتَ »فی الدنیا« فِی غَفْلَهٍ »أحاطت بک«من هذا»الذی تشاهده و تعاینه و إن کان فی الدنیا نصب عینیک لا یغیب لکن تعلقک بذیل الأسباب أذهلک و أغفلک عنه« فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ »الیوم« فَبَصَرُکَ »و هو البصیره و عین القلب« اَلْیَوْمَ »و هو یوم القیامه« حَدِیدٌ »أی نافذ یبصر ما لم یکن یبصره فی الدنیا.

و یتبین بالآیه أولا:أن معرف یوم القیامه أنه یوم ینکشف فیه غطاء الغفله عن الإنسان فیشاهد حقیقه الأمر،و فی هذا المعنی و ما یقرب منه آیات کثیره کقوله تعالی: «وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ» :الانفطار:۱۹،و قوله: «لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ» :المؤمن:۱۶،إلی غیر ذلک من الآیات.

و ثانیا:أن ما یشاهده الإنسان یوم القیامه موجود مهیأ له و هو فی الدنیا غیر أنه فی غفله منه،و خاصه یوم القیامه أنه یوم انکشاف الغطاء و معاینه ما وراءه،و ذلک لأن الغفله إنما یتصور فیما یکون هناک أمر موجود مغفول عنه،و الغطاء یستلزم أمرا وراءه و هو یغطیه و یستره،و عدم حده البصر إنما ینفع فیما إذا کان هناک مبصر دقیق لا ینفذ فیه البصر.

و من أسخف القول ما قیل:إن الآیه خطاب منه تعالی لنبیه(ص)،و المعنی:

لقد کنت قبل الرساله فی غفله من هذا الذی نوحی إلیک فکشفنا عنک غطاءک فبصرک الیوم حدید یدرک الوحی أو یبصر ملک الوحی فیتلقی الوحی، و ذلک لأن السیاق لا یساعده و لا لفظ الآیه ینطبق علیه.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ قَرِينُهُ هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ »لا يخلو السياق من ظهور فى أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله:« هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ »هذا الإنسان الذى هو عندى حاضر،و إن كان هو الشهيد كان المعنى هذا -و هو يشير إلى أعماله التى حمل الشهاده عليها-ما عندى من أعماله حاضر مهيأ.

و قيل:المراد بالقرين الشيطان الذى يصاحبه و يغويه،و معنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذى توليت أمره و ملكته حاضر مهيأ لدخول جهنم.

قوله تعالى:« أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ عَنِيدٍ مَنّٰاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ » الكفار اسم مبالغه من الكفر،و العنيد المعاند للحق المستمر على عناده،و المعتدى المتجاوز عن الحد المتخطئ للحق،و المريب الشاك أو المشكك فى أمر البعث.

و بين هذه الصفات المعدوده شبه الاستلزام فإن كثره الكفر برد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق و الإصرار عليه،و الإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا فى الحق و من ناحيته،و هو يستلزم الخروج عن حد الحق إلى الباطل و تجاوز الإنسان عن حد العبوديه إلى الاستكبار و الطغيان و يستلزم تشكيك الناس فى ما يرومونه من دين الحق.

و الخطاب فى الآيه منه تعالى،و ظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق و الشهيد،و احتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكه النار و خزنتها.

قوله تعالى:« اَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيٰاهُ فِي الْعَذٰابِ الشَّدِيدِ »العدول فى ذكر صفه الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل:مشرك و قال:« اَلَّذِي جَعَلَ »إلخ،للإشاره إلى أن هذه الصفه أعظم المعاصى و أم الجرائم التى أتى بها و الصفات الرذيله التى عدت له من الكفر و العناد و منع الخير و الاعتداء و الإرابه.

و قوله:« فَأَلْقِيٰاهُ فِي الْعَذٰابِ الشَّدِيدِ »تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله:« أَلْقِيٰا » إلخ،و يلوح إلى تشديد الأمر من جهه الشرك،و لذا عقبه بقوله:« فِي الْعَذٰابِ الشَّدِيدِ ».

قوله تعالى:« قٰالَ قَرِينُهُ رَبَّنٰا مٰا أَطْغَيْتُهُ وَ لٰكِنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ »المراد بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شك،و قد تكرر فى كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان

و هو الذی یلازم الإنسان و یوحی إلیه ما یوحی من الغوایه و الضـلال،قال تعالی: «وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتّی إِذا جاءَنا قالَ یا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ» :الزخرف:۳۸.

فقوله:« قالَ قَرِینُهُ »أی شیطانه الـذی یصاحبه و یغویه« رَبَّنا »أضـاف الرب إلی نفسه و الإنسـان الـذی هو قرینه لأنهمـا فی مقـام الاختصام« ما أَطْغَیْتُهُ »أی ما أجبرته علی الطغیان« وَ لکِنْ کانَ فِی ضَلالٍ بَعِیدٍ »أی متهیئا مستعدا لقبول ما ألقیته إلیه تلقاه باختیاره فما أنا بمسئولین عن ذنبه فی طغیانه.

و قد تقدم فی سوره الصافات تفصیل اختصام الظالمین و أزواجهم فی قوله:

«احْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ» :الصافات:۲۲،إلی آخر الآیات.

قوله تعـالی:« قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَیَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ »القائـل هو الله سـبحانه یخـاطبهم و کـأنه خطاب واحـد لعامه المشرکین الطاغین و قرنائهم ینحل إلی خطابات جزئیه لکل إنسان و قرینه بمثل قولنا:لا تختصما لدی،إلخ.

و قوله:« وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ »حال من فاعل« لا تَخْتَصِمُوا »و« بِالْوَعِیدِ » مفعول« قَدَّمْتُ »و الباء للوصله.

و المعنی:لا تختصـموا لدی فلا نفع لکم فیه بعد ما أبلغتکم وعیدی لمن أشرک و ظلم،و الوعید الذی قدمه إلیهم مثل قوله تعالی لإبلیس: «اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُکُمْ جَزاءً مَوْفُوراً» :إسـراء:۶۳،و قوله: «فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ» :ـص:۸۵.أو قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِینَ» :السجده:۱۳.

قوله تعالی:« ما یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ وَ ما أَنَا بِظَلاّمٍ لِلْعَبِیدِ »الذی یعطیه السـیاق أن تکون الآیه استئنافا بمنزله الجواب عن سؤال مقدر کـان قائلا یقول:هب أنـک قـد قـدمت فهلا غیرته و عفوت؟فأجیب بقوله:« ما یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ »و المراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الـذی قضـی به الله،و قـد قضـی لمن مات علی الکفر بـدخول جهنم و ینطبق بحسب المورد علی الوعید الذی أوعده الله لإبلیس و من تبعه.

فقد بان أن الجمله مستأنفه،و المراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم،و« لَدَيَّ » متعلق بالتبديل،هذا ما يعطيه السياق،و قد ذكر بعضهم فی هذه الجمله و إعراب مفرداتها و معنی تبدیل القول وجوها و احتمالات كثيره بعيده عن الفهم لا تزيد فی الكلام إلا تعقيدا فأغمضنا عن إيرادها.

و قوله:« وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ »متمم لمعنى الجمله السابقه أی لا يبدل قولی فأنتم معذبون لا محاله و لست أظلم عبيدی فی عذابهم علی طبق ما قدمت إليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلک بعد إتمام الحجه.

و من وجه آخر:لا ظلم فی مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التی قدموها فی أعمالهم ردت إليهم كما هو ظاهر قوله تعالی: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» :التحريم:٧.

و ما فی قوله:« وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ »من نفی الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالی لو ظلم فی شیء من الجزاء كان ظلما كثيرا لكثره أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرک ظالم مع قرينه،و هم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم فی شیء من الجزاء لكان ظلاما.

قوله تعالی:« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ »خطاب منه تعالی لجهنم و جواب منها،و قد اختلف فی حقيقه هذا التكليم و التكلم فقيل:الخطاب و الجواب بلسان الحال و يرده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالی بل كان لكل من يشاهدها علی تلک الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها:هل من مزيد؟فليس لتخصيص الخطاب به تعالی نكته ظاهره.

و قيل:حقيقه الخطاب لخزنه جهنم و الجواب منهم و إن كانا نسبا إلی جهنم و فيه أنه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل.

و قيل:الخطاب و الجواب علی ظاهره،و لا دليل يدل علی عدم الجواز،و قد أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدی و الأرجل و الجلود و غيرها،و هو الوجه و قد تقدم فی تفسير سوره فصلت أن العلم و الشعور سار فی جميع الموجودات.

و قوله:« هَلِ امْتَلَأْتِ »استفهام تقریری،و کذا قوله حکایه عنها:« هَلْ مِنْ مَزِیدٍ »و لعل إیراد هذا السؤال و الجواب للإشاره إلی أن قهره و عذابه لا یقصر عن الإحاطه بالمجرمین و إیفاء ما یستحقونه من الجزاء قال تعالی: «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکافِرِینَ» :التوبه:۴۹.

و استشکل بأنه مناف لصریح قوله تعالی:« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ »الآیه و أجیب بأن الامتلاء قد یراد به أنه لا یخلو شیء من طبقاتها من السکنه کما یقال:البلد ممتلئ بأهله.

علی أنه یمکن أن یکون هذا القول منها قبل دخول جمیع أهل النار فیها.

و قیل:الاستفهام فی قوله:« هَلْ مِنْ مَزِیدٍ »للإنکار و المعنی:لا مزید أی لا مکان فی یزید علی من ألقی فی من المجرمین فقد امتلأت فیکون إشاره إلی ما قضی به فی قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِینَ» :السجده:۱۳،و قوله:« هَلِ امْتَلَأْتِ »فی معنی أن یقال:« حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ »،و قوله:« هَلْ مِنْ مَزِیدٍ »تقریر و تصدیق له.

و ربما أید هذا الوجه قوله تعالی قبل:« ما یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ »علی تقدیر أن یراد بالقول قوله تعالی:« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِینَ ».

قوله تعالی:« وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِینَ غَیْرَ بَعِیدٍ »شروع فی وصف حال المتقین یوم القیامه،و الإزلاف التقریب،و« غَیْرَ بَعِیدٍ »علی ما قیل صفه لظرف محذوف و التقدیر فی مکان غیر بعید.

و المعنی:و قربت الجنه یومئذ للمتقین حال کونها فی مکان غیر بعید أی هی بین أیدیهم لا تکلف لهم فی دخولها.

قوله تعالی:« هذا ما تُوعَدُونَ لِکُلِّ أَوّابٍ حَفِیظٍ »الإشاره إلی ما تقدم من الثواب الموعود،و الأواب من الأوب بمعنی الرجوع،و المراد کثره الرجوع إلی الله بالتوبه و الطاعه،و الحفیظ هو الذی یدوم علی حفظ ما عهد الله إلیه من أن یترک فیضیع، و قوله:« لِکُلِّ أَوّابٍ حَفِیظٍ »خبر بعد خبر لهذا أو حال.

قوله تعالی:« مَنْ خَشِیَ الرَّحْمنَ بِالْغَیْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِیبٍ »بیان لکل أواب و الخشیه بالغیب الخوف من عذاب الله حال کونه غائبا غیر مرئی له،و الإنابه هو

الرجوع،و المجیء إلی ربه بقلب منیب أن یتم عمره بالإنابه فیأتی ربه بقلب متلبس بالإنابه.

قوله تعالی:« اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ ذٰلِکَ یَوْمُ الْخُلُودِ »خطاب للمتقین أی یقال لهم:

ادخلوا بسلام أی بسلامه و أمن من کل مکروه و سوء،أو بسلام من الله و ملائکته علیکم،و قوله:« ذٰلِکَ یَوْمُ الْخُلُودِ » بشری یبشرون بها.

قوله تعالی:« لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ »یمکن أن یکون« فِیهٰا »متعلقا بیشاءون أو بمحذوف هو حال من الموصول،و التقدیر:حال کون ما یشاءون فیها أو من الضمیر المحذوف الراجع إلی الموصول،و التقدیر:ما یشاءونه حال کونه فیها،و الأول أوفق لسعه کرامتهم عند الله سبحانه.

و المحصل:أن أهل الجنه و هم فی الجنه یملکون کل ما تعلقت به مشیتهم و إرادتهم کائنا ما کان من غیر تقیید و استثناء فلهم کلما أمکن أن یتعلق به الإراده و المشیه لو تعلقت.

و قوله:« وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ »أی و لهم عندنا ما یزید علی ذلک-علی ما یفیده السیاق-و إذ کان لهم کل ما أمکن أن تتعلق به مشیتهم مما یتعلق به علمهم من المطالب و المقاصد فالمزید علی ذلک أمر أعظم مما تتعلق به مشیتهم لکونه فوق ما یتعلق به علمهم من الکمال.

و قیل:المراد بالمزید الزیاده علی ما یشاءون من جنس ما یشتهون فإذا شاءوا رزقا أعطوا منه أکثر مما شاءوا و أفضل و أعجب کما ورد عن بعضهم أنه تمر بهم السحابه فتقول:ما ذا تریدون فأمطره علیکم فلا یریدون شیئا إلا أمطرته علیهم.

و فیه أنه تقیید لإطلاق الکلام من غیر مقید فإن ظاهر قوله:« لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا »إنهم یملکون کل ما یمکنهم أن یشاءوا لا تملکهم ما شاءوه بالفعل فالمزید وراء ما یمکن أن تتعلق به مشیتهم.

و قیل:المراد أنه یضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها و فیه ما فی سابقه.

قوله تعالی:« وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِی الْبِلاٰدِ هَلْ مِنْ مَحِیصٍ » التنقیب السیر، المحیص المحید و المنجا.

و فی الآیه تـذییل الاحتجاج بخلق الإنسان و العلم به و بیان سـیره إلی الله بالتخویف و الإنذار نظیر ما جری علیه الکلام فی صدر السوره من الاحتجاج علی المعاد و تذییله بالتخویف و الإنذار فی قوله:« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ »إلخ.

و المعنی:و کثیرا مـا أهلکنـا قبـل هؤلاـء المشـرکین من قرن هم أی أهـل ذلـک القرن أشـد بطشا منهم أی من هؤلاء المشـرکین فساروا ببطشهم فی البلاد ففتحوها و تحکموا علیها هل من محید و منجا من إهلاک الله و عذابه؟.

قوله تعالی:« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ » القلب ما یعقل به الإنسان فیمیز الحق من الباطل و الخیر من الشـر و النـافع من الضـار، فإذا لم یعقل و لم یمیز فوجوده بمنزله عـدمه إذ ما لا أثر له فوجوده و عـدمه سواء، و إلقاء السمع هو الاستماع کأن السمع شیء یلقی إلی المسموع فیناله و یدرکه و الشهید الحاضر المشاهد.

و المعنی:أن فیما أخبرنا به من الحقائق و أشـرنا إلیه من قصـص الأمم الهالکه لـذکری یتذکر بها من کان یتعقل فیدرک الحق و یختار ما فیه خیره و نفعه أو استمع إلی حق القول و لم یشتغل عنه بغیره و الحال أنه شاهد حاضر یعی ما یسمعه.

و التردید بین من کان له قلب و من اسـتمع شـهیدا لمکان أن المؤمن بالحق أحد رجلین إما رجل ذو عقل یمکنه أن یتناول الحق فیتفکر فیه و یری مـا هو الحق فیـذعن به،و إمـا رجل لا یقوی علی التفکر حتی یمیز الحق و الخیر و النافع فعلیه أن یسـتمع القول فیتبعه،و أما من لا قلب له یعقل به و لا یسمع شهیدا علی ما یقال له و یلقی إلیه من الرساله و الإنذار فجاهل متعنت لا قلب له و لا سمع،قال تعالی: «وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ» :الملک:۱۰.

قوله تعـالی:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » اللغوب التعب و النصب،و المعنی ظاهر.

بحث روائی

فی التوحید،بإسناده إلی عمرو بن شمر عن جابر بن یزید قال*: سألت أبا جعفر

(ع)عن قول الله عز و جل:« أَ فَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » قال:يا جابر تأويل ذلك أن الله عز و جل-إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم-و سكن أهل الجنه الجنه و أهل النار النار-جدد الله عالما غير هذا العالم-و جدد خلقا من غير فحوله و لا إناث يعبدونه و يوحدونه-و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم،و سماء غير هذه السماء تظلهم.

لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد-أو ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم- بلى و الله لقد خلق ألف ألف عالم و ألف ألف آدم-أنت فى آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين.:

أقول:و روى فى الخصال،الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم عنه(ع)

،و لعل المراد بكون ما ذكر تأويل الآيه أنه مما ينطبق عليه.

و عن جوامع الجامع،عن النبى ص*: كاتب الحسنات على يمين الرجل-و كاتب السيئات على شماله،و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال:فإذا عمل حسنه كتبها صاحب اليمين عشرا-و إذا عمل سيئه قال صاحب اليمين لصاحب الشمال:دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر.

أقول:و فى معناها روايات أخرى،و روى ست ساعات بدل سبع ساعات.

و فى نهج البلاغه،: « وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ »سائق يسوقها إلى محشرها و شاهد يشهد عليها بعملها.

و فى المجمع،و روى أبو القاسم الحسكانى بالإسناد عن الأعمش قال*:حدثنا أبو المتوكل التاجر عن أبى السعيد الخدرى قال:قال رسول الله ص: إذا كان يوم القيامه يقول الله لى و لعلى:ألقيا فى النار من أبغضكما،و أدخلا فى الجنه من أحبكما و ذلك قوله:« أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ عَنِيدٍ ».:

أقول:و رواه شيخ الطائفه فى أماليه، بإسناده عن أبى سعيد الخدرى عنه(ص).

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت و ابن أبى حاتم و أبو نعيم فى الحليه،عن جابر بن عبد الله قال*:سمعت رسول الله ص يقول: إن ابن آدم لفى غفله عما خلق له-إن الله إذا أراد خلقه قال للملك:اكتب رزقه.اكتب أثره.اكتب

أجله شقيا أم سعيدا-ثم يرتفع ذلك الملك و يبعث الله ملكا-فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك.

ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته و سيئاته-فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان-و جاء ملك الموت ليقبض روحه-فإذا أدخل قبره رد الروح فی جسده-و جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان.

فإذا قامت الساعه انحط عليه ملك الحسنات-و ملك السيئات-فبسطا كتابا معقودا فی عنقه-ثم حضرا معه واحد سائق و آخر شهيد.ثم قال رسول الله ص:

إن قدامكم لأمرا عظيما-لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم.

و فی تفسير القمی،":فی قوله تعالی:« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ-وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ »قال:هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها-فتمتلئ النار ثم يقول لها: هَلِ امْتَلَأْتِ ؟و تقول: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟علی حد الاستفهام أی ليس فی مزيد.

أقول:بناؤه علی كون الاستفهام إنكاريا.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقی فی الأسماء و الصفات عن أنس قال*:قال رسول الله ص: لا تزال جهنم يلقی فيها و تقول:هل من مزيد؟حتی تضع رب العزه فيها قدمه-فينزوی بعضها إلی بعض و تقول:قط قط و عزتك و كرمك.

و لا يزال فی الجنه فضل-حتی ينشئ الله لها خلقا آخر-فيسكنهم فی قصور الجنه.

أقول:وضع القدم علی النار و قولها:قط قط مروی فی روايات كثيره من طرق أهل السنه.

و فی تفسير القمی،":فی قوله تعالی:« لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ »قال:

النظر إلی رحمه الله.

و فی الدر المنثور،أخرج البزاز و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه و اللالكائی فی السنه و البيهقی فی البعث و النشور عن أنس "*فی قوله تعالی:« وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ »قال:

يتجلی لهم الرب عز و جل.

و فی الکافی،بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحکم قال*:قال لی أبو الحسن موسی بن جعفر(ع): یا هشام إن الله یقول فی کتابه:« إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَذِکْریٰ لِمَنْ کٰانَ لَهُ قَلْبٌ »یعنی عقل.

و فی الدر المنثور،أخرج الخطیب فی تاریخه،عن العوام بن حوشب قال"*:سألت أبا مجلز عن الرجل یجلس-فیضع إحدی رجلیه علی الأخری-فقال:لا بأس به إنما کره ذلک الیهود-زعموا أن الله خلق السماوات و الأرض فی سته أیام-ثم استراح یوم السبت فجلس تلک الجلسه-فأنزل الله« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ-وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ ».

أقول:و روی هذا المعنی عن الضحاک و قتاده،و روی هذا المعنی المفید فی روضه الواعظین،فی روایه ضعیفه،و أصل تقسیم خلق الأشیاء إلی سته من أیام الأسبوع واقع فی التوراه،و القرآن و إن کرر ذکر خلق الأشیاء فی سته أیام لکنه لم یذکر کون هذه الأیام هی أیام الأسبوع و لا لوح إلیه.

و علی هذه الروایات اعتمد من قال:إن الآیه مدنیه،و لا دلاله فی ردها قول الیهود أن تکون نازله بالمدینه،و فی الآیات المکیه ما تعرض سبحانه فیه لشأن الیهود کما فی سوره الأعراف و غیرها.

[سوره ق (۵۰): الآیات ۳۹ الی ۴۵]

اشاره

فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ اَلشَّمْسِ وَ قَبْلَ اَلْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اَللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبٰارَ اَلسُّجُودِ (۴۰) وَ اِسْتَمِعْ یَوْمَ یُنٰادِ اَلْمُنٰادِ مِنْ مَکٰانٍ قَرِیبٍ (۴۱) یَوْمَ یَسْمَعُونَ اَلصَّیْحَهَ بِالْحَقِّ ذٰلِکَ یَوْمُ اَلْخُرُوجِ (۴۲) إِنّٰا نَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ إِلَیْنَا اَلْمَصِیرُ (۴۳) یَوْمَ تَشَقَّقُ اَلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرٰاعاً ذٰلِکَ حَشْرٌ عَلَیْنٰا یَسِیرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا یَقُولُونَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِجَبّٰارٍ فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخٰافُ وَعِیدِ (۴۵)

بیان

خاتمه السوره یأمر النبی ص فیها أن یصبر علی ما یقولون مما یرمونه بنحو السحر و الجنون و الشعر،و ما یتعنتون به باستهزاء المعاد و الرجوع إلی الله تعالی فیأمره (ص)بالصبر و أن یعبد ربه بتسبیحه و أن یتوقع البعث بانتظار الصیحه،و أن یذکر بالقرآن من یخاف الله بالغیب.

قوله تعالی:« فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ »تفریع علی جمیع ما تقدم من إنکار المشرکین للبعث،و من تفصیل القول فی البعث و الحجه علیه،و من وعید المنکرین له المکذبین للنبی ص و تهدیدهم بمثل ما جری علی المکذبین من الأمم الماضیه.

و قوله:« وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ »إلخ،أمر بتنزیهه تعالی عما یقولون مصاحبا للحمد و محصله إثبات جمیل الفعل له و نفی کل نقص و شین عنه تعالی،و التسبیح قبل طلوع الشمس یقبل الانطباق علی صلاه الصبح،و التسبیح قبل الغروب یقبل الانطباق علی صلاه العصر أو علیها و علی صلاه الظهر.

قوله تعالی:« وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبٰارَ السُّجُودِ »أی و من اللیل فسبحه فیه، و یقبل الانطباق علی صلاتی المغرب و العشاء.

و قوله:« وَ أَدْبٰارَ السُّجُودِ » الأدبار جمع دبر و هو ما ینتهی إلیه الشیء و بعده، و کان المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الرکعه من الصلاه فینطبق علی التعقیب بعد الصلوات، و قیل:المراد به النوافل بعد الفرائض،و قیل:المراد به الرکعتان أو الرکعات بعد المغرب و قیل:رکعه الوتر فی آخر اللیل.

قوله تعالی:« وَ اسْتَمِعْ یَوْمَ یُنٰادِ الْمُنٰادِ مِنْ مَکٰانٍ قَرِیبٍ »فسروا الاستماع بمعان مختلفه و الأقرب أن یکون مضمنا معنی الانتظار و« یَوْمَ یُنٰادِ الْمُنٰادِ »مفعوله و المعنی:

و انتظر یوما ینادی فیه المنادی ملقیا سمعک لاستماع ندائه،و المراد بنداء المنادی نفخ صاحب الصور فی الصور علی ما تفیده الآیه التالیه.

و کون النداء من مکان قریب لإحاطته بهم فیقع فی سمعهم علی نسبه سواء لا تختلف بالقرب و البعد فإنما هو نداء البعث و کلمه الحیاه.

قوله تعالی:« یَوْمَ یَسْمَعُونَ الصَّیْحَهَ بِالْحَقِّ ذٰلِکَ یَوْمُ الْخُرُوجِ »بیان لیوم ینادی المنادی،و کون الصیحه بالحق لأنها مقضیه قضاء محتوما کما مر فی قوله:« وَ جٰاءَتْ سَکْرَهُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ »الآیه.

و قوله:« ذٰلِکَ یَوْمُ الْخُرُوجِ »أی یوم الخروج من القبور کما قال تعالی: «یَوْمَ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً» :المعارج:۴۳.

قوله تعالی:« إِنّٰا نَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ إِلَیْنَا الْمَصِیرُ »المراد بالإحیاء إفاضه الحیاه علی الأجساد المیته فی الدنیا،و بالإماته الإماته فی الدنیا و هی النقل إلی عالم القبر، و بقوله:« وَ إِلَیْنَا الْمَصِیرُ »الإحیاء بالبعث فی الآخره علی ما یفیده السیاق.

قوله تعالی:« یَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرٰاعاً ذٰلِکَ حَشْرٌ عَلَیْنٰا یَسِیرٌ »أصل « تَشَقَّقُ »تتشقق أی تتصدع عنهم فیخرجون منها مسارعین إلی الداعی.

و قوله:« ذٰلِکَ حَشْرٌ عَلَیْنٰا یَسِیرٌ »أی ما ذکرنا من خروجهم من القبور المنشقه عنهم سراعا جمع لهم علینا یسیر.

قوله تعالی:« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا یَقُولُونَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِجَبّٰارٍ فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخٰافُ وَعِیدِ »فی مقام التعلیل لقوله:« فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ »الآیه،و الجبار المتسلط الذی یجبر الناس علی ما یرید.

و المعنی:فاصبر علی ما یقولون و سبح بحمد ربک و انتظر البعث فنحن أعلم بما یقولون سنجزیهم بما عملوا و لست أنت بمتسلط جبار علیهم حتی تجبرهم علی ما تدعوهم إلیه من الإیمان بالله و الیوم الآخر و إذا کانت حالهم هذه الحال فذکر بالقرآن من یخاف وعیدی.

بحث روائی

فی الدر المنثور،أخرج الطبرانی فی الأوسط،و ابن عساکر عن جریر بن عبد الله عن النبی ص: فی قوله:« وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ-قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ »قبل طلوع الشمس صلاه الصبح،و قبل الغروب صلاه العصر.

و فی المجمع،روی عن أبی عبد الله(ع) *أنه سئل عن قوله:« وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ- قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ »فقال:تقول حین تصبح و حین تمسی عشر مرات:

لا إله إلا الله وحده لا شریک له-له الملک و له الحمد و هو علی کل شیء قدیر.

أقول:هو مأخوذ من إطلاق التسبیح فی الآیه و إن کان خصوص مورده صلاتی الصبح و العصر فلا منافاه.

و فی الکافی،بإسناده عن حریز عن زراره عن أبی جعفر(ع)قال*: قلت:

« وَ أَدْبٰارَ السُّجُودِ »قال:رکعات بعد المغرب.:

أقول:و رواه القمی فی تفسیره،بإسناده عن ابن أبی نصر عن الرضا(ع) و لفظه قال:أربع رکعات بعد المغرب .

و فی الدر المنثور،أخرج مسدد فی مسنده،و ابن المنذر و ابن مردویه عن علی بن أبی طالب قال*: سألت رسول الله ص عن أدبار النجوم و السجود-فقال:أدبار السجود الرکعتان بعد المغرب،و أدبار النجوم الرکعتان قبل الغداه.:

أقول:و روی مثله عن ابن عباس و عمر عنه(ص)،و أسنده فی مجمع البیان،إلی الحسن بن علی(ع)أیضا عن النبی ص .

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخٰافُ وَعِیدِ »قال:

ذکر یا محمد ما وعدناه من العذاب.

ص: ۳۶۲

(۵۱) سوره الذاريات مکيه و هی ستون آيه(۶۰)

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الی ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

وَ اَلذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً (۱) فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً (۲) فَالْجٰارِيٰاتِ يُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً (۴) إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ (۵) وَ إِنَّ اَلدِّينَ لَوٰاقِعٌ
(۶) وَ اَلسَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قُتِلَ اَلْخَرّٰاصُونَ (۱۰) اَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ
سٰاهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ اَلدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى اَلنّٰارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا اَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴) إِنَّ
اَلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كٰانُوا قَلِيلاً مِنَ اَللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ (۱۷)
وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ اَلْمَحْرُومِ (۱۹)

بيان

كانت الـدعوه النبويه تدعو الوثنيه إلی توحيد الربوبيه و إن الله تعالی هو ربهم و رب كل شـیء،و كانت الدعوه من طريق الإنذار و التبشير و خاصه بالإنذار و كان

الإنـذار بعـذاب الله فی الـدنیا للمکذبین عذاب الاستئصال،و فی الآخره بالعذاب الخالد یوم القیامه و هو العمده فی نجاح الدعوه إذ لو لا الحساب و الجزاء یوم القیامه کان الإیمان بالوحدانیه و النبوه لغی لا أثر له.

و المشـرکون باتخـاذهم آلهه دون الله سـبحانه شـددوا الإنکـار لأصول التوحیـد و النبوه و المعاد،و کانوا یتعنتون بإنکار المعاد و الإصرار علی نفیه و الاستهزاء به من أی طریق ممکن لما یرون أن فی بطلانه بطلان الأصلین الآخرین.

و السوره تـذکر المعاد و إنکارهم له فتبدأ به و تختم علیه لکن لا من حیث نفسه کما جری علیه الکلام فی مواضع من کلامه بل من حیث إنه یوم الجزاء و إن الله الذی وعدهم به هو ربهم و هو الذی وعدهم به و وعده صدق لا ریب فیه.

و لذلک لما انساق الکلام إلی الاحتجاج علیه احتجت بأدله التوحید من آیات الأرض و السماء و الأنفس و ما عاقب الله به الأمم الماضـین إثر دعوتهم إلی التوحیـد و تکـذیبهم لرسـله،و لیس إلا لیثبت بها التوحیـد فیثبت به یوم الجزاء الـذی وعده الله و الله لا یخلف المیعاد و أخبرت به الـدعوه النبویه فینـدفع بـذلک إنکارهم للجزاء و قـد توسـلوا بـذلک إلی إبطال دین التوحید و رساله الرسول لصیروره الإیمان به لغوا لا أثر له کما تقدمت الإشاره إلیه.

و السوره مکیه لشـهاده سیاق آیاتها علیه و لم یختلف فی ذلک أحد،و من غرر آیاتها قوله تعالی:« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ ».

و الفصل الـذی أوردناه من الآیات مفتتـح الکلام یـذکر فیه أن الجزاء الذی وعدوه صدق و إنکارهم له و تعنتهم بذلک تخرص ثم یصف یوم الجزاء و حال المتقین و المنکرین فیه.

قوله تعالی:« وَ الـذّٰارِیٰاتِ ذَرْواً فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً فَالْجٰارِیٰاتِ یُسْـراً فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً » الـذاریات جمع الـذاریه من قولهم:ذرت الریح التراب تذروه ذروا إذا أطارته و الوقر بالکسر فالسکون ثقل الحمل فی الظهر أو فی البطن.

و فی الآیات إقسام بعـد إقسام یفیـد التأکیـد بعـد التأکیـد للمقسم علیه و هو الجزاء علی الأعمال فقوله:« وَ الذّٰارِیٰاتِ ذَرْواً »إقسام بالریاح المثیره للتراب،و قوله:

فَالْحَامِلاٰتِ وِقْراً

»بالفاء المفيده للتأخير و الترتيب معطوف على الذاريات و إقسام بالسحب الحامله لثقل الماء،و قوله:« فَالْجَارِيٰاتِ يُسْراً »عطف عليه و إقسام بالسفن الجاريه فى البحار بيسر و سهوله.

و قوله:« فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً »عطف على ما سبقه و إقسام بالملائكه الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذى العرش بالخلق و التدبير واحد فإذا حمله طائفه من الملائكه على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر و تقسم بتقسمهم ثم إذا حمله طائفه هى دون الطائفه الأولى تقسم ثانيا بتقسمهم و هكذا حتى ينتهى إلى الملائكه المباشرين للحوادث الكونيه الجزئيه فينقسم بانقسامها و يتكثر بتكثرها.

و الآيات الأربع-كما ترى-تشير إلى عامه التدبير حيث ذكرت أنموذجا مما يدبر به الأمر فى البر و هو الذاريات ذروا،و أنموذجا مما يدبر به الأمر فى البحر و هو الجاريات يسرا و أنموذجا مما يدبر به الأمر فى الجو و هو الحاملات وقرا،و تمم الجميع بالملائكه الذين هم وسائط التدبير و هم المقسمات أمرا.

فالآيات فى معنى أن يقال:أقسم بعامه الأسباب التى يتمم بها أمر التدبير فى العالم أن كذا كذا،و قد ورد من طرق الخاصه و العامه عن على عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم.

و عن الفخر الرازى فى التفسير الكبير،أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعا على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذروا تحمل السحب الثقال و تجرى فى الجو بيسر و تقسم السحب على الأقطار من الأرض.

و الحق أن ما استقربه بعيد،و ما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره.

قوله تعالى:« إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ وَ إِنَّ الدِّينَ لَوٰاقِعٌ »«ما»موصوله، و الضمير العائد إليها محذوف أى الذين توعدونه،أو مصدريه،و« تُوعَدُونَ »من الوعد كما يؤيده قوله:« وَ إِنَّ الدِّينَ لَوٰاقِعٌ »الشامل لمطلق الجزاء،و قيل:من الإيعاد كما يؤيده قوله: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخٰافُ وَعِيدِ» :ق-۴۵.

وعد الوعد صادقا من المجاز فى النسبه كما فى قوله: «فِي عِيشَةٍ رٰاضِيَةٍ» :الحاقه:

۲۱ أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله فى قوله:« فِي عِيشَةٍ رٰاضِيَةٍ »و الدين الجزاء.

و كيف كان فقوله:« إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ »جواب القسم،و قوله:« وَ إِنَّ الدِّينَ لَوٰاقِعٌ »معطوف عليه بمنزله التفسير،و المعنى أقسم بكذا و كذا أن الذى توعدونه-و هو الذى يعدهم القرآن أو النبى ص بما أنزل إليه-من يوم البعث و أن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا لصادق،و إن الجزاء لواقع.

قوله تعالى:« وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ الْحُبُكِ » الحبك بمعنى الحسن و الزينه،و بمعنى الخلق المستوى،و يأتى جمعا لحبيكه أو حباك بمعنى الطريقه كالطرائق التى تظهر على الماء إذا تثنى و تكسر من مرور الرياح عليه.

و المعنى على الأول:أقسم بالسماء ذات الحسن و الزينه نظير قوله تعالى: «إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ» :الصافات:۶،و على الثانى:أقسم بالسماء ذات الخلق المستوى نظير قوله: «وَ السَّمٰاءَ بَنَيْنٰاهٰا بِأَيْدٍ» :الآيه ۴۷ من السوره و على الثالث أقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰائِقَ» المؤمنون:۱۷.

و لعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذى هو اختلاف الناس و التشتت طرائقهم كما أن الأقسام السابقه:« وَ الذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً »إلخ كانت مشتركه فى معنى الجرى و السير مناسبه لجوابها:« إِنَّمٰا تُوعَدُونَ »إلخ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله و السير إليه.

قوله تعالى:« إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ »القول المختلف ما يتناقض و يدفع بعضه بعضا و حيث إن الكلام فى إثبات صدق القرآن أو الدعوه أو النبى ص فيما وعدهم من أمر البعث و الجزاء فالمراد بالقول المختلف-على الأقرب- قولهم المختلف فى أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتاره يقولون:إنه سحر و الجائى به ساحر،و تاره يقولون:زجر و الجائى به مجنون،و تاره يقولون:إلقاء شياطين الجن و الجائى به كاهن،و تاره يقولون:شعر و الجائى به شاعر،و تاره أنه افتراء، و تاره يقولون إنما يعلمه بشر،و تاره يقولون:أساطير الأولين اكتتبها.

و قوله:« يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » الإفك الصرف،و ضمير« عَنْهُ »إلى الكتاب

من حيث اشتماله على وعد البعث و الجزاء،و المعنى:يصرف عن القرآن من صرف،و قيل:الضمير للنبى ص و المعنى:يصرف عن الإيمان به من صرف،و قد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق و إن كان مآل المعنيين واحدا.

و حكى عن بعضهم أن ضمير« عَنْهُ »لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولا بالذاريات و غيرها على أن البعث و الجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه فمنهم شاك و منهم جاحد ثم قال تعالى:يؤفك عن الإقرار بأمر البعث و الجزاء من هو مأفوك.و هذا الوجه قريب من الوجه السابق.

و عن بعضهم:أن الضمير لقول مختلف و«عن»للتعليل كما فى قوله تعالى: «وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِكِي آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِكَ» :هود:۵۳ فيكون الجمله صفه لقول و المعنى:أنكم لفى قول مختلف يؤفك بسببه من أفك،و هو وجه حسن.

و قيل:الضمير فى« إِنَّكُمْ »للمسلم و الكافر جميعا فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث و الجزاء و قول الكفار بعدم الوقوع.و لعل السياق لا يلائمه و قيل:بعض وجوه أخر رديئه لا جدوى فى التعرض له.

قوله تعالى:« قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سٰاهُونَ يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ الدِّينِ » أصل الخرص القول بالظن و التخمين من غير علم،و لكون القول بغير علم فى خطر من الكذب يسمى الكذاب خراصا،و الأشبه أن يكون المراد بالخراصين فى الآيه القوالين من غير علم و دليل و هم الخائضون فى أمر البعث و الجزاء المنكرون له بغير علم.

و فى قوله:« قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ »دعاء عليهم بالقتل و هو كنايه عن نوع من الطرد و الحرمان من الفلاح و إليه يئول قول من فسره باللعن.

و قوله:« اَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سٰاهُونَ » الغمره -كما ذكر الراغب-معظم الماء الساتر لمقرها،و جعل مثلا للجهاله التى تغمر صاحبها،و المراد بالسهو-كما قيل- مطلق الغفله.

و معنى الآيه و هى تصف الخراصين:الذين هم فى جهاله أحاطت بهم غافلون عن حقيقه ما أخبروا به.

و قوله:« يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ الدِّينِ »ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم: «مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» :يس-۴۸.

و السؤال بأيـان-الموضوعه للسؤال عن زمان مـدخولها-عن يوم الـدين و هو ظاهر فى الزمان إنما هو بعنايه أن يوم الـدين لكونه موعودا ملحق بالزمانيـات فيسأل عنه كمـا يسأل عن الزمانيات بأيان و متى كما يقال:متى يوم العيـد لكونه ذا شأن ملحقا لـذلك بالزمانيات كذا قيل.

و يمكن أن يكون من التوسع فى معنى الظرفيه بـأن يعـد أوصـاف الظرف الخاصه به ظرفا توسـعا فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالا عن أنه بعد أى زمان أو قبل أى زمان؟كما يقال:متى يوم العيد؟فيجاب بأنه بعد عشره أيام مثلا أو قبل يوم كذا،و هو توسع جار فى العرف غير مختص بكلام العرب،و فى القرآن منه شىء كثير.

قوله تعالى:« يَوْمَ هُمْ عَلَى النّٰارِ يُفْتَنُونَ »ضـمير الجمع للخراصـين،و الفتن فى الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم اسـتعمل فى مطلق الإـحراق و التعـذيب،و الظرف متعلق بفعـل محـذوف أو مبتـدأ،و الآـيه جواب عن سؤالهم عـدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته و الإشاره إلى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله قال تعالى:« لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ ».

و تقدير الآيه و معناها:يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أى الخراصون فى النار يعذبون أو يحرقون.

قوله تعالى:« ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ »حكايه خطاب منه تعالى أو من الملائكه بأمره للخراصـين و هم يفتنون على النار يومئذ.

و المعنى:يقال لهم ذوقوا العذاب الذى يخصكم.هذا العذاب هو الذى كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالا و استهزاء:أيان يوم الدين.

قوله تعالى:« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ »بيان لحال المتقين يوم الدين بعد وصف حال أولئك الخراصين.

و تنكير جنـات و عيون للإشاره إلى عظم قـدرها كأنها بحيث لا يقـدر الواصـفون على وصـفها،و قـد ألحقت العيون بالجنات فى ظرفيتها توسعا.

قوله تعالى:« آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ »أى قابلين ما

أعطاهم ربهم الرءوف بهم راضين عنه و بما أعطاهم كما يفيده خصوص التعبير بالأخذ و الإيتاء و نسبه الإيتاء إلى ربهم.

و قوله:« إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ »تعليل لما تقدمه أى إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أى فى الدنيا ذوى إحسان فى أعمالهم أى ذوى أعمال حسنه.

قوله تعالى:« كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ »الآيات تفسير لإحسانهم،و الهجوع النوم فى الليل و قيل:النوم القليل.

و يمكن أن تكون:ما زائده و« يَهْجَعُونَ »خبر كانوا،و« قَلِيلاً »ظرفا متعلقا به أى فى زمان قليل أو صفه لمفعول مطلق محذوف أى هجوعا قليلا و« مِنَ اللَّيْلِ » متعلقا بقليلا و المعنى:كانوا ينامون فى زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوما قليلا.

و أن تكون موصوله و الضمير العائد إليها محذوفا و« قَلِيلاً »خبر كانوا و الموصول فاعله و المعنى:كانوا قليلا من الليل الذى يهجعون فيه.

و أن تكون مصدريه و المصدر المسبوك منها و من مدخولها فاعلا لقوله:« قَلِيلاً » و هو خبر« كانُوا ».

و على أى حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليله فيفيد أنهم يهجعون كل ليله زمانا قليلا منها و يصلون أكثرها،و إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالى فيفيد أنهم يهجعون فى قليل من الليالى و يقومون للصلاه فى أكثرها أى لا يفوتهم صلاه الليل إلا فى قليل من الليالى.

قوله تعالى:« وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »أى يسألون الله المغفره لذنوبهم، و قيل:المراد بالاستغفار الصلاه و هو كما ترى.

قوله تعالى:« وَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ الْمَحْرُومِ »الآيتان السابقتان تبينان خاصه سيرتهم فى جنب الله سبحانه و هى قيام الليل و الاستغفار بالأسحار و هذه الآيه تبين خاصه سيرتهم فى جنب الناس و هى إيتاء السائل و المحروم.

و تخصيص حق السائل و المحروم بأنه فى أموالهم-مع أنه لو ثبت فإنما يثبت فى كل مال-دليل على أن المراد أنهم يرون بصفاء فطرتهم أن فى أموالهم حقا لهما فيعملون بما يعملون نشرا للرحمه و إيثارا للحسنه.

ص :۳۶۹

و السائل هو الذی یسأل العطیه بإظهار الفاقه و المحروم هو الذی حرم الرزق فلم ینجح سعیه فی طلبه و لا یسأل تعففا.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،حدثنی أبی عن ابن أبی عمیر عن جمیل عن أبی عبد الله(ع) *فی قوله تعالی:« وَ الذّارِیاتِ ذَرْواً »فقال:إن ابن الکوا سأل أمیر المؤمنین(ع)-عن « اَلذّارِیاتِ ذَرْواً »قال:الریح،و عن« فَالْحامِلاتِ وِقْراً »فقال:هی السحاب، و عن« فَالْجارِیاتِ یُسْراً »فقال:هی السفن،و عن« فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً »فقال:الملائکه.

أقول:و الحدیث مروی من طرق أهل السنه أیضا کما فی روح المعانی.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و الفاریابی و سعید بن منصور و الحارث بن أبی أسامه و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن الأنباری فی المصاحف،و الحاکم و صححه و البیهقی فی شعب الإیمان،من طرق عن علی بن أبی طالب *فی قوله:« وَ الذّارِیاتِ ذَرْواً »قال:الریاح« فَالْحامِلاتِ وِقْراً »قال:السحاب« فَالْجارِیاتِ یُسْراً »قال:

السفن« فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً »قال:الملائکه.

و فی المجمع،قال أبو جعفر و أبو عبد الله(ع): لا یجوز لأحد أن یقسم إلا بالله تعالی،و الله یقسم بما شاء من خلقه.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن منیع عن علی بن أبی طالب *أنه سئل عن قوله:

« وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُکِ »قال:ذات الخلق الحسن:.

أقول:و روی مثله فی المجمع،و لفظه:و قیل:ذات الحسن و الزینه:عن علی(ع) و فی جوامع الجامع،و لفظه:و عن علی(ع): حسنها و زینتها.

و فی بعض الأخبار:فی قوله تعالی:« إِنَّکُمْ لَفِی قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ- یُؤْفَکُ عَنْهُ مَنْ أُفِکَ » تطبیقه علی الولایه.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« کانُوا قَلِیلاً مِنَ اللَّیْلِ ما یَهْجَعُونَ »و قیل معناه:کانوا أقل لیله تمر بهم إلا صلوا فیها: و هو المروی عن أبی عبد الله(ع) .

و فيه، في قوله تعالى:« وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »و قال أبو عبد الله(ع):

كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مره في السحر.

و في الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن أنس قال*:قال رسول الله ص: إن آخر الليل في التهجد أحب إلي من أوله-لأن الله يقول:« وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ».

و فيه،أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي ص *في قوله:« وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »قال:يصلون.

أقول:لعل تفسير الاستغفار بالصلاه من جهه اشتمال الوتر عليه كإراده الصلاه من القرآن في قوله: «وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كٰانَ مَشْهُوداً» :إسراء:۷۸.

و في تفسير القمي،":في قوله تعالى:« وَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ الْمَحْرُومِ »قال:

السائل الذي يسأل،و المحروم الذي قد منع كده.

و في التهذيب،بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله(ع) *في الآيه قال:

المحروم المحارف-الذي قد حرم كد يده في الشراء و البيع.

قال:و في روايه أخرى عن أبي جعفر و أبي عبد الله(ع)قال: المحروم الرجل ليس بعقله بأس-و لا يبسط له في الرزق و هو محارف.

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۲۰ الى ۵۱]

اشاره

وَ فِي اَلْأَرْضِ آيٰاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (۲۰) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِي اَلسَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳) هَلْ أَتٰاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرٰاهِيمَ اَلْمُكْرَمِينَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۲۵) فَرٰاغَ إِلىٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قٰالَ أَ لاٰ تَأْكُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلاٰمٍ عَلِيمٍ (۲۸) فَأَقْبَلَتِ اِمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهٰا وَ قٰالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (۲۹) قٰالُوا كَذٰلِكَ قٰالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ اَلْحَكِيمُ اَلْعَلِيمُ (۳۰) قٰالَ فَمٰا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا اَلْمُرْسَلُونَ (۳۱) قٰالُوا إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنٰا مَنْ كٰانَ فِيهٰا مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۳۵) فَمٰا وَجَدْنٰا فِيهٰا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنٰا فِيهٰا آيَةً لِلَّذِينَ يَخٰافُونَ اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ (۳۷) وَ فِي مُوسىٰ إِذْ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۳۸) فَتَوَلّٰى بِرُكْنِهِ وَ قٰالَ سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِي اَلْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴۰) وَ فِي عٰادٍ إِذْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ اَلرِّيحَ اَلْعَقِيمَ (۴۱) مٰا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاّٰ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲) وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّٰى حِينٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ اَلصّٰاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اِسْتَطٰاعُوا مِنْ قِيٰامٍ وَ مٰا كٰانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِينَ (۴۶) وَ اَلسَّمٰاءَ بَنَيْنٰاهٰا

بِأَیْدٍ وَ إِنّٰا لَمُوسِعُونَ (۴۷) وَ اَلْأَرْضَ فَرَشْنٰاهٰا فَنِعْمَ اَلْمٰاهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَی
اَللّٰهِ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۰) وَ لاٰ تَجْعَلُوا مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۱)

ص :۳۷۱

بیان

تشیر الآیات إلی عده من آیات الله الداله علی وحدانیته فی الربوبیه و رجوع أمر التدبیر فی الأرض و السماء و الناس و أرزاقهم إلیه،و لازمه إمکان نزول الدین الإلهی من طریق الرساله بل وجوبه،و لازمه صدق الدعوه النبویه فیما تضمنته من وعد البعث و الجزاء و إن ما یوعدون لصادق و إن الدین لواقع، و قد مرت إشاره إلی خصوصیه سلوک السوره فی احتجاجها فی البیان السابق.

قوله تعالی:« وَ فِی الْأَرْضِ آیٰاتٌ لِلْمُوقِنِینَ »الاستنتاج الآتی فی آخر هذه الآیات فی قوله:« فَفِرُّوا إِلَی اللّٰهِ -إلی أن قال- وَ لاٰ تَجْعَلُوا مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ »الآیه،یشهد علی أن سوق هذه الآیات و الدلائل لإثبات وحدانیته تعالی فی الربوبیه لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إلیه و نحو ذلک.

و فی الآیه إشاره إلی ما تتضمنه الأرض من عجائب الآیات الداله علی وحده التدبیر القائمه بوحدانیه مدبره من بر و بحر و جبال و تلال و عیون و أنهار و معادن و منافعها المتصله بعضها ببعض الملاءمه بعضها لبعض ینتفع بها ما علیها من النبات و الحیوان فی نظام واحد مستمر من غیر اتفاق و صدفه،لائح علیها آثار القدره و العلم و الحکم دال علی أن خلقها و تدبیر أمرها ینتهی إلی خالق مدبر قادر علیم حکیم.

فأی جانب قصد من جوانبها و أیه وجهه ولیت من جهات التدبیر العام الجاری فیها کانت آیه بینه و برهانا ساطعا علی وحدانیه ربها لا شریک له ینجلی فیه الحق لأهل الیقین ففیها آیات للموقنین.

قوله تعالی:« وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ »معطوف علی قوله:« فِی الْأَرْضِ » أی و فی أنفسکم آیات ظاهره لمن أبصر إلیها و رکز النظر فیها أ فلا تبصرون.

ص:۳۷۳

و الآیات التی فی النفوس منها ما هی فی ترکب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتی ینتهی إلی البسائط و ما لها من عجائب الأفعال و الآثار المتحده فی عین تکثرها المدبره جمیعا لمدبر واحد،و ما یعرضها من مختلف الأحوال کالجنینیه و الطفولیه و الرهاق و الشباب و الشیب.

و منها ما هی من حیث تعلق النفوس أعنی الأرواح بها کالحواس من البصر و السمع و الذوق و الشم و اللمس التی هی الطرق الأولیه لاطلاع النفوس علی الخارج لتمیز بذلک الخیر من الشر و النافع من الضار لتسعی إلی ما فیه کمالها و تهرب مما لا یلائمها،و فی کل منها نظام وسیع جار فیه منفصل بذاته عن غیره کالبصر لا خبر عنده عما یعمله السمع بنظامه الجاری فیه و هکذا،و الجمیع مع هذا الانفصال و التقطع مؤتلفه تعمل تحت تدبیر مدبر واحد هو النفس المدبره و الله من ورائهم محیط.

و من هذا القبیل سائر القوی المنبعثه عن النفوس فی الأبدان کالقوه الغضبیه و القوه الشهویه و ما لها من اللواحق و الفروع فإنها علی ما للواحد منها بالنسبه إلی غیره من البینونه و انفصال النظام الجاری فیه عن غیره واقعه تحت تدبیر مدبر واحد تتعاضد جمیع شعبها و تأتلف لخدمته.

و نظام التدبیر الذی لکل من هذه المدبرات إنما وجد له حینما وجد و أول ما ظهر من غیر فصل فلیس مما عملت فیه خیرته و أوجده هو لنفسه عن فکر و رویه أو بغیره فنظام تدبیره کنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبیره.

و منها الآیات الروحانیه الواقعه فی عالم النفوس الظاهره لمن رجع إلیها و راقب الله سبحانه فیها من آیات الله التی لا یسعها وصف الواصفین و ینفتح بها باب الیقین و تدرج المتطلع علیها فی زمره الموقنین فیری ملکوت السماوات و الأرض کما قال تعالی:

«وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ» :الأنعام:۷۵.

قوله تعالی:« وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ »قیل:المراد بالسماء جهه العلو فإن کل ما علاک و أظلک فهو سماء لغه،و المراد بالرزق المطر الذی ینزله الله علی الأرض فیخرج به أنواع ما یقتاتونه و یلبسونه و ینتفعون به و قد قال تعالی: «وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا» :الجاثیه:۵،فسمی المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدیر مضاف أی سبب رزقکم.

و قیل:المراد أسباب الرزق السماویه من الشمس و القمر و الکواکب و اختلاف المطالع و المغارب الراسمه للفصول الأربعه و توالی اللیل و النهار و هی جمیعا أسباب الرزق فالکلام علی تقدیر مضاف أی أسباب رزقکم أو فیه تجوز بدعوی أن وجود الأسباب فیها وجود ذوات الأسباب.

و قیل:المراد بکون الرزق فیها کون تقدیره فیها،أو أن الأرزاق مکتوبه فی اللوح المحفوظ فیها.

و یمکن أن یکون المراد به عالم الغیب فإن الأشیاء و منها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه و قد صرح بذلک فی أشیاء کقوله تعالی: «وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ» :الزمر:۶،و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ» :الحدید:۲۵،و قوله علی نحو العموم: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر:

۲۱،و المراد بالرزق کل ما ینتفع به الإنسان فی بقائه من مأکل و مشرب و ملبس و مسکن و منکح و ولد و علم و قوه و غیر ذلک.

و قوله: «وَ مٰا تُوعَدُونَ »عطف علی« رِزْقُکُمْ» الظاهر أن المراد به الجنه لقوله تعالی: «عِنْدَهٰا جَنَّهُ الْمَأْویٰ» :النجم:۱۵،و قول بعضهم:إن المراد به الجنه و النار أو الثواب و العقاب لا یلائمه قوله تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ اسْتَکْبَرُوا عَنْهٰا لاٰ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوٰابُ السَّمٰاءِ وَ لاٰ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ حَتّٰی یَلِجَ الْجَمَلُ فِی سَمِّ الْخِیٰاطِ» الأعراف:۴۰.

نعم تکرر فی القرآن نسبه نزول العذاب الدنیوی إلی السماء کقوله: «فَأَنْزَلْنٰا عَلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ» :البقره:۵۹،و غیر ذلک.

و عن بعضهم أن قوله:« وَ مٰا تُوعَدُونَ » مبتدأ خبره قوله:« فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ »و الواو للاستئناف و هو معنی بعید عن الفهم.

قوله تعالی:« فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ » النطق التکلم و ضمیر« إِنَّهُ »راجع إلی ما ذکر من کون الرزق و ما توعدون فی السماء و الحق هو الثابت المحتوم فی القضاء الإلهی دون أن یکون أمرا تبعیا أو اتفاقیا.

و المعنی:أقسم برب السماء و الأرض أن ما ذکرناه من کون رزقکم و ما توعدونه من الجنه-و هو أیضا من الرزق فقد تکرر فی القرآن تسمیه الجنه رزقا کقوله: «لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» :الأنفال:۷۴،و غیر ذلک-فی السماء لثابت مقضی مثل نطقکم و تکلمکم الذی هو حق لا ترتابون فیه.

و جوز بعضهم أن یکون ضمیر« إِنَّهُ »راجعا إلی« مٰا تُوعَدُونَ »فقط أو إلی الرزق فقط أو إلی الله أو إلی النبی ص أو إلی القرآن أو إلی الدین فی قوله:« وَ إِنَّ الدِّینَ لَوٰاقِعٌ »أو إلی الیوم فی قوله:« أَیّٰانَ یَوْمُ الدِّینِ »أو إلی جمیع ما تقدم من أول السوره إلی هاهنا،و لعل الأوجه رجوعه إلی ما ذکر فی قوله:« وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ »کما قدمنا.

کلام فی تکافؤ الرزق و المرزوق

الرزق بمعنی ما یرتزق به هو ما یمد شیئا آخر فی بقائه بانضمامه إلیه أو لحوقه به بأی معنی کان کالغذاء الذی یمد الإنسان فی حیاته و بقائه بصیرورته جزء من بدنه و کالزوج یمد زوجه فی إرضاء غریزته و بقاء نسله و علی هذا القیاس.

و من البین:أن الأشیاء المادیه یرتزق بعضها ببعض کالإنسان بالحیوان و النبات مثلا-فما یلحق المرزوق فی بقائه من أطوار الکینونه و مختلف الأحوال کما أنها أطوار من الکون لاحقه به منسوبه إلیه کذلک هی بعینها أطوار من الکون لاحقه بالرزق منسوبه إلیه و إن کان ربما تغیرت الأسماء فکما أن الإنسان یصیر بالتغذی ذا أجزاء جدیده فی بدنه کذلک الغذاء یصیر جزءا جدیدا من بدنه اسمه کذا.

و من البین أیضا:أن القضاء محیط بالکون مستوعب للأشیاء یتعین به ما یجری علی کل شیء فی نفسه و أطوار وجوده،و بعباره أخری سلسله الحوادث بما لها من النظام الجاری مؤلفه من علل تامه و معلولات ضروریه.

و من هنا یظهر أن الرزق و المرزوق متلازمان لا یتفارقان فلا معنی لموجود یطرأ علیه طور جدید فی وجوده بانضمام شیء أو لحوقه إلا مع وجود الشیء المنضم أو اللاحق المشترک معه فی طوره ذلک فلا معنی لمرزوق مستمد فی بقائه و لا رزق له،و لا معنی لرزق متحقق و لا مرزوق له کما لا معنی لزیاده الرزق علی ما یحتاج إلیه المرزوق،و کذا

لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل فی القضاء الإلهی دخولا أولیا لا بالعرض و لا بالتبع و هو المعنی بکون الرزق حقا.

[بیان]

قوله تعالی:« هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْرٰاهِیمَ الْمُکْرَمِینَ »إشاره إلی قصه دخول الملائکه المکرمین علی إبراهیم(ع)و تبشیرهم له و لزوجه ثم إهلاکهم قوم لوط، و فیها آیه علی وحدانیه الربوبیه کما تقدمت الإشاره إلیه.

و فی قوله:« هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ »تفخیم لأمر القصه و« اَلْمُکْرَمِینَ »-و هم الملائکه الداخلون علی إبراهیم-صفه« ضَیْفِ »و إفراده لکونه فی الأصل مصدرا لا یثنی و لا یجمع.

قوله تعالی:« إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ »الظرف متعلق بقوله فی الآیه السابقه:« حَدِیثُ »و« سَلاٰماً »مقول القول و العامل فیه محذوف أی قالوا:نسلم علیک سلاما.

و قوله:« قٰالَ سَلاٰمٌ »قول و مقول و« سَلاٰمٌ »مبتدأ محذوف الخبر و التقدیر سلام علیکم،و فی إتیانه بالجواب جمله اسمیه داله علی الثبوت تحیه منه(ع)بما هو أحسن من تحیتهم بقولهم:سلاما فإنه جمله فعلیه داله علی الحدوث.

و قوله:« قَوْمٌ مُنْکَرُونَ »الظاهر أنه حکایه قول إبراهیم فی نفسه،و معناه أنه لما رآهم استنکرهم و حدث نفسه أن هؤلاء قوم منکرون،و لا ینافی ذلک ما وقع فی قوله تعالی: «فَلَمّٰا رَأیٰ أَیْدِیَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ» :هود:۷۰ حیث ذکر نکره بعد تقریب العجل الحنیذ إلیهم فإن ما فی هذه السوره حدیث نفسه به و ما فی سوره هود ظهوره فی وجهه بحیث یشاهد منه ذلک.

و هذا المعنی أوجه من قول جمع من المفسرین:إنه حکایه قوله(ع)لهم و التقدیر أنتم قوم منکرون.

قوله تعالی:« فَرٰاغَ إِلیٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ » الروغ الذهاب علی سبیل

الاحتيال على ما قاله الراغب و قال غيره:هو الذهاب إلى الشىء فى خفيه،و المعنى الأول يرجع إلى الثانى.

و المراد بالعجل السمين المشوى منه بدليل قوله:« فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ »أو الفاء فصيحه و التقدير فجاء بعجل سمين فذبحه و شواه و قربه إليهم.

قوله تعالى:« فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قٰالَ أَ لاٰ تَأْكُلُونَ »عرض الأكل على الملائكه و هو يحسبهم بشرا.

قوله تعالى:« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إلخ»الفاء فصيحه و التقدير فلم يمدوا إليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم و أوجس منهم خيفه،و الإيجاس الإحساس فى الضمير و الخيفه بناء نوع من الخوف أى أضمر منهم فى نفسه نوعا من الخوف.

و قوله:« قٰالُوا لاٰ تَخَفْ »جىء بالفصل لا بالعطف لأنه فى معنى جواب سؤال مقدر كأنه قيل:فما ذا كان بعد إيجاس الخيفه فقيل:قالوا:لا تخف و بشروه بغلام عليم فبدلوا خوفه أمنه و سرورا و المراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق و قد تقدم الخلاف فيه.

قوله تعالى:« فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهٰا وَ قٰالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » فى المجمع، الصره شده الصياح و هو من صرير الباب و يقال للجماعه صره أيضا.قال:

و الصك الضرب باعتماد شديد انتهى.

و المعنى فأقبلت امرأه إبراهيم(ع)-لما سمعت البشاره-فى ضجه و صياح فلطمت وجهها و قالت:أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاما؟ و قيل:المراد بالصره الجماعه و أنها جاءت إليهم فى جماعه فصكت وجهها و قالت ما قالت،و المعنى الأول أوفق للسياق.

قوله تعالى:« قٰالُوا كَذٰلِكِ قٰالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ »الإشاره بكذلك إلى ما بشروها به بما لها و لزوجها من حاضر الوضع هى عجوز عقيم و بعلها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد ما يريد إلا بحكمه،عليم لا يخفى عليه وجه الأمر.

قوله تعالى:« قٰالَ فَمٰا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ -إلى قوله- لِلْمُسْرِفِينَ » الخطب

الأمر الخطير الهام،و الحجاره من الطين الطين المتحجر،و التسويم تعليم الشیء بمعنی جعله ذا علامه من السومه بمعنی العلامه.

و المعنی:« قَالَ إبراهيم(ع)« فَمَا خَطْبُكُمْ »و الشأن الخطير الـذی لكم «أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ »من الملائكه« قَالُوا »أی الملائكه لإبراهيم« إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ » و هم قوم لوط« لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ »طينا متحجرا سـماه الله سـجيلا« مُسَوَّمَةً » معلمه« عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ »تختص بهم لإهلاكهم،و الظاهر أن اللام فی المسرفين للعهد.

قوله تعـالی:« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »-إلی قوله- اَلْعَذَابَ الْأَلِيمَ » الفاء فصيحه و قـد أوجز بحـذف ما فی القصه من ذهاب الملائكه إلی لوط و ورودهم عليه و هم القوم بهم حتی إذا أخرجوا آل لوط من القريه،و قد فصلـت القصه فی غير موضع من كلامه تعالی.

فقوله:« فَأَخْرَجْنَا »إلخ بيان إهلاكهم بمقدمته،و ضـمير« فِيهَا »للقريه المفهومه من السياق،و« بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »بيت لوط،و قوله:« وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً »إشاره إلی إهلاكهم و جعل أرضـهم عاليها سافلها،و المراد بالترک الإبقاء كنايه و قـد بينت هذه الخصوصـيات فی سائر كلامه تعالی.

و المعنی:فلمـا ذهبوا إلی لوط و كان من أمرهم ما كان« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا » فی القريه« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ »واحـد« مِنَ الْمُسْلِمِينَ »و هم آل لوط « وَ تَرَكْنَا فِيهَا »فی أرضـهم بقلبها و إهلاكهم« آيَةً »داله علی ربوبيتنا و بطلان الشـركاء « لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »من الناس.

قوله تعالی:« وَ فِی مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »عطف علی قوله:« وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً »و التقدير و فی موسـی آيه،و المراد بسلطان مبين الحجج الباهره التی كانت معه من الآيات المعجزه.

قوله تعـالی:« فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » التولی الإعراض و الباء فی قوله:« بِرُكْنِهِ »للمصاحبه،و المراد بركنه جنوده كما يؤيده الآيه التاليه،و المعنی:

أعرض مع جنوده،و قيل:الباء للتعديه،و المعنی:جعل ركنه متولين معرضين.

و قوله:« وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ »أی قال تاره هو مجنون كقوله: «إِنَّ رَسُولَكُمُ

الَّذِی أَرْسِلَ إِلَیْکُمْ لَمَجْنُونٌ» :الشعراء:۲۷،و قال أخری:هو ساحر کقوله: «إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ» :الشعراء:۳۴.

قوله تعالی:« فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِی الْیَمِّ وَ هُوَ مُلِیمٌ » النبذ طرح الشیء من غیر أن یعتد به،و الیم البحر،و الملیم الآتی بما یلام علیه من ألام بمعنی أتی بما یلام علیه کأغرب إذا أتی بأمر غریب.

و المعنی:فأخذناه و جنوده و هم رکنه و طرحناهم فی البحر و الحال أنه أتی من الکفر و الجحود و الطغیان بما یلام علیه،و إنما خص فرعون بالملامه مع أن الجمیع یشارکونه فیها لأنه إمامهم الذی قادهم إلی الهلاک،قال تعالی: «یَقْدُمُ قَوْمَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ» :هود:۹۸.

و فی الکلام من الإیماء إلی عظمه القدره و هول الأخذ و هو أن أمر فرعون و جنوده ما لا یخفی.

قوله تعالی:« وَ فِی عٰادٍ إِذْ أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمُ الرِّیحَ الْعَقِیمَ »عطف علی ما تقدمه أی و فی عاد أیضا آیه إذ أرسلنا علیهم أی أطلقنا علیهم الریح العقیم.

و الریح العقیم هی الریح التی عقمت و امتنعت من أن یأتی بفائده مطلوبه من فوائد الریاح کتنشئه سحاب أو تلقیح شجر أو تذریه طعام أو نفع حیوان أو تصفیه هواء کما قیل و إنما أثرها الإهلاک کما تشیر إلیه الآیه التالیه.

قوله تعالی:« مٰا تَذَرُ مِنْ شَیْءٍ أَتَتْ عَلَیْهِ إِلاّٰ جَعَلَتْهُ کَالرَّمِیمِ »« مٰا تَذَرُ »أی ما تترک،و الرمیم الشیء الهالک البالی کالعظم البالی السحیق،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی:« وَ فِی ثَمُودَ إِذْ قِیلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّٰی حِینٍ -إلی قوله- مُنْتَصِرِینَ » عطف علی ما تقدمه أی و فی ثمود أیضا آیه إذ قیل لهم:تمتعوا حتی حین،و القائل نبیهم صالح(ع)إذ قال لهم: «تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ» هود:۶۵ قال لهم ذلک لما عقروا الناقه فأمهلهم ثلاثه أیام لیرجعوا فیها عن کفرهم و عتوهم لکن لم ینفعهم ذلک و حق علیهم کلمه العذاب.

و قوله:« فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَهُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ » العتو -علی ما ذکره الراغب-النبوء عن الطاعه فینطبق علی التمرد،و المراد بهذا العتو العتو عن

الأمر و الرجوع إلى الله أيام المهله فلا يستشكل بأن عتوهم عن أمر الله كان مقدما على تمتعهم-كما يظهر من تفصيل القصه-و الآيه تدل على العكس.

و قوله:« فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ »هذا لا ينافى ما فى موضع آخر من ذكر الصيحه بدل الصاعقه كقوله: «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ» :هود:۶۷ لجواز تحققهما معا فى عذابهم.

و قوله:« فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ »لا يبعد أن يكون « اِسْتَطاعُوا »مضمنا معنى تمكنوا،و« مِنْ قِيامٍ »مفعوله أى ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله و هو كنايه عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم.

و قوله:« وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ »عطف على« فَمَا اسْتَطاعُوا »أى ما كانوا منتصرين بنصره غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم،و محصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم و لا بناصر ينصرهم.

قوله تعالى:« وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ »عطف على القصص السابقه،و« قَوْمَ نُوحٍ »منصوب بفعل محذوف و التقدير و أهلكنا قوم نوح من قبل عاد و ثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله.

فهناك أمر و نهى كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه و هو ربهم و رب كل شىء دعاهم إلى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء(ع)حق من عند الله و مما جاءوا به الوعد بالبعث و الجزاء.

قوله تعالى:« وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ »رجوع إلى السياق السابق فى قوله:« وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ »إلخ، و الأيد القدره و النعمه،و على كل من المعنيين يتعين لقوله:« وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ »ما يناسبه من المعنى.

فالمعنى على الأول:و السماء بنيناها بقدره لا يوصف قدرها و إنا لذووا سعه فى القدره لا يعجزها شىء،و على الثانى:و السماء بنيناها مقارنا بناؤها لنعمه لا تقدر بقدر و إنا لذووا سعه و غنى لا تنفد خزائننا بالإعطاء و الرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء.

و من المحتمل أن يكون«موسعون»من أوسع فى النفقه أى كثرها فيكون المراد توسعه خلق السماء كما تميل إليه الأبحاث الرياضيه اليوم.

قوله تعالى:« وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ » الفرش البسط و كذا المهد أى و الأرض بسطناها و سطحناها لتستقروا عليها و تسكنوها فنعم الباسطون نحن،و هذا الفرش و البسط لا ينافى كرويه الأرض.

قوله تعالى:« وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » الزوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر:فاعل و منفعل كالذكر و الأنثى،و قيل:المراد مطلق المتقابلات كالذكر و الأنثى و السماء و الأرض و الليل و النهار و البر و البحر و الإنس و الجن و قيل:

الذكر و الأنثى.

و قوله:« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »أى تتذكرون أن خالقها منزه عن الزوج و الشريك واحد موحد.

قوله تعالى:« فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »فى الآيتين تفريع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته فى الربوبيه و الألوهيه،و فيها قصص عده من الأمم الماضين كفروا بالله و رسله فانتهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال.

فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع إليه من الكفر و العقاب الذى يستتبعه،بالإيمان به تعالى وحده و اتخاذه إلها معبودا لا شريك له.

و قوله:« وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ »كالتفسير لقوله:« فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ »أى المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له فى الألوهيه و المعبوديه.

و قد كرر قوله:« إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »لتأكيد الإنذار،و الآيتان محكيتان عن لسان النبى ص.

بحث روائى

فى تفسير القمى،":فى قوله تعالى:« وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ »قال:خلقك

سمیعا بصیرا،تغضب مره و ترضی مره،و تجوع مره و تشبع مره،و ذلک کله من آیات الله.

أقول:و نسبه فی المجمع إلی الصادق(ع).

و فی التوحید،بإسناده إلی هشام بن سالم قال: سئل أبو عبد الله(ع)فقیل له:

بما عرفت ربک؟قال:بفسخ العزم و نقض الهم،عزمت ففسخ عزمی،و هممت فنقض همی:.

أقول:و رواه فی الخصال،عنه عن أبیه عن جده عن أمیر المؤمنین(ع) .

و فی الدر المنثور،أخرج الخرائطی فی مساوی الأخلاق عن علی بن أبی طالب * « وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ »قال:سبیل الغائط و البول.

أقول:الروایه کالروایتین السابقتین مسوقه لبیان بعض المصادیق من طرق المعرفه.

و فیه،أخرج ابن النقور و الدیلمی عن علی عن النبی ص *فی قوله:« وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ »قال:المطر:.

أقول:و روی نحوا منه القمی فی تفسیره،مرسلا و مضمرا.

و فی إرشاد المفید،عن علی(ع)فی حدیث: اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه.

و فی التوحید،بإسناده إلی أبی البختری قال:حدثنی جعفر بن محمد عن أبیه عن جده عن علی بن أبی طالب(ع)عن النبی ص أنه قال*: یا علی:إن الیقین أن لا ترضی أحدا علی سخط الله،و لا تحمدن أحدا علی ما آتاک الله،و لا تذمن أحدا علی ما لم یؤتک الله-فإن الرزق لا یجره حرص حریص،و لا یصرفه کره کاره. الحدیث.

و فی المجمع،: « فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّهٍ »و قیل:فی جماعه. عن الصادق(ع) .

و فی الدر المنثور،أخرج الفاریابی و ابن المنذر عن علی بن أبی طالب قال*: الریح العقیم النکباء.

و فی التوحید،بإسناده إلی محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر(ع)فقلت:

قول الله عز و جل« یٰا إِبْلِیسُ مٰا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ »؟فقال:الید فی کلام العرب القوه و النعمه،قال الله:« وَ اذْکُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا الْأَیْدِ »،و قال:« وَ السَّمٰاءَ

بَنَيْناها بِأَيْدٍ

»أی بقوه،و قال:« وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ »أی بقوه،و یقال:لفلان عندی ید بیضاء أی نعمه.

و فی التوحید،بإسناده إلی أبی الحسن الرضا(ع)خطبه طویله و فیها: بتشعیره المشاعر عرف أن لا مشعر له،و بتجهیره الجواهر عرف أن لا جوهر له،و بمضادته بین الأشیاء عرف أن لا ضد له،و بمقارنته بین الأشیاء عرف أن لا قرین له،ضاد النور بالظلمه،و الیبس بالبلل،و الخشن باللین،و الصرد بالحرور،مؤلفا بین متعادیاتها، مفرقا بین متدانیاتها،داله بتفریقها علی مفرقها،و بتألیفها علی مؤلفها و ذلک قوله:

« مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ».

ففرق بین قبل و بعد-لیعلم أن لا قبل له و لا بعد له،شاهده بغرائزها أن لا غریزه لمغرزها،مخبره بتوقیتها أن لا وقت لموقتها،حجب بعضها عن بعض-لیعلم أن لا حجاب بینه و بین خلقه.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« فَفِرُّوا إِلَى اللّٰهِ »و قیل:معناه حجوا. عن الصادق(ع):.

أقول:و رواه فی الکافی،و فی المعانی،بالإسناد عن أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): .

و لعله من التطبیق.

[سوره الذاریات (۵۱): الآیات ۵۲ الی ۶۰]

اشاره

كَذٰلِكَ مٰا أَتَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَوٰاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ اَلذِّكْرىٰ تَنْفَعُ اَلْمُؤْمِنِينَ (۵۵) وَ مٰا خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) مٰا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلرَّزّٰاقُ ذُو اَلْقُوَّةِ اَلْمَتِينُ (۵۸) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحٰابِهِمْ فَلاٰ يَسْتَعْجِلُونِ (۵۹) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ اَلَّذِي يُوعَدُونَ (۶۰)

بیان

مختتم السوره و فیه إرجاع الکلام إلی ما فی مفتتحها من إنکارهم للبعث الموعود و مقابلتهم الرساله بقول مختلف ثم إیعادهم بالیوم الموعود.

قوله تعالی:« کَذٰلِکَ مٰا أَتَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ »أی الأمر کذلک،فقوله:« کَذٰلِکَ »کالتلخیص لما تقدم من إنکارهم و اختلافهم فی القول.

و قوله:« مٰا أَتَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ »إلخ،بیان للمشبه.

قوله تعالی:« أَ تَوٰاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ » التواصی إیصاء القوم بعضهم بعضا بأمر،و ضمیر« بِهِ »للقول،و الاستفهام للتعجیب،و المعنی:هل وصی بعض هذه الأمم بعضا-هل السابق وصی اللاحق؟-علی هذا القول؟لا بل هم قوم طاغون یدعوهم إلی هذا القول طغیانهم.

قوله تعالی:« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ »تفریع علی طغیانهم و استکبارهم و إصرارهم علی العناد و اللجاج،فالمعنی:فإذا کان کذلک و لم یجیبوک إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون و لم یزدهم دعوتک إلا عنادا فأعرض عنهم و لا تجادلهم علی الحق فما أنت بملوم فقد أریت المحجه و أتممت الحجه.

قوله تعالی:« وَ ذَکِّرْ فَإِنَّ الذِّکْریٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِینَ »تفریع علی الأمر بالتولی عنهم فهو أمر بالتذکیر بعد النهی عن الجدال معهم،و المعنی:و استمر علی التذکیر و العظه فذکر کما کنت تذکر فإن الذکری تنفع المؤمنین بخلاف الاحتجاج و الجدال مع أولئک الطاغین فإنه لا ینفعهم شیئا و لا یزیدهم إلا طغیانا و کفرا.

قوله تعالی:« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ »فیه التفات من سیاق التکلم بالغیر إلی التکلم وحده لأن الأفعال المذکوره سابقا المنسوبه إلیه تعالی کالخلق و إرسال الرسل و إنزال العذاب کل ذلک مما یقبل توسیط الوسائط کالملائکه و سائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق و الإیجاد فإنه أمر یختص بالله سبحانه لا یشارکه فیه أحد.

و قوله:« إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ »استثناء من النفی لا ریب فی ظهوره فی أن للخلقه غرضا و أن الغرض العباده بمعنی کونهم عابدین لله لا کونه معبودا فقد قال:لیعبدون و لم یقل:

لأعبد أو لأکون معبودا لهم.

علی أن الغرض کیفما کان أمر یستکمل به صاحب الغرض و یرتفع به حاجته و الله سبحانه لا نقص فیه و لا حاجه له حتی یستکمل به و یرتفع به حاجته،و من جهه أخری الفعل الذی لا ینتهی إلی غرض لفاعله لغو سفهی و یستنتج منه أن له سبحانه فی فعله غرضا هو ذاته لا غرض خارج منه،و أن لفعله غرضا یعود إلی نفس الفعل (۱)و هو کمال للفعل لا لفاعله،فالعباده غرض لخلقه الإنسان و کمال عائد إلیه هی و ما یتبعها من الآثار کالرحمه و المغفره و غیر ذلک،و لو کان للعباده غرض کالمعرفه الحاصله بها و الخلوص لله کان هو الغرض الأقصی و العباده غرضا متوسطا.

فإن قلت:ما ذکرته من حمل اللام فی« لِيَعْبُدُونِ »علی الغرض یعارضه قوله تعالی: «لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ» :هود:۱۱۹،و قوله:

«وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» :الأعراف:۱۷۹،فإن ظاهر الآیه الأولی کون الغرض من الخلقه الاختلاف،و ظاهر الثانیه کون الغرض من خلق کثیر من الجن و الإنس دخول جهنم فلا محیص عن رفع الید من حمل اللام علی الغرض و حملها علی الغایه.

قلت:أما الآیه الأولی فالإشاره فیها إلی الرحمه دون الاختلاف،و أما الآیه

۱- ۱) فالله تعالی خلق الإنسان لیثیبه و الثواب عائد إلی الإنسان و هو المنتفع و هو المنتفع به و الله غنی عنه،و أما غرضه تعالی فهو ذاته المتعالیه و إنما خلقه لأنه الله عز اسمه.منه.

الثانيه فاللام فيها للغرض لكنه غرض تبعى و بالقصد الثانى لا غرض أصلى و بالقصد الأول و قد تقدم إشباع الكلام فى تفسير الآيتين.

فإن قلت:لو كان اللام فى« لِيَعْبُدُونِ »للغرض كانت العباده غرضه تعالى المراد من الخلقه،و من المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عيانا أن كثيرا منهم لا يعبدونه تعالى و هذا نعم الدليل على أن اللام فى الآيه ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعباده العباده التكوينيه كما فى قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» :إسراء:۴۴.

أو أن المراد بخلقهم للعباده خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوى اختيار و عقل و استطاعه،و تنزيل الصلاحيه و الاستعداد منزله الفعليه مجاز شائع كما يقال:خلق البقر للحرث،و الدار للسكنى.

قلت:الإشكال مبنى على كون اللام فى الجن و الإنس للاستغراق فيكون تخلف الغرض فى بعض الأفراد منافيا له و تخلفا من الغرض،و الظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العباده فى النوع فى الجمله تحقق للغرض لا يضره تخلفه فى بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العباده عن جميع الأفراد كان ذلك بطلانا للغرض،و لله سبحانه فى النوع غرض كما أن له فى الفرد غرضا.

و أما حمل العباده على العباده التكوينيه فيضعفه أنها شأن عامه المخلوقات لا موجب لتخصيصه بالجن و الإنس مضافا إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عباده الله التشريعيه و تهديدهم على إنكار البعث و الحساب و الجزاء و ذلك متعلق بالعباده التشريعيه دون التكوينيه.

و أما حمل العباده على الصلوح و الاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن و الإنس كونهما بحيث يصلحان للعباده و يستعدان لها أو لتعلق الأمر و النهى العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح و الاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعليه التى يتعلق به الصلوح و الاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعباده أو لتعلق الأمر و النهى العباديين فقد تعلق الغرض أولا بفعليه عبادتهما ثم بالصلوح و الاستعداد لمكان المقدميه.

ففی حمل العباده علی الصلوح و الاستعداد اعتراف بکون الغرض من الخلق أولا و بالذات نفس العباده ثم الصلوح و الاستعداد فیعود الإشکال لو کان هناک إشکال.

فالحق أن اللام فی« اَلْجِنَّ وَ الْإِنْسَ »للجنس دون الاستغراق،و المراد بالعباده نفسها دون الصلوح و الاستعداد،و لو کان المراد هو الصلوح و الاستعداد للعباده لکان ذلک غرضا أدنی مطلوبا لأجل غرض أعلی هو العباده کما أن نفس العباده بمعنی ما یأتی به العبد من الأعمال بالجوارح من قیام و رکوع و سجود و نحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بین یدی رب العالمین بذله العبودیه و فقر المملوکیه المحضه قبال العزه المطلقه و الغنی المحض کما ربما استفید من قوله تعالی: «قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ» :الفرقان:۷۷،حیث بدل العباده دعاء.

فحقیقه العباده نصب العبد نفسه فی مقام الذله و العبودیه و توجیه وجهه إلی مقام ربه،و هذا هو مراد من فسر العباده بالمعرفه یعنی المعرفه الحاصله بالعباده.

فحقیقه العباده هی الغرض الأقصی من الخلقه و هی أن ینقطع العبد عن نفسه و عن کل شیء و یذکر ربه.

هذا ما یعطیه التدبر فی قوله تعالی:« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ » و لعل تقدیم الجن علی الإنس لسبق خلقهم علی خلق الإنس قال تعالی: «وَ الْجَانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ السَّمُومِ» :الحجر:۲۷،و العباده هی غرض الفعل أی کمال عائد إلیه لا إلی الفاعل علی ما تقدم.

و یظهر من القصر فی الآیه بالنفی و الاستثناء أن لا عنایه لله بمن لا یعبده کما یفیده أیضا قوله:« قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ ».

قوله تعالی:« مٰا أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ » الإطعام إعطاء الطعام لیطعم و یؤکل قال تعالی: «وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ» :الشعراء:۷۹،و قال:

«الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» :الإیلاف:۴،فیکون ذکر الإطعام بعد الرزق من قبیل ذکر الخاص بعد العام لتعلق عنایه خاصه به و هی أن التغذی أوسع حوائج الإنسان و غیره و أخسها لکونه مسبوقا بالجوع و ملحوقا بالدفع.

و قیل:المراد بالرزق رزق العباد و المعنی:ما أرید منهم أن یرزقوا عبادی الذین أرزقهم و ما أرید أن یطعمونی نفسی.

و قیل:المراد بالإطعام تقدیم الطعام إلیه کما یقدم العبد الطعام إلی سیده و الخادم إلی مخدومه فیکون المراد بالرزق تحصیل أصل الرزق و بالإطعام تقدیم ما حصلوه و المعنی:ما أرید منهم رزقا یحصلونه لی فأرتزق به و ما أرید منهم أن یقدموا إلی ما ارتزق به و أطعمه.

قوله تعالی:« إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِینُ »تعلیل لقوله:« مٰا أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ »إلخ،و الالتفات فی الآیه من التکلم وحده إلی الغیبه لإنهاء التعلیل إلی اسم الجلاله الذی منه یبتدئ کل شیء و إلیه یرجع کأنه قال:ما أرید منهم رزقا لأنی أنا الرزاق لأنی أنا الله تبارک اسمه.

و التعبیر بالرزاق-اسم مبالغه-و کان الظاهر أن یقال:إن الله هو الرزاق للإشاره إلی أنه تعالی إذا کان رازقا وحده کان رزاقا لکثره من یرزقه فالآیه نظیر قوله:« وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ ».

و ذو القوه من أسمائه تعالی بمعنی القوی لکنه أبلغ من القوی،و المتین أیضا من أسمائه تعالی بمعنی القوی.

و التعبیر بالأسماء الثلاثه للدلاله علی انحصار الرزق فیه تعالی و أنه لا یأخذه ضعف فی إیصال الرزق إلی المرتزقین علی کثرتهم.

قوله تعالی:« فَإِنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحٰابِهِمْ فَلاٰ یَسْتَعْجِلُونِ » الذنوب النصیب،و الاستعجال طلب العجله و الحث علیها،و الآیه متفرعه علی قوله:

« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ »بلازم معناه.

و المعنی:فإذا کان هؤلاء الظالمون لا یعبدون الله و لا عنایه له بهم و لا سعاده من قبله تشملهم فإن لهم نصیبا من العذاب مثل نصیب أصحابهم من الأمم الماضیه الهالکه فلا یطلبوا منی أن أعجل لهم العذاب و لا یقولوا متی هذا الوعد إن کنتم صادقین، و أیان یوم الدین.

و فی الآیه التفات من الغیبه إلی التکلم وحده و هو فی الحقیقه رجوع من سیاق الغیبه الذی فی قوله:« إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ »إلخ،إلی التکلم وحده الذی فی قوله:

« وَ مٰا خَلَقْتُ »إلخ،لتفرع الکلام علیه.

قوله تعالی:« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ »تفریع علی قوله:

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً »إلخ،و تنبیه علی أن هذا الذنوب محقق لهم یوم القیامه و إن أمکن أن یجعل لهم بعضه،و هو یوم لیس لهم فیه إلا الویل و الهلاک و هو یومهم الموعود.

و فی تبدیل قوله فی الآیه السابقه لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من قوله فی هذه الآیه:« لِلَّذِينَ كَفَرُوا »تنبیه علی أن المراد بالظلم ظلم الکفر.

بحث روائی

فی المجمع،و روی بالإسناد عن مجاهد قال: خرج علی بن أبی طالب معتما مشتملا فی قمیصه-فقال:لما نزلت« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ »لم یبق أحد منا إلا-أیقن بالهلکه-حین قیل للنبی:« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ »فلما نزل« وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »طابت نفوسنا،و معناه:عظ بالقرآن من آمن من قومک-فإن الذکری تنفعهم:.عن الکلبی.

أقول:و رواه فی الدر المنثور،و روی أیضا ما فی معناه عن ابن راهویه و ابن مردویه عنه(ع): .

و فی التوحید،بإسناده عن ابن أبی عمیر قال*: قلت لأبی الحسن موسی بن جعفر (ع):ما معنی قول رسول الله ص:اعملوا-فکل میسر لما خلق له؟فقال:

إن الله عز و جل خلق الجن و الإنس لیعبدوه-و لم یخلقهم لیعصوه و ذلک قوله عز و جل:

« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ »فیسر کلا لما خلق له-فویل لمن استحب العمی علی الهدی.

و فی العلل،بإسناده إلی أبی عبد الله(ع)قال: خرج الحسین بن علی(ع)علی أصحابه فقال:إن الله عز و جل ما خلق العباد إلا لیعرفوه،فإذا عرفوه عبدوه،فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عباده من سواه.

و فیه،بإسناده إلی أبی بصیر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:

« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ »قال:خلقهم لیأمرهم بالعباده.

أقول:و روى القمي في تفسيره،:مثله مرسلا و مضمرا

،و قد مر في تفسير الآيه ما يتضح به معنى هذه الروايات،و أن هناك أغراضا مترتبه:التكليف و العباده و المعرفه.

و في تفسير العياشي،عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله(ع)قال*: سألته عن قول الله:« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ »قال:خلقهم للعباده.قال:

قلت:قوله:« وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ - إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ »فقال:نزلت هذه بعد ذلك.

أقول:أي نزلت« وَ لاٰ يَزٰالُونَ »إلخ،بعد« وَ مٰا خَلَقْتُ »إلخ،يريد النسخ، و في تفسير القمي:و في حديث آخر هي منسوخه بقوله:« وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ »و المراد بالنسخ البيان و رفع الإبهام دون النسخ المصطلح،و كثيرا ما ورد بهذا المعنى في كلامهم (ع)كما أشرنا إليه في تفسير قوله تعالى: «مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهٰا» Xالآيه X البقره:١٠٦.

و المراد أن الغرض الأعلى هو الرحمه الخاصه المترتبه على العباده و هي السعاده الخاصه بالمعرفه.

و في التهذيب،بإسناده إلى سدير قال: قلت لأبي عبد الله(ع):أي شيء على الرجل في طلب الرزق؟فقال:إذا فتحت بابك و بسطت بساطك-فقد قضيت ما عليك.

تم و الحمد لله.

ص :٣٩١

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ۹

المقدمة:
تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراکز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلکترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.
وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام
تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة
تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات
توسیع عام لفکرة المطالعة
تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الکترونیة

السیاسات:
مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة
الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة
العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات
من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:
طبع الکتب والملزمات والدوريات
إقامة المسابقات فی مطالعة الکتب
إقامة المعارض الالکترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية
إنتاج الأفلام الکرتونية والألعاب الکمبيوترية
افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com
إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...
الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها
تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب کيوسک kiosk، الرسالة القصيرة ((sms
إقامة الدورات التعليمية الالکترونية لعموم الناس
إقامة الدورات الالکترونية لتدريب المعلمين
إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛
١.JAVA
٢.ANDROID
٣.EPUB
٤.CHM
٥.PDF
٦.HTML
٧.CHM
٨.GHB
إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية
١.ANDROID
٢.IOS
٣.WINDOWS PHONE
۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزی
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزی ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥
هاتف المكتب فی طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١
قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.